C١٧٨٧
PPG

أثر العلمانية في المجتمعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين محمد المصطفى الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين .

وبعد :

ظلت البشرية قبل مجيء الاسلام دهورًا طويلة ،ترسف فى قيود من العمى والضلالة ، والظلم والعبودية ... وتعيش فى أجواء داكنة من المعتقدات الفاسدة ، والمذاهب الباطلة التى فرضتها البيئة والجهالة ، والقوة الباغية ماحال بين العقل الانسانى وبين الفكرة السليمة ، والرأى السديد ، وما جرد القلوب من الرحمة ، والوجدان من الشعور المرهف ، والعاطفة النبيلة ،حتى تكئت البلادة من العقول ، والقساوة من النفوس ، وصار الناس كالأنعام أو أضل يخضعون لحاكم مستبد ، أو كاهن ماكر ، أو هوى مطاع ...

وعالم هذا شأنه تعز فيه قولة الحق ، وتخبو فيه الحقيقة ، وتضيع فيه القيم والمثل العليا ... فهو بالغابة أشبه وبالبهيمية ألصق ، ولا علاقة له بالانسانية للمتحابة المتعاونة ...

وكانت السماء دومًا هى التى ترحم هذا العالم ، وتجيب ضعفاءه وتنصر مظلوميه ، فتبعث بالنبوات والرسالات مشاعل تنير الطريق أمام الانسانية لتتبوأ مكانتها فى حياة التقدم والتحضر ...

بيد أن العالم ما يلبث أن ينتكس ويعود سيرته الأولى ، بفعل تحكم الشهوات والمطامع الخبيثة والمادية المنتنة والافتتان بالمتع الرخيصة والملذات الفانية ..

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات - قسم الإعارات
الخاص
التاريخ / / ١٤هـ

ويزداد الأمر سوءا ، والحياة فوضى وهمجية ، فى قرون ما قبل الاسلام ، حيث الكهانات الفارسية تتغفل عقول الآدميين وتسوق الناس قطعاناً إلى معابد من الوهم والخداع ، وإلى حيث يركعون تحت أقدام الأكاسرة الذين أجرى فى عروقهم كهنة فارس دماء الآلهة ـ كما يقولون ـ فاستحالوا إلى شخوص مقدسة ، فى زعمهم ، تعمل ما تشاء دون رقيب أو حسيب ، فتنتهك الأعراض وتسلب الأموال وتحكم بالجبروت والقهر ، وما ظنك بأمة ينذو رؤساؤها فيها على بناتهم واخواتهم ، ويسفكون الدماء أنهاراً ويرهقون الشعب عند جمع الضرائب من الفقراء المساكين . . . .

ولم تكن كهانة الصليب الرومانى بأقل جرماً واستبداداً من كهانة النار الفارسية ، فلقد مزق الرومان شمل البشرية ، وملؤها مذاهب متضاربة وآراء متناقضة حول العقيدة الدينية ، فبلبلت الأفكار وزعزعت النفوس ، وجعلت الناس فى حيرة وشك . .

كما سام الرومان الناس سوء العذاب وشكلوا بالأبرياء ، وكموا الأفواه وحجروا على الحريات ، والويل لمن يعترض رأياً لهم ، فيعذب أشد العذاب ، أو يلقى فى اليم مكتوفاً ، أو يدهن جسمة بالقار وتشعل فيه النار ليكون مشعلاً يضىء الطريق لحكام الرومان . . .

وكانت الآدمية تحتقر فى الجزيرة العربية ، والانسان صاحب العقل لا يجد أى غضاضة فى أن يعبد لحجر أو لتمثال من الحلوى يأكله إذا جاع . . ولا يحس بأدنى رحمة وهو يدفن ابنته حية .

تحت الترابه ،وهـى تميط الأذى عن لحيته .. وهو لا يرى بأسا فى الإغـارة على أسرة آمنة أو جماعة مسالمة أو قبيلة ضعيفة ،ويسلبها حريتها ويدنـس شـرفها ، ويقتل رجالها ويسـتعبد أبنائها ...

كان هذا هو الوجود فى قرون ماقبل الاسلام شـرقاً وغرباً ،شمـالاً وجنوباً ... وجود خلا من مقوم للحياة الطيبة ... خلا من القيادة الرحيمة والعقيدة السليمة الصحيحة ، والعلم النافع ، والخلق الفاضل والتوجيـــه السديد ... مما أحال نهاره ليلاً عاصفاً مرعداً .. وجعل ليله أســـود داكناً ، أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ...

فهل تقفل السماء أبوابها بعد ذلك فى وجوه الحيارى والمستضعفين وهل ترد دعوات المظلومين والمستعبدين ؟

كلا ، فما كان مالك الوجود ، ومبدع الكائنات إلا رحيماً بعبـــاده مجيباً دعوة الداعى إذا دعاه ...

ويبزغ الفجر المشرق ليمزق الظلام الذى خيم على الدنيا كلهـــا قروناً طويلة ... وينزل جبريل الأمين ، على محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه ،بالاسلام ديناً وبالقرآن دستوراً ، وبسنته أسوة حسنة وقـــدوة صالحة .. نزل عليه بالدين الخاتم ((إن الدين عند الله الاسلام)) (١) الذى نسخ جميع الأديان ((ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهـــو فى الآخرة من الخاسرين)) (٢)

وعلت كلمة التوحيد على كلمات الشرك والوثنية ((وعنـــت الوجـوه

---

(١) آل عمران آيـة ١٩ .

(٢) " " " ٨٥ .

للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما)) (١) ، وانتكست رايات الوثنية وتحطمت معاقل الظلم ،ورفع الإسلام هامات كانت تذل لحجر لا ينفع ولا يضر ليتوجه بها إلى مالك الملك الذى أحاط بكل شىء علمًا . .

ولأول وهلة فى تاريخ البشرية يعاد للانسان رشده الحقيقى ،بعد أن سلبته إياه كهانات النار والصليب والاصنام ، فيعى الحق واضحًا ويشهده صريحًا ، ويتصل بالله دون وسيط أو كاهن ،فهو وحده تعالى صاحب العفو والمغفرة ويبصر الانسان حقه فى حياة الحرية والانسانية ،

وجاء الاسلام دينًا خاتمًا عامًا للبشرية كلها حتى تلقى الله يوم القيامة ((قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا)) الآية (٢) .

وما كان لدين خاتم إلا أن تكون له شريعة يستظل الناس بظلها وينعمون بعدالتها ، ورحمتها وحرصها الشديد على توفير كل ما يصلح أمرها . .

وما كانت شريعة الدين الخاتم إلا أن تكون كاملة مستوعبة ، تؤلف الدواء الناجع ، والعلاج الشامل لشتى أدواء البشرية فى سائر العصور ،وترسم أفضل السبل لنهوضها وتقدمها فى ركب الحضارة على مدى العمر كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

فهو دين الله الذى ارتضاه لعباده منهجا لهم فى معاملتهم لله سبحانه ،وفى معاملتهم لأنفسهم وفى معاملتهم لغيرهم ، وهذا هو معنى أنه دين شريعة ،أى أنه لم يجىء لبيان معاملة الانسان ربه وكفى ، والإيمان به وتوحيده وعدم الإشراك به وعبادته والاستعداد للقائه ،

---

(١) طه آية ١١١ .

(٢) الاعراف آية ١٥٨ .

فليس هذا فحسب ، وإنما جاء لينظم مع ذلك حياة الإنسان في كل جانب ، في مأكله ومشربه ، ومسكنه ، وأسرته ، وعلاقاته مع نفسه ومع غيره من البشرية والكائنات ، الأخرى ، هادفاً من وراء ذلك إلى تحقيق الحياة الفضلى في جوانبها المتعددة ، خلقية وعلمية واجتماعية واقتصادية وسياسية . . . الخ

يستنزل ولو لم يكن كذلك لكفاه بضع صفحات من المواعظ والحكم بها دموع الإنسان في محراب العبادة وكفى ؛وما كان هناك داع لكتاب ينزل في ثلاثة وعشرين عاماً يحمل بين طياته كل ما تحتاجه البشرية من أسمى التوجيهات وأكمل النظم التي ترسم له الحياة الطيبة

((وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . . .)) الاية (١)

وإذا كان كذلك فلابد أن يأتي منظماً لهذه الحياة وإلاّ كان مجيئه عبثاً ولغواً ، فتنظيم الحياة في شتى إتجاهاتها يحتاج إلى راع يرعاها وحاكم ينظم أمورها ، وهو الجانب السياسي والحكومي في الاسلام.

فليس الاسلام مجرداً إذاً عن السياسة ، وليست السياسة في قمة عدالتها ونظامها وقوتها إلاّ من الاسلام ،وهي تسوس الناس بالعدل والرحمة والشورى : ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفوا عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)) (٢)

---

(١) المائدة آية ٤٨.

(٢) آل عمران آية ١٥٩.

ولم يرتق دين من الأديان أو مذهب من المذاهب قديمًا وحديثًا مثلما ارتقى الاسلام بالإنسان ... فهو خليفة الله في أرضه ، وهو المنعم عليه بنعمة العقل الذى يميز به بين الحق والباطل والنافع والضار وهو المالك لكل أسباب تحصيل العلم، وأسباب سعادته وشقائه : ((ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ..))(١)

لذلك ،لم يوازن دين من الأديان ،ولا مذهب من المذاهب قديمًا وحديثًا بين شقي الحياة ، المادى والروحى مثلما وازن الاسلام، حيث جعل للدنيا نصيبًا وللآخرة نصيبًا، فهو يرفض التنسك الذى تضيع معه حقوق النفس والناس لتحقيق الحياة الطيبة ، ويرفض الانسلاخ من العمل فى التجارة أو الزراعة أوالتعليم أو .. أو .. والانقطاع إلى المساجد وتحريم ما أحل الله من الطيبات .. ((يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ..))(٢) .

((قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبادة والطيبات من الزرق ..))(٣) كما يرفض المتع والملذات التى تبعد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمقت المادة المظلمة التى لا مكان فيها لقيمة أو فضيلة أو خلق : ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا ...)) (٤)

ويسمو الاسلام بالإنسان ، وهو يحمله وزر نفسه وأعباء أخطائه مسئول عن كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ،ولا يتحمل غيره عنه وزره ، وليس له إلا ما سعى ،فليس هناك من يشاركه .

---

(١) الشمس آيات ٨ - ١٠ .
(٢) المؤمنون آية ٥١
(٣) الأعراف آية ٣٢
(٤) القصص آية ٧٧ .

آثامه وأوزاره ، أو من يحملها عنه ، أو من يكفرها له من البشر كائناً من كان ، كما هو موجود فى الأديان الاخرى المزيفة ؛ وهذا تقدير من الاسلام للانسان ؛ إذ أن الانسان جدير بذلك ؛ فليس طفلاً يحمل ويدلل ،وإنما هو كائن خلق ليكدح ويساهم فى بناء الحياة على النحو المنشود : ((ألاّ تزرو وازرة اخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)) (١)

ويرسى الاسلام فى المجتمع كل مقومات النمو والتقدم . . . فالعلم وطلبه والحث عليه . . . لم يحفل بذلك دين ولا مذهب غير الاسلام . . ذلك الدين الذى جعل معجزة نبيه الكبرى قرآناً يتلى ويقرأ ويتدبر ، وفيه يقول الله ،جل شأنه : ((قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)) (٢) ، ويقول فيه : ((إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)) (٣)

والعمل ركن أساسى من أركان الاسلام ،بل هو أحد شقى الاسلام ، وهما الإيمان والعمل الصالح .

والأخلاق أحد ركائز الاسلام ، فالحب والإخاء ، والتعاون والمحافظة على العهد والمواثيق والرحمة والإيثار والشجاعة والتضحية والجود والنبل . . . كلها ركائز إسلامية فى بناء النظام الخلقى الذى جاء به الاسلام : ((يابنى أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)) (١)

---

(١) النجم آيات ٣٨ — ٤١ .
(٢) الزمر آية ٩ .
(٣) فاطر آية ٢٨ .
(٤) لقمان آيات ١٧ — ١٩ .

وانتشر الاسلام فى الأرض بروعة مبادئه وقوة نظمه وجهاد دعاته وأخلاقهم ، وتكونت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ،وتتخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة دستوراً ومنهاجاً ، فلا تتحكم إلا إلى الله ولا تتعامل الا بشريعته الغراء ، فمكن الله لها خير تمكين ،ونصرها نصراً مؤزراً : ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)) (١) .

وصارت أمة الاسلام رائدة ومعلمة ، تستقبل مدارسها وجامعاتها فى بغداد وقرطبه وصقلية وشمال أفريقيا . . . وغيرها ، طلاب العلم من شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها من شتى الأجناس والشعوب ، كما برع أبناؤها فى البحث والدراسة والأختراع والأكتشاف فى مختلف ضروب العلم والثقافة والفن ، فبهروا العالم بإنتاجهم وذكائهم وعلومهم ، فقدموا للبشرية كلها حضارة لولاها ما وصلت المدنية الحديثة فى جوانب الأختراع والكشف إلى ما وصلت إليه . . .

---

(١) النور آية ٥٥ .

ولو لا ما حل بهذه الأمة من أحداث وفتن وخلافات مذهبية عقدية .. وسياسية .. على مستوى الأفراد والجماعات والحكومات ، أعدها أعداؤها من شعوبيين ويهود وصليبيين ..

لولا هذا وغيره من العوامل الكثيرة ، لما حل بهذه الأمة ما حل بها من الهوان والذلة ، والتأخر والضعف ، ولما طردت من الأندلس ، التي نسيها المسلمون اليوم ، ولما انتصرت عليها الصليبية الحاقدة في ثوب الاستعمار الغربي ، لما اقتطعت منها أجزاء كبيرة من أراضيها ضمتها روسيا والصين إليهما ، ولما طرد عرب فلسطين بفعل عصابة يهودية يساعدها الاستعمار الانجليزي أولا ثم الأمريكي ثانياً ...

على أنه مهما كانت هذه الأحداث التي تعرضت لها الأمة الاسلامية في ماضيها البعيد والقريب وفي حاضرها ، فإنها ما كانت لتصل بها إلى ما وصلت إليه من الضعف المزري ، لو لم يكن رؤساؤها والقائمون على أمرها ضعفاء الإيمان أو علمانيين يفصلون الدين عن الحياة ، ويحكمون الناس بقوانين الغرب ودساتيره .

ولقد كان الاستعمار الأوربي هو الحدث الخطير الذي أصاب الأمة الاسلامية في القرون الأخيرة ، ولم تكن خطورته في احتلاله الأرض ، ونهب خيرات المسلمين ، واستخدام بلادهم في كل ما يعود عليه بالنفع وعليهم بالضرر ، ليس ذلك ،

فحسب وإنما كانت خطورته مع ما تقدم فى احتلاله للعقول والأفكار واستعمار للانسان فى جانبيه الفكرى والروحى ، بنشر مذاهبه وأفكاره وآرائه ،وكلها مناقضة لآراء المسلمين وأفكارهم ،من قومية واشتراكية وتطورية وتقدمية وحرية وقد انطوت كلها فى ((كرش الفيل)) العلمانية .

وقد أثرت هذه المفاهيم فى المحيط الاسلامى تأثيرًا كبيرًا فى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين ،ومن هذا فرقتهم وتعصب بعضهم لبعض ، وحرب بعضهم بعضًا وانسلاخ أكثريتهم من الدين سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا ...

بيد أنه لم تكن تلك المفاهيم المنحرفة ولا غيرها ولا ماهو أشد منها لتحدث أثرها السيء لو لم توجد العلمانية . فالعلمانية هى الأصل فى كل بلية ،وهى السبب فى تمكين هذه المفاهيم فى المجتمع الاسلامى .

والتاريخ والواقع ليدلان بصدق على أنه كلما صلح الحاكم وتدين صلح المحكوم ،والعكس بالعكس . ولا ينكر أحد أن غالبية حكام المسلمين اليوم علمانيون لا يحكمون الدين فى الدنيا ولا يطبقون شرع الله فى عباده .

ومن هنا فإن العلمانية هى الداء الوبيل الذى ينتشر فى شتى بقاع العالم الاسلامى ،ولو ترك وشأنه دون القضاء عليه لاستفحل أمره وقضى على الاسلام والمسلمين .

وأنا إذ أقسم بالله غير حانث ،على أنه لو كان حكام المسلمين غير علمانيين .. ولو كانوا يطبقون الشريعة الاسلامية فى كل شئون حياتهم ومجتمعاتهم .. لوكانوا كذلك ،لما كان حال العالم الاسلامى اليوم كما نراه .. ولما كانت هناك إسرائيل .. ولما ضاع بيت المقدس .. ولكنهم ابتعدوا عن حكم الله .. فأصابهم ما أصابهم بما كسبت أيديهم .. فإن عادوا للاسلام عاد لهم مجدهم الذى مضى مع أسلافهم الذين مضوا ...

وإذا استنطقنا التاريخ بعيداً أو قريباً عن سبب ضعف المسلمين وتأخرهم ؛ لقال فى صدق وقوة ، إن حكام المسلمين على رأس هذه الأسباب ، وسيرة معظم خلفاء المسلمين بعد عصر الراشدين خير شاهد على ما نقول، فالقتل والحسد والمؤمرات والغدر والخيانة وضعف الشخصية والتعصب وشهوة الحكم والجهل بالدين ... كلها لم تكن سوى مؤهلات الغالبية هؤلاء الخلفاء والحكام والولاة ، مما أدى إلى زوال الخلافة وعدم تمكنها من مواصلة المسيرة الحضارية التى نهض بها عمر بن عبد العزيز وارتقى بها المنصور والرشيد والمأمون .. ثم ما لبثت أن توقفت بفعل العوامل السابقة وكثرة الفتن والدويلات المتناحرة، والفرق المنحرفة ، مما أعجزها عن مواصلة الانتصارات ضد المغول ، والصليبيين الذين بعثروا التراث الاسلامى فى بغداد وألقوا به فى دجلة والفرات ، الذين طردوا وأبادوا المسلمين فى الأندلس على أبشع وأقبح صورة تقشعر لها الجلود ويشيب لهولها الولدان .

إن خلو المجتمعات الاسلامية من القيادة الرشيدة والولاية المؤمنة المجاهدة ، هو السبب الأول فى كل ما أصاب المسلمين ..

وإلاّ فلماذا كانت عهود الصديق والفاروق وغيرهما من الخلفاء العدول الحريصين على تحكيم الاسلام فى الأمة الاسلامية كانت عهود قوة ونهضة وأمجاد للاسلام والمسلمين .

فإذا القينا نظرة خاطفة على الحاضر وجدنا أن مذاهب الغرب وأفكاره الفاسدة التى عملت على ،

نهش جسم الأمة وتدمير قوتها لم تدخل محيط المسلمين ولم تنم ولم تثمر ثمارها المرجوة عند اعداء الاسلام إلا فى عهود ضعف المسلمين وابتعاد حكامهم عن التحلى بآداب الاسلام والحرص على تطبيق شريعته فى كل اتجاه .

وهل يجوز لحاكم مسلم أن يتهاون فى دخول الإلحاد الشيوعى فى بلده ، إلاّ أن يكون هذا الحاكم جاهلاً بالاسلام لأنه تربى وتثقف بتربية الغرب وثقافته ، فنشأ على عداوة الاسلام ونبذ قوانينه والعمل على تطبيق شرائع الشر فى بلاده؟

ولو أن هذا الحاكم ينفذ أمر الله فى نفسه وفى محكومية أكان يمكن لمثل هذه النظم الفاسدة والأفكار الدخيلة الملعونة أن تجد لها سوقاً رائجة فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ؟

كلا وألف كلا . . .

ولكن هؤلاء الموجهين والحكام يناصبون الاسلام العداء ويفخرون بذلك أمام القوة المتحكمة فى العالم تقربا إليها حتى تأمن خروجها من جاه السلطة والحكم .

العلمانية إذاً هى السبب فى كل بلاء وإقصاء الدين . كلاً أو بعضاً ، هو على رأس عوامل تأخر المسلمين وهلاكهم ، لا قدر الله .

من هنا يمت وجهى نحو دراسة العلمانية لأخدم بهذه الدراسة دينى وأهلى أمة الاسلام المجيدة .

ولا أزعم أن هذه الدراسة محيطة بجوانب كل هـــذا الموضوع ، إنما هى محاولة منى فى هذا الميدان الواسع الـــذى يدخل فى كل ناحية ، وأرجو الله أن يوفقنى للاستزادة مـــن هذه الدراسة ، ويوفق زملائى وأساتذتى من العلماء والباحثين للتركيز على هذا الموضوع دراسة وتأليفًا وتخصصًا .

وأعتقد أنه بهذه الدراسة سيبرز رأى عام إسلامى علمـــى ضد العلمانية ، وحينذاك سوف يعود للاسلام مجده ولأمة الاسـلام تمكينها وريادتها ، عندما يصير بغض العلمانية فى قلب كل مسلم .

وبذلـــك المنهج الذى سلكته فى هذه الدراسة وبمـــا توصلت اليه من نتائج ذات قيمة كبيرة فى حياة المجتمعـــات الاسلامية . . وبما توفر لدى من مراجع كثيرة وقيمة بعضهـــا يعد وثائقًا فى الموضوع . . . وبما وجدته خلال سيرى فـــى البحث من عناء ومشقة كلما غصت فى مداخل الكتب أستخرج ما فى بطونها من كنوز وخبايا . . . سـتثرا الأحداث مقلبـــًا صفحاتها . . حتى لأظل الشهور أبحث وراء حقيقة واحدة كـــى أجلو عن أمرها حتى ينقاد صعبها ويلين مرونها . . .

بذلك كله وغيره مما لم أذكره أعتقد أننى قد وفقنى اللـه أن أخرج هذه الرسالة على نحو جديد وبحث فريد . . . سائلاً الله أن ينفع به المسلمين وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريـــم وأن يثيبنى عليه ومن ساعدنى ، الثواب الجزيل الذى ندخـــل به جنات الرضـــوان . . .

منهج البحث :

ولقد سلكت فى معالجتى لمواضيع هذا البحث المنهج العلمى الاستقرائى ، الذى يعتمد على عنصرى التحليل والتركيب ، حيث ساعدنى هذا المنهج فى تتبع الحادثة والوقوف عندها طويلاً متأملاً لها مقلباً جوانبها طارقاً كل احتمالاتها التى ترد عليها ، محللاً لها إلى عناصرها الأولية حتى تستبين أمامى واضحة جلية ... ثم بعد ذلك أؤلف بين تلك الجزئيات أو تلك العناصر ... حتى تغدو الفكرة أو الحادثة جلية ناصعة ... وعلى هذا قام العمل الهيكلى للرسالة وبنيت على أساسه أطرها العامة ...

وقد اتبعت هذا المنهج فى عمل الأقواس والفواصل والفقرات تسهيلاً على القارىء وإخراجاً للرسالة فى ثوب علمى رصين ... فمثلاً إذا نقلت كلاماً نقلاً حرفياً فإننى أضعه بين قوسين هكذا ((....)) وإذا كان الكلام الذى نقلته هو كذلك منقول بدوره فإننى أنقل أقواسه ثم أجعل قوسين كبيرين خارجه - غالباً - دلالة على أنه نقل النقل : هكذا [((....))]

أما بالنسبة لذكر المراجع فإننى أذكر أولا اسم الكتاب ثم أتلوه باسم المؤلف فرقم الصفحة فجهة النشر أو المطبعة ثم عدد الطبقات فالتاريخ ... والأخير أجعله بين قوسين هكذا مثلاً (١٤٠٠ هـ)

أما الكلام الذى أتصرف فيه فإننى أكتفى بالإشارة إلى مرجعه فقط وقد أذكر الصفحة وقد لا أنكرها ، لأن الفكرة قد تكون مأخوذة من عدة صفحات من الكتاب مما يتعذر معه تعدادها كلها .

أما المراجع التى أشير إليها فى الحاشية فإننى عندما أذكر المرجع لأول وهلة أكتب كل ما حوله ، اسمه واسم المؤلف وعدد الطبعات والتواريخ .. أما بعد ذلك فإننى أكتفى بالإشارة إليه فقط، وقد لا أذكر اسم المؤلف أو أذكره أحيانًا فهو غير الغالب ، وإذا استعملت أكثر من طبعة للكتاب فإننى أشير إليه بالكامل عند اختلاف الطبعة .

وعليه ، فقد قمت بتقسيم هذا البحث ((أثر العلمانية فى المجتمعات الاسلامية)) إلى سبعة أبواب صدرتها بفصل تمهيدى تحدثت فيه :

أولا : عن معانى العلمانية فى اللسان الغربى ، حيث المصدر الذى أتتنا منه ، وهنا وجدت أن كل معانيها تدور حول مناقضة الدين وموافقة الإلحاد ...

ثانيًا : تناولت العلمانية فى اللسان العربى ، فتحصل لى أنها من العَلْم - بفتح العين وسكون اللام - الذى هو بمعنى الدهر أى العالَم .. حيث أن العلمانى هو الدهرى أى أن العلمانية نظام دنيوى لا علاقة له بالآخرة أو الدين . وأن نسبتها إلى العلم - بالكسر - للتضليل والخداع فقط...

أما الباب الأول فهو ظهور العلمانية:

وقد قسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول الكنيسة ومصادرها وعقائدها وشعائرها ...

وقد صدرته بنبذة عن النصرانية ثم تحدثت فيها عن مصادر النصرانية ، التوراة وأسفارها وما اعتراها من تحريف والأناجيل وما دخلها من تبديل وما فيها من تناقض،

موردًا شواهد على ذلك .. ثم تطرقت إلى عقائد النصرانية من ألوهية وتثليث وغيرها .. وكذلك بعض الشعائر الكنسية..
أما الفصل الثانى من هذا الباب، فقد كان عن أعمال الكنيسة، التى تطرقت فيها إلى الاعتراف والخلوة وما فيهما من مناكر ثم قرارات الحرمان التى كان قبلها صكوك الغفران التى كانت جائزًا للجريمة .. ثم تحدثت عن عصمة البابا وعصمة الكنيسة قبل ذلك - ثم أتيت على محاكم التفتيش وجرائمها البشعة ... وعرجت على الأديرة ، مخابئ الطهر المزيف ومرابض الجريمة الخفية ... وكان خاتمة الفصل عصر النهضة الذى هز عرش البابوات الكنسى ...

والفصل الأخير من الباب الأول كان عن نتائج أعمال الكنيسة حيث ظهرت فيه الفلسفات المادية وبدأت فيه نتيجة لأعمال الكنسية أطوار العلمانية، وعملت فيه الماسونية اليهودية عملها الخبيث ...

والباب الثانى عن دخول العلمانية إلى المجتمع الاسلامى .
وكان تحت هذا الباب ثلاثة فصول :
الأول عن الطرق التى تسربت بها العلمانية إلى المجتمعات الاسلامية التى كان نصارى العرب من روادها الأوائل لاتصالهم بالعالم الغربى حيث مصدرها ... ثم الاستعمار .
والفصل الثانى هو : العلمانية فى دولة الخلافة الاسلامية حيث تتبعت فيه بشىء من التفصيل أفاعيل العلمانية فى ذلك المجتمع المسلم وتلك الدولة الجامعة لدول العالم الاسلامى وهى قطب الرحى هنا ...

أما الفصل الثالث فقد كان عن الخطوات التى اتخذها أتاتورك لعلمنة الدولة الاسلامية . . .

والباب الثالث عن الاستشراق والتبشير ، قسمته أربعة فصول : الأول بعنوان : الاستشراق يؤدى دوره فى العلمانية . تعرضت فيه إلى وسائلهم وأساليبهم . . أما الفصل الثانى فقد كان عن إنتاج اولئك المستشرقين . . حيث عرضت فيه نماذج من تلاميذهم وكتبهم مبرزًا دور ذلك فى العلمنة . والفصل الثالث إنفرد لأساليب المستشرقين ووسائلهم فى عرض موجز لمضها . . .

أما الفصل الأخير من الباب الثالث فقد تناول دور المبشرين فى علمنة المجتمعات الاسلامية ، عارضًا بعض وسائلهم ذاكرًا لأهدافهم التى يريدون الوصول إليها وهى إخراج المسلم عن حظيرة دينه . . .

أما الباب الرابع ، فهو دور الابتعاث إلى الدول غير الاسلامية فى انتشار العلمانية فى المجتمعات الاسلامية الذى تطرقت فيه إلى آثار الابتعاث على المبتعث وما يصادفه من ضغوط . . كما تعرضت إلى نماذج من المبتعثين الأوائل وما جلبوه معهم من أفكار ونظم جديدة على المجتمعات الاسلامية كان الكثير منها يناقض ما عليه الشرع الاسلامى الحنيف مما انعكست آثاره على المجتمع فيما بعد ذلك بأجيال . . كان هذا من نصيب الفصل الأول .

أما الفصل الثانى والأخير ، فقد تعرضت فيه لنماذج أخرى من أولئك المبتعثين كان دورهم بارزًا فى الدعوة للخروج على ،

النظام الاسلامى ومحاولة التمرد عليه ـ ثم تعرضت فيه لنتائج الابتعاث .

الباب الخامس ، وهو عن : مجالات انتشار العلمانية وقد قسمته إلى ثلاث فصول ،الأول ذكرت فيه محاولات علمنة التعليم ،والخطوات التى اتخذها الاستعمار لذلك كما تعرضت فيه لبعض الكتب التى ألفت خصيصًا لذلك وإنشاء المدارس الأجنبية التى تدرس أبناء المسلمين المواد بمعزل عن الدين، وجعل التعليم ثنائيًا ـ دينى وغير دينى ـ ومحاولة عزل التعليم الدينى عن الحياة ...

أما الثانى من الفصول فهو عن أثر العلمانية فى الإعلام ، حيث تطرقت للإعلام عامة ،متطرقًا إلى الإعلام فى العصر الجاهلى وعصر الاسلام فى نبذة قصيرة جدًا .. ثم عرجت على الإعلام فى الوقت الحاضر وكيف كان أثره فى الحياة ، عارضًا بعض وسائله ..

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن أثر العلمانية فى القوانين وكيف أثرت هى بدورها على حياة الناس .. ثم تعرضت هنا لإلغاء المحاكم الشرعية والحملة الشعواء التى صاحبت ذلك حتى ألغيت فى بعض البلاد الاسلامية ..

الباب السادس : الاسلام منهاج الحياة ، وقد قسمت هذا الباب ،بعد التمهيد إلى ثلاثة فصول ،الأول عن حيوية الاسلام، بحثت فيه حيوية الاسلام وتفاعله مع الحياة وإصلاحه لها فى جميع نواحيها ، مما ألقم العلمانيين حجرًا فى أفواههم ، وهو هنا لازم لكل بحث يتطرق للعلمانية حيث يبرز صلاح الاسلام فى محاسنة التى برزت فى كل نظمه ، وهو رد على دعاوى كل من يعادى الاسلام ويجعله دينًا يختص بالعلاقة بين الانسان ،

وخالقه فى جانب العبادات فقط . . .

أما الفصل الثانى ، فقد تطرق للاسلام والعلم حيث تعرضت فيه لما جاء عن العلم فى بعض آيات القرآن الكريم والسنة النبوية كما ذكرت شيئا من العلوم عند بعض علماء المسلمين معرفا بهم ذاكرا بعض بحوثهم العلمية التى قاموا بها وما أسهموا به فى هذا المجال . . مع إيراد شهادات من علماء أوربا المحدثين الشىء الذى يرد ، كذلك ، دعاوى العلمانيين بأن الاسلام يناقض العلم . . والفصل الثالث ، حول مفهوم الدين والدولة فى الاسلام حيث أتيت بشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن مأثور الخلفاء الراشدين وأقوال أئمة السلف . . حول ترابط الدين والدولة فى الاسلام ، . وأن الاسلام دين جاء لتنظيم شئون الحياة كلها ، . .

أما الباب السابع والأخير . . فقد كان عن سبيل الإصلاح . . . حيث قسمته إلى فصلين اثنين ، الأول عن التربية الاسلامية ، حيث تطرقت بإيجاز إلى جوانب التربية الخلقية والجسمية فى مدرسة النبوة وكيف كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يربى أصحابه ويعاملهم ـ مما يمكن ، لو سلكنا نهجه لتغيير حالنا . . والفصل الأخير تطرقت فيه للوحدة الاسلامية كعامل من عوامل الإصلاح ذاكرا بعض النتائج التى توصلت إليها فى البحث والأشياء الهامة منبها عليها . . . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

* فصـــــــــل تمهيـــــــــــدى *

* * *

معانى العلْمانية عند الغربيين والمســـلمين :-

ويشـــتمل على مـــايلى :-

١- أصـــل الترجمـــــــــة،

٢- الترجمة الخاطئة والصحيحـــة.

٣- معنى العَلْمانية عند الغربيين .

٤- معناها عند المســـــلمين .

* * * * * * * * * *

* *

*

لابد ونحن بصدد بيان المذهب العلمانى وأثره فى المسلمين، أن تبين معنى كلمة ((علمانية)) بشىء من التفصيل لأن هناك خطأ فاحشاً فى الترجمة جاء مقصوداً ، كما وأن الكثيرين من الدارسين فهموا ترجمة ((العَلْمانية)) على خطئها ،إلا القليل منهم الذى نبه على ذلك .

وسيتضح من خلال البحث هنا ، أن كلمة ((علمانية))لاصلة لها بالعِلْم الذى نسبت إليه .

وقد بدأت ببيان معانى الكلمة عند الغربيين ،لأنهم هم واضعوا المذهب العلمانى ، ومنهم خرج إلى العرب والمسلمين فطبقوه بعدهم ،

** أولا العَلْمانية فى اللسان الغربى :-

من حق كلمة ((العَلْمانية)) أن تكون ترجمة للكلمة الانجليزية ((SCIENTIOLIC)) أى العلمية وهى من ((SCIENCE)) أى العلم . والترجمة عندئذ تكون صحيحة ومطابقة للكلمة المترجمة تماماً بيد أن ((العَلْمانية)) جاءت ترجمة لكلمة لا تمت بصلة إلى العلم. وهذه الكلمة هى : ((SECULARISM)) ومعناها ، لا دينية أو الدنيوية .

فكلمة ((العَلْمانية)) لا علاقة لها بالعلم كما هو مفهومها عند الغربيين وزيادة فى وضوح الموضوع أقول :

أولا نـأتى على معانى الصفة لهذه الكلمة وهـى :

أ/ الصفة ((عْلمانى)) : SECULAR A-

١- دنيوى أو مـادى WORLDLY OR MATERIAL 1-

٢- ليس بدينى أو ليس بروحـــانى

2- NOT RELIGIOUS OR SPIRITUAL

3- LIVING OUT SIDE MONA STERIES

٣- ليس بمترهب ؛ ليس برهبـــانى ،

ذلك ما كان حول الصفة أو الوصف من هذه الكلمـــة فلقد رأينا أنه لاصلة له البتة بالعلم بمعنـــاه المعروف وإنمـــا كل المعانى تدور حول نفى الدين عن هـذا الموصوف بتـــلك الصفـــات .

وهذه ترجمة للأســم من الكــلمة :

ب/ الاسم ((العَلْمانية)) : B-(N) " SECULRISM"

قال صاحب القاموس الانجليزى فى شرح هذه الكــلمة :

THE VIEW THAT MORALITY AND EDUCATION SHOULD NOT BE BASED ON RELIGION .

الترجمة إلى العربية :

يقول : ((العَلْمانية هى : النظرية التى تقول : إن الأخلاق والتعليــم يجب أن لا يكونان مبنيين على أسس دينــية .

ثم يتابع القاموس الإنجليزى شرحه لمعانى العَلْمــــانية حيث يأتى بعد ذلك على شرح الشــخص الذى يعتقد بهــــذا المبــدأ فيقــول :

C- SECULARISM

العَلْمــانى : " " :

BELIEVER IN, SUPPORTER OF SECULARISM .

الترجمة إلى العربية :

يقول : العَلْمانى ، هو المؤمن أو المؤيد ، أو المعتقــد فــــى النظــرية العَلْمــــانية .

ثم يستمر القاموس الانجليزى فى شرح الكلمة فيأتى على الفعل

المتعدى : VERB TRANSITIVE

د ـ يعلمن : SECULARIZE , V.T.

MAKE SECULAR: SECULARIZE CHURCH
PROPETY " COURTS" ASECULARIZE SUN
DAY . E. G. WHEN CHURCH
G)ING IS REPLACED SPORTING
EVENTS .

الترجمة إلى العربية :

((معنى يعلمن أى يجعل الحياة دنيوية ولا علاقة لها بالدين

مثال ذلك :

أن يحول الكنيسة والممتلكات والمحاكم ، إلى مؤسسات دنيوية ،كأن يجعل يوم الأحد يوما غير ذى مناسبة دينية مقدسة ، ذلك بأن يحوّل ((بتشديد الواو مكسورة)) الناس فى ذلك اليوم إلى الذهاب إلى الملاعب وغيرها بدلاً من ذهابهم إلى الكنيسة فى ذلك اليوم.. (١)

---

(1) THE ADVACED LERNER,S DICTIONARY ,
OF CURRENT ENGLISH . BY .A.S. HORNBY PAGE 897
OXFORD UNVERSITY PRESS . LONDON .
SECOND EDITION . 1962.

ذلك ما نقلته بحروفه عن المعاجم الانجليزية.

ولقد حرصت على إثبات النصوص الانجليزية بذاتها حتى لا يتوهم أنني ترجمت حسب هواى ، لتكون برهانا لكل من أراد أن يقرأ النص الاجنبى .

وإذا ما أتينا إلى دائرة المعارف البريطانية :-

ENCYCLOPEDIA BRITANPIC

نجد أنها تقول فى مادة ((SECULARISM)) ، إنها حركة اجتماعية تهدف إلى نقل الناس من العناية بالاخرة إلى العناية بالدار الدنيا فحسب. وذلك لأن الناس قد انكبوا على الدين وحب الإله والتأمل فى الآخرة وذلك فى القرون الوسطى . وجاءت اللادينية ((SECULARISM)) تقاوم هذا الاتجاه ، وشجعها على ذلك نمو النزعات الانسانية فى عصر النهضة ،وهى نزعات أكدت صلة الانسان بالدنيا وباعدت بينه وبين الدين ،

ثم نما هذا الاتجاه ليصير إتجاها مضاداً للدين والمسيحية...

كما نرى هذه الدائرة قد أتت بالحديث عن العَلْمانية ضمن حديثها عن ((الإلحاد)) ((ATHESIM)) حيث جعلت الفلسفة ((العَلْمانية)) أو المذهب العَلْمانى دوراً أو لونا من الوان الالحاد ، فقسمت ((الالحاد)) الى قسمين :

الحاد نظرى

والآخر عملى

وكانت الفلسفة العلمانية من ضمن الإلحاد العلمى .

ولو لم يكن النص الذى جاء فى دائرة المعارف البريطانيـــة كان كبيراً جداً حيث يستغرق عدة صفحات،لو لا ذلك لنقلته هـــنا بحروفه ، كما فعلت فى سـابقه ،ولكنى تركته لطوله وأكتفيـــت بالترجمة لبعض أجـزائه .

وهذه الترجمة لأجزاء منه :

وقد بدأ أولا بالإلحاد فقـال :-

((الإلحاد)) ATHEISM) هو نكران وجـــود اللـه أو الآلهة ، وبهذا يكون عكس التوحيد ((THEISM)) الذى يؤكد وجود الذات الإلهية ويبحث عن براهين وجودها . . . الخ

ويستمر فى الحديث عن الإلحاد وأنواعه إلى أن يقول :

((فإنه من الضرورى أن نفرق بين الإلحاد النظـــرى والإلحاد العملى .

الإلحاد النظرى هو جحود وجود الله نظرياً . . . (١)

أما الإلحاد العملى فهو نكران عـلى لوجود اللـــه .

لهذه الفلسفة السؤال عن وجود الله ،سبحانه ،يكـــون غير مناسب لمعنى حياة وقرارات الوجـود الانســانى .

---

(١) أى أن يكتفى بنكران وجود الله فى نفسه فقط . أما الجحـود العملى ، هو أن يتبع ذلك النكران بعمل كأن يدعو لفكـــرته هذه ويحث الناس عليها . . . الخ .

إن اكتشاف التفسيرات العلمية لظواهر كانت سابقاً ترجع إلى أسباب خارقة للطبيعة قد ساعدت لتخلق عالماً محرراً من الوهم لكثير من رجال العصر .

وبالمثل فإن تأثير الدين المنظم من مجالات عديدة مثل الطب والتعليم والآداب ، قد دفعت كثيراً من الناس لكى يخلقوا لأنفسهم نظرات عالمية خالية من الآراء التى تقول بوجود الله ،سبحانه وبالحياة بعد الموت . ولذلك نجد أن تعبير العَلْمانية قد وضع فى منتصف القرن التاسع عشر لكى يوضح هذه الفلسفة فى الحياة ،

وهؤلاء الفلاسفة عندما يحاصرون فى النقاش فإن المؤيدين للعَلْمانية ربما يؤكدون إيمانهم بوجود الله سبحانه ، أى قبولهم لفكرةوجود إله ، ولكنهم عندما يكونون بعيداً عن المجادلة والمناقشة ، فإنهم لا حاجة لهم بمثل هذه الفرضية - أى افتراض أن ثم إلها أم لا. ولذا فإن معظم علماء اللاهوت (١) يقولون بأن هذا إلحاد ، لأن تعبير اله .. يجب أن يشمل إلزام الفرد بأن تكون له علاقة كبرى بالذات الإلهية أياً كانت نوعيتها ... (٢)

---

(١) اللاهوت ، يعنى علم الإلهيات أو كل ما يتصل بالإلهوالدراسات الدينية .

"2- ENCYC LOPEDIA BRITANNICA. P,667, VOLUM, 2 .

ونلاحظ ، بعد ما تقدم ،أن معانى كلمة ((العَلْمانيـــــة)) قد دارت حول مايلى :

١- الدنيويـة .
٢- المـــادية .
٣- لادينى ولا روحـانى .
٤- غير مترهـــب .
٥- عدم بناء الأخلاق والتعليم ، . . . على الدين .
٦- العَلْمانى هو المؤيد للنظرية العَلْمانية .
٧- عدم وجود علاقة بين الحياة والدين .
٨- العلمانية حركة اجتماعـــية .
٩- الاتجاه العَلْمانى إتجاه ملحد أو الحـادى .

وهو مايدل على أن العَلْمانية لا تعنى فصل الدين عـــن الدولة فحسب ؛ كما هو شائع بين الناس ، وإنما تعنى بناء على ما تقدم عزل الدين عن الحياة كلها ، أخلاقية ، تعليمية ، إجتماعـــية وســـياســـية . . . .

هذه هى معانى ((العَلْمانية)) وأصلها عند الغربيـــن، وسأتقدم إرى انه لا علاقة لها بالعِلْم مطلقـا .

فما هى معانيها عند المسلمين وفى اللسان العربى ؟

ثانيا :

* * العَلْمانية فى اللســـان العربـــى * *
*

أثبت فيما تقدم أن كلمـة ((عَلْمانية)) لا علاقة لها بالعِـــلْم لأنها مترجمة أساساً عن الكلمة الأنجليزية ((SECULARISM)) أو الفرنسـية ((SECULARITE)) ومعناهما : اللادينية أو الدنيوية . . . الخ

وهنا ينشأ سؤال : لماذا لم تترجم الكلمة الترجمة الصحيحـــة فيقال مثلاً ((اللادينية)) أو ((الدنيوية)) أو ((المادية)) أو ((فصل الدين عن الحياة)) أو ((فصل الدين عن الدولـــة)) أو ((الغاء الدين)) . . . . الخ من معانى الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية؟

ولماذا ترجمت الكلمة إلى كلمة ((العَلْمانية)) بالذات ، التى فيها مايدل على العِلْم الذى هو ضد الجهل ؟

وللإجابة على هذا السؤال أقول :

مادة ((علم)) المأخوذة منها كلمة ((علمانية)) إما أن تكـــون بكسر العين وسكون اللام ، وإما أن تكون بفتح العين وسكون الـــلام.

وعلى الأول يكون معناها : العِلْم الذى هو ضد الجهل .
وعلى هذا تنطق ((عِلْمانية)) بكسر العين وسكون اللام لأنها نســبة إلى العِلْم بكسر العين .

وعلى الثانى يكون معناها : العَالَم بفتح اللام ، أو الدنيا ، وعـليه يكون معنى ((عَلْمانية)) الدنيوية ، وهى فى مقابل الآخـــرة . وهنا تنطق ((عَلْمانية)) بفتح العين وسكون اللام ، وهو الألصـــق بحقيقتها .

ومعنى ((العِلْمانية)) على الأول : نظام علمى او مذهب علمى.
ومجىء الكلمة على هذا النحو أمر واضح ، القصد منه التمويه عـــلى المسلمين وخداعهم ، وطمس الحقيقة بينهم ، ودس السم فى العسل ، حيث ،

يستدرجون عن طريق العلم الذى يحبونه إلى ((العَلْمانية)) لكن بالطريقة الغربية التى تقصى الدين عن الحياة وعن العلم ، وعندئذ يتمكنون من إبعاد المسلمين عن دينهم شيئًا فشيئًا ، ويساعدهم فى ذلك أن العِلْم الأُوربى التجريبى قد نما وازدهر فى عهد محاربة الدين ونبذ الكنيسة التى ناصبت العلم والعلماء العداء .

ولعلهم لم ينسبوا إلى ((عِلْم)) فيقولوا ((عِلْمية)) وهو القياس وزادوا الألف والنون فى الاسم المنسوب ، وهو على غير القياس ، وإن جاء فى كلام المتأخرين مثل نورانى وجسمانى ... مبالغة منهم فى الإيهام وزيادة فى التضليل .. لما عرف فى اللغة من أنّ زيادة الألف والنون على اسم الجنس ، مثلاً ،وقبل النسب تدل على الزيادة على أصل الحقيقة أو المبالغة فيها .(١)

ومعنى ((العَلْمانية)) على الثانى ، أنها نظام دنيوى فى مقابل الآخرة ويؤيد هذا الرأى بعض الكتاب المحدثين حيث يقول :

((.. فالعَلْمانية هنا ترجمة طيبة بصمات أداة النسب السريانية لكلمة ((لائيك)) الفرنسية ، ويقصدون بها ((لادينية)) منسوبة إلى ((العَلْم)) بفتح العين لا بكسرها ، كما يخطىء الأكثرون ، متوهمين أنها من العِلْم - بكسر العين - وليست به ، وهى بهذا تكون منسوبة إلى العَلْم - بفتح العين - وهو العالَم - بفتح اللام - أو الدنيا التى هى فى مقابل الآخرة .

وهذا التعبير ((لائيك)) دهرى - عَلْمانى - نشره اليهود فى ألمانيا وفى فرنسا بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر حيث ،

---

(١) أنظر الكتاب لسيبويه جـ ١ ،ص ٨٩ ، طبع بولاق (١٣١٧هـ)

تمكن دعاة العلمانية من الاستيلاء على الحكم فى فرنســـــــاء (١)

وأيده فى ذلك عالم آخر بقوله :

((وعُرف هذا الاتجاه الأرضى فى محيط المجتمعات الاسلاميـــة بعد المخالطة الفكرية بين الغرب والشرق باسم الاتجاه العلمانى ،ولعله منسوب على غير قياس إلى ((العالم)) -بفتح اللام- وهذا الاسم ترجمة للكلمة اللاتينية ((SAECULARISM)) التى تعرف فى الانجليزية باسم ((SECULAR)) كوصف وباسم ((SECULARISM)) كإتجاه ومذهب)) (٢)

وعلى هذا الرأى تكون الترجمة صحيحة إذ إن الدنيوية هـــى إحدى معانى الـ ((SECULARISM)) .

وأنا أميل إلى هذا الرأى الأخير ،لوجاهة منطقه وقوة استدلاله وظهور حقيقته على ضوء البحث الذى قمت به فى المعاجم الانجليزيـــة ودائرة المعارف البريطانية . . .

هذا ما كان حول كلمة ((عَلْمانية)) ترجمة ومعنى ومبنى . ولقـد بان لنا ، أن معناها ، هو : فصل الدين عن الدولة وعن الحياة كلهـا . . فرداً وجماعة .

وأنها نسبت فى الترجمة الخطأ إلى العلم ، وليست به فى شـىء .

ونستطيع أن نعرف بها ، بناء على ما تقدم ، بأنها :

نظام مؤلف من مبادىء وتجارب وفلسفة تقوم على عـزل الدين عن السياسة والدولة وعن الحياة كلها فى سائر جوانبها .

وهو تعريف يشمل مراحل العَلْمانية ، المتعدلة أى التى تبعـــد الدين .

---

(١) أنظر مقدمة كتاب ((دلائل النبوة ومعجزات الرسول)) د . عبد الحليم محمود طبع دار الانسان بالقاهرة ((١٣٩٤ هـ)) .

(٢) الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر ،مشكلات الأسرة والتكافل ،د . محمد البهى ص ١١ . المكتبة العصرية بيروت (١٩٤٧م)

عـــن الدولـــة ، بينما تســـمح به كأمـر للأفـراد والجماعـــــات.

والمتطرفـــة أى التى تنكســـر الدين ولا تســـمح به لا فـــــى توجيه الدولة ومشـاركتها ولا فى توجيه الأفراد والجمـاعات ، ولا صـلة لـه بأخـــلاق أو تعـــليم أو شـىء مـــن ذلك . . .

كـــا نســـتطيع تعريف العلمـــانى فنقـــــــول :

إنه الشـخص الذى لا يطـــبق الـــدين فى السـياسة وفى شـــــئون الحـــياة كافـــــــة . . . .

* البـــــــــاب الأول *

* ظهـــور العلمانيـــة *

إن الناظر إلى الأسباب الدقيقة التى أدت إلى قيـــام العلمانية فى أوربا ، يجد أنها ترجع أول ماترجع إلى وجـــود الكنيســة بنظمها التى ابتدعتها بعد السيد المسيح عليه السلام وهو ما يتحتم علينا إلقاء الأضواء على هذا الجهاز الدينـــى الخطير الذى تسبب فى إيجاد العلمانية . . .

وهو ما يستتبع الحديث عن النصرانية ومصادرها ، والكنيسة وعقائدها ، وطقوسها ، ونظمها ، وأعمالها فى مجالات الحيـــاة المختلفـة ، وما أدت إليه هذه الأعمال من تحولات ، دينيـــة واجتماعية ، وفكـرية ، وفلسفية . . . ساعدت فى ظهور العلمانية . .

وهو ما نختصره فى الفصول التالية .

* * * * * * * *
* * * * * * *

* *
* الفصـــــــل الأول :ـ *

الكنيســـة ومصـادرها وعقائدهـــا وطقوســـها

ويشـتمل على النقـاط التـالية :ـ

١ـ نبـذة عن النصـرانية ومصـادرهـــــــا .

٢ـ عقـائد الكنيســـــــــة .

٣ـ شـــعائر الكنيســـــــة .

النصرانية من وجهة نظر الاسلام:

جاء عليسى عليه السلام ،بدين سماوى يتمم ويكمل شريعة موسى ، عليه السلام ،وليصلح شأن بنى إسرائيل الذين انحرفوا عن الجادة واتبعوا طريق كل شيطان مريد ، ففووا وضلوا ، كما قال الله تعالى فى ذلك : ((إذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين))(١).

ونحن ،معشر المسلمين ،نعتبر أن عيسى ،عليه السلام ،هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء ،التى أحصنت فرجها فنفخ الله فيه من روحه ،وصدقت بكلمات ربها ، وهو نبى من أولى العزم ،دعا قومه إلى التوحيد الخالص، شأنه فى ذلك شأن كل الرسل ،ولم يقل إنه إله ولا ملك ،ولم يدع الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله : ((وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شى شهيد))٢.

ذلك هو عيسى بن مريم فى نظر الاسلام، أما إذا نظرنا إلى التاريخ بعد عيسى ، فإننا نجده وبالأخص إذا ((تصدينا للمسيحية التى جاء بها المسيح نجد التاريخ لا يسعفنا بها ، إذ بعد العهد واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التى نزلت،

---

(١) الصف آية ٦.

(٢) المائدة آيات ١١٦-١١٧.

بالمسيحيين ، ويجوز أن تكون يد المحو والإثبات عملت عملها ، حتى اختلط الحابل بالنابل ،وصار من العسير أن نميز الطيب من الخبيث والحق من الباطل ،والصحيح من غير الصحيح))(١).

ولكننا مع ذلك نقول : إن دعوة عيسى كانت تتسم بالبساطة وعدم التكلف . والدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ،فلا طقوس معقدة فيها ولا قداسة لغير الله الواحد الأحد ،فهذا كان يبشر وكان يذيعه بين بنى إسرائيل .

وشأنه فى ذلك شأن كل نبى مرسل جاء ببعض المعجزات من قبيل ما نبغ فيه قومه ،ويخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا بإذن الله ، وغير ذلك مما علمه إياه الله تعالى كما قال تعالى لعيسى ممتنًا عليه :

((إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذنى وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ...)) (٢)

ذلك هو عيسى ، الذى كانت النصرانية التى جاء بها وكان سائرًا عليها فى عهده بالرقة والعاطفة والحب للجميع كما كان يقول: ((أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ،أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم)) ٣ .

---

(١) محاضرات فى النصرانية . محمد ابوزهرة ، ص ١٤ . دار الفكر العربى ،مصر الطبعة الخامسة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) .

(٢) المائدة آية ١١٠ .

(٣) انجيل متى الاصحاح ٥ ، الفقرة ٤٤ .

النصارى بعد عيسى

كل ذلك تركه النصارى من بعد عيسى وصاروا يتعصبون ضد مخالفيهم ويعلنون أنهم إن قويت شوكتهم سوف لا يقوم معهم دين آخر ... مما أوقر عليهم صدور اليهود أولا حيث بدأوا يناصبونهم العداء ، ثم مالبث هذا الحقد أن تحول لأباطرة الرومان الوثنيين فأساموهم الخسف ،حيث أنزل بهم ((نيرون)) فى القرن الأول الميلادى (٦٤م) ما أنزل من ويلات العذاب ،فترك بعضهم للوحوش الجائعة تنهش أجسادهم وتمزقها ، بينما طلى أجساد الآخرين بالقار وأشعل فيهم النيران ليكونوا مصابيح تضئ فى الاحتفالات .

وأستمرت هذه الحالة بالنصارى خلال القرن الثالث فى عهد (دقليانوس) (٢٨٤ - ٣٠٥م) الذى أمر بهدم كنائسهم وإبادة كتبهم المقدسة وحرقها .

وما إن حل الربع الأول من القرن الرابع الميلادى ،حتى بدأ النصارى يستجمعون قوتهم ،وذلك بسبب موالات (قسطنطين) لهم (٣١١ - ٣١٣) وإعلانه التسامح ... وهنا بدأ النصارى يؤسسون الجمعيات ((الثورية)) باسم الدين لمحاربة الوثنيين والملحدين .. فأطلقت يدها لسحقهم وتمزيقهم ..

هذا الاضطهاد الذى حصل لبعض النصارى أنفسهم عندما أعلنوا ألوهية عيسى فى مجمع (نيقية) (٣٢٥م) حيث أبادوا معارضيهم وأحرقوا الكتب المخالفة لذلك،التى تنادى بعبودية عيسى .. (١) مثل كتب ((أريوس)) الذى عارض الوهية عيسى ، فأحرق هو ،

---

(١) أنظر محاضرات فى النصرانية لأبى زهرة ص٣٥ ومابعدها وكذلك المسيحية لشلبى ص ٧١ ومابعدها .

وأبيدت كتبه ... ومن هنا ، وبهذا الإعلان بألوهية عيسى ، الذى كان أول من نادى به هو بولس ((شاول)) بدأ بالتحريف فى النصرانية رسمياً واستمر من حينها ، حيث أخذت الكنيسة من عقائد اليونانيين الوثنيين ودمجتها فى عقيدتها التى كانت صافية فى عهد عيسى ، عليه السلام ، فقالت بالتثليث(١) وجاءت بعقائد ما أنزل الله بها من سلطان كعصمة الكنيسة حيث صارت كلما تصدره يعتبر حقاً واجب الاتباع وعقيدة ملزمة لكل نصرانى . كما أعلنت الكنيسة عصمة البابا ، فكلما يصدر عنه هو حق واجب الاتباع ((١٨٦٩م)) ...

مصدر كلمة كنيسة :

وتلك الكنيسة التى أطلق لها اليد فى كل شىء ، والتى نالت العصمة من كل خطأ وذلك - وبالتالى صارت تعطى هى نفس هذه العصمة لمن تريد ، هذه الكنيسة تبلورت فكرتها فى عقل بولس ، ويجزم بعض الكتاب .

---

(١) إذا رجعنا إلى الفلسفة اليونانية فى الجانب الإلهى وجدناها تقول : بأن للكون إلهاً يسمى واجب الوجود ، وقد أثبتت وحدانية هذا الإله على لسان افلاطون وأرسطو . وعندما تصورت خلق العالم تعذر عليها إيجاده من الواحد مباشرة أو تعذر عليها تصور انبثاق الكثرة من الواحد فأداها هذا إلى القول بوجود العقل المتولد عن الواحد . وهنا جاء بسيط عن بسيط ، فسهل على العقلية اليونانية هذا التصور ثم سهل عليها بعد ذلك أن تقول : إن العقل المتولد من الآلهة هو الذى أوجد العالم بواسطة الروح - وهذا هو التثليث عند النصرانية اليوم بعينه ..

أنظر الجانب الإلهى من التفكير الاسلامى د . محمد البهى ص١١٣ ومابعدها ... نشر دار الكتاب العربى بالقاهرة الطبعة الرابعة (١٩٦٧م) .

إن فكرة إنشاء ((كنيسة)) أو كما يسميه هو ((التجمع الكنسى)) هذه الفكرة نشأت أولاً من عند ((بولس)) وتحدث بها أولاً نفسه وخالطت فكرتها مزاجه ، ثم بعد ذلك عمل على إبرازها ليرتب عليها تلك الطقوس التى تمارس الآن من الكنيسة من تقديس للبابوات وإعطاء السلطان الدينى الكامل لهم ،وجعلهم هم ،الواسطة بين الناس وبين الله تعالى ، يقول معللاً ذلك :

((.. وذلك مفهوم يعبر عنه بولس فى وضوح تام . ونعتقد أنه عندما يتحدث عن ((كنيسة الله التى فى كورنثيا)) فإنما يعنى فقط ((جزء كنيسة الله العالمية)) الذى يقوم بتلك المدينة لا جماعة منظمة أو هيئة كنيسة اسست فى كورنثيا .

ويقول :

((إن فكرة كنيسة الله ، نشأت من ذاتها ((فعلا)) وبالضرورة فى عقل رجل مثل ،بولس ، قبل أن تظهر فكرة إنشاء تنظيم كنسى خاص))

وهذه الفكرة التى كانت من بنات أفكار ،بولس ، والتى كانت أفكاره النواة الأولى فيها من حيث تبلورها وظهورها فى شكل طقوسها الحالية ،يمكن أن يقال : أنها التجمعات ،

الصغيرة الأولى للنصارى المضطهدين من قبل اليهود واليونانيين الوثنيين ، قد حتمت عليهم التفكير فى رابطة دينية تربطهم بهذا الدين الجديد . . . وبالتالى بدأ الإجراء المقابل لما تم فى تفكير «بولس» فتطورت كل طائفة محلية من الأخوة إلى كنيسة . . . وكنيسة الله ، هى مجموع تلك الكنائس الخاصة)) (١)

وماقال الكاتب يتفق تماماً مع ما وقع فى النصرانية من تحريف وتبديل ، ومالحقها من عقائد وطقوس متجددة على مر العصور مما نراها فيما بعد فى بحثنا التالى عن مصادر النصرانية ، التى نرى من المستحسن ، ونحن نتعرض للكنيسة وعقائدها وطقوسها ، التعرض لهذه المصادر بشىء من الإيضاح ، لنبين فى إيجاز زيف هذه المصادر وبعدها عن الوحى والصواب . وذلك بالدراسة الموضوعية التى لا مجال فيها للتعصب أو الذاتية .

وسوف أستنطق هنا مصادر القوم أنفسهم ، وهو ما يجنبنا أى لون من ألوان التعصب . .

حيث يتطرق البحث أولاً للمصدر الأول للنصرانية ، وهى التوراة وأسفارها . . . وكيف أنها لم تثبت وكيف اعتراها التحريف . .

ثم الإنجيل وإصحاحاته . . وما يتعلق بتحريفها وبيان تناقضها وعدم اتصالها بالوحى . . . .

ماتقدم كان عن كتاب: المسيحية ، نشأتها وتطورها بتصرف فى بعض الفقرات ، وهو من تأليف : شارل جنيبر. ترجمة د . عبد الحليم محمود ، المكتبة المصرية بيروت (بدون تاريخ) والدكتور جنيبر ، مؤرخ فرنسى كبير ومتخصص فى علم اللاهوت ومدرس تاريخ الأديان المقارن واللاهوت بجامعة باريس ، توفى بعد الحرب العالمية الثانية بقليل .

المبحث الأول :

مصادر الكنيسة :-

تعتبر الكنيسة أن مصادرها الأساسية ، مأخوذة من التوراة والإنجيل ، وأعمال الرسل ثم ما جاءت به المجامع الكنسية ، وبعد عصمة البابا غدا كل شيء يصدره يعتبر من أصل الدين ..

تحريف هذه المصادر

أ- التوراة : ضياعها وتحريفها :

كلمة توراة ، عبرانية وتعنى الشريعة أو الناموس ، وكذلك تعنى كل التعاليم الدينية ...

وتتكون التوراة من عدد من الأسفار غير متفق على بعضها لدى أحبار اليهود وكذلك غير متفق عليها لدى النصارى . ولكن المشهور منها خمسة أسفار ينسبونها إلى موسى عليه السلام.

١- سفر التكوين : ويسمى كذلك سفر الخلق وذلك لأنه يذكر قصة خلق آدم وخلق العالم كله .. كما يذكر بعض الأنبياء كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ، وينتهى هذا السفر بموت يوسف ٢ .

٢- سفر الخروج : ويتناول خروج بنى إسرائيل من مصر ويذكر حالهم بعد يوسف وما آلوا إليه .. وبه بعض التشريعات والتعاليم القليلة كتابوت العهد وما أحدثه بنو إسرائيل أثناء غيبة موسى .

٣- سفر اللاويين : ويسمى سفر الأحبار . ولاويون نسبه إلى لاوى أوليفى .

ويشمل كثيرًا من الأحكام والتشريعات نحو الكفارات والطعام والشراب والنكاح ؛ ويشمل الأعياد وبقية الطقوس الدينية .....

٤- سفر العدد : وسمى بذلك لإشتماله على تعداد بنى إسرائيل وأحفادهم ، كما يحتوى على أخبار بنى إسرائيل وسيرتهم وإحصاء ذكورهم ، كما يقص كثيرًا من حروب بنى إسرائيل وتنظيماتهم وطقوسهم وتعاليمهم الكهنوتية وأحوالهم الاجتماعية ...

٥- سفر التثنيه : أى إعادة وتكرار الشريعة وشرحها وتفصيل كل ما جاء منها فى الأسفار المتقدمة مثل إعادة النظر فى الأطعمة والأشربة ، والأعياد ونظام القضاء وملك بنى إسرائيل .. وتحدث عن المحرم من ذلك وغير المحرم .. وينتهى بموت موسى ودفنه فى جبل موآب . (١)

والتوراة بعد موسى ، عليه السلام ؛ اعتراها كثيرًا من التحريف سواء كان عن طريق ضياع بعض أجزائها ، أو بتحريف الأحبار بعض معانيها وألفاظها كما قال فيهم الله تعالى : ((وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٢)

---

(١) أنظر اليهودية لأحمد شلبى ص ٢٣٨ . مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة (١٩٧٨)

(٢) آل عمران آية ٧٨ .

وقال تعالى : ((. . يحرفون الكلم من بعد مواضعه . .الآية (١) وغير هذا كثير فى القرآن الكريم . فالتحريف والتبديل واقع فى التوراة لا سيما بعد أن انحرف اليهود عن جادة الطريق وغووا وضلوا فبدأوا يحرفون أسفار موسى لتناسب حالهم التى أصبحوا عليها . . .

ذلك لأن التوراة التى كتبها موسى ،عليه السلام ،ووضعها مع لوحا الحجر فى التابوت قد ضاعت خلال فترة التيه والضلال التى مرت بملوك بنى إسرائيل ، وتدل الأسفار على كتابة هذه التوراة بيد موسى ،((فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها ،أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذه وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم . .)) (٢)

وعندما جاء سليمان ودلف ليخرج التوراة من التابوت ((لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر)) (٣)

ويدل النص على ضياع التوراة تماماً التى ادعى الكاهن ((حلقيا)) أنه وجدها وسلمها ((لشافان)) كاتب ملك بنى إسرائيل الجديد الذى كان أظهر ميلاً للدين وهو الملك ((يوشيا)) (٦٢٩ - ٥٩٨) ق . م . . . وقد فعل ذلك حلقيا هذ زلفة وقربة للملك فلا يمكن الاعتماد على قوله ((لأن ، بيت المقدس نهب مرتين ثم . . جعل بيت الأصنام ، وسدنة الأصنام كانوا يدخلون البيت كل يوم ، وماسمع أحد إلى سبعة عشر عاماً من سلطنة يوشيا أيضا اسم التوراة ، ولا رآه ، مع أن السلطان ،

---

(١) المائدة آية (٤) .

(٢) سفر التثنية الإصحاح (٣١) الفقرات (٢٤ - ٢٦) .

(٣) سفر الملوك الأول الإصحاح (١٨ الفقرة (٩)

والأمراء والرعايا كانوا فى غاية الاجتهاد لإتباع الملة الموسوية وكانت الكهنة يدخلون كل يوم إلى هذه المدة ، فالعجب كل العجب أن تكون النسخة فى البيت ولا يراها أحد ، فهذه النسخة ما كانت إلا من مخترعات حلقيا فإنه لما رأى توجه السلطان والأراكين إلى اتباع الملة الموسوية ، جمعها من الروايات اللسانية التى وصلت إليه من أفواه الناس سواء كانت صادقة أو غير صادقة . .))(١).

فالتوراة إذاً ضاعت .

ولهذا ليس غريباً أن يأتى اليهود بمتناقضات بعد ذلك على لسان موسى زاعمين أنها التوراة التى كتبها موسى ، ففى النص التالى يظهر عدم كتابة موسى للتوارة التى بايديهم او على اقل تقدير انها حرفت . . جاء فى سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام :

((. . ومت فى الجبل الذى تصعد اليه وانضم الى قومك كما مات هارون اخوك جبل هور وضم الى قومك))٢ . ثم يقول : ((فمات هناك موسى عبد الرب فى ارض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم)) (٣) .

وهذا تناقض ظاهر وتحريف واضح فهو غير معقول ان يقول موسى هذا الكلام عن نفسه بعد موته ، مما يدل على ان هذا الكلام لم يكتبه ولم يمله وهو مايدلل ايضا على ضياع التوراة الاصيلة . . .

---

(١) اظهار الحق ، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى ، تحقيق عمر الدسوقى جـ١ ص ٣٢٥ . مطبعة الرسالة القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) الاصحاح (٣٢) الفقرة (٥٠) .

(٣) الاصحاح (٣٤) الفقرات (٥ - ٦) .

ذلك ما كان بشأن الصدر الأول للكنيسة.أما الصـــــدر فهو :

ب - الإنجيل :- الإنجيل لكلمة يونانية معناها البشارة ، (١) ((وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ..)) (٢) .

والأناجيل المعترف بها لدى الكنيسة فى الوقت الحاضـــر أربعة فقط ، ولكن المؤرخين مجمعون على انه كانت ثم أناجـيل قبل ذلك ،بل ويذهب البعض الى أن هذه الأناجيل الأربعـــة لم تكن معروفة من قبل ولم يكن معترف بها ،ذلك لأنها ((لـــم تدخل فى عداد الكتب المقدسة بإعتبار مجموع هيئتها بصـــورة رسمية إلا فى القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكـــه (سنه ٣٢٥م) لذلك لم تكن أى من هذه الرسائل مقبـولـة ومصدقة لدى الكنيسة وجميع العالم المسيحى قبل التاريخ المذكور ثم جاء .. ، مايزيد على ألفى مبعوث روحانى ومعهم عشـــرات الأناجيل ومئات الرسائل إلى نيقية لأجل التدقيق ، وهناك تـــم إنتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً .، وكانت الهيئة التى اختارت العهد الجديد (٣) هى تلك الهيئـة التى قالت بالوهية المسيح ، وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيـدة نيقية وإحراقها كلهـــــــــــــــــــا)) (٤) .

---

(١) انظر المنجد حرف الألف ص ١٧ .

(٢) إنجيل متى الإصحاح الرابع الفقرة ٢٣ .

(٣) العهد الجديد هو مجموع الأناجيل ورسائل الرسل ، ثم هناك العهد القديم ويشمل التوراة واسفارها ، وللجميع يطلق عليه إسم الكتاب المقدس .

(٤) المسيحية ص ٢٠٥ نقلا عن الإنجيل والصليب لعبد الأحد داؤد ص ١٤ . وقد كان عبد الأحد داؤد نصرانيا ثم أسلم .

وهذا دليل واضح على تغييرهم وتبديلهم حسب هواهم ،ومن هنا فقد درجوا على عقد المجامع الكنسية ليغيروا كل مالم يتمشى مع مايريدون ،ولهذا فقد صارت المجامع وغيرها هى الشيء المهم فى حياتهم العقائدية .

* تناقض الأناجيل الأربعة *

من المعروف ـ كما أسلفت ـ أن الأناجيل الأربعة أقرت رسميًا فى مجمع نيقية المنعقد سنة ((٣٢٥م)) وحظر ما سواها وأحرق . وهذه الأناجيل مختلف فى نسبتها إلى أصحابها وفى اللغة التى كتبت بها والزمن الذى كتبت فيه ،وهو ما يجعلها غير صالحة لتكون مصدرًا صحيحًا لديانة يزعم أصحابها أنها سماوية ، حيث أنها تختلف على موضوعاتها اختلافًا بينًا ،حتى شمل هذا الاختلاف أساس الديانة النصرانية نفسها . وقد ذكر أحد الباحثين ستة أوجه من وجوه اختلافهم فى نسب السيد المسيح ،عليه السلام ،فقال :

١- ((يعلم من متى أنه يوسف بن يعقوب ،ومن لوقا أنه ابن هالى

٢- يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داوٗد ،عليه السلام،ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داوٗد .

٣- يعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داوٗد إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون ،ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورون غير داوٗد وناثان .

٤- يعلم من متى أن شلتائيل بن يوخانيا ،ويعلم من لوقا أنه ابن نيرى .

٥- يعلم من متى أن اسم ابن زور بابل ابيهود ومن لوقا أن اسمه ريصا ....

٦- من داود إلى المسيح ،عليهما السلام،ستة وعشرون جيلاً على ما بين متى ،وواحد وأربعون جيلاً على مابين لوقا ..))(١)

ومن صور تخالف الأناجيل وتضاربها جنسية المرأة التى يزعم البعض أنها فينيقية والبعض أنها كنعانية حيث يقول متى :

((ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف إلى نواحى صور وصيدا . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : أرحمنى ياسيد ، يا ابن داود ،ابنتى مجنونة جداً ،فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا)) (٢)

ويذكر مرقس عن جنسية هذه المرأة فيقول : ((ثم قام من هناك ، ومضى إلى قوم صور وصيدا ، ودخل بيتاً وهو يريد ألا يعلم به أحد ، فلم يقدر أن يختفى لأن امرأة كان بإبنتها روح نجس سمعت به ،فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أممية وفى جنسيتها فينيقية سورية)) (٣)

وغير ذلك كثير من التناقض والتباين الذى يضيق المجال عن ذكره بالحصر وأكتفى بهذا كإشارة ورمز فقط ليبرهن على أن القوم قد تنكبوا الجادة وساروا فى وهاد الغواية ،الشىء الذى يدلك - كذلك - بأن هذه الأناجيل لم يملها عيسى ولم يكتبها ولم تكن بالتالى وحياً ولا إلهاما بل نتفاً من الفلسفات السابقة ..

---

(١) إظهار الحق جـ ١ ص٩٦ .

(٢) إنجيل متى الإصحاح (١٥) الفقرات (٢١- ٢٤) .

(٣) إنجيل مرقس الإصحاح (٧) الفقرات (٢٤-٢٦) .

وهذا ما أثبته أحد الباحثين الغربيين حين قال :

((إن فلسفة الإغريق ، والقانون الرومانى جعلا الانجيل لا يمثل حقيقته ،كما أثراء فى تدوينه ، والباحث المنصف فى تاريخ الكنيسة لا يستطيع ولا لحظة واحدة أن ينكر أن آراء مزيفة وأغراضاً غير كريمة ، ومقاصد ،خاطئة كانت أسباباً رئيسية مسيطرة، أحياناً ،دفعت إلى هذا التبديل الذى حدث فى الأناجيل)) (١)

وإذا قيل بأن هذه الأناجيل عمل أصحابها ، وأصحابها رسل ملهمون فهم مصدقون فى كل ماقالوه ، قلنا : إن سلمنا بذلك وأنهم ملهمون ورسل ،فإن الإلهام نوع من الوحى ، والوحى السماوى لا تناقض فيه ، وقد أثبتنا التناقض فيما تقدم من هذه الأناجيل فثبت عدم اتصالها بالوحى أو الإلهام بأى وجه من الوجوه ،ذلك الإلهام الذى صار باباً واسعاً للأفاكين ومروجى الأباطيل ...

ومن هنا جاءت هذه الأناجيل متناقضة متباينة وهى أبعد ما تكون من الوحى - ومن ثم جاءت عقائدها حسب هواها وهوى رهبانها وهو ما نراه فى المبحث التالى :-

---

1- ENCYCLOPAECLIA OF RELEGIONS AND ETHICS, BY, ALFRED. E. GARVIE . VOL , 5. P.634.

: المبحث الثانى :

: عقيدة الألوهية والتثليث :-

بعد ذلك العرض الموجز لتاريخ الكنيسة ، ومصادرها ، نعرض الآن لبعض عقائدها حيث أن الكنيسة هى الباعث الأساسى للعلمانية .

أدخل الرهبان والأحبار فى النصرانية كثيراً من عادات وتقاليد وشعائر الوثنيين من يونان ورومان وهندوك وبوذيين وغيرهم ...

وقد انطبعت تلك الأفكار الوثنية فى ذهن بولس((شاؤل)) اليهودى الذى جاء بالقول بألوهية عيسى وكذلك التثليث بعد أن زعم أنه تنصر عن طريق الإلهام . ففى مجمع نيقية المنعقد فى عام ((٣٢٥م)) اتخذ قرار ألوهية عيسى بالرغم من المعارضة الشديدة من كثير من الحاضرين ولكن الامبراطور الذى كان فى ذلك الوقت زعم ، هو كذلك ، أنه تنصر ،وأنه سوف يعيد للنصارى مجدهم وينصرهم ، وهو الامبراطور

قسطنطين الذى أيد وناصر الأقلية القائلة بألوهية عيسى وكان الذين حضروا هذا المجمع يبلغ عددهم ((٢٠٤٨)) والذين أيدوا القول بألوهية عيسى كانوا ((٣١٨)) فقط . . وبعد هذا القول بالالوهية أمر الملك بقتل وحرق كل من لم يقل به . . .

وبعد إقرار التأليه أرادوا أن يكملوا الثالوث الإلهى فقالوا بإلوهية الروح القدس فى مجمع القسطنطينية الأولى فى عام ((٣٨١م)) وبه تم الإله المثلث فكانوا يقولون : ((نؤمن بالله الواحد الآب . . . والابن الواحد يسوع بن الله الواحد . . . . . ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس الواحد الذى يخرج من أبيه . . .)) (١)

وهذا التثليث الذى لا تقبله الفطر السليمة والعقول النيرة المتحررة من الخرافات ، هذا القول دفع الناس بعد عصر التنوير وبعد ان ظهر الدين الاسلامى واطلع الاربيون عليه ، وبعد دراستهم فى الجامعات الاسلامية فى الاندلس وصقلية وغيرها . . بعد ذلك غدوا يفكرون فى هذا التثليث ولكن قبضة الكنيسة آنذاك كانت قوية الشكيمة ولو إلى حين . . .

ولكنها كانت النواة للقرون التى تلت ذلك . .

وأنقل قولاً فى هذا التثليث لأحد النصارى الكبار ، وهو الأب ((بولس)) اليسوعى فى كتابه .

---

(١) الملل والنحل ، للشهرستانى ، مع الفصل فى الملل والأهواء والنحل لإبن حزم ، جـ ٢ ص ٦٣ ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الثانية ((١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)) .

((يسوع المسيح)) يقول معللا إيمانه بهذا الثالوث فى كلام ينم على مدى انسداد البصيرة وطمس معالم الهداية عند من أضلهم الله على علم ،يقول هذا الأب :

((من الناس من يقولون : لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة أقانيم ؟(١) أوليس فى تعدد الأقانيم انتقاص لقدر الله؟ أوليس من الأفضل أن يقال : الله أحد فحسب ؟

ولكننا إذا اطلعنا على كه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث ولكنه الله محبة ((يوحنا الأولى ٤ : ١٦)) ولا يمكن إلا أن يكون محبة ،ليكون الله سعيداً فالمحبة هى مصدر سعادة الله ،ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان الماء وانتشار النور،فهى إذاً تفترض شخصين على الأقل يتحابان ، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما ،فيكون الله سعيداً ولا معنى لإلهه غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية . . .

ولهذا ولد الله الإبن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه ووهبه ذاته ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته وبادل الإبن الأب هذه المحبه وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والإبن كانت الروح القدس . هو الحب إذاً يجعل الله ثالوثا وواحداً معاً . . .

ويستدل هذا الأب النصرانى على رأيه الذى فلسف

---

(١) أقانيم أى صفات . . . .

وعلل به عقيدة التثليث ، برأى بولس ((شاؤل)) * ((يقول بولس الرسول : إن الإبن هو صورة الله الغير منظور)) ويختم حديثه عن الله ((المثلث)) تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا بقوله : ((ليس الله إذًا كائنًا تائهًا فى الفضاء منعزلاً فى السماء لكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة تسودها المحبة وتفيض منها على الكون براءته ، وهكذا يمكننا أن نقول : إن كنه الله يفرض هذا التثليث))!!(١)

ذلك هو التصور الكنسى عن الله تعالى ، والذى لفظته العقول التى استنارت وقتئذ بنور العلوم الاسلامية ، واطلقت على صفاء العقيدة الاسلامية . . .

ولئن زاغ عنها فريق آخر بمريق الماديات الأرضية فضل هو الطريق كذلك وتاه فى سبل الفلسفات المادية . . .

وعلى كل حال فإن عقيدة التثليث قد زعزعت الإيمان فى قلوب الناس وجعلتهم حيارى مضطربين لا يدرون إلى أى الأقانيم الثلاثة يتجهون ؟ : ألإبن أم للأب أم للمتولد منهما الذى رمزوا له بالروح القدس ؟ .

وثمة عقيدة أخرى يعتبرها النصارى من أسس عقائدهم التى لا يتم الإيمان إلا بها . وهذه العقيدة هى :

---

(١) المسيحية د . أحمد شلبى جـ ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) شاؤل الذى تسمى فيما بعد ببولس كان يهوديًا شديد التعصب لأفكار اليهود القائلة بأنهم شعب الله المختار وأن الناس خلقوا لخدمة اليهود . قال عن نفسه : أنا يهودى . . . سمعتم بسيرتى قبلاً فى الديانة اليهودية ، إنى كنت أضطهد الله بإفراط وأتلفها . . وكان يقتل المسيحيين رجالاً ونساء . . . وهو لم يلق المسيح وليس من الحواريين . . وقال إنه دخل المسيحية بالهام من السماء وذلك عندما كان قريبًا من دمشق إذ برق حوله نور من السماء فسقط على الأرض . . . وزعم أنه الرب يسوع هو الذى ناداه وقال له : قم فكرز بالمسيح . . . وكان ذلك حوالى (٣٨م) وهو أول من زعم ان المسيح ابن الله وأنه إله . . انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، والمسيحية لشلبى ص٤٠١ ومحاضرات فى النصرانية لأبى زهرة .

إراقة المسيح دمه على الصليب :

يعتقد النصارى أن الانسان اكتسب اثمًا عظيمًا بسبب عصيان ، آدم أبو البشر، وهذا اثم يحتاج إلى ومغفرة ورحمة. [((إن من صفات الله العدل والرحمة ،وبمقتضى صفة العدل والرحمة كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التى ارتكبها أبوهم وطرد بها من الجنة واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها ، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر ،ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيده وقبوله أن يظهر فى شكل إنسان وان يعيش كما يعيش الانسان ثم يصلب ظلمًا ليكفر عن خطيئة البشر))] (١)

وهذا تخبط وتخرص على الله بما هو برىء منه ، مما يدل على فساد عقائدهم وما أدخلوه عليها من خدعلات الوثنيين، الشىء الذى يبعدها عن عقائد السماء ..

وإذا كانت تلك هى العقائد عندهم ، التى كما قلت، لا يتم إيمان النصرانى إلا بها ،فإننا نجد هناك الشعائر التى تمارس فى النصرانية ، وإن كانت أقل شأنًا وأخف ضررًا ،لكن لابد ، عندهم ،من أدائها ..

.: الشعائر :.

.: التعميد :.

هو أن يقوم الراهب برش جسد الشخص بالماء.

---

(١) المسيحية ،د. أحمد شلبى ص ١٥٤ ، عن الإنجيل والصليب لعبد الأحد داود .

وربما يغمس فى الماء كله أو تغسل بعض أجزاء جسمه .... وغالبًا ما يعمد الشخص عند ولادته لينمو وهو طاهر نظيف من الخطايا ، أو يعمل له التعميد عند الموت لكى يختم له بالتطهير من الآثام ويمضى نظيفًا .. كما يزعمون .

وقد صار هذا التعميد عندهم ((فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء باسم الآب والإبن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح ،وهى ختم عهد النعم كما كان الختان فى الشريعة الوسوية ، والمعمودية تدل على اعترافهم العلنى بإيمانهم وطاعتهم للآب والإبن والروح القدس كإلههم ومعبودهم الوحيد . ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهارًا أمام كنيسة الله)) (١)

العشاء الربانى أو الاستحالة:

وهذه الشعيرة تعتبر من الشعائر الأساسية عندهم وهى عبارة عن قطعة خبز وكأس من خمر ، تشير الأولى إلى جسد المسيح المكسور والثانية إلى دمه ، فيزعمون أنه من أكل الخبز وشرب الخمر كأنما أكل جسد المسيح وشرب دمه ،ولذا لا تمسه النار (٢)

وكذلك الشأن بالنسبة لتقديس الصليب ،فقد اصبحت هذه الشعيرة ذات اهمية كبرى فى حياتهم الروحية حيث نجد اغلبهم يعلق الصليب فى رقبته ويتدلى على صدره ، ويرمزون به الى الحياة الاخرة والموت على هذه الصورة ، صورة الصليب،

---

(١) محاضرات فى النصرانية ، أبو زهرة ، ص١٣٦ عن كتاب الأصول والفروع .

(٢) انظر إنجيل متى الإصحاح ٢٦ الفقرة ٢٢ ، وإنجيل لوقا الإصحاح (٢٢) الفقرة (٢٢) وإنجيل مرقس الاصحاح (١٤) الفقرة (٢٢) .

التى تدل على امتهان النفس البشرية وسحقها . . .

وقد نسب لوقا فى إنجيله هذا التقديس للصليب ، نسبة للمسيح فقال عنه :

((إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسة ويحمل صليبه))(١)

ذلك كان ملخصًا مجملاً عن العقائد والشعائر الكنسية ، أشياء كلها تنافى العقل السليم ويأنف منها الذوق الرفيع ، وهذا ما جعل أصحاب العقول المفكرة يتذمرون ويتبرمون منها ويضيقون بها ذرعًا - ما جعلهم فى النهاية يجنحون إلى العلمانية والمادية متبعدين عن دين مثل هذا . .

ومادامت الكنيسة هى السبب فى العلمانية . فلنتابع بحثنا حول هذه النظم لنرى أعمالها فى الفصل التالى . .

---

(١) إنجيل لوقا الإصحاح (٩) ، الفقرة (٢٣).

الفصـــــــــل الثـــانى :

أعمال الكنيســـــــــة :

ويشـــتمل على النقاط التالية :-

١- صـكوك الغفران كانت حافزًا للجـــريمة.

٢- قرارات الحرمان ، هضم لحقوق الإنســان.

٣- عصـــة البابا ومحاكم التفتيـــــــــش.

٤- الرهبنة سلوك ضد العمل والحيويـــة.

توطئة :

إن التشريع الدينى لا يكون إلا من عند الله وحده ، لأنه تعالى هو الخبير بالنفوس البشرية وأدوائها وهو العليم بخفايا الأمور وظواهرها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة . .

وهو تعالى الذى بيده القوة والسلطان . . والتحليل والتحريم ، ان الحكم إلا لله ، وليس لأحد ولا لقوة من القوى أن تتعدى على حدود الله . .

وليس لأى أحد أن يتكلم عن الله إلا بإذنه . .

وإذا كان الأمر كذلك . . فإنه ليس لأحد كائناً من كان أن يدعى لنفسه العصمة أو أنه يملك من الله شيئاً يتصرف فيه من غفران ذنوب أو محو سيئات أو جلب نفع أو دفع ضر عن أحد . . .

ومن هنا ينهدم ما جاءت به الكنيسة من ادعائها غفران الذنوب أو حرمان أحد من الجنة أو إضفائها العصمة على نوع من الناس . . مما نراه فى المباحث التالية . . .

المبحث الأول

: صكوك الغفران ، حافز للجريمة :-

اتخذ حق غفران الذنوب فى مجمع روما المنعقد فى سنة (١٢١٥م) ومن يومها صار البابا إذا أعوزته الحاجة إلى أن يجمع مالاً لأمر ما ، فما عليه إلا أن يطبع مجموعة من صكوك الغفران ويوزعها على المذنبين .

والغريب فى أمر هذه الصكوك ،أنها غدت تباع لكل من يطلبها ،كما تباع أسهم الشركات ، فأصبحت بهذا تجارة رابحة للكنيسة وللبابا معاً ،وصارت مصدر ثروة وثراء ومورداً لا ينقطع لجمع المال ،ثم أصبحوا يطبعونها ويتركون بها أماكن فارغة ليملأ بها اسم طالب المغفرة من البابا أو من يليه .

وتكفير الذنوب والخطايا يهدم فى الانسان الحاسة التى يندفع بها إلى الأعمال الصالحة التى يتقرب بها إلى الله عسى أن يغفر له ،ولكن بعد هذه الصكوك يمكن الاستعاضة عنها بدفع المال للكنيسة ، غير أن هذا التكفير أو الغفران لا يستطيع وحده تحرير الانسان من العقاب الأبدى ، إذ لا يتم فعله إلا بعد التوبة الأصلية . .)) (١) التى تصدر من الفرد بينه وبين ربه الذى يعلم السر وأخفى وليس بتوسط بشر آخر ، لأن أمر الغفران هو بيد الله وحده . .

ويحسن هنا عرض نموذج لصك من تلك الصكوك ، وهذا

---

(١) تكوين العقل الحديث ،جـ ١ ،ص ١٠٧ .

نصه :

((ربنا يسوع المسيح يرحمك يا .... (وعنا يكتب اسم طالب المغفرة) ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها وأيضًا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ،ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنوب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة وأرفع القصاصات التى تلتزم بمكابدتها فى المطهر وأردك حديثًا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة وأقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك حتى أنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الروح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه لنعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة ،باسم الأب والإبن والروح القدس)) (١)

---

(١) المسيحية د . أحمد شلبى ،جـ ٢ ص ٢٥٤ .

وصكوك الغفران تغفر للمذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفى هذا دعاة للفساد واللامبالاة ،لأن الانسان إذا علم أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ،فإنه ينطلق يخبط الأخضر باليابس لا يلوى على شيء ، ولذلك ، كما قيل : إن صكوك الغفران دعوة مفتوحة للفجور وفساد المجتمع ، وهى إذن بارتكاب كل الجرائم بعد ما ضمنت للمغفور له الجنة . . .

وتتذرع الكنيسة فى ذلك بما جاء على لسان المسيح ، عليه السلام ، لبطرس بقوله : ((. . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما تحلله على الأرض يكون محلولاً فى السموات)) (١)

وهذا القول يبعد أن يكون صدر من المسيح النبى الرسول . وما أكثر ما نسبوه إليه ،وهو أكبر من ذلك حيث زعموه إلهاً مرة وجعلوه ابناً لله أخرى . . .

والدليل على عدم صحة هذا القول من عيسى هو أنه بعد قليل قال لبطرس هذا : ياشيطان ، فكيف يقول هناك إنه يعطيه مفاتيح السموات والأرض ثم يقول له بعد ذلك ياشيطان !!؟ فنقرأ عبارته له : ((. . فالتفت وقال لبطرس: إذهب عنى ياشيطان أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله . .)) (٢)

وهو دليل كاف على أن ذلك الكلام مختلق من أساسه .

---

(١) إنجيل متى ،الإصحاح (١٦) الفقرات (١٩ - ٢٠) .

(٢) إنجيل متى الاصحاح (١٦) الفقرات (٢٣ - ٢٤) .

الاعـــتراف والخـــــــلوة :ـ

ولم تقف مسألة غفران الذنوب عند حد تقديم المذنـــــب نفسه إلى القسيس وشراءه الصك الذى فيه المغفرة فقـــط . . . وإنما تطور الوضع إلى أسوا وأردأ من ذلك .

فكان على من يريد أن يغفر له ذنبه ، ذكراً كان أو أنثـــى ، أن يقدم نفسه للقسيس وهو فى حالة خلوة تامه معه وبمنحـــى عن أعين الناس وسمعهم ، وهو فى هذه الحالة عليه أن يعترف بكل ذنب اقترفه ولا يخفى منه شيئاً كى تتم له المغفرة الكاملة!! .

وليس بخاف مافى هذا من انكسار وإذلال للنفس الانسانية وامتهان لكرامتها . .

وفيه فضح لأسرار الانسان التى يجب أن لا يطلع عليهـــا إلا الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور

وفيه فساد من حيث خلوة النساء بالرجال ، وقد حـــدث بالفعل الكثير من الحوادث للنساء مع الرهبـــــان فى الصوامع والأديرة التى زعموا أنهم دخلوها للظهر وتنقيـــة النفس . ولندخل الآن هذه الأديرة الطاهرة الصافيه ـ فـــى زعمهم ـ لنرى الصفاء الذى دنسه الفساد ، ولنرى كيف كـــان يعيش الرهبان والراهبات فى تلك الحصون المنيعـــــــة ،

: : المبحث الثـــانى : :

: : قرارات الحرمان : :

وهناك فى الجانب المقابل توجد ((قرارات الحرمـــان)) التى غدت تعاقب كل من يدلى برأى يخالف رأى الكنيســـة والبابوات والقديسين ،وتعد ذلك خروجًا على النصرانية وتقـــولاً على التوراة بغير علم .

وحقًا لقد كان ((لدى الكنيسة سلاح مخيف تستعمله عنـــد الحاجة ، وذلك هو سلاح الحرمان الذى إذا لجأت إليه مكنها مـــن أن تمنع مدنًا وسكانها من حضور الطقوس الدينية وبالتـــالى من التقرب من الله)) (١)

وكان ومازال ((الكنيس)) اليهودى يفعل ما تفعله الكنيســة فيحرم من يخالف آراء أحبار اليهود ومايشتهون ، وأنه لا يحـــق لغيرهم أن يفسر التوراة مهما بلغ من العلم والفهم . . .

ومن بين الذين ذاقوا مرارة وقساوة الحرمان ،الفيلســـوف الهولندى ((باروخ سبينوزا)) ((١٦٣٢م)) وكان قد اتهـــم بالكفر والإلحاد لقوله بقدم العالم ، وأنه ليس وراءه قوة مدبـــرة بل جاء نتيجة للتفاعل الذاتى ((فهو القائل بأن كـــل الموجودات التى تقع عليها حواسنا ، وكل الصور المادية الـــتى نراها ، تطورات طبيعية تطورها المادة بتأثير القوة المنبثـــة فيها)) (٢)

وقد ظهر سبينوزا فى عصر طفت فيه عبادة العقل إثر تقدم العلم الطبيعى والجغرافى على يد العلماء أمثال ، كوبرنيق ،وجاليلو ونيوتن صاحب قانون الجاذبية (١٦٤٢م) . وقد أدى تقدم العلم إلى القول - فى نظر البعض - إلى تفسير ظواهر الطبيعة بربـــط

---

(١)تكوين العقل الحديث ، جـ ١ ،ص ١٤٣ .

(٢)انظر أصل الأنواع ،لدارون ،ترجمة اسماعيل مظهر،ص ٢٩ .
مكتبة النهضة بيروت (١٩٧٣م) .

بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوة أخرى خارجة عن نطاق الطبيعة ، أى دون تدخل من الله . ولقد كان العقل هنا هو كل شىء . أما الدين فهو المعوق - فى نظرهم - وهو ضد الطبيعة وضد العلم ،

ولقد قام العلماء والفلاسفة ،بعد هجوم النظريات الجغرافية والطبيعية على الكنيسة وآرائها التى ناصبت العلم وحاربت العلماء باتخاذ مضاد للكنيسة أخذ أولاً صورة ضيقة ،ثم تحول إلى عنف .

وتمثل الموقف الأول فى الازدواجية التى نادى بها ((ديكارت)) من أنه يجب أن يكون للعقل ميدانه وللدين ميدانه ،وميدان العلم هو الطبيعة ، وميدان الدين هو العالم الآخر والعمل له . . فهنا إبعاد للدين عن الحياة وعن العلم .

ويمثل الموقف الآخر فلاسفة لم يرضوا بالازدواجية وحقدوا على الكنيسة ، وكان منهم سبينوزا الذى طبق المنهج العقلى على الكتاب المقدس ، على أنه ليس وحيا . ولقد وصل من وراء ذلك إلى أن موسى لم يكتب أسفاره فى العهد القديم ، وإنما هذه الأسفار ، المنسوبة إليه من عمل غيره ،كما قرر أن التوراة عينت أسماء أماكن لا وجود لها إلا بعد موسى بقرون . . .

ولذلك فقد ((استدعى أمام كبار رجال الكنيس اليهودى فى عام (١٩٥٦م) بتهمة الهرطقة (١) أو الضلال الدينى . . . وقد ((عرضوا عليه راتبًا سنويًا شريطة أن يوافق على موالاة الكنيس،

---

(١) الهرطقة ،هى الخروج على آراء القساوسة أو الحاخامات أو مايخالف قواعد الكنيسة أو الكنيس- أو أن يجتهد أحد الناس من غير القساوسة أو الحاخامات ،فى تفسير أو مجرد محاولة فهم التوراة . . .

اليهودى والديانة اليهودية بكل مافى الطقوس الدينية العبرانية من إجراءات قاتمة صارمة . . .

ولحظات اللعنة هذه وقرارات الحرمان تحف بها هالة من الخوف والرعب حتى تكون للحاضرين منها رهبة ووجل فلا تحدث احداً لقسه بمثل ما جاء به المطرود ((وكان يسمع أثناء قراءة اللعنة صوت بوق كبير يرسل نغمات نافحة من وقت لآخر، وكانت الأضواء ترى قوية ناصعة فى أول الاحتفال ،ثم تخبو الواحدة تلو الأخرى ، كلما تقدم الحفل ، إلى أن خبت آخر جذوة من الضوء الذى يشير إلى انطفاء الحياة الروحية فى الشخص المحروم . . .

وفيمايلى أعرض نموذجاً لصيغة قرار الحرمان :

((. . بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن ونصب دعائنا على بالروخ سبينوزا ، بموافقة الطائفة المقدسة كلها ، وفى وجود الكتب المقدسة ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموساً المكتوبة بها ،نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة فى سفر الشريعة (١) وليكن مغضوباً وملعوناً ، نهاراً وليلاً ، وفى نومه وصبحه ، ملعوناً فى ذهابه وإيابه ، وخروجه ودخوله ، نرجو الله أن لا يشمله بعفوه أبداً وأن ينزل عليه غضب الله وسخطه دائماً ، ويحمله جميع اللعنات المدونة فى سفر الشريعة .

---

(١) سفر الشريعة ، هو أحد أسفار بنى إسرائيل الخمسة ويسمى بسفر التثنية أى إعادة وتكرار الأحكام الشرعية المجملة فى الأسفار السابقة ولتثنيتها وترسيخها ، وكما أعيد فيه الكلام على الحلال والحرام ونظام القضاء، وينتهى بخبر وفاة موسى عليه السلام . .
اليهودية لأحمد شلبى ص ٢٤٣ .

ونسأل الله أن يخلص أولى الطاعة منكم وينقذهم ، وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة ، أو يتصل به كتابة ، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً وأن لا يعيش معه أحد تحت سقف واحد ، وأن لا يقترب أحد منه على مسافة أربعة أذرع ، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه)) (١)

ولما كان الأمر متشابه فى هذه القرارات فى اليهودية والنصرانية ، يقفان فى ذلك على قدم وساق ، أحببت أن أعرض نماذج من كليهما .

وغير ما ذكرت كثيرون من الأفراد والجماعات والملوك والعلماء الذين تعرضوا لطغيان الكنيسة يضيق المجال عن حصرهم ..

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ترجمة د . فتح الله محمد الشمشع ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .
نشر مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثالثة (١٢٧٥ م)

المبحث الثالث

عصمة البابا وسلطته ومحاكم التفتيش:-

في مجمع روما المنعقد في سنة (١٨٦٩م) تقرر أن البابا معصوم عن الخطأ ، وكل مايقوله حق واجب الاتباع ، وتجب له الطاعة العمياء .. وهذا لايعني أن البابوات قبل هذا القرار ما كانوا يفعلون شيئاً بل كانوا يفعلون كل شيء .. والذي زاد هو العصمة ولهذا فقد كانوا يعيثون فساداً ويقتلون الأبرياء في محاكم التفتيش من قبل ، كما نرى ، ولما كانت الكنيسة معصومة عن الخطأ فكذلك يجب أن يكون القائم على رأس طقوسها له العصمة .. ولهذا فقد ((كانت المثل العليا المسيحية - فيما مضى - متجسمة في مؤسسة متطورة هي الكنيسة التي أخذت على عاتقها أن تكون المرجع المدبر لحياة المجتمع الأخلاقية)) (١) توجهها من وجهة نظر القساس الذين خلعت عليهم رداء العصمة

ولما كان البابا بشراً تجري عليه كل أحوال البشر ، من الخطأ والنسيان والغضب ... ولم يكن نبياً مرسلاً حتى تكون له هذه العصمة الحقة ... فليس بمستساغ عقلاً ولا شرعاً أن تكون العصمة إلا للأنبياء .. ولذلك فقد كثر الفساد وكثر التحريف في الطقوس الكنسية بسبب ما يصدره البابوات من قرارات حرمان لمن لا يرغبون ،

---

(١) تكوين العقل الحديث ، ج١ ، ص١٠٦ .

فيهم من الذين يخالفونهم الرأى ، وصكوك الغفران والتوبة لمن يتقربون إليهم أو لمن يدفع المال . . .

ومن هنا فقد نقم الناس وسخطوا من أفاعيل البابوات ومايصدرونه من قرارات حرمان ضد الأبرياء وصكوك غفران تبرىء المذنبين ، فيحرم البرىء ويعطى الأمان المجرم . (١)

وأن هذا لعمرى فى القياس بديع ، ولكنه مستقيم فى قاموس أولئك الذين رموا بالتوراة والإنجيل وراءهم ظهريًا ، بل لم يكتفوا بتركهما والعمل بما جاء فيهما فقط ، وإنما بدأوا يحرفونها ويغيرون ويبدلون كما يحلو لهم . .

وجاءوا بعد ذلك بكل هذه الزيادات المحرفة ليقولوا إنها من التوراة وإنها من الإنجيل ، وماهى منهما بشىء ، لأن تلك الكتب منزلة من عند الله ، والله ، سبحانه ، لا يعطى العصمة لبشر سوى الرسل الذين اختارهم لتبليغ الناس رسالته . .

ولكن البابوات لحاجة فى أنفسهم خلعوا رداء العصمة على من يريدونه لخدمة مصالحهم . . وما أفاعيلهم فى محاكم التفتيش الآتية ، إلا دليل على ذلك . . .

---

(١) للتوسع فى هذا ارجع إلى الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم جـ ٢ صـ ٩٥ ومابعدها .

ولقد أطلق البابوات والقسس أيديهم فى مخالفيهم حتى من النصارى أنفسهم الذين لم تعجبهم أفاعيل البابوات والرهبان، ولقد نصبوا لهذا ما أسموها بمحاكم التفتيش (١) فجاءت بأفاعيل وأعمال تقشعر منها الأبدان ويشيب لهولها الولدان . ولنرى منها بعض النماذج على سبيل المثال ليتضح كيف كان يفعل هؤلاء البابوات المعصومون والرهبان المتنسكون فى الأبرياء :

((بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس ، أرسل نابليون حملته إلى اسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ((١٨٠٨م)) بإلغاء دواوين التفتيش فى المملكة الإسبانية .

تحدث أحد الضباط الفرنسيين فقال :

((أخذنا حملة لتفتيش أحد الأديرة التى سمعنا أن فيها ديوان تفتيش ، وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب ، إننا فحصنا الدير وسراته وأقبيته كلها ، فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش . فعزمنا على الخروج من الدير يائسين ، وكان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ماشاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطله ، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه ، بصوت خافت وهو خاشع الرأس توشك عيناه أن تطفر الدموع ، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير ، لكن ((اللفيتنانت دى ليل)) استمهلنى قائلاً : أيسمح لى الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟ .. قلت له : فتشنا الدير كله ولم نكتشف شيئاً مريباً ، فماذا تريد يا لفتنانت ؟ . . .

---

(١) أنشأت محاكم التفتيش فى اسبانيا فى عام (١٤٧٨م) وقد قامت قبل ذلك فى فرنسا عندما أراد البابا ((جريجورى التاسع)) محاكمة مخالفى الكنيسة أو الملحدين الهراطقة فأنشأ ديوان التفتيش أو محكمة التفتيش لسحقهم فى عام (١٢٣١م)
انظر قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام .
د . توفيق الطويل ص٦٩ ومابعدها ،دار الفكر (١٣٦٦-١٩٤٧م) .

قال : إننى أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف فإن قلبى يحدثنى بأن السر تحتها . . .

الطريق إلى غرف الحرق والتعذيب:

ويستمر الضابط فى سرد القصة وكيف أنهم وجدوا الغرف فيقول : ((عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة ، فأذنت للضابط بالبحث ، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض ، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة ، وكنا نرقب الماء فإذا بالأرض قد ابتلعته فى إحدى الغرف . فصفق الضابط ((دى ليل)) من شدة فرحه ، وقال ها هو الباب ، انظروا ، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف ، كان قطعة من أرض الغرفة ، يفتح بطريقة ماكرة ، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير .

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق فاصفرت وجوه الرهبان وعلتها الغبرة .

وفتح الباب ، فظهر لنا سلم يؤدى إلى باطن الأرض . فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر ، كانت تضىء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين ، ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوعى يده على كتفى متلطفاً : يا بنى : لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ، إنها شمعة مقدسة !! قلت له : يا هذا ! إن يدى لا يليق أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء ، وسنرى من النجس فينا ، ومن القاتل السفاك ؟ !!

أشكال غرف التعذيب من الداخل :

ويأخذ الضابط في وصف الغرف من الداخل وأشكالها قائلاً : ((وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا آخر الدرج ، فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة ، وهي عندهم قاعة المحكمة ، في وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها .

وأمام هذا العمود كانت المسطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء ، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض رأيت فيها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طول حياتي . رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الانسان ، بعضها عمودي وبعضها أفقي ، فيبقى سجين الغرف الأفقية ممدداً بها حتى يموت ، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى ، ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان . ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي : وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية مازالت في أغلالها . . .

أحوال السجناء وطريقة قتلهم :

((كان السجناء رجالاً ونساء ، تتراوح أعمارهم مابين الرابعة عشرة والسبعين ، وقد استطعنا انقاذ عدد من السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة . كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ماصبوا عليه من عذاب ، وكان السجناء جميعا عرايا ، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء .

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً وهم يقبلون أيدى الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الأليم وأعادوهم إلى الحياة ، كان مشهداً يبكى الصخور ،

آلات التعذيب:

ويستمر الضابط معرفاً بآلات التعذيب والقمع التى كان يمارس بها القسس تقاليع أوصال مخالفيهم من مختلف الأعمار رجالاً ونساء وأطفالاً : ((ثم انتقلنا إلى غرف أخرى ، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب ، منها آلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى ، كانوا يبدأون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً ، حتى يهشم الجسم كله ، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة ، والدماء الممزوجة باللحم المفروم . هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين .

ثم عثرنا على صندوق فى حجم رأس الانسان تماماً ، يوضع فيه رأس الذى يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة ، وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام ، فى كل دقيقة نقطة ، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب ، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت .

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة .

كانوا يلقون الشاب المعذب فى هذا التابوت ، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجر ، فاذا أغلق مزق جسم المعذب وقطعه إربًا إربًا .

كما عثرنا على آلات كالكلاليب ، تغرز فى لسان المعذب ثم تشد ليخرج اللسان معها ، ليقص قطعة قطعة ، وكلاليب تغرس فى أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين .

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم وتتناثر لحومهم)) (١)

هكذا أطلقت الكنيسة العنان لهؤلاء البابوات وعصبتهم من كل خطأ ولو دمروا كل هذا العالم فهم فى عرفها أو قل عقيدتها غير مخطئين ولا مذنبين .. وهذا هو فعل النساك والرهبان فى أديرتهم وأقبيتهم التى تدنست بدماء البشر من غير جرم اغترفوه ولا جريرة جرموها ...

---

(١) قادة الغرب يقولون : دمروا الاسلام أبيدوا أهله ، جلال العالم ص ١٠ — ١٥
الطبعة الثانية (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م)

: : المبحث الرابـــع : :

: : الرهبان وكيف يعيشون فى أديرتهم : :

لا تعدو الرهبنة أن تكون جاءت نتيجة لعوامل ثـــلاثة:

الأول : نتيجة للشعور بالخطيئة الموروثة الملصقة بالانسان فـــى نظر النصرانيـــة ، التى ورثها البشر عن أبيهم آدم الذى غـــوى فأكل من الشجرة ، وقامت أساسا على تعذيب الجسد بترك الملذات والعزوف عن الدنيا ، تأسيًا بالمسيح الذى صلت من أجل تكفـــير الذنوب ومحو الخطايا فى زعمهم . . .

الثانى : هو التأثر بالديانات الشرقية ، كالهندوكية والبوذيـــــة التى تدعو للتقشف ونبذ العيش الرغد ، فقد كان بوذا يذهـــب إلى العراء فى زمهرير الشتاء ويلقى بنفسه فى العراء من غـــــير غطاء ، تعذيبًا للنفس لتصل للكمال ، كما كان يلقى بها عـــــلى الشوك والأحجار . . ويدعو أتباعه لذلك ، حتى اشتهرت البوذية بتعذيب النفس وحرق الجسد . . وليس غريبًا أن تتأثر النصـــرانية بعقائد الشرق الوثنى ((فإن سريان العقائد من الشرق إلـــــى الغرب فى تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التى توئيدهـــا جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل)) (١) ولـــم تأخذ النصرانية من الشرق التقشف وحده ،بل أخذت كذلـــك غيره كالتثليث مثـــــلاً .

---

(١) انظر حياة المسيح فى التاريخ وكشوف العصر الحديـــث للعقاد ص ٦٠ دار الهلال (بدون تاريخ) .

الثالث : جاء نتيجة رد فعل للمادية اليهودية . فقد كان اليهود - ولا يزالون - عبيداً للمادة وجمع المال وتكديس الثروات التى يسيطرون عن طريقها على العالم ، فلما كانوا مناهضين للنصارى ومضطهدين لهم ، رغب النصارى فى الانزواء والعزلة فى معابدهم وأديرتهم فراراً من أفاعيل اليهود . . .

ومن هذا المفهوم دخل بعض القسس الأديرة واعتكفوا فيها .

وكانوا فى بادىء الأمر يحتجبون عن الناس ويحجبون عنهم . . . ثم خف هذا الأمر شيئاً فشيئاً . . .

ولكن هذه الأديرة التى كانت محلاً للعبادة ، لم يطل عهدها على ما كانت عليه بادىء ذى بدأ ، حتى دب فيها الفساد وانتشرت الفاحشة بين الرهبان والراهبات .

ولا عجب إن وجدنا هذه ((الأديرة تحتوى على فساد عميق ، وهيهات أن يوجد بها من يصلح للبقاء ؛ إذ أنها تضم بين جدرانها أفاقين أولى بهم غيابات السجون)) (١)

---

(١) مجلة رسالة الحياة النصرانية ، السنة الأولى العدد السادس ص ٧٤ .

((ويهاجم جسب)) نظام الأديرة كله ويذكر أنه كان لعنة على سورية ، ثم يقول : إن بعض هذه الأديرة كان مستقراً للفاحشة)) (١)

وقد كان فساد الرهبان والراهبات فى الأديرة يعتبر من أكبر الجرائم التى وقعت فيها الكنيسة ، ومن أكبر أسباب النقمة عليها والثورة ضدها وضد نظمها مما أدى إلى عزلها أخيراً عن الحياة الاجتماعية والسياسة .

ولهذا سوف أنقل قليلاً من التفصيلات عن كتاب ((الديارات)) للشابتشى (٢) عن هذه الأديرة لإلقاء الضوء على مايدور بداخلها .

دير درمالس :

(٣)
قال عنه الشابتشى : ((هو من البقاع المعمورة بالقصف والمقصودة بالتنزه والشرب ، وعيده أحسن عيد يجتمع نصارى بغداد به ... ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، ويقيم الناس فيه الأيام ويطارقونه فى غير الأعياد .

---

(١) التبشير والاستعمار ، د . مصطفى خالدى ود . عمر فروخ المكتبة العربية بيروت ط ٥ ، ((١٩٧٣)) عن
JESSUP 669 - 680

(٢) هو محمد بن إسحاق أبو عبد الله الشابتشى : صاحب خزانة كتب عبد العزيز بن المعز بمصر والمتولى عرضها . وكان من أهل الفضل والأدب . وله عدة تصانيف منها : الديارات وكتاب اليسر بعد العسر وغيرها .. قيل مات ((٣٩٩هـ)) فى أيام الحاكم بن عبد العزيز ، وقد اختلف فى زمن وفاته كما اختلف فى زمن ولادته معجم الادباء .

(٣) القصف ـ بفتح القاف وسكون الصاد ـ أماكن الأكل والشرب واللهو وأصله الإقامة فى الأكل والشرب . انظر الرائد حرف القاف .

((ولابى عبدالله ، أحمد بن حمدون النديم ، (١) فيه أبيـــات منها :

يادير درمالس ما أحســـنك * ويا غزال الدير ما أفتنـــك
لئن سكنت الدير ياسيدى * فإن فى جوف الحشا مسكنك

دير الثعالب:

يذكر الشابشتى عن هذا الدير ؛ أنه لا يخلو من أهل البطالات ، والتطرب ، واللذات فمواطنه أبداً معمورة وبقاعـــة بالمتنزهين مشحونه ويذكر فيه أبياتاً منها :

دير الثعالب مألف الضلال * ومحل كل غزالة وغـــزال
كم ليلة أحييتها ومنادمى * فيها أبحّ مقاطع الأوصـــال
سمح يجود بروحه فإذا قضى * ومضى سمحت له وجدت بمـــالى
ومنعم دين ابن مريم دينـــه * غنج(٢) يشوب مجونه بســـدلال

والتشبيب فى هذا الدير بهولاء الحسناوات المنعمات المفنجات ، ظاهر وواضح ؛ فالرهبنة التى كانت للخشونة وجفاف الجسم ونقائه وصفاء الروح ؛ صارت تنعماً وتفنناً فى ضـــروب الزينة حتى جلبته الصـــبابة والهـــوى ...

---

(١) أديب لغوى من أهل المائة الثالثة للهجرة معجم الأدباء (جـ ١ ، ص (٦٣٥) .

(٢) غنج : يقال : غنجت المرأة غنجاً : تدللت على زوجهـــا بملاحة كأنها تخـــالفه وليس بها خلاف ، فهى غنجـــة ومغناج . انظر المعجم الوسيط جـ ٢ ص (٦٧٠) بـــاب الغين .

أما الدير الذى نحن بصدد الحديث عنه فإنه يطابق اسمه مسماه ألا وهو :

دير العذارى :

يقول فيه الشابتشى :

((إنه سمى بدير العذارى إذ أقيم لبعض الجوارى المتبتلات العذارى فكن سكانه وقطانه ، فسمى الدير بهن ...

ويحكى الشابتشى عن هذا الدير قصة يرويها عن الجاحظ (١) فيقول :

قال الجاحظ : ((حدثنى ابن فرج الثعلبى أن قومًا من بنى ثعلب أرادوا قطع الطريق على مال السلطان ، ولكن السلطان عرف ذلك فأتبعهم برجاله فاختفوا فى دير العذارى ، فلما أمنوا خلا كل واحد منهم بجارية كان يظنها عذراء ولكنهم جميعًا تبينوا أن القس الذى كان موكلاً بحماية الدير قد اعتدى عليهن جميعًا)).

أما دير مرمار : الذى يقع فى ((سر من رأى)) والتى تعرف فى الوقت الحاضر بسامراء ، فيذكر الشابتشى : أنه من مواضع النزهة ، ويحكى عنه قول الشاعر :

---

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء ، الليثى أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ : كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مولده ووفاته بالبصرة . فلج فى آخر عمره ، وكان مشوه الخلقة . ومات والكتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقت عليه . له تصانيف كثيرة منها : ((الحيوان)) وهو أربع مجلدات ((والبيان والتبيين)) و ((والبخلاء)) وغيرها كثير .. (١٦٣ - ٢٥٥هـ)

انظر الأعلام للزركلى جـ ٥ حرف العين .

أمضيت فى سر من رى خير لذاتى

ونلت فيها منى نفسى وشهواتـــى

عمرت فيها بقاع اللهو منغمساً فى القصف مابين أنهار وجنـــات

بدير مرمار إذ نحى الصبوح به ونعمل الكأس منه بالعشيـــات

بين النواقيس والتقديس آونة وتارة بين عيدان ونيـــايات

وكم من غزال أغيد (١) غـــزل يصيدنا باللحظات البابليـــات (٢)

تلكم هى الأديرة ، وهذا هو شأن الرهبنة كان ومـــازال إلى يومنا هذا .. الرهبنة التى كانوا يخدعون بها الناس وأنهم المنقطعون للعبادة الذاهلون بالله . فلما افتضح أمرهم وفشـــا سرهم ، ثار عليهم الناس ... بل وبضلالهم هذا بغضوا النـاس فى الدين بعامة وفى النصرانية بخاصة حتى عملوا مؤخراً على عزلها عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ونحوها عن الشئون السياســية وشئون الحكم .

وانحصر سلطان الكنيسة فى الدول الغربية فى نطـــاق ضيق لا يتعدى بعض الشعائر الدينيـة ... بينما أقصيت تمـاماً بل ومحى أثر الدين فى المجتمعات الشيوعية ...

واليوم ، وبعدما عزف الناس عن الكنيسة بسبب الحقـد الدفين الذى ورثوه عن الأجيال السابقة من العلماء والمخترعين الذين أبادتهم الكنيسة .. بعـــــــد ذلـــك ،

---

(١) أغيد : الأغيد من النبات : الناعم المتثنى والأغيد مـــن الناس الوسنان المائل العنق . انظر المعجم الوسيط جـ ٢ ، باب الغين ص (٦٧٤)

(٢) الديارات للشابشتى ، تحقيق ، كوركيس عواد ، ص ٣ ومـا بعدها مطبعة المعارف ببغداد ، الطبعة الثانـــية (١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م) .

الصنيع . . وبعد أن رأوا ترك الناس لهم واتجاههم نحو السادة؛ صار الرهبان اليوم ، يرتلون الصلوات على أنغام الموسيقى ويبنون الخمارات والحانات بجوار الكنائس رغبة فى أن يجلبوا الشباب إليها ويرغبونهم فيها .

. : الطقوس على الطريقة الحديثة : .

وأستسمح القارىء أن أسوق هذه القصة التى رواها شاهد عيان أحسبه ثقة ، إن شاء الله تعالى؛: تحت عنوان : أمريكا من الداخل : كتب الأستاذ

يوسف المظام يقول :

((ومن الفواجع المذهلة فى عالم ((التدين)) الأمريكى أن يقف قس فى هيكل الكنيسة ليعقد ، عقد زواج . . . بين رجل ورجل . أحدهما يمثل دور الرجل والآخر يمثل دور المرأة ، ويوقع القس العقد ويباركه ثم يختم بخاتم الكنيسة . . . !!

ويقول الأستاذ : إن عدداً من الولايات حاولت إصدار قانون لمنع الخمور . . . وإن فشلوا فى ذلك وتركوا الأمر لكل ولاية بإنفراد . . . ولكن القوم أجمعوا على أنه لا يجوز منع الخمر فى الكنيسة لأنها من الأمور الضرورية لأداء الطقوس الدينية . . ! !

ويسوق الأستاذ بعض المنكرات التى تحاول الكنيسة أن تجذب بها الرواد إليها بعد أن جذبهم ((ميغناطيس)) المادية الذى لم تجد الكنيسة عندها مادة تقاومه بها . ((ومن الطرف ما نسوقه من صور ((التدين الضرائبى القلق)) فى دنيا الحضارة المادية التعسة ما ابتكرته بعض الطوائف الغربية فى عالم العبادة والصلوات : كنيسة السيارات .. حيث ينطلق المواطن الذى لا يحب أن يضيع وقته أو يعطى ربه الذى يعبد ساعة من أسبوع ليدخل بسيارته ساحة كبيرة ومعه فى السيارة أسرته أو عشيقته أو نفسه المعذبة ، ثم يطفئ محرك السيارة ويتجه بنظره - دون أن يغادر السيارة - إلى منصة الكاهن الذى يقف يرجو المؤمنين فى سياراتهم أن يضئ من يلفه صوته ضوء سيارته ليتأكد الكاهن من وصول الصوت لآذان المصلين ....

وتطفأ الأضواء فى السيارات جميعاً .. ويقف الكاهن وحده ، وقد سلطت عليه الأضواء يتلوا الموعظة ويرتل الصلاة .. وعند الانتهاء يخرج الجميع من ساحة كنيسة السيارات فى نظام وتنسيق .. بإشراف موظف خاص فى الكنيسة مهمته تنظيم المسيرة وخروج المركبات بانتظام .

ويختم الأستاذ قوله بأنه ((بقى أن يعلم النـاس أن الدخول لساحة الكنيسة يتم بعد وضع ما تجود به النفس فـــى صندوق خاص عند البوابة الكبرى لكـنيسة السيارات العجيبة)) (١)

والظاهر أن ((كروت)) صكوك الغفران قد قل طالبوهـــا فدبر الرهبان حيلة أخرى لاستنزاف الأموال وابتزازها .

من جنايات الكنيسة !!

ومما أثار على الكنيسة حفيظة الناس وبغضهم ، أنهـــا جعلت من الكتاب ((المقدس)) شيئاً لا يمكن أن يصل إلى فهمـــه إلا الخاصة من القسس والرهبان .. فهم وحدهم الذين يحـــق لهم تفسير نصوصه واستقراء مافيه من أحكام وغيرها ، فحجـــرت بذلك على العقول حتى التفقه في دينها ليكون ذلك حكـــراً عندهم ليكتبوا عن طريقه صكوك الغفران ، ويصدروا قرارات الحرمان

وأعطت الكنيسة للقسس سلطات تشبه سلطات الآلهـــة بحيث أنهم يتصرفون وكأن الواحد منهم إله ،لا يخطئ، كما فعلت في عصمة البابا ، وأحاطتهم بهالة لا يمكن أن يصل إليها أحـــد إلا من قربوه وباركوا له تـلك المكـانة . . .

ومن تعسف الكنيسـة وتحطيمها للفكر الانسانى . أنـــه على النصرانى أن يؤمـن أولاً بالعقائد النصرانية ثم بعد ذلـــك يروض عقـــله على فهمهـــا كمـا هى عليه من غـير إبداء رأى ،

---

(١) مجلة المجتمع ، العدد ، ٤٢٨ ، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)

رأى فيما جاء من عند القسس . . . إذ ((يجب أن تعتقد أولاً ما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت)) (١)

وقد ضج الناس وزمجروا من معتقدات ، او بالأحرى معتقدات ، الكنيسة المتغيرة المتجددة ، فهى تغير وتبدل فى طقوسها كما يحلو لقسسها ، ((فالطقوس كانت تغرق العالم فى سبات عميق دون فعل المخدرات . والرهبان أو بالاحرى أشباه الرهبان . كانوا يسيطرون على ضمائر الناس لأنهم أوثقوهم بعقد لا تحل)) (٢)

وفى سلطة الكهنة المطلقة والتى ذكرت : أنها تشبههم بالآلهة ، وتحيطهم بهالة من القداسة ، ماورد فى إنجيل ((متى)) ما نصه :

((الحق أقول لكم ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ماتحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء . .)) (٣)

هذا التقليد الأعمى والتسليم الذى لا يقبل الأخذ والعطاء من قبل مايقوله الكهنة ، جعل الجفوة تزداد عمقاً يوماً بعد يوم بين المستنيرين والكنيسة ورجالها ، فهم يرون أن ((الرئيس الكهنوتى إذا قال لشخص : إنه ليس بمسيحى صار كذلك ، وإذا قال : إنه مسيحى فازبها ، فليس المعتقد حراً فى اعتقاده ، يتصرف فى معارفة كما يرشده عقله بل إنه مشدود بشفتى رئيسه الدينى)) (٤) .

---

(١) المسيحية ، جـ ٢ ص ٢٦٧ ، عن القديس ((انسليم)) .

(٢) تكوين العقل الحديث ، : جـ ١ ، ص ٢٤٧ .

(٣) متى الإصحاح ١٨ ، النقرة ١٨ ، ٥ .

(٤) المسيحية لشلبى ، عن الاسلام والنصرانية لمحمد عبده ، ص ٢٧ .

وكما ذكرت آنفاً ، بأن هذه النظم والطقوس الكنسية هي من اختراع القسس والرهبان من أمثال بولس ((شاؤل)) اليهودى فإن أكثر مادخل النصرانية من وثنيات وعقائد فاسدة كان هو السبب فى نشرها .

والناظر فى النصرانية بعمق وروية يجد ((أن دراسة تعاليم يسوع دراسة دقيقة تبين أن المسيحى العادى يؤمن بأن الانسان بطبيعته فاسد ، وبأن أمله الوحيد بالخلاص هو بهبوط الرحمة عليه من قوة عليا . وبأن المسيح قد صلب ليكفر عن خطايا البشر ، وبأن دمه قد هرق على الصليب لغفران خطايا البشر ،وبأن الكنيسة هى الباب الذى يجب أن يدخله جميع من يودون الاتصال بالله وبالمسيح .

وقد نشأت هذه العقائد جميعها من كتابات بولس، وليس بالإمكان إسناده إلى يسوع بأى حال من الأحوال ، فمن يقابل بين عظة المسيح على الجبل وبين رسائل بولس الرسول يظهر له الفرق واضحاً سواء كان فى المعنى أو فى المبنى)) (١)

وبهذه التعقيدات التى تبرأ منها الأديان ، تسببت الكنيسة فى علمنة الحياة مما جعل كثيرًا من العلماء يجنحون لمعاداتها ، وقد كان ((فولتير)) من أعدى أعدائها ، حتى أنه نقد الدين ورجاله ، ونقد المعجزات النصرانية وحارب الكنيسة ورجالها ، حتى أنه أسمى النصرانية . بالكائن الوضيع.

---

(١) العلاقات الاجتماعية فى الشرق العربى ،د . ستيورات ضود ، ترجمة فريد جبرائيل ،ص٩٧ ١م ، نشر دار الكتاب بيروت .

وقد اشتدت هجمات ((فولتير)) على الكنيسة ((بعد منتصف القرن الثامن عشر ، عندما أصبحت مزاولة الخرافة والاضطهادات الدينية معرة العصر ، فانقض على الكنيسة يهاجمها فى كل ميدان من ميادينها ساخراً متهكماً ، وكانت أولى حملاته كتيب أسماه ((مقبرة التعصب)) وضعه عام(١٧٣٦م) ولم ينشر إلا عام (١٧٦٧م) وقال فى مطلعه : إن من يعتنق دينه من غير تفكير ـ شأن السواد الأعظم من الناس ـ كالثور الذى يستسلم للنير ويحمله راضياً : ومضى بعد هذا إلى ما تضمنته الأناجيل من وجود الخلاف والإبانة عن نشأة المسيحية وتاريخ الكنيسة ـ هذا التاريخ الذى يقول إن كل رجل عاقل لا يملك إلا أن يفرق فرقاً من اعتناق المسيحية . إن الأعمى هو الذى يؤثر على الدين الطبيعى الذى يمتاز بالبساطة ويشارك فى الإيمان به جميع الناس، عقيدة متناقضة سفاكة للدماء ينتصر لها الجلادون وتحيط بهم عصبة من الأشرار . . . عقيدة لا يذعن لها إلا الذين أفادوا منها سطوة وثراء ، عقيدة خاصة لم يعتنقها إلا عدد قليل من سكان هذا العالم)) (١)

والكنيسة هى التى جعلت ((فولتير)) ينادى بإبعاد الدين عن الدولة ويصف التوحيد بين الدين والدولة أبشع نظام ، ويجب القاؤه وإقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيه الراهب للقاضى . . ولهذا سمى العهد الذى انفصلت فيه الكنيسة عن الدولة بعصر النور أو عصر النهضة .

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ،د . توفيق الطويل ،ص١٩٠ مكتبة مصر الطبعة الثانية (١٩٥٨م) .

المبحث الخامس:

.. عصر التنوير أو عصر النهضة : .

كانت الكنيسة فى العصور الأولى ، وحتى حوالى القرن الخامس عشر ، تمسك بزمام الأمر ، بالرغم من حركات الإصلاح ، فهى التى تنصب الملوك وهى التى تتوجهم وتجرى لهم المراسيم وهى التى تصدر الرأى الأخير فى كل مكتشف علمى أو رأى دينى فتبطل مالا يوافق هواها وتبقى على ما تريده ، ((وتعد كل رأى يخرج على معتقدها فى أى شىء ، تعده هرطقة ، وهى فى مفهوم الكنيسة مخالفة ما تقول به أو تعتقده ، فرأى يراه عالم فى العلوم الكونية وهو يخالف مفهوم الكنيسة لهذا الكون أو لهذا العلم المكتشف تعده هرطقة ، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسى ، هرطقة ، وانتقاد شىء يتصل بالكنيسة ، هرطقة بل وحتى مساعدة أى واحد من هؤلاء أو قل الرضى عنه أو عن اتجاهه يعد فى حساب الكنيسة هرطقة ...)) (١)

ولهذا عندما استنار الناس واطلعوا على العلوم الكونية واكتشفوا أن ما تزعمه الكنيسة يخالف الواقع المحسوس ولا سيما نحو العلوم الطبيعية ، عند ذلك أخذوا يخرجون على تعاليم الكنيسة ، فرأت أن الهرطقة قد كثرت ، ومن هنا جن جنونها .. فأنشأت محاكم التفتيش لقتل العلماء وحرقهم وهم عاكفون على مايفيد بنى الانسان ،

---

(١) المسيحية لشلبى ص ٢٥٦ .

يبحثون وينقبون ويكتشفون داخل مختبراتهم العلمية ((وكان من ضمن هؤلاء ، أبيلاس ، العالم الفلكى الطبيب والجغرافى ، فأحرقت كتبه العلمية والجغرافية وسجن هو حتى الموت وأوقعت محاكم التفتيش بالهراطقة والأبرياء دون تمييز فقد كان الإيقاع بالناس وقتئذٍ دليل إخلاص للكنيسة)) (١)

ولهذا التعسف من الكنيسة ،لم يصل النور إلى أوربا فى عصورها المظلمة إلا بعد اتصالها بالعالم الإسلامى الذى كان فى أوج حضارته ، ومن وقتها اتجه الأوربيون صوب ((المعرفة العلمية التى وجدوها فى مكاتب العرب وجامعاتهم الفنية. وحين أخذ الغرب يستيقظ فى القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الاسلامية بنتيجة فعل المتعصبين (٢) من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى اسبانيا (٣) ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً كان أرسطوا بالرغم من عبقريته عاجزاً كل العجز عنه ، وهو العلم الرياضى الآلى ويظهر أن عظمة العرب كانت كامنة فى مقدرتهم على تمثل أفضل ما فى التراث الفكرى للشعوب التى احتكوا بها أكثر مما كانت فى أى إبداع أصيل (٤) . فقد أخذوا من العالم اليونانى المعرفة الرياضية والطبيعة التى احتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون

---

(١) انظر المسيحية ، لشلبى ،ص ٢٥٧ .

(٢) هكذا شأن المستشرقين أعداء الاسلام ، ينعتون المسلمين المتمسكين بدينهم والمتحمسين له الحاملين رايته ، والآخذين مشاعل الهداية والعرفان إلى العالم تضئ له ظلمات الجهل والظلم، يصفون هؤلاء العلماء المسلمين ،بالمتعصبين . حتى غدت هذه الكلمة يوصف بها المسلم المتمسك بدينه ،مما جعل ضعاف الإيمان من المسلمين يظهرون بمظهر المتحرر المتحلل من هذه (العصبية) . . . ،

(٣) يعنى بذلك الفتح الاسلامى للأندلس الذى نسيه المسلمون اليوم وأخشى أن ينسوا كذلك بيت المقدس إذا طال بهم الأمد

(٤) يلاحظ هنا أن المؤلف يجرد العرب المسلمين من الابتكار ويجعل براعتهم فى تمثل إنتاج غيرهم ،مع أنهم سبقوا الغربيين فى الابتكار . . وابتكروا أشياء لم تكن موجودة عند اليونان آنذاك.

جانباً ، وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الـــذى ازدراه الأغريق فى أوج عظمتهم . تابعين طريق التطور البطىء والتكيف العملى ... وبنوا فى القرن العاشر فى اسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ،بل كان علماً طبق عـــلى الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وعلى الأجمال كـــان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العملية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة)) (١)

الكنيسة تعاقب رجال الإصلاح والعلماء :-

وبعد ذلك اللقاح الفكرى العلمى الذى أخذته العقليـــة الأوربية عن المسلمين ،الذى أوصلهم إلى عصر النهضة الذى كـــان أنصاره خليطاً من رجال العلم وبعض القساوسة الذين شجعهـــم على ذلك التيار الجارف ،فغامروا ، هم كذلك فى هـذا السـبيل ، فكان عليهم أن يظهروا بمظهر العارف المطلع ، مما جعل التهذيب يشملهم كذلك ..

وما إن جاء القرن السادس عشر حتى طفح الصاع وظهـــر كثير من المصلحين الثائرين على نظام الكنيسة ، وكان من أبرزهـــم ((مارتن لوثر)) الألمانى (١٤٨٣م- ١٥٤٦م) حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أصدرت قرارات حرمان فى حق بعض ملوك المانيا- مما أزعج لوثر فقساد حركة إصلاحية تهدف إلى تحرير العقـــل من قيود الكنيسة ، وجعل الكتاب المقدس ملكاً مشاعاً لكل من لـه معرفة أن يفسر نصوصه ويطلع عليه بنفسه دون وساطة البابـــا .. كما دعا إلى الرجوع إلى التوراة مباشرة دون وساطة كذلك ... وقد احتج على كبح الآراء وإحراق المخالفين للكنيسة .. واحتـرام رأيـهم ... (٢)

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ ١ ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) للتوسع انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ٤٥ ومابعدها .

وكان ، مارتن لوثر ، راهباً عالماً دارساً للاهوت ، وعندما ذهب ليحج فى روما ، أزعجته صكوك الغفران التى تباع وتشترى . . واستغرب كيف ينجو القاتل ومغترف الذنب ، الذى أخذ حقوق الناس وظلمهم . . . كيف ينجو بذلك المجرم من كل جرم جره بصك يشتريه من قسيس بشر مثله ! ؟ ويترك صاحب الحق فى ذلك ، وهو الله : والذى زاد الأمر غرابة أن هذا الغفران يصدر من غير أن يعفو صاحب الحق المهضوم ؛

وعندما عاد لوثر إلى ألمانيا لاحقته صكوك الغفران هناك ، وذلك عندما احتاج البابا ((ليو)) لبعض المال ليعيد به بناء كنيسة ((بطرس)) فأراد أن يبيع صكوك غفران ليحصل بها على المال اللازم لهذا الغرض . . . وهنا ثار لوثر وعلق احتجاجاً على باب الكنيسة ، فطلبته لتحاكمه أمام محاكم التفتيش فرفض الانصياع لها ، فأصدرت قراراً بحرمانه من الحقوق المدنية والقانونية حيث أصبح بذلك مباح الدم . . . . (١)

وإذا نظرنا إلى العوامل التى أثارت العلماء ضد الكنيسة نجد أنه ((لم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة ، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن ،

---

(١) المسيحية لشلبى ، بتصرف ، انظر ص ٢٥٨ .

واشتهر بين الناس وذكر بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريهـــا من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وصبغوها صبغة دينيـــة وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبـــذ كل ما يعارضها ، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف ؛ سموا هـــذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان : الجغرافية المسيحية : CHRISTIAN - TOPOGRAPHY)) وعضوا عليهـــا بالنواجز وكفر كل من لم يدن بها ... وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوربا ... فزيف العلماء هذه النظريـات الجغرافية الطبيعية التي اشتملت عليها هذه الكتب ... واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب وأعلنوا اكتشافات علميـة واختبارات ، فقامت قيامة الكنيسة .. تعاقب أولئك الزنادقـــة الملحدين الذين انتشروا في المدن والبيوتات والأسراب والغابات والمغارات والحقول ؛ فجدت واجتهدت وسهرت وأحصت على الناس الأنفاس وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني : ((لا يمكن لمسيحي أن يموت حتف أنه ، ويقدر عدد من عاقبتهم محاكـــم التفتيش الكنسية (١) بثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثـون ألفًا أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف ((برونو)) نقمت منه الكنيسة آراء من ألدها قوله بتعدد العوالم وحكمت عليـه بالقتل ، وعوقب العالم ((جاليلو)) لاعتقاده بدوران الأرض)) (٢) بالسجن الذي ظل فيه حتى كف بصره ، بل وأجبرته محكمـــة التفتيش على إعلان تراجعه عن قوله بدوران الأرض تحت الإرهـــاب والتعذيب حتى قال للبابا : ((أنا جاليلو وقد بلغت السبعين مـــن عمري سجين راكع أمام فخامتك ، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي أرفض وألعن وأحتقـــر القـــول الخاطـــئ

---

(١) انظر ص ٤٩٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ص ١٧٥ دار الكتاب بيروت ، الطبعة السابعة (١٩٦٧م) وانظر كذلك ، قصة النزاع بين الدين والفلسفة د . توفيق الطويل ص ، ٢٠٢ ومابعدهـــا .

الإلحادى بدوران الأرض ..)) (١)

ومن الذين ذاقوا مرارة التعذيب لمكتشفاتهم العلمية إسحاق نيوتن ، (١٦٤٢م) الذى اكتشف قانون الجاذبية ، فعدت الكنيسة هذا الاكتشاف أنه استبدل بعناية الله قوة الجاذبية وأنه أنـــزل رب الخلق عن عرشه وسلبه عمله المباشر فى خلق الكون [illegible] على نحو ما تقرر فى الكتب المقدســة)) (٢)

وغير هؤلاء كثيرون قتلوا وشردوا ، بل حتى الملوك والأمراء (٣) لحقهم مالحقهم من رجال اللاهوت وقيدت حريتهم فى تصريـــف شئون دولهم ، فهذا هو أمير ((تولوز)) بجنوب فرنسا يهـــدد على يدى أحد البابوات فإنه عندما ((فشا الإلحاد ... على يـــد الإلبيين من رعايا أمير تولوز ، وكان هذا فى عهد ((أنوسنت الثالث)) الذى بلغت البابوية على يديه أوجها فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته فأبى الأمير أن يذعن لطلبـــه ، وعندئذ نسخت الكنيسة لإبادة الحركة واستئصال أعوانهـــا ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها ، وصبت عذابها على أعدائها ولو كانوا نساء أو أطفالاً ، وتعقبتهم شنقاً وحرقاً وإعداماً ... استسلم الإلبيون فى عام (١٢٢٩م) وخضـــع للكنيسة أمير تولوز ... (وأعلنت الكنيسة هذا المبدأ) : يحتفـــظ الحاكم بعرشه ، حتى قام بواجبه فى استئصال الإلحاد فـــإن تردد فى الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الملحدين ، أكره على الطاعة ،

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة د . توفيق الطويل ص ٢٠٥ وقد قيل إن جاليلو حين نهض قائماً ركل الأرض برجله قائلاً : ومـــع ذلك فهى تدور !!

(٢) انظر المرجع اعلاه ، ص ٢١٧ .

(٣) من أولئك ((هنرى الرابع)) ملك انجلترا الذى حرمه البابا من الجنة فامتنع الناس من دفع الضرائب لحكومته .. حتـــى ذهب إلى روما وظل راكعاً أمام بابه فى الفاتيكان وزمهرير الشتاء يلفح جسده .. حتى عطف عليه وعفا عنه .. فعاد الناس لدفع الضـــرائب ..

وصـــودرت أمـــلاكه وبيعـت لأعـوان الكنيســـة ، وعـــــــرض نفســـه للاعتقســـال والاذلال ..)) (١)

والأمثلة على ذلك كثيرة يضيق المجال عن ذكرها . . . وبهذا تعتبر الكنيسة قد مهدت لظهور الأفكـار المضـــادة للدين ورميه بمعارضـــة العلم والمخترعات العلمـــــية .

---

(١) قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ،د. توفيق الطويل ص ٦٧ دار الفكر العربى القاهرة (١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م) .

الفصـــل الثـالـــث :

نتائج أعمـــال الكنيسـة وتعســـفها :

ويشمـل مـايلى :-

١- الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) وليدة الماســـــــونيـة

٢- الماسونية تعمل على علمـنة العـــالم.

٣- الماسونية الصهيونية تنقل العلمانية والمبادئ الهدامـــة إلى العالم الاســـــلامى.

٤- الفلسـفة المادية تؤدى دورها فى العلمانيـــــــة.

٥- الهيجيليـــة والماركســـــية.

٦- أطـــوار العلمانيـــــــة.

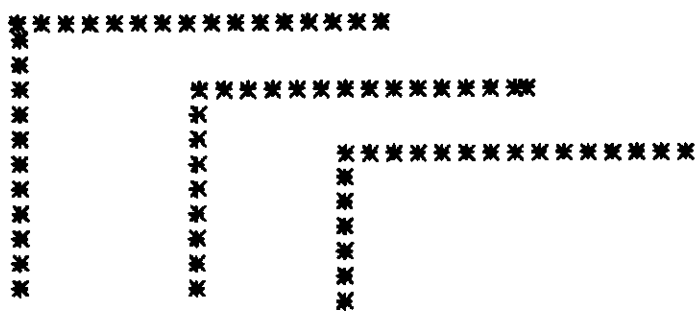

الفصل الثالث :-

نتائج أعمال الكنيسة وتعسفها :

ونتيجة لطغيان الكنيسة ومبادئها المتحجرة وتكميمها الأفواه ، وحجرها على العقول ، أن ولدت الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) التى قامت مبادئها على العلمانية ...

وثم محرك أساسى لتلك الثورة الفرنسية ألا وهو الماسونية اليهودية التى لم تجد لها ملجأ تظل تحته رأسها ولا وكراً تأوى إليه ... فعملت على تحريك شعوب الكنيسة المغلوبين على أمرهم ، واستغلت حركات الإصلاح الدينى ضد الكنيسة كما عملت على إثارة الصدور الملتهبة من قبل أولئك العلماء الذين رأوا إخواناً لهم يحرقون بالنار تلهب صدورهم وهم أحياء وتحرق فى أذهانهم العلم والفكر المستنير ... وكما هو دور اليهودية الماكرة أن تصطاد دائماً فى الماء العكر وتدخل وسط الزوبعة فتزيدها ضجيجاً ...

فهى عندما وجدت النار مشتعلة زادتها حطباً وأزكت أوارها ، وهؤلاء هم ((مشيخة صهيون يقولون عن الثورة الفرنسية فى بروتوكولاتهم التى وضعوا فيها مخططهم للاستيلاء على العالم بأجمعه كما هى أمنية اليهود وحلمهم الذى يداعب أجفانهم عندما يمسها الكرى (١) .

---

(١) الكرى : هو النعاس.

فوهموا بصنيعهم هذا قائلين لشعوب العالم ،بأنكم أيها الشعوب ((إذا عدتم بالذاكرة إلى الثورة الفرنسية التى وصفناها بالكبرى تجدون أن سر إعدادها كان معروفاً لنا ،لأنها كانت بتمامها من صنع أيدينا ، ومنذ ذلك الحين ونحن نقود الأمم من خيبة إلى خيبة بغية حملها على العدول عنا إلى الملك الحاكم بأمره من سلالة صهيون الذى نعمل بجد على إعداده لحكم العالم)) (١)

والصهيونية اليهودية هى العامل الأساسى فى تخريب الديانة النصرانية ، وهدم أركان الكنيسة وتفويض سلطانها ،وبالتالى فهى تعتبر المؤشر الأول فى جلب الحقد على الدين بسبب إدخال المبادىء الفاسدة للكنيسة ، وإذا تقرر هذا القول فإن الدليل عليه من أقوالهم حين قالوا :

((ولقد وجهنا أعظم اهتمامنا إلى رجال الدين المسيحى فحسنا تعهدهم وأسقطنا هيبتهم ...)) (٢)

ويستمرون فى القول على إفساد رجال الدين النصرانى إلى أن يأتى الدور على الدين نفسه ، وكيف عملوا على إفساده حيث يوجهون الضربات ((... إلى رسالة الدين المسيحى المعرقل لجهودنا فى الوقت الحاضر فأفسدناها ....)) (٣)

---

(١) البروتوكول الثالث ،ترجمة أحمد عبد الغفور عطار، من كتابه مؤامرة الصهيونية على العالم ، ص ٢٠١ .

(٢) و (٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٩ .

وبعد الإفساد والتدمير للدين ورجاله ، يستبشرون بالحصيلة التي جنوها من ذلك وهي إبعاد الناس عن التدين بمعنى جعلهم ((علمانيين)) وبعد هذا المجهود يرون أنه ((قد بدأت ثمار جهودنا تؤتي أكلها ، إذ أخذ ذلك النفوذ الدين العظيم على الناس يتضاءل رويداً ، رويداً وحلت حرية الضمير مكانه في كل مكان ...)) (١)

وهذه هي العلمانية في قمتها ، حيث تسعى لإبعاد الدين من كل النواحي في المجتمع ، بل حتى اقتلاعه من نفوس المتدينين ، ولهذا تعتبر الصهيونية رائدة من رواد العلمانية والباعثة على إنشائها في المجتمعات في العالم كله . حيث أن اليهود ينتشرون في كل بقاع العالم يعملون على إفساد الأديان ولذا نراهم يتنبئون باحتضار النصرانية عما قريب حسب تخطيطهم لذلك ، ويستسهلون بعد ذلك أمر القضاء على بقية الأديان - كما هو هدفهم - لأن الكنيسة الكاثوليكية في نظرهم ، هي العقبة الكئود ، لأنها كانت تسيطر على زمام الأمور كلها في تلك العصور ، ولكن اليوم ظهر لهم الدين الجديد الذي أصبح العملاق الذي لا تلين له قناة . قلم يستطيعوا أن ينالوا من الدين الاسلامي كما نالوا من النصرانية ، لما له من خاصية انفرد بها عن بقية الأديان ، وهي حفظ الله له وجعله ديناً شاملاً كاملاً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن نالوا من المسلمين بعض النيل ، ولكن إلى حين ...

ولهذا نجدهم يتنبئون بأنه ((لن يمضي غير سنوات معدودات حتى نشهد احتضار المسيحية ولن تتطلب الديانات الأخرى إلا اليسير من الجهد حتى تتبع،

---

(١) مؤامرة الصيهونية على العالم ، البروتوكول السابع ص ٢٧٩ .

المسيحية فى الانهيار ... وسنحصر الدين ورجاله فى أضيق نطاق حتى تزول عنهم الهيبة وتسقط الحرمة فتفقد تعاليمهم الأثر الطيب الذى كانت تجده من قبل ...)) (١)

ولهذا فقد كانت الصهيونية الماسونية العاملة دائماً على هدم الأديان والداعية إلى العلمانية وهى التى خططت للثورة الفرنسية العلمانية كما رأينا فى تصريحهم بذلك قبل قليل .

فالعلمانية إذاً هى ربيبة الصهيونية التى تربت فى أحضانها ورضعت من ثديها وتغذت بدرها ، فلا غرو أن نرى بعد ذلك كل المذاهب الهدامة المادية تقوم على أيدى اليهود من شيوعية وغيرها .. فكارل ماركس ، يهودى وتربى فى بيت يهودى ، وفرويد ، صاحب النظرية الماجنة التى تقيم أسسها على التحليل الجنسى ، هو كذلك ليس ببعيد عنهم ، فقد احتضنوا فكرته وروجوا بصناعته لهدم الأخلاق وإفساد القيم الانسانية عن طريق مدرسته الجنسية .

ولهذا فقد كان للنظرية الفرويدية دور كبير وخطير فى انجلال المجتمعات مما أوقعها فريسة فى كنف العلمانية الخارجة على الأديان . وقد انتقل هذا الداء إلى العالم ،

---

(١) مؤامرة الصهيونية على العالم ، البروتوكول السابع ص ٢٧٩ .

الاسلامى عن طريق الاستشراق والتبشير والابتعاث ، وهـــذه النظرية للأسف تدرس فى كثير من المدارس فى البلاد الاسلاميـة من غير إفصاح عن خطورتها على الأخلاق والدين ، وليس ببعيد على اليهود أن يكون ((أول قرار لأول حكومة علمانية فى أوربا ، وهى الجمعية الوطنية الفرنسية فى (١٧٧١/٩/١٧) اعتبـار اليهود المقيمين فى فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطن وعليهـم جميع واجباته .. وكان الهدف من وراء ذلك إسقاط كل القيـود التى فرضتها الكنيسة على اليهـود ...

ولهذا فقد كانت الصهيونية العالمية وراء هذا المخـطط كله من أجل تدعيم إقرار مبدأ ((العلمانية)) وقد استطاعت فعـلاً ذلك ، وحققت نتائج هامة ((بعد قيام الثورة الفرنسية التى كانت الشرارة الأولى لهذا الوباء الذى سرى فى العالم سـريان النار فى الهشيم ، وهو مبدأ ، عزل الدين عن الحياة عامة .

ولقد كان من أخطر تلك النتائج ((أنها استطاعت أن تنقل نفس الحركة إلى عالم الاسلام مع الاختلاف الكبـير والتباين الكبير - وانها ، أى الصهيونية أرادت بذلك أن تحقق فى عالم الاسلام نفس الهدف ، وهو إزالة عناصر التميز الذاتيـة ،

وخصائص النفس والعقل والمزاج النفسي المستمد من الاســـــلام، وقتل هذه الذاتية المتميزة الفريدة ، وتمييعها واحتوائها ،حتـــى حتى يتحقق لها نفس السيطرة على الفكر الاسلامي على النحـــو الذي حققت به احتواء الفكر الغربي المسيحي ، وتذويبـــه فـــــي الأيدلوجية التلمودية (١) من أجل إقامة امبراطورية الربـــــا العالمية . (٢)

ولكن الفكر الاسلامي سيظل صلباً صامداً ، وأنه سيكون الصخرة التي توهي قرن ناطحها : ليس لأن المسلمين متيقظـين لمايحيط بهم فحسب ،بل لأنه من عند الله ، وأنه منطلق الفكـــر الانساني الرباني ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) (٣)

أعمال الكنيسة تؤدي إلى سخط الناس عليها :

ومما نتج عن أعمال الكنيسة وتعسفها أن سخط النـــاس ونقموا نقمة لا هوادة فيه ((ومقتوا رجال الكنيسة وكل ما يتصـــل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعـادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً ،واستحالت الحـــروب بين زعماء العلم والعقلية ،وزعماء الدين المســـــــــيحي .

---

(١) التلمود هو كتاب فقه اليهود، وهم يقدسونه أكثر مـــــن التوراة لأنهم وضعوه بأيديهم وجعلوا فيه الناس جميعهـم عبيداً لليهود وخلقوا من أجل خدمتهم وراحتهم ،كمـــا خلقت الحيوانات من أجل راحة الانسان .

(٢) بعض الجمل مقتبسة من كتاب سقوط العلمانية، لأنور الجندي صفحات (٢٢ - ٢٣) دار الكتاب اللبناني بيروت .
الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)

(٣) الحجر الآية ٩ .

وبلغة أصح الديانة البوليسية - حرباً بين العلم والدين مطلقاً وقرر الثائرون أن الدين والعلم ضرتان لا تتصالحان . وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما إستدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني ، وإذا ذكروا الدين ذكروا ذكروا تلك الدماء الذكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس السمحة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساسهم ، تمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وجباه مقطبة وعيون ترمي بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم)) (١)

: مراحل العلمانية :

ومن هنا فقد انفصل الدين عن الدولة تماماً كما انفصل عن الحياة نوعاً ما في الغرب .

وكان معقل الصراع الذي تدور حوله رحى الحرب هو الكنيسة الكاثوليكية .

وأما المكان الذي تدور فيه المعارك وحلبة الصراع ومرتع الثورات الذي انطلق منه ((الثائرون)) هو ألمانيا وانجلترا وفرنسا ، والأخيرة كانت هي المرتع

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص (١٧٦ - ١٧٧) .

الخصب الذى خطط اليهود لتنبت فيه أول دولة علمانيـــــة ، أو إن شـئت قل : هى البقعة التى تكون فيها ساعة ((الصفـر)) بالتعبير العسكرى . . .

مرحلة العلمانية المهادنة أو المعتدلة :

فأصبح الدين فى هذه الآونة والتى يمكن أن نسميهـــا مرحلة العلمانية المهادنة أو المعتدلة نوعـًا مـا ؛ ((NON - RELIGION)) ذلك لأنه فى هذه المرحلة فقد اكتفى ((الثوار)) بأن جعلوا الدين منزويًا فى رجـــــاله ومنحصرًا بين جدران الكنيسة ، وعليها أن لا تتدخل فى شـــئون الدولة الأخرى ، من اجتماعية وسياسية واقتصادية وحتى الفنـــون والآداب . .

فهذه الأشياء لها رجالها العلمانيون الذين لا صلة لهـم بالدين ، اللهم إلا من الناحية الفردية فقط ، وفى هذه المرحـــلة لم تمس الكنيسة ولم تصادر أملاكها ولم نادى أناس بذلـــك ، ولم تحجر العبادة على الأفراد بصفتهم الشخصية . . .

فصار رجال العلم يبحثون وينقبون ويكتشفون ويحلـــلون ويعللون تعليلات بعيدة عن النواحى الدينية ، بل حتى لو استطاعوا أن يجردوا الانسان من عاطفته الدينية ويفقدوه الإحســـاس الغريزى لفعلوا ذلك . . فأصبح العلم شيئًا والدين شيئـــًا آخـر . . ومن هنـا فقد غدا العلم علمانيًا لا صله له بالـــدين ،

ورجال التربية عزلوا التعليم عن الدين تمام العـــــزل ظناً منهم أن التعليم الدينى يحجر على الانسان فكره ويجمـــد عقله ويبلـد حسه ، ويشل حركته ، وذلك بسبب الصورة القاتمـــة التى رسمها رجال الكنيسة فى الأذهان عندما كانو يحجرون على الأفكار حتى مجرد النظر فى الأشياء الكونية المخالفة لمايرونـــه هم ...

ومن هنا فقد أصبح التعليم فى أوربا يقوم على أســس غير دينية أو بما يسمونه بعلمنة التعليم بمعنى إبعاد التلميـــذ عن كل ما يربطه بالدين فكل مادة تدرس له لا يذكر فيهـــا شىء عن الدين ، وإن ذكر يذكر بأنه نقيض العلم ... ومن هـذه الزاوية أدخلت دراسة الفلسفات المادية والمناقضة للدين .

ومايقال فى التعليم يقال فى الأدب حيث أصبح الكتاب والشعراء يجدون العلم المجرد عن الدين فى مقالاتهم وفـــى قصصهم ورواياتهم المسرحية ، بل ويجردونها حتى عن الصبغـــة الدينية ويظهر الواحد منهم بمظهر المتحرر من الدين حـتى لا ينعت ((بالرجعية)) أو التخلف .

وقد جاء الأدب بعامة فى هذه المرحلة أدباً رخيصـــاً منحلاً خالياً من الأخلاق الحميدة وعارياً من الفضيلة الـــتى يغرسها الدين فى النفـــوس .

ومن هنا فقـد تعلمـن الأدب هو الآخـــــر .

وكذلك رجال الإعلام نحوا به منحى بعيداً عن الفكر الديني وصاروا ينشرون ويذيعون كل مكتشف جديد ، ويشيدون بالعقلية الجديدة المتفجرة بقدر ما يندون بالعقلية الكنسية الجامدة ... فلحق هو بما سبقه في الأخذ بالفلسفة العلمانية المناوئة للدين .

ومن بدهيات القول أن نذكر النواحي الاقتصادية لأنها لا يمكن أن تخرج عن هذه المعمعة فالصورة واحدة .

ومن هنا فقد نشأت أجيال لا تعرف عن الدين إلا أنه ضد العلم وضد التقدم البشري والتنوير الفكري والتفتح العقلي .. فأصبح المجتمع ينظر من خلال هذا ((المنظار)) الذي يلقي بظلال معتمة على الدين ، ويسلط الأضواء على العلمانية فيكبرها ويجسمها ويزينها ويحليها ... ولا غرو بعد هذا كله أن نرى مجتمعاً علمانياً في كل شئونه وجميع ضروب حياته تجري على سنن غير ديني ...

ومن هنا فقد غدت أوربا علمانية في علمها ، وتعليمها وفي آدابها وفنونها ، وفي صحافتها أو قل إعلامها ، وأخيراً في مجتمعها ...

.. المرحلة المتطرفة من العلمانية :.

وما إن حل القرنان الثامن عشر والتاسع عشر حتى طلع علينا فكر جديد وعقلية جديدة أو قل علمانية متطرفة ((ANTY - RELIGIOUS)) منصبة في قوالب مادية فلسفية جدلية .

وهذه المرحلة من العلمانية ،هى العلمانية المتطرفة التى تبلورت فى الفكر ((الماركسى ، اللينينى)) الذى جاء بالفلسفة المادية الجدلية .

وفى هذه المرحلة من العلمانية ، أو هذا الدور دعا الناس إلى إلغاء الدين بالكلية ((ANTI - RELIGIOUS)) ونبذه من حياة المجتمع والأفراد ، واستبدال المادة والعقل الانسانى محله .

: الفلسفتان الهيجيلية والماركسية : .

والفلسفة الماركسية هى عبارة عن مسخ مشوه لفلسفة ((هيجل)) الفيلسوف الألمانى الغامض الذى كان يميل إلى المطالة والخمول كخلفه ماركس .

وقد عاصر هيجل (١) الثورة الفرنسية وكان معجبا بها ومشجعا لها ،((فبينما كان يدرس على حساب الوزارة فى جامعة ((توبنغن)) قام ((وشللنغ)) بالدفاع عن الثورة الفرنسية دفاعا حارا ، وخرجا ذات صباح ليغرسا شجرة الحرية فى السوق العامة . ولقد كتب فى هذا الصدد - أى فى تأييد الثورة الفرنسية- يقول :

((إن الأمة الفرنسية باغتسالها ((الثورى)) (٢) قد تحررت من العديد من المؤسسات التى خلفتها روح الانسان وراءها كما يخلف الفتى اليافع حذايه وهو طفل وراءه ، هذه المؤسسات التى كانت تثقل كاهل الأمة الفرنسية ، كما لا تزال تثقل كواهل الأمم الأخرى كأنها ريش لا طاقة فيه أو حياة)) (٣) .

---

(١) ولد جورج ولهلم فردريك هيجل ،فى شتجارت بالمانيا (١٧٧٠م) ومات فى برلين بمرض الكوليرا فى عام (١٨٣١م) . قصة الفلسفة ص ٣٧٥ .

(٢) يعنى باغتسالها أنها غسلت رواسب الماضى المتخلف، وهو نظام الكنيسة .

(٣) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ترجمة أحمد الشيبانى ،ص ٥٠١ نشر المكتبة الأهلية . بيروت .

وقد كان هيجل بسبب خموله وكسله يعانى الفقر والعوز وكاد أن يقعده الفقر لولا أن تداركه موت أبيه فورث منه بعض آلاف من الدريهمات كان يعيش عليها إلى أن عمل مدرسًا ثم صحفيًا .

يقوله عنه ول ديورانت: ((تسخرج هيجل ليجابه الفقر وليعانى العوز)) (١)

ولهذا كان معقد النفس ؛ مما سبب له بعد ذلك غموضًا فى مؤلفاته ، التى كتبها مما كان يجمعه من بطون الكتب ليلقيه على طلابه ، ولما كانت هذه الدروس ، نتفًا من هنا وهناك لم يكن بينها ترابط فى الفكر ولا فى وحدة الموضوع ولا اتساق فى العبارة ، . ولعل هذا الشتات إذا أضيف إلى حالته النفسية هو الذى جعل كتبه توصف بالغموض .

ولقد لاحظ هذا هو بنفسه حيث قال محدثًا عن نفسه : ((إن هناك إنسانًا واحدًا يفهمنى ، وحتى هذا لا يفهمنى !!

ولذا نجد ((أن معظم مؤلفات هيجل ، كمؤلفات (أرسطو) تتألف من رؤس أقلام أعدها لمحاضراته ، لا بل أسوأ من ذلك ، إنها رؤس أقلام خطها الطلاب الذين استمعوا إلى محاضراته . وقد كتب فقط كتابى ((المنطق وفنومنولوجيا الروح)) أى علم تجسد الروح ،وهذان الكتابان قد بلغا الذروة فى الغموض والإبهام)) (٢)

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ترجمة الشيبانى ،ص ٥٠١

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٠٣ .

وتقوم نظرة هيجل للكون على التضاد والتعارض ،أو بمعنى أوضح يعتقد أن أحداث الكون كلها لا تنمو وتسير فى خط صحيح سليم إلا إذا قامت على المتناقضات التى تدور حول نفسها ثم تلتقى فى وحدة واحدة وتكون العالم .. أى أن حركة التطور التى تنتظم العالم إنما ((هى حركة دائمة للتطور بين الأضاد والتوفيق بينها ودمجها ... فمثلا الرأسمالية نظام والشيوعية نظام آخر مضاد للرأسمالية ، والتوحيد بين هذين النظامين أو الفلسفتين يؤدى إلى التطور بهما ، ومن هذا التطور ينبثق نظام ثالث أرقى منهما)) (١)

هذا النظام الثالث الذى وصفه هيجل بالرقى هو المتولد من تلك المتناقضات الكونية ، وهو لنا شبيه بالروح القدس المتولد من الأب والإبن عند النصارى ،فهو إذاً ثالوث وهمى ، فهو يتصور أن كل ((قضية تحتوى على تناقض وتعارض ينتهى بها النمو والتطور إلى وحدة وانسجام وتوفيق بين هذه الأمور المتعارضة)) (٢)

وهكذا سير الكون دائماً ،من وحدة إلى تعارض ومن تعارض إلى وحدة ... ولذا فإن ((هذه العملية المنطقية فى سير التاريخ تجعل من التغيير مبدأ الحياة الأساسى إذ لاشىء خالد ، وفى كل مرحلة من مراحل الأشياء يوجد تناقض وتعارض لا يقوى على حله سوى صراع الأضداد)) (٣)

---

(١) و (٢) قصة الفلسفة ،ول ديورانت ،ص ٣٧٨.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٨١.

ومن هنا فقد دعا هيجل فى فلسفته إلى هذا الجدل (الديالكتيك) (١) الذى ذهب به أبعد مما هو معلوم من أخذ الحج وتفنيدها وإبطالها عن طريق النقاش والحوار . . . فجعله وسيلة لتفسير أحداث التاريخ على أساس جدلى رتيب لا نهاية له ، كما رأينا . . .

((ومن هنا صح أن نقول : لقد كانت فلسفة هيجل هى - بحق - الأخشاب والمسامير التى صنعت منها الماركسية سلمها الخطير . . الذى لم يره هيجل بأيدى أصحابه ، وإن كان قد أحس فى شيخوخته بحركة تجرى لصنعه ، حيث بدأت النزعات المتطرفة ترفض المطلق (٢) الذى نادى به ، وتلتزم المنهج الجدلى الذى التزمه)) (٣)

وإذا كانت نظم الكنيسة ولا هوتها كانت هى القنطرة التى عبرت عليها العلمانية إلى المجتمع ، فإن الفلسفة الهيجلية الجدلية ، كانت هى الأخرى المركب الذى امتطته الماركسية ،

وكان هيجل - شيخ ماركس - ثائرًا وآراؤه متطرفة فى شبابه ، كما كان يميل إلى الإلحاد أكثر منه إلى الإيمان . . ولكن بعد أن تقدمت به السن وانحسر عنه ظل الشباب ، بدأ يقول بالمطلق الذى رمز به لله تعالى ، وأخذ يقول : إن العالم له مدبر واحد واجب الوجود . . .

ولهذا فقد قسم المؤرخون والفلاسفة نظرية ،

---

(١) الديالكتيك ، كلمة يونانية تعنى : فن النقاش أو الحوار أو الجدال . . . بمعنى تفنيد الآراء ودحضها . . .

(٢) المطلق عند هيجل يعنى به ((الله تعالى)) أو بعبارة أخرى هو واجب الوجود ، كما يعبر عنه الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو .

(٣) المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية ، عمر عودة الخطيب ، ص ١٣٦ مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م) .

هيجل عند الله والكون إلى قسمين وتبعًا لهذا ((انقسم أتباعه في الجيل التالى ! نتيجة لقضاء ديالكتيكى ، إلى اليمين واليسار الهيجليين)) (١)

ويجعل ديورانت الفلاسفة : فايس وفيخته ، من اليمين الهيجيلى ، لأخذهما بفلسفة المعتدلة عن الإله ((المطلق)) وذلك عندما كان فى سنه المتأخرة حيث هدأت نفسه .

((أما فيورباخ ومولشوت وباور وماركس ، فإنهم - ولا سيما ماركس - قد عادوا إلى شكيه هيجل الشاب . . . وصاغوا من فلسفة التاريخ نظرية الصراع الطبقى (٢) الذى يؤدى بموجب الضرورة الهيجيلية إلى الاشتراكية المحتومة)) (٣)

ولقد أخذ ماركس أسوأ مافى فلسفة هيجل وترك الجزء الذى يعتبر أخف وطأة وأقل تطرفًا وأكثر هدوء . . ومن هنا جاءت الشيوعية مسخا مشوهًا وترقيعًا مخرقًا لنظرية هيجل .

فإذا كان هيجل يجعل المادة من نتاج الفكر الانسانى وهى أثر من آثاره ومنعكسة عنه . . فإن ماركس نكس المسألة على رأسها بدلاً من أن يقيمها على رجليها . . فقد جعل المادة أساسًا للفكر الانسانى وهو من نتاجها . . وبهذا تكون الماركسية قد انتزعت ((من الفكر الانسانى حريته فى الابتكار والسيطرة على الطبيعة ، والتحكم بقوانينها وفق اختياره وطبقًا

---

(١) قصة الفلسفة ، ص ٥٠٩

(٢) أخذ ماركس من هذا أن الصراع بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة والغنية ، سيؤدى حتمًا فى النهاية إلى الاشتراكية ثم إلى الشيوعية ، وعندها ستزول الطبقات ويحكم الشعب نفسه بنفسه وتلغى فى النهاية الحكومات !!

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠٩

لمفاهيمه ، وجعلت منه آلة بيد المادة العمياء ، ينتج أفكارة مقيداً بأقدارها فغدا أشبه بإحدى النباتات الحية ؛ فهذه النخلة لا تنتج إلا بلحاً وفى بيئة حارة ، وأما إذا غرستها فى منطقة باردة فلا تنتظر منها ثمراً شهياً ، وتلك التفاحة لكى تعطيك تفاحاً لذيذاً لابد من وضعها فى تربة ومناخ صالحين لتنامى شجرة التفاح ، وهكذا عندها فالانسان الذى يعيش فى مجتمع فلاحى ينتج أفكاراً غير أفكار الذى يعيش فى مجتمع صناعى)) (١)

((وقد قدم ماركس بدلاً من المطلق بوصفه مقرراً للتاريخ من خلال روح العصر ، الحركات الجماهيرية والقوى الاقتصادية بوصفها العلل الأساسية لكل تبدل جوهرى ، سواء حدث هذا التبدل فى عالم الأشياء أو فى حياة الناس ، وهكذا فقس (البروفسور) الأمبراطورى ، البيض الاشتراكى)) (٢) ولكنه ـ على كل حال ـ كان بيضاً مزراً .

والنتف التى جمع منها ماركس (١٨١٨ - ١٨٦٦) مذهبه وبنى عليها فلسفته التى تلقفها من بعد أصدقاؤه وتلاميذه والتى صارت من بعده شعارات معروفة فى القاموس الشيوعى ...

وهذه النتف هى :ـ

١ـ التفسير المادى للتاريخ .

٢ـ حتمية التاريخ .

٣ـ الصراع الطبقى .

٤ـ الدين مخدر الشعوب ومؤخر التقدم .

٥ـ الديالكتيك .

٦ـ حكومة البلوريتاريا .

٧ـ سحق البرجوازية وإقامة حكومة البلوريتاريا على أنقاضها .

٨ـ فناء الدولة وزوالها .

---

(١) الفلاسفة والفكر الاسلامى ، محمد أبو حمدان ، ص ٣١ . دار الكتاب اللبنانى بيروت (١٩٦٨م)

(٢) قصة الفلسفة ، ص ٥٠٩ .

ولذلك يرى ماركس أن المادة هى أساس كل شىء وأن العلاقات الاقتصادية هى التى تكيف حياة الناس الاجتماعية والفكرية وأن التاريخ البشرى ينبغى أن يفسر على هذا الأساس المادى .

ولهذا فهو يرى أن المادة هى الأساس وأن الفكر عبارة عن ظل لها ، وبالتالى يعتبر الفكر تابعًا للمادة ومن نتاجها ، وذلك بعكس هيجل .

وأن التاريخ أمر حتمى ولأنه تفسره المادة وتكيفة العلاقات الاقتصادية ... وعنده أن التطور التاريخى المادى فى العوامل الاقتصادية هو الذى يؤدى إلى الصراع بين الطبقات فى المجتمع ، وأن هذه العلاقات الاقتصادية المادية هى العامل الفعال فى التحركات السياسية والفكرية والدينية ،بل يرد كل النظم المتعلقة بالمجتمع من فكرية ودينية واجتماعية وسياسية ... كلها يرجعها إلى الناحية المادية ومدى تأثيرها على الحياة الاجتماعية والعلاقات الانسانية ...

فتقلبات العلاقات الاقتصادية وتفاوت الناس فيها هى التى تؤدى إلى الصراع الطبقى الذى يقود بدوره إلى زوال (البرجوازية) - وهى الطبقة العليا والمتوسطة فى المجتمع ويئول زمام الأمر إلى البلوريتاريا — وهى :- طبقة

الفلاحين والعمال ـ كما يسمون أيضاً (بالشغيلة) فى القاموس الشيوعى ،

وعنده سيؤدى هذا الصراع فى النهاية إلى أن تكون السلطة بأيدى الشغيلة ، وعند تطبيق النظرية الشيوعية بأكملها ستزول الدولة وتفنى ويصبح الناس ـ يحكمون أنفسهم بأنفسهم ـ كما ذكرت آنفاً ـ فى حالة أفراد ويمشى هذا النظام كما كانت تشتهيه الدولة . .

ولكن الواقع التاريخى كذب نظرية ماركس التى كانت ضرباً من الخيال ، فلا الدولة زالت ولا الشيوعية التى كان يريدها ماركس طبقت ، بل العكس تماماً يحصل الآن ، فقد بدأت الدولة الشيوعية تتراجع شيئاً فشيئاً وتعيد علاقاتها مع الدول الرأسمالية الغربية التى كانت معها على طرفى نقيض . . .

وهكذا ذهبت أحلام ماركس التى خطها على الورق هو وصاحبه إنجلز ، وغدت سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء . . .

خلاصة أطوار العلمانية :

وخلاصة مايقال عن أطوار العلمانية أو المراحل التى مرت بها :

أن الدور الأول كان دور الصراع الدموى

مع الكنيسة حيث كانت السلطة فى يدها ، وكان هذا العصر هو عصر التنوير أو بداية عصر النهضة الأوربية الذى كان إثر أخذ الطلاب الأوربيين العلم عن الجامعات الاسلامية حيث اطلعوا على مبادىء الاسلام وأخذوا العلوم عن العلماء المسلمين الذين برعوا فيها ، فى ذلك الوقت ، كان ذلك حوالى القرن الرابع عشر إلى السادس عشر للميلاد . ومن هنا كانت بداية الكشوفات العلمية ؛ وفى هذا العصر كثرت البرطقة وبالتالى ازدادت محاكم التفتيش ، فكان عصر المحنة الذى ذاق فيه العلماء ويلات العذاب ولكن سيل العصر الجارف لم تستطع الكنيسة أن توقفه حيث جرفها تيار العصر التالى .

والدور الوسيط أو العلمانية الهادئة - كما سميتها سابقًا - فقد كان يتمثل بظهور القرنين ، السابع عشر والثامن عشر ، وهنا تم عزل الكنيسة عن الحياة الاجتماعية وحصرت أعمالها فى الطقوس الدينية فقط ، أما شئون الدولة وتنظيم المجتمع ورعاية التعليم والشئون السياسية والاقتصادية وتثقيف الناس . . . كل هذه الأمور متروكة للعلمانية والفلسفة المادية .

والدور الأخير هو دور الجيل الذى نشأ تحت ظـــل العلم المادى ورضع من ثدى الفلسفة المادية ، ونشأ لا يعـــرف عن الكنيسة واللاهوت ، إلا قشرة رقيقة منحصرة فى الطقوس الدينية من مراسيم للزواج والأموات ، وتنظيم الطلاق أو كما يسمونه الانفصال عن الزوجـة . . .

وبلغ هذا الطور من العلمانية ذروة إلحاده قـــى الفلسفة الماركسية التى دعت إلى الإلحاد وترك الأديان والتدين ((ANTI - RELIGIOUS)) ، وجعلت الـــدين (أفيون الشعوب) أى مخدر الشعوب ومفترها .

وهنا حل الشعب محل الدين والحزب الشيوعـــى محل ((الله)) وصار معبود الناس الذى يقدسونه وغـــدت المادة هى الروح الخالية من الروحانية . .

وعليه فإن العلمانية هـــى :

مجموعة من المبادىء والأفكار تدعو إلى قيام الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والدينية والأخلاقية ونظام الدولة كل هذه النظم تدعو العلمانية إلى قيامها على أسس غـــير دينية . . . وبالتالى فهى تدعو إلى محو الأديان من حياة النـاس كلها ، بل وحتى من أذهانهم كمعتقد .

تلك كانت صورة ملخصة للعلمانية فى الغرب الرأسمالى المادى ، وفى الشرق الشيوعى الملحد . . والتى لم يكن يعرفهـا مجتمعنا الاسلامى . . ولنرى بعد كيف جاءتنا ومن أين دخـلت وكيف أثرت فى مجتمعنا المسلم ؟ .

البـــــــاب الثـــــــــانى

. : دخـول العلمانية إلى المجتمع الاسلامى : .

الفصل الأول : الطرق التى تسربت بها العلمانيـــــة :

ويشمـــــل :

١/ الفلسفات المادية والماسونية وأدوارها فى انحــــلال المجتمعات .

٢/ اليهود يشيعون الأدب الرخيص لانحلال المجتمـــــع.

٣/ نصارى العرب من أول المروجين للعلمانية فى العــالم الاسلامى .

٤/ الاستعمار وعلمنة المجتمــع الاســــلامى .

٥/ العلمانية تهدم دولة الخلافة الاســـــــلامية .

****

. : الباب الثاني : .

. : دخول العلمانية إلى المجتمع الاسلامي : .

الفصل الأول :
الطرق التي تسربت بها العلمانية :-

توطئة :

لقد لعبت الفلسفات المادية في الغرب النصراني دورًا بارزًا وخطيرًا للغاية في بلورة الأفكار ((اللادينية)) العلمانية حيث كانت هذه الفلسفات المادية تقوم على مناهضة الدين ، ولاسيما بعد اضطهاد الكنيسة لرجال العلم وحجرها على المكتشفات الحديثه . ثم إن أولئك الفلاسفة الماديين المتقدمين منهم واللاحقين كانوا دمى تعبث بهم أصابع الماسونية اليهودية ابتداء من ديكارت وأوجست كونت إلى فرويد وماركس . . .
فكلهم من تلاميذ الفلسفة الماسونية التي قامت على أنقاض النصرانية المحرفة .

ذلك لأن اليهود لم ترد أن يقوم معها دين واحد بل تعمل على محو كل الأديان . ولهذا ليس غريبًا إن وجدنا الماركسية تضرب بنصيب الأسد في كل المذاهب الهدامة من مادية غربية إلى الحادية شيوعية بل حتى المذاهب المنحلة والنظريات المنحرفة كالفرويدية والدارونية تعتبر من صنيع اليهود . .

ولسان حال اليهود يقول : ((عندما نصبح سادة الأرض يجب أن لا نسمح بوجود أي دين في العالم غير ديننا

إلهنا الواحد الذى ارتبط به مصيرنا ، الذى قرر مصير العـــالم باختياره إيانا اختيارنا يفرض علينا أن نمحو من الأرض كـــل الديانات ، فإذا نجم منه ظهور ملاحدة فهو إلى حين لأنهـــم سيزولون و لا أثر لهم فى خطتنا ،بل سيكونون أمثولة للأجيال الجديدة المدعوة إلى الإصغاء إلى تعاليمنا عن ديانة موســـى التى وصفت بالمتانة وكمال النظام ، والتى فرضت علينا أن نخضـع العالم كل لسيادتنا ....)) (١)

وفى شأن العمل على قيام الأفكار المنحلة والأخـــلاق الرديئة والأدب الرخيص الذى يفسدون به الشباب والمثقفـــين يقول اليهود فى هذا المجال :

((وقد نشرنا فى بلدان تدعى الرقى ، أدبًا منحـــلاً دنسًا تغثى منه النفس ، وسنوالى بعد قيام مملكتنا لزمن يسير تشجيعه رجاء أن نجلى ما بينه وبين آدابنا فى المضمون النقى المحمود ، وسعيد شيوخنا المهيأون لقيادة القويم (٢) خطبًا وبرامج ومذكرات ومقالات تؤثر على عقول القويم وتقودهم إلـــى معارف وآداب تصورهم الصياغة التى نريدها)) (٣)

وإذا كانت العلمانية قد وجدت فى الغرب أرضًـــا بكرًا نبتت عليها ومناخًا صالحًا ساعدها على النمـــــو

---

(١) بروتوكولات صهيون ، ترجمة أحمد عبد الغفور عطار ، ص ٢٥٨ .

(٢) القويم : يطلقها اليهود على الأمم غير اليهوديـــة ،وتعنى عندهم : الوثنيون ، المرتدون ، الأنجاس والبهائم .. وفسرها بعض المترجمين بـ ((الأمميون)) وتعنى نفـــس تلك المعانى .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

حيث طبيعة الديانة النصرانية وما حصل فيها من تحريف ، مما أدخله الرهبان حسب أهوائهم . . . . إذا كان الأمر كذلك في الغرب ، فإنه يمكن أن يقال : بأن الفصل بين السلطتين المدنية والدينية ، لم يكن بينهما رباط متين في النصرانية ، إن لم يكن الرباط منعدماً . . .

أما في الاسلام فإن الأمر كله لله وحده ، وليس لقيصر فيه من نصيب ، اللهم إلا نصيب الحراسة والخلافة والقيام على تدبير تلك الشئون - بهذا الاعتبار ، ((ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون)) (١)

والاسلام ليس فيه كهانة ولا رجال دين معصومون كما أن الاسلام لم يقم فيه نزاع بين العلم والدين ولم يحارب العلم ولا العلماء ، بل العكس ، فقد أشاد بهم ورفع من مقامهم ، كلما ازدادوا علماً ازدادوا تقديراً في نظر الاسلام ، وكذلك لم يعرف الاسلام مايسمى بفصل الدين عن الدولة ، أو عزل الدين عن الحياة .

ولهذا فسوف نتعرف في المباحث القادمة على الكيفية التي دخلت بها هذه العلمانية إلى العالم الاسلامي .

وقبل أن نبدأ بدولة الخلافة الاسلامية ، باعتبارها أول دولة إسلامية تطابق فيها العلمانية ، نعرج على نصارى العرب ، لأنهم من أول من روج للعلمانية في البلاد الاسلامية ، لاتصالهم بالثقافة الغربية .

---

(١) الجاثية آية ١٨ .

المبحث الأول :- نصارى العرب من أول المروجين للعلمانية فى البلاد الاسلامية

على إثر النشاط التبشيرى فى البلاد الاسلامية وبخاصة العربية منها كسوريا ولبنان وفلسطين ومصر وغيرها .. وإقامة المدارس التبشيرية ... على إثر ذلك بادر النصارى العرب بإدخال أبنائهم فيها .. ومن ثم كان اتصالهم أوثق بالثقافة الغربية ولاسيما الفرنسية منها حيث كانت تلك الثقافة وليدة الثورة الفرنسية رائدة العلمانية فى الغرب ، ((وقد ذكر إلبرت حوراني ، فى كتابه الذى ظهر أخيراً (١٩٦٢م) بأن المسيحيين (١) كانوا أسبق أبناء العرب اتصالاً بالثقافة الغربية ، وأرجع ذلك إلى نشاط البعثات التبشيرية ، وانتشار مدارسها وأديرتها فى الشام وفى المنطقة الساحلية منها بنوع خاص ، منذ بداية القرن الثامن عشر ،ومع أن الثقافات التى تحملها المدارس التبشيرية من كاثوليكية وبروتستنتية ،لم تكن تتجاوز الدائرة الدينية ،فإن معرفة اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية ، قد فتح آفاقاً جديدة للقراءة أمام المسيحيين فبدأوا يقرؤون كتباً تصور الثقافة الغربية الجديدة التى تمثل علمانية الثورة الفرنسية ، وأخذنا نسمع فى القرن التاسع عشر عن رجل مثل ميخائيل مشاقة ، يحدثنا فى كتابه (الجواب على اقتراح الأحباب) أن الشكوك بدأت

---

(١) اسم الكتاب

((ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE))

تساوره فى عقائده الدينية ، وأن وجد فى مجتمعه كثيرًا من الناس الذين يفكرون على شاكلته (١) .

وبهذه الصلاة الثقافية بين مسيحى العرب وبين الثقافة الفرنسية والانجليزية من ناحية ، وبهذا الكلف الجديد بالدراسات الغربية من ناحية أخرى ، فتحت عيونهم على عالمين جديدين خارج الكنيسة وخارج المدارس التبشيرية ، وهيأهم ذلك لظهور الفكر العلمانى المعادى للكنيسة فى كثير من كتاباتهم فى الوقت الذى لم يكن فيه لهذا الفكر أثر بين معاصريهم من كتاب المسلمين ومفكريهم)) (٢) .

وقد أخذ هؤلاء النصارى ينشرون هذه الأفكار فى الصحف والمجلات بل والبعض ألف فى ذلك بعض المقالات التى تعد كتبًا أو ضمّن هذه المبادىء بعض فقرات مما كتبوا ، وساعدهم على ترويجها الاستعمار الذى تناوش البلاد الاسلامية ، الذى سوف أتحدث عنه قريبًا ، إن شاء الله .

ومن هنا فقد سَرَتْ هذه التيارات الخبيثة فى العالم الاسلامى وإن وجهت مهاجمها الأولى صوب رباط المسلمين الأكبر ، ألا وهو دولة الخلافة الاسلامية .

---

(١) ARABIC THOUGHT . P.59.

(٢) انظر ، الاسلام والحضارة الغربية د . محمد محمد حسين ص ، ٩٦ ـ ١١٢ . دار الإرشاد بيروت الطبعة الأولى (١٣٨٨ - ١٩٦٩) .

المبحث الثانى الاطماع الاستعمارية

تعمل على علمنة الدولة الاسلامية :-

بعد أن ارتحل العهد الزاهر ، عهد الخلافة الراشدة ، الذى كان تطبيقاً كاملاً للهدى النبوى فى إدارة شئون الدولة والقيام بأمر الرعية كأحسن مايكون ...

بعد ذلك العهد ، استمر الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، غالباً فى عهود الدولة الاسلامية المختلفة ، منذ العهد الأموى إلى العهد العثمانى ..

ولم يعرف فى تاريخ الدولة الاسلامية المختلفة وكذلك الشأن فى العهد العثمانى ، أن فُصل الدين عن حياة المجتمع أو عُزل عن أمور الدولة ...

وعلى هذا المنوال نسج آل عثمان فى عهود السلاطين المختلفة . وإن كان الأخذ بأحكام الشريعة على الوجه الأكمل - أعنى تطبيق أحكام الشريعة فى النفس بالنسبة للحاكم أو السلطان - لم يكن على الوجه الذى كان عليه فى عهد الخلافة الراشدة ، ولكنه على كل حال يرى فى مظاهر الحياة الاجتماعية كما أنه لم تستبدل الأحكام الشرعية بأحكام أخرى تحل محلها ، وإن جنح بعض الحكام أو السلاطين أحيانا إلى أعمال لا تليق ومقام الخلافة الاسلامية - هذا مع أن فجور الحاكم الشخصى فى نفسه قد لا يؤثر كثيراً ، إذا كان يطبق الأحكام الشرعية فى الشئون الاجتماعية ، فإن الله ليؤيد الدين وينصره بالحاكم الفاجر .

وفى عهد الخلافة العثمانية فتحت أعظم امبراطورية استعصى أمرها على كل عهود الدولة الاسلامية المختلفة فى محاولات تعاقبت على فتحها، ولكن الأمر لم يتم حتى آل أمر السلطنة العثمانية إلى السلطان محمد الثانى الذى لقب بعد ذلك بـ (الفاتح) نسبة لهذا الحدث العظيم (١٤٥٣م) .

وضع محمد الفاتح همه الكبير فى الدولة البيزنطية وعقد العزم على أن يدك حصون عاصمتها القسطنطينية ، فى عام سبع وخمسين وثمانمائة للهجرة ،وبهذا قد أفل نجم بيزنطة ورفع العلم الاسلامى عاليا خفاقاً فوق أرضها ...

ودولة الخلافة الاسلامية العثمانية استمرت حوالى سبعة قرون تحكم العالم الاسلامى ، ولئن تفاوت هذا الحكم من سلطات مباشرة وغير مباشرة فى بعض الأقاليم حسب ظروف كل إقليم ولكنها ، على كل حال ، كانت تجمع شمل المسلمين تحت ظل الخلافة الاسلامية والإمامة الكبرى - وحينها كان يشعر المسلمون أن لهم خليفة يهتم بأمرهم ويذكرهم بأنهم أمة واحدة وجسد واحد وإن نأت بهم الأقاليم الجغرافية ...

ولكن المستعمر الحاقد والصليبية الماكرة واليهودية التلمودية التى تحلم بأنها سوف تحكم العالم لما ينحدر من عقيدتها التلمودية الفاسدة التى تجعل من اليهود

شعب الله المختار ، كما زعموا زورًا بأنه ((جاء على لسان الأنبياء : إننا مختارون من قبل الله لحكم العالم ، وقد زودنا الله بمواهب تجعلنا قادرين على حمل هذه الأمانة ..)) (١)

كل تلك القوى العالمية كانت تتربص بالاسلام الدوائر ، ولما رأت فى دولة الخلافة الاسلامية جمعًا لشتات المسلمين وضمًا لشعثهم المتناثر ، عقدت العزم على جلب كل الأفكار الهدامة ، والمذاهب الخداعة والاستعانة بأعوانها من جميع قوى الشر .

تقسيم البلاد الاسلامية
عن طريق استعمارها :

ومن هذا المنطلق تكالبت الدول الاستعمارية على احتلال العالم الاسلامى (دولة بعد دولة وإقليما تلو الآخر ...

فقد عمدت بريطانيا إلى دولة إسلامية كبرى كان لها وزنها وشأنها ، تلكم هى الهند ، احتلها فى عام (١٢٧٤هـ ١٨٥٧م) فعاثت فيها فسادًا وذاق المسلمون من جراء الحكم البريطانى الأمرين ، ولم تخرج منها إلا بعد أن مهدت الطريق للهندوس ليتولوا مقاليد السلطة فى البلاد .. وهكذا عملت على زوال الاسلام من تلك القارة الاسلامية .

أما بلاد المغرب ، فقد بدأ الاستعمار بالجزائر التى داهمتها فرنسا (١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠م) ، وتحولت إلى تونس (١٢٩٩ هـ) ، (١٨٨١م) وبسطت بريطانيا جناحيها على

---

(١) البرتوكول الخامس ترجمة ، أحمد عبد الغفور ، ص ٢١٠ .

مصر (١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٢م) وأخذت اسبانيا مراكش (المغرب) (١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م) ، وكانت إيطاليا قد جثمت على ليبيا في (١٩١١م) .

وكان احتلال العراق من قبل الانجليز في (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م) وكذلك فلسطين التي بسطوا نفوذهم عليها عام ١٩١٨م) كما احتلت فرنسا الشام في (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠م)

وهناك في الشرق الاسلامي أخذ الشيوعيون يحتلون الدول الاسلامية الواقعة في سهول ((سيبيريا)) وجبال القوقاز وبلاد القرن الخصبة ... بدأوا يحتلونها عقب قيام الانقلاب الشيوعي عام (١٩١٧) امتداد من سنة (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) حيث بسطت روسيا الشيوعية سلطانها على كل تلك البلاد الاسلامية ، وكذلك فعلت الصين الشيوعية بالأجزاء المواجهة لها ..

هذا إلى جانب الاستعمار الهولندي لجنوب شرقي آسيا الذي حط رحاله على أندونيسيا منذ (١٦٥٥م) .

ولم تكن هذه الاسلاب والتقسيمات للدول الاسلامية جماء على محض الصدفة ، ولكنها كانت نتيجة مخطط مرسوم وأمر مبيت ضد الاسلام ولتمزيق دولة الخلافة الاسلامية .

وقد عمل الاستعمار من جانب آخر على إثارة القوميات وتأليبها ضد الدولة العثمانية لهدمها

من الداخل فأثار العرب من جهة وذكرهم بمجدهم القديم وأوعز لهم بأن الأتراك ليسوا أولى منهم بالخلافة، وأنها يجب أن تكون فى العرب. . . .

النعرات القومية تفت فى عضد الدولة :

ومن هنا ثارت النعرات القومية والتكتلات العنصرية، وثارت ثورات عربية هنا وهناك ضد السلطنة العثمانية فى الشام والعراق وأطراف الجزيرة العربية ، التى كان من أشدها وأعنفها ثورة الشريف حسين : ويضيق المجال عن التفصيل لذلك . ومن أراد البسط فى ذلك فليراجع كتب التاريخ الحديث. . .

وكان فى الجانب المقابل ، نشأت جمعيات أخرى تدعو إلى العصبية والقومية التركية الطورانية ، كرد فعل لتلك ، فقامت جماعة من الشبان الأتراك بواعز من الماسونية اليهودية فى سالونيك، وكونوا جمعية سموها : جمعية الاتحاد والترقى (١) كان هدفها الأساسى القضاء على الخلافة الاسلامية ، وإن تستترت تحت شعارات خادعة ؛ التى كانت فى الحقيقة شعار الماسونية فنادت هذه الجماعة ، بشعار ((حرية ، مساواة وإخاء . . .))

وهذا الشعار هو شعار الماسونية بعينه اتخذته لتخدع به الشعوب ، وهو الذى أثارت به الثورة الفرنسية من قبل

---

(١) من أركانها البارزين : أنور باشا وكمال باشا وجمال باشا .

ولقد ردد الصهاينة هذا الشعار فى بروتوكولاتهم فقالوا عن أنفسهم :

((وكنا أول من نادى فى العصور الغابرة بكلمات الحرية والمساواة والإخاء ، فاجتذب النداء الناس وأخذوا يهتفون بها ويرددونها فى كل أقطار الأرض ترداد الببغاء دون فهم أو إدراك أو شعور ، وأدى بهم الهتاف الببغائى إلى عرقلة التقدم الإنسانى فى العالم ، وحرمان الفرد حريته الذاتية الأصيلة التى كانت فى مأمن من عبث الجماهير)) (١)

ويعقبون على هذه الشعارات التى ابتدعوها لخدعة العالم ، وكيف أنها فعلاً خدعة وليس بحقيقة .. وكيف أن الناس لم يفهموا مدلولها الحقيقى الذى يريده اليهود ، بقولهم :

((... وأدعياء العلم والفطنة من القويين لم يفهموا مدلول هذه الكلمات ، ولم يتبينوا التناقض فيما بينهن (كهذا) فى المعانى ، ولم يفطنوا إلى ما فى مدلول كل منهن من خلاف وفاتهم إدراك الاختلاف فى أصل الطبيعة نفسها ، إذ ليس فيها مساواة قط . كما أنه ليس فيها حرية أبداً ، والطبيعة هى نفسها

---

(١) مؤامرة الصهيونية على العالم البروتوكول الرابع ص ١٨٨ .

التى أوجدت الفروق فى الأذهان والأخلاق والطاقات والكفايات (١)

ويستمرون فى ذكر محاسن هذه الشعارات وكيف أنها فى خدمتهم معشر اليهود فيقولون :-

((وإن هتافنا بكلمات : الحرية والمساواة والإخاء مع جهود دعاتنا المسخرين اجتذب فى كل أنحاء العالم جيوشاً جرارة من البشر حملت أعلامنا بكل فخر وحماسة)) (٢)

وحقاً لقد حملت جماعة الإتحاد والترقى وتركيا الفتاة هذه الدعوة الماسونية بكل فخر وحماسة لها ، بتطبيقها لتلك الشعارات اليهودية ؛ لأن اليهود كانوا هم التيار الدافع لتلك الجماعة .

وقد بلغ التطرف بالاتحاديين أن ثاروا على السلطان عبد الحميد الثانى - الداعى للجامعة الاسلامية ، فقاموا بالانقلاب العثمانى (١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م) فاستأثرت الجمعية بالسلطة بعد خلع السلطان وتنصيب خلفه السلطان محمد الخامس الذى جرد من كل صلاحياته وأصبح رمزاً فقط .

وقد بدأ أعضاء هذه الجمعية بتغيير يمكن اعتباره اللبنة الأولى لأتاتورك الطاغية الملحد وإن لم يستطيعوا ، أو لم يتمكنوا ، على الأصح من الإقدام على مثل ما أقدم عليه من خطوات لمحو الاسلام .

---

(١) و (٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٨ .

فمن ضمن ماقاموا به الغاء فكرة الجامعة الاسلامية التى دعا إليها السلطان عبدالحميد لجمع شتات المسلمين وتوحيد كلمتهم . ولكن هذه الجماعة التى كانت تجد العون والمساعدة من الدول الحاقدة على الاسلام مثل ألمانيا ،وانجلترا، وإن كانت الأخيرة تظهر مساندتها للسلطان ،ولكنها كانت منافقة تظهر مالم يكن فى باطنها ، فهى تبطن الكيد وتحيك المكر للرابطة الاسلامية التى قام بها السلطان .

فدعت هذه الجماعة المشبوهة إلى الجامعة ((الطورانية)) نسبة للجنس الطورانى ، الذى تتعصب له على حساب الاسلام .

ويظهر تعصب الاتحاديين للتركية ماقاله أحد زعمائهم، وهو جمال باشا عندما زار الشام :

((يجب أن تثقوا بأن مشروع الجامعة التركية الذين (١) سمعتم عنه وعن وجوده فى استانبول وفى الجهات الاخرى الآهلة بالترك لا يتنافى مع الامانى العربية بشكل من الاشكال .

((انتم تعلمون أن هناك فى الامبراطورية العثمانية حركات بلغارية وبولونية وأرمنية كما تقوم هنا حركات عربية؛ أما الأتراك فقد نسوا وجودهم بتاتاً ، أو تناسوه إلى حد أنهم كانوا يعدلون عن ذكر جنسهم

---

(١) كذا ، وردت الكلمة ((الذين)) ولعل الصواب ((الذى)) لأن الموصول يرجع إلى المشروع وهو مفرد .

مما أدى ركود الروح الوطنية بينهم حتى بتنا نوجس خيفة من تلاشى الشعب التركى تلاشيًا تامًا ،لذلك ، وتداركًا لمثل هذا الخطر الداهم ، خف رجال تركيا الفتاة ،بغيرة تستحق الإعجاب إلى السلاح قصد إثارة الروح الوطنية وما يرافقها من الفضائل فى صفوف الأتراك)) (١)

هكذا يسمى تناسى الترك - الذى زعمه - لعنصريتهم خطرًا داهمًا ، ولذلك خف رجال الاتحاد إلى هذا الخطر وأعلنوا مبادىء الدستور وأخمدوا فكرة الجامعة الاسلامية .

وحاول الاتحاديون التخفيف من أثر اللغة العربية فى المدارس ، كما حاولوا وضع الكلمات التركية بدلاً عنها ؛ولكنهم لم يتمكنوا من تطبيق ذلك المخطط تطبيقًا يكون له أثر. فسرعان مانشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) ودخلت تركيا الاتحادية الطورانية فى حلف مع ألمانيا ؛ ولكنها قد خسرا الحرب ، وغربت شمس الطورانية .

وهنا جثا ((الرجل المريض)) على ركبتيه ، كما كان يسميه الاستعمار ، ولكن المريض يلتمس له الملاح ويطلب له الشفاء . . . لكن أعداء الاسلام الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة المواتية التى عملوا لها منذ أمد طويل وفى أنفسهم جراح الحروب الصليبيه لم تندمل ، فما إن وضعت

---

(١) العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب محمد جميل ص ١٣٧ ، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م) .

الحرب أوزارها وخمد أوارها حتى قلبت بريطانيا للخليفة والخلافة ظهر المجن . فاحتلت هى استانبول وأعطت أزمير لليونان .. ومن ثم توالت الانتدابات على بقية أقاليم الدولة ... وهكذا كان ((الاخطبوط)) الاستعمارى يمد زراعيه فى كل انحاء العالم الاسلامى .

وكعادة الاستعمار فإنه يحرص على إذابة القيم فى المجتمعات المغلوبة على أمرها ويسعى لجلب أخس النظم وأفسد الأخلاق وأردأ العادات لها .

ومن هنا رأى أذناب اليهودية التلمودية أن خير وسيلة يمكن أن تخرج المسلمين عن دينهم وهم لا يشعرون ، أن يبثوا فيهم ((اللادينية)) العلمانية فى ثوب التقدم والرقى ونبذ ((الرجعية)) وخلع ثوبها الخلق. وأوهموهم بأن طلب العلمانية هو العلم ، وأخيرًا فرضوا عليهم هذه النظم بالقوة . وعدلوا القانون حيث جعلوا الوضعى هو الأساس الذى تُباشر عن طريقه الأحكام ، أما الدستور الاسلامى ، الذى هو التشريع الوحيد للمسلمين ، فقد وضع على ((الرف)) .

بل حتى قوانين الأحوال الشخصية امتدت إليها اليد الآثمة ... وأوحوا للمرأة بالحرية الموهومة وأوعزوا إليها بأن الحجاب يعطل حركتها فى العمل فيجب

أن تخلعه لكى تسير فى ركب الحضارة الغربية . . فحسرت المرأة وخرجت تختلط بالرجال . . .

أما مناهج التعليم فقد غيرت تماماً وغابت عنها التربية الاسلامية ، وشن الإعلام حملة شعواء على الدين والمتدينين وطفق يحط من قدرهم وينزل من مكانتهم ، وصار المسلم يستحى من كلمة ((إسلام)) التى وصمت بالتأخر والرجعية ، وهذا ، لعمرى ، من أخطر الحروب وهى الحرب النفسية .

الفصـــــل الثـــانى :-

: العلمانية تدخل دولة الخـــلافة :

ويشمل النقاط التاليـــة :-

١- النعرات القومية وجماعة تركـــيا الفـــتاة ثقت فى قضـــد الدولة الاســـلامية .

٢- أتاتورك يفرق مابين السلطنة والخلافة ، وهما شئ واحـــد .

٣- دعاوى أتاتورك لعـــزل الخـــلافة .

٤- موقف المسلمين حيال الخلافة الاســـلامية .

* * * * * * * * * * * *

الفصل الثـــانى

العلمانية تدخل دولـــة الخـــلافة:

توطئة (أ) . : ظهور أتاتورك على الســـــاحة:

كانت الحركات القومية تفت فى عضد الدولة العلية وتفخـــر فيها نخر السوس فى العود اليابس حتى أوهنت جسرها وعرفـــت عند عند الأوربيين باسم ((الرجل المريض)) ثم جاءت الحـــرب العالمية الأولى فزادتها رهقاً . . .

والناس فى هذه الفترة، التى تلت الحرب، صاروا مغلوبيـــن على أمرهم ، والسلطان تحت رحمة الدول المحتلة ، وهـــنا اشـــرأبت الأعناق إلى من يفقدُ الموقف ، فهذه اليونان، التـــى كانت لا يحسب لها حساب، تحتل قسماً هاماً من تركيا ، أزمـــير والأناضول ، ومن خلال هذا الضباب الكثيف والموقف القـــاتم برز على الساحة ضابط تركى سمى نفسه : مصطفى كمـــال (١) وأهل منادياً بالخلاص من الاستعمار فالتف حوله شرذمة ســـن الضباط والجنود وكونوا بما أسموه : الجمعية الوطنية .

---

(١) ولد فى سالونيك (١٢٩٦هـ - ١٨٨٠م) من أم اسمها زبيـــدة. أما والده فلم يعرف اسمه ، وكان قد تزوج أمه رجل تركـــى اسمه ، على رضا أفندى ، يعمل ضابطاً فى الجيش التركـــى ، يقول صاحب كتاب الرجل الصنم، نقلاً عن رضا نور فى كتـــابه ((حياتى وذكرياتى ، جـ ٣ ص ٥٧ : ((ويأتى إلى المدرســـة الحربية فى سالونيك طالب اسمه مصطفى كمال كان ابناً بالتبنى لأحد الحراس العاملين فى الجمرك فى سالونيك اسمه على رضا أفندى ، ويقال إن أباه كان صربياً وقوله إنه كان بلغاريـــاً وبقوله هو نفسه عندما عزلوا له صورة على رضا وكبرت له ، قـــال بعد أن أخذها وقصه منها ((الطربوش)) . . ((إن هذا ليـــس بوالدى)) أما عن اسمه فيزعم صاحب كتاب الرجل الصنم أن هـــذا الاسم لحقه عند دخوله المدرسة حيث كان له أستاذ اسمه مصطفى فقال له كلانا اسمه مصطفى فأضف لآخر اسمك ، كمال ، فكن أنـــت مصطفى كمال !!؟ راجع كتاب : الرجل الصنم ص ٥٥ .

وهنا قابلتهم مشكلة وهى ؛ أنه لابد لهم من سند شعبى يرتكزون عليه ويمدهم بالمعونات المعنوية والمادية والبشرية ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ وما هو الشعار الذى يرفعونه لتحقيق هذا الغرض ؟

هل ينادون بلقسان «أحمد آغايف ، وأقتشورا أو أوغلى يوسف ، واضعى مشروع الطورانية ؟ أم يخاطبونه بلغة السلطان عبد الحميد واضع أسس الجامعة الاسلامية فى العصر الأخير ؟

وأما أن الطورانية كانت قد لفظت أنفاسها بعد قضاء الحرب العالمية الأولى على دعاتها الاتحاديين ، ولم يبق منهما إلا مخلفات قليلة لا تتعدى نطاق بعض الشباب المثقف » .

وأما سواد الشعب فلم يكن يتحسس كل التحسس بغير الاسلام ، ولا يفهم إلا بلغة الدين ؛ لذلك ما وسع مصطفى كمال وصحبة حينما أذن مؤذنهم : ((حىّ على إنقاذ الوطن حىّ على تطهير البلاد وإنقاذ الشرق ، ما وسعهم إلا أن يجعلوا طوابع هذا الآذان طابعاً روحياً إسلامياً فتلبسوا بالدين)) (١) وذلك لعلمهم أن هذا الشعب المسلم الغيور على دينه ، إذا لم يظهروا له بهذا المظهر ؛ فإنهم سيخسرون المعركة ولن يجدوا أحداً يقف بجانبهم ؛ ولهذا السبب فقد كان مصطفى كمال أول عهده يتظاهر بالاسلام حتى فى اللباس كان يلبس زى العلماء ويرتاد المساجد ، ويفتتح خطبه بالبسملة والحمدله ، خداعاً للشعب ريثما يستتب له الأمر .

---

(١) العرب والترك ، ص ١٧٦ .

((ب)) أتاتورك يبدأ بتنفيذ مخططه الاستعماري لعلمنة الدولة الاسلامية :

بعد أن فتحت أزمير وخرج منها اليونانيون ، وفرح الناس بهذا النصر الجزئي ، أقول الجزئي ؛ لأن الانجليز كانوا قد احتلوا استانبول منذ (١٩٢٠) وجعلوا السلطان مجرد رمز فقط ، لا يبدئ ولا يعيد .

وبعد زمن قصير من استيلاء الكماليين على زمام الأمر بدأت بوادر الشر تظهر وبدأت كلمات السخرية بالدين والاستهزاء به والاستخفاف بالخلافة الاسلامية ... كل هذه ظهرت في أقوال أتاتورك وخطبه وكان يظهر نفسه بمظهر المنتصر الذي ينقذ الأمة ... ويؤكد أن السلطان هو الذي أوقع البلاد في الاستعمار وأنه متفق مع الانجليز ولذلك ((يجب رفع راية العصيان ضد الحكومة العثمانية والسلطان العثماني ... يجب دفع الأمة بكاملها ودفع الجيش إلى رفع راية العصيان ضد الحكومة العثمانية والسلطان العثماني وخليفة المسلمين)) (١)

وقد قطع كل صلاته بحكومة السلطان وخليفة المسلمين في استانبول وكون هيئة أطلق عليها اسم ((الهيئة العامة للوطن)) وجعل مقرها في أنقره التي أصبحت بعد ذلك عاصمة الحكومة التركية العلمانية . وأخذ رويداً رويداً يكثر طنينه من كلمات التشهير بالاسلام ، فمن ذلك قوله : ((لقد انتهى العهد الذي كان الشعب فيه يخدع بكلمات هي خاصة

---

(١) الرجل الصنم ، تأليف ضابط تركي سابق . ترجمة : عبد الله عبد الرحمن ص ١٣٤ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) .

بالطبقات الدنيا أمثال : كربلاء ... حفيد الرسول ... الإيمان .. السيف .. القدس)) (١)

هكذا يجعل أمثال هذه الكلمات- بما فيها كلمة الإيمان-يجعلها من كلمات الطبقات الدنيا التى تعنى ((الرجعية)) والتأخر عند هؤلاء العلمانيين ، فهو يريد من الأمة أن تتخلص من كلمة الإيمان التى هى العقيدة الاسلامية حتى تمحى كل معالم الاسلام من الأذهان ومن الحياة البشرية .

وقد خطا خطوات إيجابية لعلمنة الدولة الاسلامية شملت كل مظاهر الحياة - نجملها فى المباحث التالية :-

المبحث الأول :

إلغاء السلطنة :

بعد الهجوم والتشهير بالاسلام والاستخفاف به كتوطئه لما يقوم به ،بدأ أتاتورك بالمناورات لإلغاء السلطنة (٢) .

---

(١) الرجل الصنم ص ٢٤٨ .

(٢) قام أتاتورك قبل ذلك بالفصل بين السلطنة والخلافة ، وعندما رفض المجلس الفصل باعتبار أن السلطنة والخلافة شىء واحد، أحال أتاتورك الأمر على لجنة حيث تم الفصل ، فجعل السلطنة تختص بالأمور الدنيوية والخلافة تهتم بأمور الدين تمهيداً للفصل بين الدين والدولة الذى فعله بعد ذلك ... وعندما قام أتاتورك بحركته العلمانية كان ((وحيد الدين)) هو الخليفة والسلطان فى آن واحد ولم يكن الأتراك يفرقون بين السلطنة والخلافة قبل أتاتورك حيث كان السلطان هو خليفة المسلمين .. انظر نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى ، تأليف د . مصطفى حلمى ، ص ٥٤٦ ،دار الأنصار بالقاهرة (بدون تاريخ) وموسوعة التاريخ الاسلامى لشلبى جـ ٥ ص ٢١٢ .

حيث كان يثير هذه المسألة فى مجلس الأمة الذى لم يكن لـــه أى صلاحيات غير ما يشير به أتاتورك ، رغم أن هناك معارضين لفكرته . يقول : ((كان المعارضون فى المجلس قبل تشرين الثانى- محرم - لسنة (١٣٣٨هـ - ١٩٢٢م) يشيعون بأننى سوف أقـوم بإلغاء مقام السلطنة .. (لكن) عندما حان الوقت لم أتردد فى تنفيذ النقطة الأساسية التى كان واجبى المهم يحتمه علىّ عندما قررت الفصل بين السلطة والخلافة والقيام بإلغاء السلطنة كخطوة أولى)) (١)

وهكذا يعلن أتاتورك إلغاء السلطنة بكل جرأة ،ويعلـن أن هذا الإلغاء واجب تحتمه عليه الوطنية .

وأتساءل هنا : ما هذه الوطنية التى يقصدها ؟ . أهـى الوطنية التركية المتمثلة فى الشعب التركى المسلم ؟ أم هـى الوطنية الغربية الماسونية اليهودية ... ؟ .

ولا أحسب أن الأتراك يعرفون لهم وطنية أكثر من الاسلام ولا يمكن أن يعدوا إلغاء الاسلام ومحوه وطنية ، ولا يفعل هـذا ويعتقده وطنية إلاّ من توطنت فى نفسه كراهية الاسلام ومحبـة الإخاء الماسونى .

لقد كان العمل على إلغاء السلطنة ، خطوة أولى تتبعهـا خطوات أخرى ... مثل إلغاء الخلافة وتدمير الاسلام فى تركيـا وغيرها ، كما يتبين بعد ...

ويزعم أتاتورك أن إلغاء السلطنة هو واجبه المهم ...

وأسأله : من الذى أوجب عليه هذا ؟ . ومن الذى له حـق الإيجاب ؟ أليس هو الشعب التركى ؟ ومن هو الشعب التركـى ؟ أليس هو الشعب المسلم الذى صنع الأمجاد للأمة الاسلاميـة والاسلام ، ولم يكن ذلك إلاّ بسبب تمكن السلطنة وقوتها وانتصاراتها المذهلة طيلة قرون طويلة وهى تعمل باسم الاسلام ؟ أوليـس السلطان محمد الفاتح هو الذى فتح عاصمة الامبراطورية الرومانيـة بعد أن عجز عن فتحها خلفاء كثيرون قبله ؟ أم أن الـذى

(١) الرجل الصنم ،نقلاً عن كتاب (الخطابة) الذى ألفه أتاتورك ص ٤١٨ . ولم أعثر لهذا الكتاب على نسخة لا بالعربية ولا غيرها .

أوجب عليه هذا هو الاستعمار اليهودى الماسونى الانجليزى !! ؟
إن الشعب التركى المسلم لا يوجب على الطاغية وأد الاسلام وتحطيم الشريعة .. ولكنه واجب أملاه عليه أعداء الاسلام والمسلمين الذين يدافعون عنه ويرون ما قام به هو تحرر من الفكر الاسلامى ، الذى يسمونه ((عتيقًا))

لنستمع الآن إلى (شيريل) سفير الولايات المتحدة آنذاك فى تركيا ، الذى ألف كتابًا فى مدح أتاتورك والدفاع عنه بل والإعجاب به ،

يقول فى هذا الكتاب :

((ولابد لى من دحض المفتريات التى ترمى إلى تصوير مصطفى كمال بصورة الكافر والعدو للدين . والتأكيد بأن الرجل مؤمن بالله وأنه يرى من واجبات الانسان أن يؤمن به ويتجه بقلبه إليه ويدعوه ويستعين به . إلا أنه لا يرى ضرورة لأن يتخذ هذا الدعاء وهذه الاستعانة شكل صلوات مقررة فى صيغة معينة)) (١)

فواضح من اتجاه هذا الرجل الغربى العلمانى أنه يؤمن بفصل الدين عن الحياة الاجتماعية والشئون السياسية والاقتصادية والتربوية .... هذا الاتجاه الذى قلدهم فيه أتاتورك ونسج على منوالهم ، فهو يرى إنحصار الدين فى العبادات فقط

---

(١) العرب والترك ،ص ١٧٩.

بل ويتطرق إلى أبعد من ذلك ، فحتى العبادة يرى أنها لا تكون ذات صيغة معينة ولا كيفية محددة معروفة ،بل كيف ما اتفق تؤدى : وهذا هو الإيمان الذى وصفه به أخاه في العلمانية ، وتلك صورة الإيمان بالله الذى تدعو إليه العلمانية فى طورها المعتدل الذى لا تقول فيه بإلغاء الأديان .

ونفس الصورة للدين التى كان يراها ، شيريل ، آنف الذكر، يراها أخ له أمريكى آخر هو (بيارد دودج) رئيس الجامعة الأميريكية فى بيروت ، تلك الجامعة القابعة فى قلب العالم الاسلامى والتى يعتبرها الصليبيون أحسن مبشر للنصرانية؛ لما تقوم به من رسالة خبال إخراج أبناء المسلمين عن حظيرة دينهم . يقول معلقاً (١) على تصرفات أتاتورك التى يعتبرها المسلمون خروجاً عن الاسلام ..

(قال سائر المسلمين إن الأتراك هجروا الاسلام لأنهم نبذوا الشريعة التى تمثل الاسلام . أما الأتراك فكانوا يرون على ذلك بقولهم : لا ، وإنما نحن غيرنا تفسير الاسلام ،وسنحتفظ به على وجه آخر)) (٢)

ليت شعرى ، إنه الحقد الدفين والكراهية المجنونة للاسلام فهذا الرجل لا يرعوى إلاّ أن ينصب نفسه حكماً بين المسلمين ومفسراً لأفعالهم وأقوالهم ، وهكذا

---

(١) من محاضرة له فى المؤتمر السنوى الخامس لمعهد الشرق الأوسط فى واشنطن (١٩٥١م)

(٢) العرب والترك ص ١٨٠.

يفترض هجوماً من المسلمين غير الأتراك ، على الأتراك ، في أنهم تخلوا عن الاسلام - على حد تعبيره - ثم يثني الرد على لسان الأتراك بأنهم لم يغيروا الاسلام ولم يتخلوا عنه ، وإنما جاءوا له بتفسير جديد . ، في حين أنه لم يتهم أحد من المسلمين الأتراك بما حصل ، ولكنهم نسبوا ذلك لفاعله الحقيقي ، أتاتورك ، يهيب هؤلاء المدافعين عنه .

ويحاول أتاتورك عرض مسألة إلغاء السلطنة على مجلس الأمة التركي ، الذي هو لعبة في يده ، ثم يحاول هو أن يبرهن على ما فعله من إلغاء السلطنة في جلسة المجلس فيقول :

((في يوم (١) تشرين الثاني لسنة (١٣٨٨هـ - ١٩٢٢) تعرضت المسألة(١) نفسها في اجتماع المجلس لمناقشات طويلة ، لذلك رأيت ضرورة إعطاء بيان مفصل في المجلس ، إذ برهنت - مستنداً على التاريخ التركي والاسلامي - على إمكانية فصل السلطنة عن الخلافة . وبرهنت مستنداً على الوقائع التاريخية على إمكانية فصل الخلافة عن السلطنة وعلى إمكانية تمثيل مجلس الأمة التركي الأعلى لمقام الحاكمية والسلطنة الملية(٢) وقلت بأن الخلافة انتهت فعلياً في الدنيا عندما قام ((هولاكو)) بإعدام الخليفة المعتصم

---

(١) يعني بها مسألة : إلغاء السلطنة .

(٢) السلطنة الملية أي الدينية نسبة إلى الملة .

وبينت أنه لولا السلطان ياووز ، عندما فتح مصر عام (٩٢٤هـ)ـ أعطى أهمية لشخص لاجيء ـ يحمل لقب خليفة لما استمر عنوان الخلافة حتى يومنا هذا))(١)

أرايتم كيف هذا التخبط والخلط واللغو الذى يشبه الهذيان ؛ فهو يستدل على محو السلطنة ثم الخلافة ببراهين ووقائع التاريخ ، وهل التاريخ من الأدلة الشرعية التى تمحى بها الخلافة ؟ وأى التاريخ الاسلامى هذا الذى أخذ منه جواز محو الخلافة الاسلامية ؟ وهل عمل (هولاكو) عندما داهم بغداد يعد من الأدلة على الغاء السلطنة وأن لا تقوم لها قائمة ؟

اللهم إلا أن تكون شريعة الطغاة والجبابرة أشاله .

وبدلاً عن الخلافة الاسلامية وأن الحاكمية لله وحده . تكون هذه الحاكمية لمجلس الأمة . وهذا هو النظام الذى اختلسه من الثورة الشيوعية التى كانت قبله بمدة (١٩١٧م) حين أقامت الحزب الشيوعى مقام الإله المعبود ، وأقامت دستوره مقام الأحكام الشرعية .

ولكن أتاتورك لتسلطه حتى آراء هذا المجلس إذا لم تكن موافقة لهواه فإنه يركلها برجله . وقد هدد هذا المجلس عندما عرض عليه أمر إلغاء السلطنة حيث قال :

((إنّ هذا أمر محتم،(٢) إنّ موضوع بحثنا ليس هو هل

---

(١) الرجل الصنم ص ٢٥٨ عن الخطابة ص ٤٢ .

(٢) يعنى بالأمر المحتم : أمر الغاء السلطنة ، وأنه كائن لا محالة سواء وافق المجلس أم أبى .

نوع الحاكمية والسلطة للأمة أم لا ؟ لأن القضية هى فى تسجيل أمر واقع ، وهذا لابد أن يكون .. إننى أرى من المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا أعضاء المجلس وكل واحد على اعتبار هذه قضية طبيعية .. ولكن إذا حدث العكس فإنّ هذا الأمر سينفذ أيضا وفى إطار المجرى الطبيعى ، ولكن المحتمل بعض الرؤس ستقطع)) (١)

هكذا يتلون الرجل ، تلون الحرباء ، فهو عندما كان يبرهن على إلغاء الخلافة والسلطنة قال : بإمكانية تمثيل مجلس الأمة التركى ... لمقام الحاكمية والسلطنة ..

وهنا يقول مهددًا : إنّ هذا الأمر سينفذ حتمًا ، ومن لا يوافق يهدد بقطع الرأس .

وتحت هذا التهديد الذى يجانب الرحمة ويجافى العدل أحنى الجميع رؤسهم وأمضوا الصحيفة الظالمة التى نُص فيها على إنهاء السلطنة وإلغاء شرع الله فى سنة (١٩٢٣) .

فـ ((فى اليوم الأول من شهر تشرين الثانى (محرم) عام ١٩٢٣هـ - ١٣٣٩ هـ) أنّت سماء أنقرة واستانبول وسلانيك ومدن الأناضول بأصوات طلقات المدافع ، ففى الساعة (٨ر٣٠) مساء من اليوم السابق ، أى فى يوم (٣٠) تشرين الأول كان المجلس القومى الأعلى (المجلس النيابى) قد أعلن الجمهورية وانتخب مصطفى كمال

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ ، عن الخطابة ص ٤٢٢ .

.. المبحث الثـــانى : .

.. إلغاء الخلافة الاسـلامية :

كان هدف أعداء الاسلام والمسلمين من المستعمريـــن واليهود والصليبيين على السواء هو القضاء على الوحدة القويـــة والرابطة الكبرى التى تجمع شمل المسلمين وتوحد كلمتهم ؛ وذلـك بالقضاء على الخلافة الاسلامية ، لتتقطع أوصال المسلمين وينفـــك عنهم هذا الرباط الروحى المتين وبذلك تتحقق الفرصـــة للذئاب لاقتناصهم والانقضاض عليهم .

فالخلافة الاسلامية هى التى تجعل المسلم يشعر بتلـــك الوحدة الاسلامية وتذكره بعهد الدولة الاسلامية الأولى وبرابطـــة الإخاء الأولى عندما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بـــين المهاجرين والأنصار . كما تذكره بشعار الاسلام : لا فضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أبيض ولا أبيض على أسود إلا بالتقـوى وأن الناس فى تلك الأيكة الملتفة أغصانها المتشابكة فروعها ، التـى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، هم سواسية كأسنان المشط ... .

ولتلك المعانى أراد أعداء الاسلام اجتثاث هذه الشجرة واستئصال جذورها - ان استطاعوا - وإلا فليأخذوا عنها اللحـاء وليتركوها عارية حتى تجف وتيبس .

ولهذا فقد عمدوا بواسطة ربيبهم أتاتورك ، إلى محـــو الخلافة الاسلامية بعد أن مهدوا لذلك ببتر السلطنة .

وقد كان مصطفى كمال يقوم بحملات دعائية قبيـــل إلغـــاء

الخلافة ليجس النبض ، وكان يشهّر بالخلافة ويحط من شأنهـــا ويهدد من يدافع عنها ((... ولكى أزيل تردد وقلق الأمـــة حول مسألة الخلافة فإننى قمت فى كل مكان ، بإعطاء إيضاحـات وبيانات كافية، وقد قلت بشكل قطعى بأنه سوف لن يُسمح لكائن مهما كان عنوانه بأن يتدخل فى مقدرات الدولة الجديدة التى أنشأتها أمتنا أو فى صلاتها أو فى استقلالها ..)) (١)

وهو يشير بتهديده هذا لما قام به بعض أفراد الشعب وبعض النواب أمثال الشيخ شكرى ، الذى ألف رسالة تحت عنوان: ((الخلافة الاسلامية ومجلس الأمة العالى)) قام بتوزيعها على النواب وغيرهم يحذر فيها من هدم الخلافة .

ولهذا فقد رماهم مصطفى كمال بالتدخل فى السياسة التى جعلها أمراً غير دينى أسوة بالغرب عندما قامت الثورة الفرنسية " ١٧٨٩" وعزلت السياسة عن الدين .

ولذلك فهو يعتبر ((أن الشيخ شكرى وأصدقاءه المغرمين بالسياسة بدلاً من أن يظهروا غايتهم السياسية ظهروا وكأنهم يتناولون قضية دينية تهم العالم الاسلامى كله ، ولكن هذه المحاولة لم تُعطِ نتيجة سوى الأسراع فى إنهاء لعبة الخلافة))(٢)

فهو يحاول عزل السياسة عن الخلافة ، وهذا لاعتقاده أنه بعد إلغاء السلطنة لم تعد ثمة سلطنة سياسية دينية ، ويلوح بأن هذه المحاولات إن لم تترك

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

فإنّ نتائجها سوف تكون الخلافة التى هو فى الحقيقة عاقد العزم عليها ،بل هى الغاية وما سواها وسائل لها فقط .

وهو فى محاولاته لإنهاء الخلافة تراه يتخبط، فتارة يهدد ويتوعد من يقف فى وجه إلغاء الخلافة ، وتارة يذم الخليفة ويطعن فيه ، وأخرى يمدح الأمة وكيف أنها قامت بالثورة المتمثلة فيه هو .

((. . . ولقد أوضحت للأمة أن كيف دولة تركية وشعبها القليل النفوس- كذا - لا تستطيع أن تكون رهن إشارة خليفة يفترض فيه أنه مكلف بتأسيس دولة إسلامية شاملة وأن الأمة لا يمكن أن ترضى بهذا)) (١)

ومن حججه الواهية التى يوردها من مسوغاته لضرب الخلافة والتى تنمّ عن خبثه وسوء طويته على الاسلام ، ماقاله لأحد الصحفيين الفرنسيين ، زعم فيه أن تعلق الترك بالخلافة الاسلامية هو سبب شقائهم. وكان من بين ما قاله : ((إنّ نبينا أمر تلاميذه أن يدعوا الأمم إلى دين الاسلام ،ولم يأمرهم أن يتولوا حكومات)) (٢)

ويعلق الشيخ مصطفى صبرى (٣) مفتى الدولة الاسلامية فى تركيا ، على هذا الحديث مستنبهًا على جهل مصطفى كمال فيقول : ((وتعبيره بالتلاميذ عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ينبئ عمّا فى ضميره ، من عدّه صلى الله عليه وسلم،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ،د . محمد محمد حسين جـ ٢ ص ٧٦ ، دار النهضة بيروت ، الطبعة الثالثة (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

(٣) فى كتابه : النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة ص ٨٩ - ٩١

كشيخ زاوية ، أو أستاذ مدرسة ، ويدل على أنه أخذه من تعبيرات النصارى ، حيث يعبرون عن حواريّ سيّدنا عيسى بالتلاميذ)) (١)

ومصطفى كمال وشرذمته كانوا كلهم حريصين على فصل الدين عن الدولة - كما أُملي عليهم - ومحو الخلافة الاسلامية وهو من الشروط الأساسية في مؤتمر ((لوزان)) الذى عقد من أجل الصلح مع بريطانيا أيام احتلالها للأراضى التركية، وهذا ما يوضحه رضا نور (٢) بقوله : ((.. وبهذه المناسبة أذكر حادثة معينة : لقد كنت أول من تلفظ بهذه الكلمة في جلسات مؤتمر لوزان إذ قلت: إنّ تركية أصبحت علمانية. وقد انفصل الدين عن الدولة وإذا ما تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية . . .

ويستمر في تأكيد عزمهم على علمنة الدولة بفصل الدين عنها ؛ مما يؤكد تأكيداً لا تشوبه شائبة شك من أن فصل الدين

---

(١) المرجع السابق . ج ٢ ز، ص ٧٦ .

(٢) الدكتور رضا نور (١٨٧٩ - ١٩٤٣) طبيب ومؤرخ ورجل سياسة تركى . . تخرج من الكلية الطبية العسكرية ثم أصبح أستاذاً فيها . دخل معترك السياسة في (١٩٠٨)، كان رئيساً للوفد التركى الذى عقد معاهدة الصداقة مع روسيا (١٩٢١) ، كما اشترك في محادثات لوزان . شغل عدة مناصب : منها وزير الصحة ثم نائب وزير الخارجية في عهد أتاتورك . كتب مذكراته تحت عنوان : ((حياتي وذكرياتي)) سرد فيها الكثير من أسرار تلك الفترة . أودع منها نسخة في فرنسا ونسخه في المتحف البريطانى واشترط عدم نشرها وفتحها إلاّ بعد عام (١٩٦٠) وهو من المتحمسين لإلغاء الخلافة وعلمنة الدولة . انظر الرجل الصنم هامش ٤٦ .

عن حياة المجتمع وإلغاء الخلافة ـ كان شرطاً من شـــروط اتفاقية الصلح السرية حيث أنهم كرروا عبارات الفصل فى داخـل المؤتمـر وفى جلساته حتى يطمئن أسيادهم الانجليز وغـيرهم لهذا ، وأنهم سيقومون بما تقر به عينهم وتسهر به عيـــن المسلمين .

وهنا يؤكد مرة أخرى قائلاً :

((... وكلامى هذا مسجل فى محاضر الجلسات وقد قلـــت هذا من أجل الدفاع عن مصالحنا فى لوزان ، وقد كانت هذه مـن أهم نقاط الأرتكاز والإستناد التى كنا نستند عليها فى لوزان . وقد سبق أن وضحت شرط فصل الدين عن الدولة فى التقـــرير الذى وضعته فى إلغاء السلطنة ، وهذا الفصل هو أساس العلمانية)) (١)

إذاً فالمطمئن السادة اليهود على هذه العهود والمواثيق التى أعطيت لهم بعد أن نالها رضا نور بصراحة، بأن فصل الدين عن الدولة وإلغاء الخلافة الاسلامية من أهم نقاط الانجليز التى استندوا عليها كشرط أساسى فى الصلح، لأن الانجليز لا يقبلون بغيره .

وهكذا كانت الأمور تسير نحو الهدف الرئيسى وهـــو ردم العين الثرة والمنبع الفياض ، الخلافة الاسلامية، حجر الزاويـة فى الاسـلام . ((والآن يحين الوقت المناسب لإيفاء ـ مصطفى كمال ـ وعده للانجليز ، لذلك فبعد (٤) ـ كذا ـ أشهر من انتخابه رئيساً للجمهورة يذهب إلى أزمير بمناسبة لعبة حرب مزعومـــة ، وهناك يجتمع مع رئيس الوزراء عصمت باشا (٢) ومع رئيس الأركـان العامة ، فوزى باشا ، ومع وزير الحربية كاظم باشا حيث يعطى قراره ـ لقد آن وقت إلغاء الخلافة وتلغى معها وزارة الشرعيـة ووزارة الأوقاف وسنربط المدارس الدينية بالحكومة لكى نوحـــد التعليم ، ولن ندع هناك مدرسة دينيـــــــــــــــــــه .

---

(١) الرجل الصنم ص ٢٨٩ عن زكرياتى ، لرضا نور ص١١٨٨ .

(٢) عصمت باشا ، الملقب بعصمت أينونو ، كان قد تولى رئاسة الجمهورية بعد وفاة أتاتورك وسار على نهجـــه .

ويهز الباشوات - ومن ضمنهم فوزى باشا - رؤوسهم علامة الموافقة . وهكذا تصدر من المجلس فى (٣ مارس عام ١٩٢٤ م - ١٣٤٠هـ) القوانين المرقمة ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، تلغى الخلافة ، كما يتقرر إخراج الخليفة - عبدالحميد ابن عبدالعزيز - مع جميع أفراد عائلته من البلاد)) (١)

وهكذا أفلت شمس الخلافة التى كانت تشع بنورها الوضاء على العالم الاسلامى تبدد له ظلمات الدجنة ، وأغضت عينها ولا تزال تغط فى نوم عميق لم تفق منه إلى يومنا هذا ... فهل من موقظ لها يا ترى ؟ .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٦

. : المبحث الثـــالـــث : . موقف المسلمين من إلغاء الخلافة : .

إذا كان بعض المسلمين قد أبدى إعجابه بحركة الكماليين عندما عزلوا السلطان عبدالحميد الثانى واحتلوا الأستانة بعـــد حربهم التى خاضوها مع اليونان فى الأناضول وأزمير(١)،فإنمـــا كان يرى أن هذه الحركة لم تستهدف الدين ولم تكن عدوة للخلافة الاسلامية،وإذا ثاروا على الخليفة،فإنما لتباطئه عـــن نجدة الوطن ؛ ولهذا فقد أشاد بهم - فى بادئ الأمر - بعـــض المسلمين والعلماء والشعراء أمثال شوقى .

ولكن عندما استبانت لهم نوايا الكماليين وأنهم إحـــدى وسائل اليهود والمستعمرين - عندئذ برزوا لهم وشرعوا يكتبـــون الرسائل ويؤلفون الكتب وينظمون الشعر فى التنديد بهم والإشـادة بالخلافة الاسلامية ووجوب ضرورة التمسك بها وذكر محاسنها . . كما أخذ بعض العلماء فى ذكر أحكام الخلافة وكيف أن التمسك بهـــا والدفاع عنها من أوجب واجبات المسلمين ولزوم البيعة للخليفة .

---

(١) كان اليونانيون قد احتلوا أجزاء من الأناضول واحتـــلوا كذلك أزمير(١٩١٩م) . وقامت بعد ذلك حركة من داخـــل الأناضول وثارت ضد اليونان . كان من ضمن الذين تزعموها مصطفى كمال . الذى أعلن الجهاد الاسلامى . . فلقى عوناً كبيراً من الدول الاسلامية . مما حقق له انتصاراً على اليونان أدى إلـى هزيمتهم فى (١٩٢٢م) . وبعد هزيمة اليونان بادر الحلفاء بعقـــد مؤتمر فى (لوزان) للصلح بين اليونان وتركيا ، (١٩٢٣) تعـــين بموجبه خروج اليونان من الأناضول . انظر تاريخ الشعوب الاسلامية كارل بركلمان جـ ٥ ص ١١ ، ترجمة منير البعلبكى (١٩٥٥) وموسوعـــة تاريخ العالم (وليام لانجر) ترجمة د . محمد مصطفى جـ ٧ ص ٢٥٠١ ، مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٩م) . وانظر كذلك موسوعة التاريـــخ الإسلامى لشلبى جـ ٥ ص ٧٠٨ .

فمن أولئك العلماء العالم الجليل ، الشيخ مصطفى صبرى شيخ الاسلام فى تركيا ، والشيخ صبرى عالم جليل لا تأخذه فى الحق لومة لائم وهو من الفئة القليلة التى عرفت سوء نية الكماليين وكشف عن سوء طويتهم . ومن حينها شرع يكتب الرسائل ويحرر المقالات فى التحذير منهم ، وقد ألف فى ذلك كتاباً سماه : ((النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة)) وقد شن بعض المعجبين بالكماليين عليه حملة ضارية واتهموه بالحقد على الثورة والتواطؤ مع السلطان وحميد الدين الذى عزله الكماليون ...

وكتب فى الكماليين مقالاً يكشف تآمرهم على الاسلام . وقد ((بدأ الشيخ مقالة ، مظهراً العجب من أمر الناس الذين أصبح قائل الحق بينهم لا يقوله إلاّ همساً ، بينما يجهر الفجرة بمعصيتهم وينادون بالفساد الستحيل فيجدون آذاناً صاغية :

إذا قلت الحال رفعت صوتى وإن قلت اليقين أطلت همسا .

وقد بيّن فى هذا المقال مكان الخلافة من الحكم الاسلامى الصحيح ، داعياً إلى إقامتها ، متسائلاً : ((لماذا اختارت حكومة أنقرة أن تختص نفسها بالسلطة المدنية ، وتركت الخلافة ، وهى (الخلافة) اتصاف تلك السلطة بصفة دينية؟ فذلك وحده دليل على رغبتهم فى السلطة المادية وإعراضهم عن الخلافة الدينية فـ ((أى ضرورة أوجبت التفريق بين السلطتين ، وقد كان ينبغى أن يترتب على فتح أزمير ، إعلاء كلمة الله ، إن كان هؤلاء الكماليون جند الله ... ؟ أرونى حكومة اسلامية تمكنت من الجمع (١)

---

(١) كان كمال أتاتورك ، يزعم بأنه عُرضت عليه الخلافة فرفضها بحجة أن المسلمين لا يقبلون بها بعد أن صار لهم ملوك وأباطرة على حد تعبيره ، أى بعد أن أصبحت كل ولاية لها ملوك وأباطرة .

بين السلطة والخلافة ، وأقرها عامة شعب المسلمين عليه فردته تلك الحكومة نفسها وأبعدته عنها (١) كما صنعت الفئة الكمالية فما رامت إلا التخلص من ربقة الخلافة والتباعد عنها)) (١)

ويتعرض الشيخ لفتح الكماليين للأناضول وأزمير وإلصاق الناس بهم وصف (الثوار) وتسمية أتاتورك بالغازى ، حين يتساءل : ((لمن هذا الفتح ؟ ولماذا هو ؟ ويجيب بأن هذا الفتح المزعوم ليس لصالح الدولة التى ((عصوها وبغوا عليها ، ثم هدموها ، وأرادوا أن يمحوا اسمها ورسمها ، وليس هو للدين الاسلامى ، ((لأنهم كثيراً ما صرحوا بأن تجريدهم الخلافة عن السلطة والتفريق بينهما إنما وقع بقصد التفريق بين الدنيا والدين))(٢)

ويتحدث أبقضهم للدين وعن خططهم لتدميره ((ففى قلوبهم شنآن من اعتصم منهم بدينه . وخطتهم التى يتناجون بها ولا يحيدون عنها استئصال المخلصين من المسلمين ، كما أن خطتهم استئصال الدين وإنقاذ البلاد من نفوذه ..... فإذا كنا فى استقلال دولتنا نختار الحكومة اللادينية ونطرح الخلافة والرياسة الدينية فلا كان ذلك الاستقلال ، وعدمه مع عدم هذا الخسران أهون)) (٢)

وقد أورد الشيخ صبرى كثيراً من الشواهد على صلة الكماليين باليهود والانجليز يضيق المجال عن ذكرها ...

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ٣٤ ، وكذلك موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين مصطفى صبرى ، جـ ٤ ص ٢٨١ وما بعدها . نشر المكتبة الاسلامية القاهرة "(١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م) .

(٢)و(٣) انظر المرجعين السابقين ، ٧٨ ، و ٢٨٣ ومابعدها .

شوقى يندب الخلافة :

ولم يقتصر التنديد بالكماليين وقضائهم على الخلافة ، التى تمثل عصب الحياة فى الاسلام ، على العلماء فقط ، بل لقد الهب فعلهم هذا عاطفة الشعراء ، فقالوا الشعر فى ندب الخلافة وعزاء المسلمين فيها فهذا شوقى فى حاشيته المشهورة : نجتزء منها :-

عادت اغانى العرس رجع نواح * ونعيت بين معالم الافراح (١)
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه * ودفنت عند تبلج الاصباح (٢)
شيعت من هلع بعبرة ضاحك * فى كل ناحية وسكرة صاح (٣)
ضجت عليك مآذن ومنابر * وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة * تبكى عليك بمدمع سحاح (٤)
والشام تسأل والعراق وفارس * امحا من الارض الخلافة ماح ؟
. . . . . .
نظمت صفون المسلمين وخطوهم * فى كل غدوة جمعة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث * بالشرع عربيد القضاء وقاح (٥)
افتى خزعبلة وقال ضلالة * واتى بكفر فى البلاد براح (٦)
نقل الشرائع والعقائد والقرى * والناس نقل كتائب فى الساح (٧)
. . . . . .
من قائل للمسلمين مقالة * لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة فى اول ذائد * عن حوضها بيراعة نضاح (٨)
انى انا المصباح لست بضائع * حتى اكون فراشة المصباح

---

* الشوقيات ، احمد شوقى ، جـ ١ ص ١٠٥ ، ١٠٩ . دار الكتاب العربى بيروت ، (بدون تاريخ) .
(١) الرجع ، هو صدى الصوت الذى يرجع من المكان الخالى .
(٢) تبلج الاصباح : اشراقة وانارته .
(٣) الهلع : الجزع الشديد . العبرة : الدمعة قبل ان تسيل .
(٤) الوالهة : الحزينة : شدة الحزن . مدمع سماح : سيال دفاق .
(٥) العربيد : الشرير ، سىء الخلق . والوقاح : ذو الوقاحة وهى قلة الحياء .
(٦) الخزعبلة : الفكاهة والمزاح ، والكفر البواح : البين الظاهر .
(٧) الساح : جمع ساحة ، والمراد مكان الحرب .
(٨) الزائد : الحامى الدافع . وكذلك النضاح . واليراع : القلم والفراش : حشرة ذات جناحين تتهافت على النار .

ومن الذين كتبوا عن الخلافة الاسلامية وأهمية بقائهـــا محمد رشيد رضا فى كتاب له نُشر فى شكل مقالات تحت عنـوان : الخلافة أو الإمامة العظمى ، تكلم فيه عن الاسلام بحماس كـبير وشعور حار صادق ، ووجه نداءات للعالم الاسلامى عامة وللشعب التركى خاصة ، باعتباره مقر الخلافة الاسلامية وباعتبار حركة الكماليين العلمانية وجماعة الاتحاد والترقى قبلها فى هذه البـلاد ومن حيث أن أعداء الاسلام يركزون ضرباتهم عليها ، ولهذا نـراه يوجه النداء باسم الشعب التركى عساه يتحرك .

ومن هنا يهتف صارخاً : ((أيها الشعب التركى ، إنّ الاسلام أكبر قوة معنوية فى الأرض ، وأنه الذى يمكن أن يحمى مدنيـة الشرق وينقذ مدنية الغرب ، فإن المدنية لا تبقى إلاّ بالفضيلـة والفضيلة لا تتحقق إلاّ بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع المدنيـة والعلم إلاّ الاسلام ، . . ولن يكون ذلك إلاّ بحكومة الاسلام الـتى بيناها بالإجمال فى هذا الكتاب .

أيها الشعب التركى الباسـل ، إنك اليوم أقدر الشعوب على أن تحقق للبشر هذه الأمنية . فاغتنم هذه الفرصـة لتأسيس مجد إنسانى خالـد)) (١)

وتحدث الشيخ محمد رشيد رضا عن الإمامة العظمـى والخلافة ورئاسة الدولة معرفاً بذلك ومفصلاً القول فيها ، فقـال :

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ٥٧ .

((إنّ الخلافة والإمامة العظمى وإمارة المسلمين ((كلها)) ثلاث كلمات معناها واحد وهي رئاسة الحكومة الاسلامية الجامعة لمصالح الدنيا والدين)) (١)

ودعا إلى خلافة إسلامية صحيحة تستوفي كل شروط الخلافة الاسلامية حتى ينهض المسلمون من كبوتهم وينتبهوا من غفلتهم ويفيقوا من سباتهم .

وعزا تفرق المسلمين إلى عاملين هما :

الاستعمار، الذي يهدف من وراء ذلك إلى تفريق جميع المسلمين .

والثاني : النعرات القومية والتحزب العنصري الذي يخدم أغراض المستعمر .

ولكن رغم ذلك كله فإنّ المسلمين لم يرضوا بما قامت به شرذمة مصطفى كمال وإن أعوزتهم الحيلة نحو هذا إيجابي ... وعلى كل حال فإنّ الاستنكار قد حصل ولو كان رد الفعل سلبياً ، ولكنه يدل على عدم الرضى والاستكانة ، ذلك لأن التيار المضاد كان أعنف وأقوى .

تلك كانت إشارة قصدت بها لفت النظر إلى عدم قبول المسلمين لهذا المبدأ المستورد .. مبدأ عزل الدين عن حياة الناس بعامة .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٨ .

* الفصـــــل الثـــالث *

خطوات إيجابيـة يتخذها أتاتـــــورك
لتغيير المجتمع التركى المســـــــــلم : .
ويشـــتمل على ســـــايلى :-

١- إبعاد الأحكام الشرعية واستبدالها بالقوانين الوضعية .

٢- التخبط فى تفسير وترجمة القوانين المستوردة .

٣- محو اللغـــة العربيـــــــة .

٤- ما ترتب على محو اللغة العربية من آثار ســيئة عـــلى المجتمع التركى .

٥- العمل الجاد على محو كل الآثار الاسلاميـــــــة والتوجه بالمجتمع التركى نحـــو الغـــــرب .

* * * *

الفصل الثالث :

خطوات إيجابية يتخذها أتاتورك

: : لتغيير المجتمع التركى المسلم : :

بعد أن هدم أتاتورك الخلافة الاسلامية فى تركيا ، إتجه لتغيير المجتمع المسلم تغييرًا كاملاً والاتجاه به كليًا إلى الغرب العلمانى ، فكريًا وسياسيًا وخلقيًا .. فى كل شئون الحياة ،وذلك تنفيذًا للمخطط الذى رسمه له أعداء الاسلام ؛ ولهذا فقد بدأ بتغيير النظام الاسلامى فى كل شىء صغيرًا كان أم كبيرًا .

وسأقوم بعرض موجز لمظاهر هذا التغيير فيمايلى :

المبحث الأول :

: : إبعاد الأحكام الشرعية واستبدالها بالقوانين الوضعية : :

كان أول شئ يقوم الكماليون بإبعاده ،بعد الخلافة ، الأحكام الشرعية .

فقد بادروا لأول وهلة بإصدار اللوائح التى ألغيت بموجبها وزارة الأوقاف ووزارة الشرعية بنفس نص قوانين إلغاء الخلافة (٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١) ومن حينها طفقوا يبحثون عن القوانين البديلة للشريعة الاسلامية فقاموا بجلب القانون المدنى السويسرى وقانون الجزاء الإيطالى والقانون التجارى الألمانى .

وبجلب هذه القوانين التى أبعدت بموجبها الشريعة الاسلامية ،فرح الكماليون وقالوا فى نشوة ((لقد تم تحقيق الانتصار النهائى للكفاح فى

سبيل المدنية .. وذلك بفضل إقرار القانون المدنى العلمانى وقد كان تصديق القانون المدنى من قبل المجلس الأعلى وتصفية الدستور، وذلك بإخراج المادة القائلة: بأن دين الدولة هو الدين الاسلامى، منه لصالح العلمانية بمثابة لبس التاج فى مراسيم إنتصار دعاوينا الثورية، إذ لم يبق هناك أى عائق أمام الأمة التركية للتوجه والتطور نحو مجتمعات القرن العشرين، والقضية أصبحت منحصرة فى قضية التعليم فقط ..!.

ويستمر الكاتب العكالى فى وصف الحالة التى كانت عليها تركيا وكيف انتصروا عليها، وكيف أنهم الآن، فرحون مبتهجون بتحقيق العلمانية التى فى زعمهم أنها سوف تلحقهم بركب المدنية الغربية، ذلك لأن الغرب لم يتقدم هذا التقدم ((التكنلوجى)) إلا بعد أن نبذ الدين النصرانى وراءه ظهريا وأخذ العلمانية ديناً له .

ولما كانوا يظنون بأن ما سلكوه هو طريق ((التقدم)) وما كانت عليه الدولة العثمانية من التمسك بالاسلام هو (الرجعية) وأن الدولة كانت غير متحضرة لأنه ((كان الرجعيون قد نشروا طيلة عصر من الزمن فكرة أن العلمانية هى خروج من الدين ومن القومية، وكانت ((الكمالية)) تضع النهاية لهذه الأسطورة، وكنا نرجع - لأول مرة - إلى قوميتنا التركية)) (١)

---

(١) الرجل الصنم ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

ولما كان المترجمون لتلك القوانين من وجال (الثورة) الكمالية ، غير أكفاء وتنقصهم المقدرة اللغوية التى يستطيعون بها هضم اللغات المترجم منها والمترجم إليها ،وهى التركية ولذلك فقد كانت الترجمة كلها أخطاء شنيعة الشىء الذى أدى إلى ارتباك وخلل فى مفاهيم هذه القوانين وموادها . . حيث أن المترجمين لا دراية لهم بالفقة القانونى لعدم تخصصهم فى هذا الميدان فأكثرهم جنود لاصلة لهم بالقوانين . . .

ويكفى فى التدليل على ما أقول أن أنقل ماجاء فى هذا الصدد على لسان أحد أركانهم لنرى إلى أى مدى وصلت المهزلة بالشعوب الاسلامية والتلاعب بحقوقها التى غدت يقررها أولئك المدعين للعلمانية . . .

يقول رضا نور (٢) الذى وعد الانجليز بوضع هذه القوانين لتحل محل التشريع الاسلامى ، مايلى :

((وقد قام محمود أسعد بترجمة القانون المدنى السويسرى

---

(١) فى كتابه : حياتى وذكرياتى ، ص ١٣٥٢ .

وكان شكرى قابا ، ضمن هذه الهيئة ، وقد حصروا اهتمامهم فى الترجمة إلى اللغة التركية فقط ، حسناً ، ولكنهم لعدم استطاعتهم فهم هذه القوانين فهماً جيداً ، فإنهم قاموا بالترجمة الحرفية لكثير من أقسامها مما أدى إلى الغموض وإلى عدم إمكانية الفهم ، هذا علماً بأن عدة شروح قد كتبت فى سويسرى لفهم النص الفرنسى لهذا القانون . . .

ويتجه إلى المترجمين أنفسهم وكيف أنهم لا يستطيعون القيام بالترجمة الصحيحة لعدم معرفتهم وقلة خبرتهم فيقول :

((ثم إن شكرى قابا إذا كان يجهل شيئاً فهو لغته الأم ((اللغة التركية)) وذلك لأنه لو كتب سطرين فقط لوجدت عدة أخطاء إملائية ، وعدة أخطاء نحوية فيهما . . .

ويستطرد فى ذكر وتعداد الأخطاء التى وقعوا فيها ، علاوة على جهلهم باللغة وقواعد الإملاء ، وزيادة على ذلك حرصهم على تجنب إستعمال الكلمات العربية ، فقد أوقعهم ذلك فى حيص بيص ، مما جعل القانون يخرج وكأنه ثوب خَلَق بال .

ثم إن هؤلاء اقترفوا خطأ فظيعاً آخر ، ذلك لأنهم لحرصهم على عدم استعمال أية كلمة عربية فإنهم لم يضعوا الاصطلاحات القانونية ، بل عبروا عنها بواسطة جمل ، علماً بأن هذا الخطأ الجسيم ليس إلا جهلاً فظيعاً ، ذلك لأن هذا الموضوع كان موضوعاً علمياً ، وهل يخلو العلم من الاصطلاحات)) ؟ (١)

---

(١) الرجل الصنم ص ٣٢٦ ومابعدها .

وهذا الكاتب مع أنه من أولئك النفر الذين مهدوا لهذه القوانين ، ولكنه لما لم يشترك فى ترجمة هذا القانون الذى كان يحلم به ،فقد آل على نفسه أن يبين الحقيقة ، ولهذا نسمعه قد تعرض لكل جوانب هذا القانون المستورد وقلبه صفحة صفحة مع أنه لم يتطرق كثيراً إلى التفسيرات الأخرى ، ذلك لأنه كان يرى أنه هو الذى يكون أهلاً لهذا العمل بحكم ثقافته .

ثم يتعرض بعد ذلك إلى موضوع الارتجال فى أخذ هذه القوانين وكيف أنها مرت على المجلس من دون نقاش ، وتنزع به الغطرة الاسلامية فيصرح بأن الأتراك مسلمون منذ عشرة قرون ومع ذلك تجلب لهم القوانين المستوردة المعادية لدينهم ولكنه لم يلبث أن يصحو ن سِنَتِهِ - بكسر السين - ويتذكر أنه رائد العلمانية والقانون المدنى ،فيذكر تعاسة المجتمع التركى الذى تجلب له الأعراف المستوردة ويعد من ضمنها العرف العربى .

((ولقد مر هذا القانون من المجلس دون تأمل أو مناقشة وبشكل ارتجالى ، وهذا القانون المدنى يضم التقاليد المسيحية وأعرافها ، ونحن الأتراك مسلمون من قبل عشرة قرون . إن القانون يعنى العرف .!! وما أتعس التركى وما أقل حظه !!! يفرضون عليه على الدوام أعرافاً لا تعود إليه ،

فما إن نتخلص من العرف العربى ، ، إذ بنا نسقط فى قبضة العرف المسيحى الذى هو أسوأ من الأول ، ذلك لأننا على الأقل مسلمون مثل العرب ، ثم إن هذا القانون كان أساسه القانون الرومانى ،كذلك فقد كانت هناك حاجة لبعض (الرتوش) أما أخذه كما هو فقد كان خطأ . ولكنهم أخذوه كما هو بل بالغوا فى هذا وكانت النتيجة حدوث أمور مضحكة ،مثلاً قضية ((الأخوّة فى اللبن)) أو أخ ((أللّبن)) فكما يوجد عندنا ((الأخ فى الرضاعة)) فكذلك يوجد عند المسيحيين .

((والأخوة فى الرضاعة)) لا يتزوجون من بعضهم ـــ فالكنيسة فى فرنسا مثلاً لا تسمح بهذا ، وكذلك الأمر فى قوانين سويسرى ، ولكن مصطفى كمال غضب من هذا (١)

فأصبح يستهزئى بمحمود أسعد قائلاً له : ((أيها الأخ فى اللبن)) (٢)

وذلك تهكماً وسخرية منه لأنه مايزال فيه بقايا (رجعية) الاسلام ، حيث أنه لم يمح هذه المادة التى تحرم ما حرم الاسلام

---

(١) غضب مصطفى كمال من نقل المترجمين العبارات التى تمنع زواج الأخوة من الرضاعة لأن الاسلام كذلك يحرم ذلك ،فهو يريد مخالفة الاسلام بأية صورة من الصور ولذلك فقد ألغى هذه المادة وأباح زواج الأخ من الرضاعة .

(٢) انظر المرجع السابق ابتداء من ص ٣٢٧ .

* المبحث الثانى *

* العمل على محو اللغة العربية ومايتصل بها :

كان اتجاه أتاتورك يرمى إلى قطع كل صلة تصل بين الأتراك والاسلام ، وبينهم وبين بقية العالم الاسلامى .

ولهذا لما كانت اللغة العربية هى الوعاء لهذا الاسلام ، وهى التى وسمت كتاب الله لفظاً ومعنى ، وهى التى إذا تلى بها القرآن كانت له حلاوة وعليه طلاوة ؛ وهذا سرٌّ وضعه الله فى هذه اللغة التى اختارها الله لتكون لسان الوحى للرسول الخاتم . . .

وهى التى يفهم بها حديث الرسول ،صلى الله عليه وسلم ،شارح القرآن ومفصل آيه ومفسر مجمله . . وهى التى يستوعب بها التشريع الاسلامى ،ويرتل بها القرآن فى الصلوات وتؤدى بها شعائر العبادات . . .

لمّا كانت اللغة العربية تحمل كل تلك المعانى ، كانت هى الهدف الذى صوّب إليه أتاتورك السهم الثانى بعد إلغاء الخلافة ،لأن أعداء الاسلام كانوا يعرفون أنّ المسلمين الذين تنقطع صلتهم بهذه اللغة،التى تحمل التراث الاسلامى ، فإنّ الدين سيصبح عندهم قشرة رقيقة،((وكان الاتجاه نحو الغرب تخلصاً من الاستعراب ورجوعاً إلى القومية التركية فى نفس الوقت. إن الدين شىء يتعلق بالضمير ولقد كان الاسلام فى الشعورالتركى

خميرة قومية ،ولكن الدين كشيء متعلق بالضمير شيء ، والشريعة التي تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا ضمن القرن العشرين شيء آخر))[(١)

هذا ما صرح به فالح رفقي في ذكرياته على لسان اتاتورك أن يتجهوا نحو الغرب ليتخلصوا من الاستعراب ومن هنا يجعل الدين شيئاً يتعلق بالضمير ولا صلة له بحياة المجتمع والأفراد العملية ، أما الشريعة فهي الثلج الذي يجمد المجتمع في زعمه الباطل.

وحتى يتأكد من أن خطته تنفذ كما أراد لها ،فإنه كان يقوم بمهمة ((الموجّه الفني)) بنفسه على المدارس ، بل ويتجرأ أكثر من ذلك ، حيث يقوم بتعليم المدرّس الكيفية التي ينبغي أن يدرّس بها التلاميذ ، وهو يدخل أحد الفصول قائلاً للمدرّس :

((ماهو اسم الدرس الذي تقومون به ياسيدنا الشيخ ؟

ـ درس اللسان العربي .

ـ أنت تقوم إذن بتعليم الطلبة اللغة العربية؟ أليس كذلك ؟

ـ نعم .

على إثر هذا الجواب استدعى الغازي أحد الطلاب قائلاً :

((ـ خذ هذه الطباشير ، وتعالى إلى السبورة ، واكتب

---

(١) الرجل الصنم ص٣٢٦ ، نقلاً عن كتاب : جانقايا ، لصالح رفقي ص ٤٤١ .وهو أحد الضباط الكماليين ، وجانقايا اسم القصر الجمهوري الذي اتخذه أتاتورك في أنقرة عاصمة الكماليين ، والتي مازالت عاصمة تركيا إلى الآن .

ما سأقوله لك وترجمه إلى العربية.

((وكما بقى فى ذاكرتى فإنّ الغازى أعطاه الجملة التالية للكتابة:((كانت توجد عدة عناصر داخل حدود الامبراطورية العثمانية السابقة ، وكان العنصر العربى أحد هذه العناصر أما الآن فلا يوجد عنصر عربى داخل حدودنا القومية..))

ويتابع (عاصم أُص) صاحب صحيفة (الوقت) التركية ورئيس تحريرها فى كتابة ((مشاهداتى ، سماعى ، مشاعرى))(١) وكان هذا الصحفى يرافق مصطفى كمال فى كل تجواله لكى يكتب عنه ،وهو باعتبار البعثة الصحفية المرافقة له ،يتابع هذا الصحفى قوله عن مشاهداته مع الغازى المزعوم قائلاً :

((قام الغازى واقفاً وقمنا نحن كذلك والتفت إلى الشيخ - مدرّس اللغة العربية - قائلاً :

((ياشيخنا : إن البلد يحارب ، وهو يحاول أن ينقذ استقلالة ووجوده ، وإن من الحرام فى هذا الوقت منع الشباب التركى من الذهاب إلى الجبهة وصرف الوقت لصب اللغة العربية فى أذهانهم الفتية فى مثل هذه الغرف المظلمة ، إن أية لغة لا تدرّس بهذا الشكل ، لأن قضية التعليم هى قضية محيط على الأكثر . إن (آق شهر) مدينة تركية فى الأناضول ولا يوجد هناك من يتكلم العربية ، وكذلك فليس هناك

---

(١) ص ٩٦ - ٩٩ . وهذا الكتاب مكتوب بالتركية ولم يترجم إلى العربية حتى الآن ، حسب علمى .

أى داع لتعلمها هنا ،ذلك لأن العربية اليوم لم تعد لغـــة العلم والصناعـة)) (١)

هكذا كان أتاتورك يهدم اللغة العربية وينفث فى روع الطلاب أنّ اللغة العربية دخيلة على الأتراك،ذلك لأنّها لا صـلة تربط الترك بالعرب بعد ما انتهت الامبراطورية العثمانيـــة الاسلامية !!

ويعلل للتلاميذ تعليلاً آخر غاية فى الفساد ،وهو الذى نقـله عن المستشرقين العاقدين على الاسلام وهو قولهم: إن العربية لم تعد لغة العلم الحديث والمكتشفات العلميـــة والتكنولوجيا المتقدمـة .

فهى لغة عقيمة لا تفى بهذه المصطلحات العلميـــة ولحقدهم يتجاهلون هذا العلم الذى أخذوه عن المسلميـــن وتدارسوه فى جامعاتهم ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمـــى القلوب التى هى فى الصـــــــــــــــــدور

---

(١) الرجل الصنم ص٣٤٩ - ٣٥٠ .

* محو الأحرف العربيـــة :
* واستبدالها باللاتينيـــة :

وإمعاناً فى طمس معالم العربية وإيغالاً فى سحـــق الاسلام ، قام أتاتورك ورفاقه بإبعاد الأحرف العربية من الكتابة واستبدالها بالأحرف اللاتينية ، وبذلوا مجهوداً ضخماً فى إبراز محاسن الحروف اللاتينية فى محاولة التشنيع بالأحرف العربيـــة .

وكانوا يقومون بالاقتراحات للكيفية التى يمكن أن يعلموا بها الناس هذه الأحرف الجديدة .

فعمدوا إلى نشرها فى الصحف والمجلات الدوريـــة ، ومنعوا الكتابة مطلقاً بالأحرف العربيـــة .

ولما كان لهذه الأحرف المجلوبة قصة تثير العجـــب والدهشة ، بحيث لا يستطيع الإنسان تصوير وصفها - لذلك آثرت أن أنقل قصة هذه الأحرف على لسان «فالح رفقى ، الصحفـــى المتجول مع أتاتورك . الذى لا يكاد ينفك عنه طرفة عين ، وإن كانت هذه القصة طويلة ؛ ولكن لطرافتها آثرت أن أقتطع منها أجزاء كبيرة . يقول رفقى : (١)

((بهذه الأحرف اللاتينية كان صبى القرية يستطيع أن يقرأ بشكل صحيح فى ظرف أسبوع ما يعجز عنه خريجو الجامعـــة من الشباب ، وكان يدخل بها عالم الكتابة الغربية ويستفيد مـــن كـل تســهيلاتها . . .

ويعمد رفقى إلى الشىء الأهم عنده وعند صاحبه أتاتورك

---

(١) فى مذكراته التى جمعها تحت اسم ((جانقايا))

فيقول :

((والأهم من كل هذا أنها كانت تخلص الذهن التركي من المنابع العربية التي كانت قد احتدت حتى جمدت وتجعله ذهناً قومياً ...

ويعلل مافعله هو تجاه هذا الأمر الخطير ، أمر محو العربية بقوله :

((وقد قمت في أمر الكتابة هذه بجهد كبير سواء بالكتابة في الجرائد أو في مجالس أتاتورك ....

وكان أتاتورك قد شكل لجنة لوضع الأحرف اللاتينية التي وجدوا فيها بعض الحروف التي لا يمكن استعمالها في التركية مثل حرف ((Q)) ولهذا فقد كان عقبة كأداء في طريقهم ، هذا مع قلة حصيلة اللجنة من اللغة المحول إليها .

يقول رفقي : سألني أتاتورك :

((ماذا فكرتم بخصوص تطبيق الكتابة الجديدة ؟

قلت له :

- هناك اقتراحان ، أحدهما للمدى الطويل ، حيث يحتاج إلى (١٥) سنة والآخر للمدى القصير ويحتاج إلى (٥) سنوات ...

وعندما ذكر له رفقي هذه الخطة المرحليّة لم تعجبه

ولاسيما عندما قال له : إن المقترحين يرون أن تستمر الأحرف القديمة إلى جانب الجديدة ريثما يتقن الناس الجديدة، عند ذلك قال أتاتورك :

((- إنّ هذا إما أن ينفذ فى ثلاثة أشهر أولا ينفذ على الإطلاق ؟ .

ثم التفت إلى رفقى معلّلاً استعجاله هذ الأمر بقوله : ((يابنىّ . لو بقى هناك نصف عمود فى الجرائد بالأحرف القديمة فإنّ الجميع سوف يقرأون هذه الكتابة القديمة فقط ، ولو حدث حرب أو وقعت أية أزمة داخلية أو ظهر أى شىء غير طبيعى فإنّ هذه الكتابة ستترك فوراً ...

ونسبة لأن اللجنة المكونة لصياغة الأحرف اللاتينيه بدل العربية كانت ذات ثروة ضحلة فى هذا المجال؛ لذلك فقد وقعت فى معاناة شديدة . ويتضح ذلك من قول مقنّن اللجنة رفقى :

((فى هذه الأثناء تخلصنا من خطر حرف ((Q)) ذلك لأننا كنا نرى أنّ حرف ((الكاف)) الخفيف يكتب بشكل (( )) أما حرف الكاف الثقيل أى حرف (ق) فيكتب بشكل ( ) لذلك لم نأخذ حرف ( ) فى الأبجديّة(١) وفى مساء نفس اليوم الذى أحضرتُ فيه معى اقتراح

---

(١) يعبر عن حرف (ق) بالكاف الثقيلة ،وحرف (ك) بالكاف الخفيفة !!

الكتابة الجديدة قال " كاظم أو زالب باشا" أثناء العشاء على المائدة : ((ـ كيف أستطيع أنا أكتب اسمى ؟ إنّ وجود حرف (Q) ضرورى . فقال أتاتورك :

((ـ ما أهمية حرف واحد ؟ دعنا نقبله .

((وبهذا كان يحال بيننا وبين تتريك الكلمة العربية)) (١)

آثار محو الأحرف العربية :ـ

ولقد جاء هذا التخبط بنتائج سيئة للغاية من حيث التعليم فى المدارس ومن حيث الأعمال الرسمية فى الدواوين والمرافق الحكومية .

فقد انحسرت نسبة التعليم إلى درجة كبيرة ، ذلك لأن المدرّسين لم يهضموا هذه الأحرف الجديدة ، التى قُررت فى ظرف أقل من ثلاثة أشهر . والمناهج والكتب التى تُرجمت إلى هذه الأحرف اللاتينية لم تخضع لدراسة ولا تجربة ، بل كان العمل فيها كله إرتجالاً .

لذا فقد تخرج نشء فى غاية الضعف ، هذا إلى جانب الآثار السيئة التى كانت مقصودة من قبل الكماليين وهى قطع الصلة بين التراث الاسلامى العربى وبين هذا الجيل ، حتى تخرج جيل علمانىّ غربى لا يعرف عن دينه ولغة دينه شيئاً .

وأما الآثار السيئة المنعكسة على المجتمع عامة فقد تمثلت فى ضعف الصحف والمجلات ، ذلك

---

(١) الرجل الصنم ص ٣٣٤ وما بعدها .

لأن عدد الكتاب فى هذه الصحف كان فى حكم المعدوم بسبب هذا الانقلاب المفاجئ فى طريقة الكتابة، وكذلك الشأن بالنسبة للقراء فاضمحلت ثقافة الناس وذبلت معلوماتهم وأصيبوا بالخمول والكسل الذهنى ؛ لأجل هذا الركود فى التفاعل الفكرى ؛ لأن الصحف حُجر عليها الكتابة بالأحرف العربية التى لم يكن سواد الشعب يعرف غيرها .

وقد اختفت الكتب العربية الاسلامية من المكتبات التى أوصدت أبوابها ؛ لأنها لم تجد ما تبيعه وحتى لو وجدت الكتب الجديدة المكتوبة باللاتينية فإنها لن تجد القراء الذين يشترون تلك الكتب حيث لا أحد يستطيع أن يقرأ إلا بالاحرف العربية إلا النادر ؛ ذلك لأن الأتراك قوم عُرفوا بتعصبهم للاسلام منذ أن فتحوا أعينهم عليه، علاوة على ذلك فهم كانوا يعتبرون أنفسهم الرواد بالنسبة للعالم الاسلامى بحكم الخلافة الاسلامية . . .

فلذلك كانوا حريصين على التمسك بهذه الأحرف العربية .

ومن آثارها على أعمال الدولة الرسمية ، فإنه كان العمل يسير من سيء إلى أسوأ لأن الموظفين لم يتعودوا الكتابة بهذه الأحرف اللاتينية ومصطلحاتها غريبة عليهم ، مما أخّر عجلة الإنتاج وتدهور الاقتصاد

ومن وجهة النظر الاسلامية فـ ((إنّ الأحرف التركية القديمة ليست تركية أو فارسية أو حتى عربية ، إنها أحرف اسلامية من منبع عربي ، لذلك فإن إلغاءها يعني تمزيق الظرف الذي يحمل الروح الاسلامية وإندلاق هذه الروح إلى التراب ، لذلك فإنّ تغيير الأحرف - العربية - يعتبر أكثر ((الثورات)) إيغالا في الفساد وأكثرها جناية .

((وإضافة إلى ذلك فإنّ الأحرف التي طُرحت جانباً كانت أجمل وأرقى الأبجديات الموجودة في العالم ، وقد قال أستاذ التربية الأمريكي ((دقي)) الذي كان يزور استانبول أثناء الإقدام على تغيير الأحرف ((إنكم بطرحكم هذه الأحرف ستفقدون من ناحية ثقافتكم أكثر مما ستخسره أمريكا لو فقدت جميع معانيها)) (١)

ولو استمر الانسان في تتبع أتاتورك وزبانيته فيما قاموا به لهدم الاسلام وإقامة العلمانية ، لأخذ ذلك التتبع مجلدات ضخمة لا يتسع لها مثل هذا البحث المحدود ، ذلك لأن أتاتورك لم يترك شيئاً له صلة بالاسلام إلاّ وأتى عليه في سبيل أن يجعل المجتمع التركي مجتمعاً غربياً شكلاً ومضموناً .

ولذلك فقد قالوا : ((إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئيتهم والنجاسات التي في أمعائهم)) (٢)

---

(١) الرجل الصنم ص ، ٣٤٠ .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين مصطفى صبري ، جـ ١ هامش ص ٣٦٩ ، نشر المكتبة الاسلامية (١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م) عن كتاب أنقرة ، لآغا أوغلي أحمد ، أحد الكماليين .

وسوف أسرد ما بقى من أفاعيل أتاتورك سرداً ملخصـــاً ومضغوطاً حتى يقف القارىء على هذه النقاط عسى أن تكـــون نعمه بداية طريق .

المبحث الثالث أفاعيل أتاتورك فى مجالات الشعائر والعبادات والمجتمـــــع.

اولا : جانب الشعائر والعبادات

كان مما أطلقه أتاتورك على الشريعة الاسلامية باللفظ التركى ((شـريعت عتيقت)) أى القانون البالى ، وذلـــك تنفيراً للناس منها .

فمما قام به فى هذا الجانب :

- جعل العطلة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة.
- ألغى التقويم والتاريخ الهجرى فى الكتابات الرسميـــة والصحف والمجلات .
- خفض عدد المساجد ومنع أن يبنى أى مسجد جديد وقام بتحويل جامع أيا صوفيا إلى متحف وحول جامع محمد الفاتح إلى مســتودع.
- قام بتخفيض عدد الوعاظ إلى ثلاثمائة واعظ فقط فى جميع أنحاء تركيا .
- ألغى وزارة الأوقاف كما ألغى نظام الوقف وحول الأوقاف إلى أملاك الدولة العلمانية.
- ألغى الاحتفال بالعيدين الاسلاميين ، الأضحى والفطـر.
- ألغى كل الزوايا والتكايا ومنع الاجتماع فيها ولو لم تتعلق بالأمـور السـياســية .

- غيّر الآذان من العربية إلى التركية.
- خطّط ومهد لترجمة القرآن إلى التركية وجعل الترجمة التركية للقرآن لغة العبادة .
- منع التحية الاسلامية ، والتى من ألفاظها الشرعية: السلام عليكم ! وعليكم السلام ، وفرض بدلاً عنها التحية الغربية مثل صباح الخير ، طاب مساؤك ... و((هلو ، فلان)) .
- قام بإلغاء المدارس الاسلامية جميعها وفرض التعليم العلمانى مع تغيير الكتب الاسلامية واللغة العربية والأحرف العربية ، كما مر قبل قليل . وحرم الدورس التى تلقى فى المساجد فى شكل حلقات.

وفرض على الطلاّب أن يلبسوا اللباس القصير الذى يكون فى منتصف الفخذ ، البنين والبنات فى ذلك على حد سواء ...!

- جعل المدارس مختلطة بين البنين والبنات ـ وكذلك المدرّسين والمدرّسات ، هذا مع توحيد المناهج الدراسية بين البنين والبنات .

ثانياً : * فى مجال المـــرأة والمجتمـــع :.

أعلن أتاتورك إلغاء الحجاب ومنعه منعاً باتاً .

حيث أصبح لبسه جريمة يعاقب عليها القانون . وأعلن أن السفور هو علامة التحرر والسير فى ركاب الأمم الغربيـــة المتحررة. أما الحجاب فيدل على تأخر المرأة التركية وتخلفها .

وشجع الاختلاط التام بين النساء والرجال، بل منع فـــى الاجتماعات والندوات والمحاضرات أن تجلس النساء فى جانـــب والرجال فى جانب آخر فى حالة إنعزال عن بعضهم .

ولنستمع فى هذا الصدد إلى أحد كتاب أتاتورك المعجبين به ، سواء كان إعجابهم عن إخلاص لما يفعل أو كان نفاقاً وخوفـاً من قطع الرأس ، يقول ((إسماعيل حبيب)) (١) :-

((كان المعلمون قد عقدوا اجتماعاً فى أنقرة وقد اشتركت فى الاجتماع بضع معلمات جلسن فى مكان آخر من الصالـــة ، ولم يستسغ نواب المجلس من المعلمين (٢) إشتراك المعلمـــات فى هذا الاجتماع ، فذهبوا إلى الغازى ليشتكوا إليه .

غضب الغازى وقال :

ـــ من هو رئيس جمعية المعلمين ؟ اجلبوه لى !

وما إن أتى ((مظهر مفيد)) بعد عدة دقائق حتـــى قابله بصوت كالرعد !

ـــ ماهذا الذى عملته فى اجتماع المعلمين ؟ ... باللعـــين!

---

(١) فى كتابه ذكريات عن أتاتورك ، انظر الرجل الصنم ص ٣٥٢ .

(٢) يعنى بالمعلمين ، النواب المتمسكين بدينهم ، فإنهم كانـــوا يلبسون العمائم ، وهو يقول ذلك ســـخرية منهم .

وقف مظهر مفيد ذاهلا اذ هل كان هذا متوقعا من الغازى ، اما المعممون فقد كانوا يتبسمون ببشاشة ، وكانوا فرحين وكان صوت الغازى يدوى بنفس القوة :

— شىء غير معقول ابدا . . . غير معقول ابدا .

كان مظهر مفيد لايزال واقفا لايدرى ماذا يقول ويحاول ان يجد جوابا :

— والله يا افندم . . .

— لا . . . دع عنك هذا ، انني اعرف كل شىء . . .

لقد دعيت المعلمات كذلك الى الاجتماع ، ولكن لقد جعلتهن يجلسن فى صفوف أخرى ؟ الا تثقون فى انفسكم ام لا تثقون فى فضيلة المرأة التركية ؟ لا اريد ان أرى بعد الآن مثل هذه التفرقة والتمييز هل فهمت لا اريد بعد الآن . . . .

ويعلق هذا الكاتب على موقف النواب الذين جاءوا ليشتكوا الى اتاتورك اختلاط المعلمات بالمعلمين بقوله :

((كان المعممون المبتسمون كمن اصيبوا بالشلل)) (١)

ولم يقف اتاتورك عند حد الامر بالسفور فقط ، بل أخذ يشجع الرقص الغربى ويجلب له آلات اللهو والمجون من الغرب واقام لذلك المنتديات واستورد لأجله الافلام ((السينمائية)) وأتى له بالمدربين من الغرب وانفق عليه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٢ ومابعدها .

الأموال الطائلة حتى يسرف الناس فيه وينغمسوا فى حمأة الرزيلة فتتحلل أخلاقهم وتفرق معهم الفضيلة .

ولقد نشطت الصحف المأجورة فى هذه المعركة ولعبت دورًا كبيرًا حيث أصبحت تنشر الأزياء الأوربية المستجلبة من باريس ، وغيرها والصور العارية واللباس القصير وخصصت لذلك صفحات ثابتة .

ولم يقتصر هذا الزحف الإعلامى لكشف المرأة وسفورها وعلمنة المجتمع ، على الصحف التركية فقط ،بل شاركتها الفرحة والبهجة الصحف المصرية ((فهذه صحيفة السياسة الأسبوعية تكتب مقالاً عن (فتاة تركيا) تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضًا عامًا ،فى رحلة على نفقة الحكومة تنتقل فيها بين موانئ أوربا الشهيرة ،فتقول : ((إنّ هذه الباخرة كانت تقل (خمسًا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة ، كلهن جميلات مقصوصات الشعور ،لا يكاد يميزهن الرائى من فتيات لندرة وباريس) .

وتقول إحدى الفتيات فى بعض الموانئ الانجليزية : إنّ المرأة التركية اليوم حرّة ،فلن تسير فى الطرقات فى ظلام . وإنّنا نعيش اليوم مثل نسائكم الانجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية ، ونرقص وندخن ونسافر وننتقل بغير أزواجنا)) (١)

---

(١) السياسة الاسبوعية العدد السابع يوليو (١٩٢٦م) .

ويعلق على هذا المجون والتحلل من ربقة الاسلام كاتب الصحيفة الذى يعجبه هذا الصنيع بقوله:

((فانّ هذا من أظهر الآثار التى تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية فى ميدان العمل والجهاد الفكرى والاقتصادى ، ولا يسع كل محب لتركيا إلاّ أن يغبطها على هذه الخطوات)) (١)

وما قام به أتاتورك لهدم النظام الاسلامى أنه ألغى نظام تعدد الزوجات الذى نص على أباحته الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، إمعاناً منه فى هدم كلّ النظام الاسلامى .

كما منح نظام الإرث وأعلن المساواة التامة بين الذكر والأنثى فى الميراث والحقوق السياسية والاجتماعية ،وأباح لها حق العمل فى المحاماة وتولية الفصل فى القضايا الكبرى والعمل كوزيرة ، وأطلق لها العمل فى كل المهن التى تمتهن المرأة وتحط من قدرها . . كالعمل فى الشرطة والجيش وشرطة المرور . . وغيرها حتى تكون مع الأوربية حيذو القذة بالقذة .

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ٢٥٦ .

ثالثا : . : تحريم اللباس الاسلامى : .

. : والأمر بالزى الأوربـــى : .

ومن الأشياء التى حرمها أتاتورك وثار عليها ثورة شعواء، موضوع الزى واللباس وخاصة غطاء الرأس فعمد إلى منع(الطربوش) الذى أصبح عند الأتراك بمثابة الزى الاسلامي الذى يكـــاد يميّز المسلم عن غـــيره .

فأمر بإلغائه وأتى بدلاً منه ((بالقبّعة)) التى تسمى كذلـــك ((البرنيطا)) فى بعض البلاد . وهذه القبّعة بالنسبة للنصـــارى ليست هى زيّهم القومى فحسب ،بل أصبحت عندهم شعاراً دينيّاً- وقتئذ- كالصليب . ولهذا رفضها المسلمون،لأنها تعتبر مـــن صميم الدين ولو عرفاً ،بخلاف ((البنطلون)) الذى تساهل فيـــه المسلمون،لأنهم لم يعدّوه شعاراً دينيّاً مميّزاً للنصارى ((كالبرنيطا)) ولذلك تشدّدوا فى الأخيرة وتســاهلوه فى الأولى .

ولنفس السبب كان أتاتورك يحرص على أن يلبسها كـــل مسلم ، حيث فرضها على عامّة الشعب ولا سيما العلماء فأصـــدر قانوناً بهذا الخصوص . يقول أتـــاتورك :

((لم ألغ فى تركيا الحجاب فقط بل ألغيت الطربوش لذلـــك لم أكن أستطيع أن أتحمّل منظر الطربوش أبداً ؛ لأن الطربـــوش كان بالنسبة لى رمزاً لتأخرنا ولتعصّبنا السـابق !! .

وكراهيّته لهذا الزّى التركى أو قل الاسلامى، غدت شـــيئاً لا يســـتطيع الصـــبر معـــه إذا رأى هـــــذا

الطربوش حتى مع ((الدبلوماسيّين)) فى بلاده ، الذين كان يدعوهم للحفلات الرسميّة . وهو يروى قصته مع السفير المصرى الذى يلبس هذا الطربوش فيقول :

((. . وفى إحدى المرات كنت فى حفلة رسميّة فى ((أنقرة بالاص)) (١) مع السفراء الأجانب ، وكان سفير مصر قد جلس على المائدة بطربوشه على عادة بلاده . كان اللّون الأحمر لهذا الطربوش يشمئز ، فرجوته أن يخلع الطربوش ،على الأقل أثناء تناول الطعام. ولكن السفير اعترض على هذا بشدّة ، وعلى إثر هذا أصدرت أمرا لإحدى ((الجرسونات)) بخلع الطربوش بالقوّة . ولم يظهر السفير احتجاجه بالكفّ عن زيارتنا فحسب بل ترك البلاد)) (٢)

إلى هذا الحد وصلت بأتاتورك كراهيّته للاسلام حتى أنه يطرد السفراء الذين يرى عليهم هذه العلامة التى تشعره بماضى الدولة المسلمة ، فهو لا يطيق رؤية مثل هذه المناظر الاسلامية لأنها تؤذيه ، كما قال .

ومنع العلماء من أن يلبسوا العمائم وأمرهم بلبس القبّعة ذات الجانب البارز من الأمام حيث لا يستطيع الانسان أن يتمكّن معها من السجود وهى على رأسه إلا بعد نزعها .

وأمر بأن يلبس الجميع ((البنطلون)) الذى زعم أنه دليل

---

(١) أنقرة بالاص ، هو قصر أنقرة ، وأصل الكلمة بالانجليزية PALACE)

(٢) الرجل الصنم عن جريدة الجمهورية التركية ،(١٠/٢/٩٣٨ م)

على التمدن ، وكأن المدنيّة تعنى اللباس فقط : وهذا مثـــل جوابه لأحد النواب عندما كانت قضيّة العلمانيّة مثارة فى المجلس النيابى ، إذ سأل ذلك النائب قائلاً :

((. . أيها الأصدقاء . . . إن كلمة علمانيّة على كل شفة . . لكنّنى - وأرجو المعذرة - لا أستطيع فهم معنى هذه العلمانيّة . . .

وكان مصطفى كمال يرأس الجلسة فقاطعه ، وهو يضـــرب بيده المنضدة قائلا :

((. . إنها تعنى أن نكون آدميّين يا شيخنا . . آدميّين)) (١)

وقد كان النائب السائل من المشائخ الملتحين .

ولهذا أجابه بلفظ : يا شيخنا تهكّماً ، وأن العلمانيّة تعنى أن يكونوا آدميّين ، أى أنكم بتمسككم بهذا الدين لستم بآدميّين متحررين ، فأرموا الدين وراء ظهوركم والبسوا ثوب العلمانيّـــة لتتحقق لكم الآدميّة .

تغيير الالقاب والكنى الاسلامية :

وأصدر قانوناً بتغيير الألقاب والكنى الاسلامية العربيـــة إلى ألقاب وكنى غير عربية ، إما تركية وإما غربية ، وأطلق عـــلى نفسه لقب ((أتاتورك)) (٢) ((ATA TURK))

والكلمة مركبة من مقطعين ((ATA)) بمعنى الأب.

و((TURK)) بمعنى الترك وبدمج الكلمتين تصير ، أبو الأتراك ، وهذا الذى قصده أن يلغى اسم مصطفى كمال ، ويطلق عـــلى

---

(١) ذكريات على كليج ، جريدة الجمهورية ((١٩٥٢م)) الرجل الصنم .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٥٨ .

نفسه أبا الأتراك ((أتاتورك)) وكأنه يريد أن يقول : أنا رب الأتراك ، ولهذا فقد وصفه أعداء الاسلام ، بمنقذ تركيا وبباعث نهضة تركيا الحديثة .

وبهذه الألقاب الفضفاضة كان يدرس تاريخ أتاتورك في مادة التاريخ في المدارس في البلدان الاسلامية والعربية .

هذا التاريخ الذي يدرس في المدارس ، يحتاج إلى تنقية وتنقيح ، بل إلى تصفية كاملة مما علق به من شوائب ، فهو يحتاج إلى أيد اسلامية نزيهة نظيفة خالية من دسائس المستشرقين التي غزوا بها التاريخ الاسلامي فجعلت الغبش على محياة الوضاء .

ولاشك أن عهد أتاتورك كان كله جراحات تنزف في جسم الدولة الاسلامية ، وأن الحديث عنه يحتاج إلى صفر خاص به ... ولهذا فقد حزفت كثيراً من الحوادث لم أتعرض لها ... كما اختصرت كثيراً مما تعرضت له .

فمثلاً لم أتعرض لأخلاقه وسلوكه والفضائح التي كانت تصدر عنه طيلة مدة حكمه ... نحو أدمانه للسكرات ، حتى أنه يكون طريحاً في الشارع إلى أن تأخذه الشرطة إلى بيته وهو مخمور لا يعي ...

وكمجونه وفسقه مع النساء الموسسات حتى أنه طلّق زوجه

بسبب ذلك . . . وسئل اضطهاده لمخالفيه وقتلهم وسحقهم وكيف أنه سنّ لذلك قانوناً سمّاه قانون ((ماقرار السكون)) (١) والكثير الجم غير ذلك تركته خوف الاسهاب ، فإنّ لمثل هذه الرسائل حدوداً لا يليق أن تتعداها كثيراً . . .

وأما ما ذكرته فهو شيء لابد منه .

وأختم الحديث عن هادم دولة الخلافة بالخاتمة التي ختم هو بها عهده والتي حدثت وهو مسجى على فراش الموت ينازع الرمق الأخير من روحه ، هذه الحالة التي لا يقول فيها الانسان إلاّ ما يعتقده خالصاً من قرارة نفسه ، هذه الحادثة تدل دلالة لا تدع مجالاً للريب ، أن الرجل كان دخيلة على الاسلام من قبل أعدائه .

يقول مترجم كتاب الرجل الصنم (٢)

((وهنا نريد أن نقدم وثيقة مذهلة تبيّن مدى ارتباط مصطفى كمال بالغرب وبالانجليز بالذات . . . إليكم هذه الوثيقة التي ننقلها بنصها الحرفيّ من جريدة الأهرام التي قامت بنقلها من جريدة (صنداى تايمز) في يوم الخميس ((١٦)) ذي القعدة ١٣٨٧هـ الصادف لـ ((١٥)) فبراير (شباط) ((١٩٦٨م)) تحت عنوان :

. : كمال أتاتورك رشّح سفير بريطانيا : .

. : ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية : .

---

(١) انظر الرجل الصنم ص ٣١٤ .

(٢) هو عبدالله عبدالرحمن ذكر ذلك في مقدمة الترجمة ص١١ .

بسبب ذلك ... وسئل اضطهاده لمخالفيه وقتلهم وسحقهم وكيف أنه سنّ لذلك قانوناً سمّاه قانون ((باقرار السكون)) (١) والكثير الجم غير ذلك تركته خوف الاسهاب ، فإنّ لمثل هذه الرسائل حدوداً لا يليق أن تتعداها كثيراً ...

وأما ما ذكرته فهو شيء لابد منه .

وأختم الحديث عن هادم دولة الخلافة بالخاتمة التي ختم هو بها عهده والتي حدثت وهو مسجى على فراش الموت ينازع الرمق الأخير من روحه ، هذه الحالة التي لا يقول فيها الانسان إلاّ ما يعتقده خالصاً من قرارة نفسه ، هذه الحادثة تدل دلالة لا تدع مجالاً للريب ، أن الرجل كان دخيلة على الاسلام من قبل أعدائه .

يقول مترجم كتاب الرجل الصنم (٢)

((وهنا نريد أن نقدم وثيقة مذهلة تبيّن مدى ارتباط مصطفى كمال بالغرب وبالانجليز بالذات ... إليكم هذه الوثيقة التي ننقلها بنصها الحرفيّ من جريدة الأهرام التي قامت بنقلها من جريدة (صنداى تايمز) في يوم الخميس ((١٦)) ذي القعدة ١٣٨٧هـ الصادف لـ ((١٥)) فبراير (شباط) ((١٩٦٨م))

تحت عنوان :

. : كمال أتاتورك رشّح سفير بريطانيا : .

. : ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية : .

---

(١) انظر الرجل الصنم ص ٣١٤ .

(٢) هو عبدالله عبدالرحمن ذكر ذلك في مقدمة الترجمة ص ١١ .

((نشرت (صنداى تايمز صفحة من أغرب صفحات أسرار التاريخ الدبلوماسى بعنوان (كيف رفض رجلنا أن يحكم تركيا)

قالت الصحيفة إنه فى (نوفمبر)((١٩٣٨)) (١) كان كمال اتاتورك رئيس تركيا يرقد على فراش الموت ، وعلى امتداد (١٥ سنة) حاول أتاتورك بدكتاتورية صارمة أن يجرجر تركيا رغم أنفها ويدخلها إلى القرن العشرين ، ومنع لبس الطربوش والحجاب وحطم سلطان الدين وأدخل نظام اللغة التركية بالحروف اللاتينية .

وعندما رقد أتاتورك على فراش الموت كان يخشى أولاً أن لا يجد شخصاً يخلفه قادراً على استمرار هذا العمل الذى بدأه فاستدعى السفير ((بيرس لورين)) السفير البريطانى إلى قصر الرياسة فى استانبول . أما مادار بينهما فقد ظل سراً أكثر من ثلاثين عاماً . وها هو اليوم يكشف النقاب عنه - لأول مرة - على يد ((بيرز ديكسون)) عن حياة والده ((السير بيرسون ديكسون)) فقد كان بين أوراق ((ديكسون)) برقية بعث بها ((بيرس لورين)) إلى اللورد ((هالىناكس)) وزير الخارجية ، وربما كانت هذه البرقية أغرب وثيقة تاريخية فى التاريخ البريطانى المعاصر على الإطلاق ففيها يروى ((لورين)) تفاصيل مقابلته غير المألوفه مع الدكتاتور المحتضر :

((عندما وصلت . . . وجدت صاحب الفخامة يجلس على فراشه تسنده بعض الوسائد ويحيط به طبيب وممرضتان . . . وما إن دخلت حتى صرف الرئيس الطبيبين والممرضتين قائلاً لهم : إنه

---

(١) توفى أتاتورك فى ((١٩٣٨)) .

سيضرب لهم الجرس إذا احتاج لهم ،وعندئذ بدأ فخامته يتحدث ببطء ولكن بعناية شديدة ،وقال لى : إنه أرسل فى طلبى لأنه يريد أن يطلب منّى طلبًا عاجلاً راجيًا أن أعطيه جوابى عليه بطريقة قاطعة .

ولقد كانت صداقتى ونصيحتى إليه هى الوحيدة التى كانت ثابته لا تتغير ، وكان هذا هو السبب الذى جعله يستشيرنى فى مناسبات متعددة . . . بحرية تامة كما لوكنت وزيرًا فى مجلس الوزراء التركى .

وقدكان من سلطاته كرئيس للجمهورية أن يختار خليفة له قبل وفاته . وقد كانت أخلص رغبة له هو أن أخلفه فى منصب الرئيس ومن ثم فقد كان يريد أن يعرف رد فعلى لمثل هذا الاقتراح .

وبعد بضع دقائق من التفكير الصامت قلت لفخامته : إن جوابى هو أننى عاجز تمامًا عن أن أجد الكلمات التى تعبر عن مشاعرى بصدق أو بما فيه الكفاية . وبالفعل فقد كانت مشاعرى فى هذه اللحظة مهزوزة بأعمق مما أستطيع أن أذكر أننى أحسست به من قبل أى وقت آخر من حياتى .

فبهذا الاقتراح أطال فخامته لونًا فريدًا من الثناء والمديح لا لشخصى أنا فحسب ،وإنما للسياسة الخارجية لحكومة صاحب الجلالة . . . ولكننى كنت أشك تمامًا فيما إذا كانت

أفضل ملكاتى تتركز فى المقدرة الإدارية ، كما أنّ مسئوليات رئيس الجمهورية التركية تختلف تماماً عن مسئوليات السفير البريطانى وأضفت أننّى أشعر بأن قدراتى وتجربتى تليق أكثر مما تليق باستمرارى فى صفتى الثانية . . . وعلى ذلك فإننّى لا أجد سوى أن أعتذر آسفاً ولكن بحزم .

وعندما انتهيت من حديثى ظهرت على الرئيس علامات التأثّر الشديد ومال بظهره إلى الوسائد ودق الجرس للمرضات اللواتى أعطينه دواء منها (١) وعندما استعاد فخامته مقدرته على الكلام قال لى : إنه يفهم تماماً الأسباب التى دعتنى إلى اتخاذ هذا القرار ، وقد كان رقيقاً كعادته عندما أضاف أنه بالرغم من خيبة أمله الشديدة فقد كان هذا هو الجواب الذى ينتظره .

وتساند أتاتورك ورفع جسمه على منكبيه وشد على يدى وشكرنى على مافعلته فى سبيل تدعيم الروابط والصداقة الأنجلو ـ تركية ، ثم غطس مرة أخرى بين وسائده مغشيّاً عليه وعندئذٍ أحسست بأنّ الأفضل هو أن أنسحب . . .

وختم بيرس لورين ، برقيته لوزير خارجيته بقوله :

((وأكون شاكراً لو تلقيتم من سيادة اللورد رسالة تتضمن موافقتكم على الموقف الذى اتخذته ورجائى إبلاغ الملك))

---

(١) كذلك وردت ((منها)) والذى يدل عليه السياق ((منبّهاً)) إلاّ أن يكون الضمير فى ((منها)) يعود على ((علامات)) والذى يدل على الخطأ كلمة ((دواء منها)) والصحيح دواء لها وليس دواء منها .

تلكم هى الوثيقة الخطيرة التى ختم بها اتاتورك حياته بالرقة والعطف مع سادته الانجليز ، الذين هم اشد الناس عداوة للمسلمين ... كما بدأها بالشدة والغلظة والنكاية مع المسلمين والله تعالى يقول فى وصف المؤمنين ((اشداء على الكفار رحماء بينهم)) (١)

والمطلوب من المسلمين مع مثل هؤلاء ان يضطرهم الى اضيق الطريق .. ولكن اتاتورك يقول : افتحوا لهم صدوركم وتلقوهم بالاحضان وخلفوهم رؤساء على الاوطان ... فان خسر المسلمون فليس بعد هذا خسران ....

ولا اجدنى فى حاجة لان أزيد تعليقا على هذه الوثيقة الناطقة بلسان الحال . فلنمسك البسط ونقبض العنان ..

---

(١) الفتح آية ٢٩ .

* الباب الثالث *

: الاستشراق والتبشير :

الفصل الأول :

الاستشراق يؤدى دوره فى العلمانية :

١- جهالة أوربا - وأخذها العلم عن العالم الاسلامى .

٢- بعض شبهات المستشرقين فى الاسلام بهدف توهين الدين الاسلامى فى نفوس المسلمين .

* * * * * * * * *

الباب الثالث: الاستشراق والتبشير:

الفصل الأول:

الاستشراق يؤدى دوره فى العلمانية:

توطئة: كانت أوربا تسبح فى بحر من الجهالة النكراء حيث كان رهبان الكنيسة هم سدنة الأمر ومالكى زمامه وهم الذين تدور حولهم المعارف التى كانت أخت الجهل، ذلك لأنّ المبادئ التى كانوا يتشبثون بها من بقايا الإنجيل المحرّف الذى نما على أيدى اليهود الذين اعتنقوا النصرانية لتحريفها أمثال بولس ((شاؤل)) فأصبحوا هم فى الضلالة يعمهون (١)

وهناك فى الجانب المقابل ((إذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت الحضارة الاسلامية فى اسبانيا ساطعة جدًا . رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان الساكين الجاهلين ـ كما قلت ـ الذين يقضون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم ... ماهو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

ودامت همجية أوربا البالغة زمنًا طويلاً من غير أن تشعر بها ، ولم يبد فى أوربا بعض الميل إلى العلم إلاّ فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ،

وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل فولوا وجوههم شطر العرب المسلمين

---

(١) يعمهون يتحيّرون ، ويتردّدون ، بغير هدى ولا بصيرة .

الذين كانوا ائمة وحدهم)) (١)

فمن ذلك الوقت أقبل الغربيّون على النهل من الثقافة الاسلامية من كل نواحيها ، علومها وآدابها ودينها وعربيتها واقتصادها ونظمها الإدارية والسياسية وحتى الاجتماعية ،ذلك لأن الإعجاب فى ذلك الوقت بالحضارة الاسلامية كان يفوق الحد عند القوم . وهكذا شأن الأمم الراقية على الدوام تقلدها الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها فى كل شيء حذو القذة بالقذة ، وهذا ما آلت إليه الأمة الاسلامية فى عصورها المتأخرة حينما تخلت عن إسلامها الذى كان سبب تقدمها ونمهضتها وتفرقت شذر مذر .

فأقبل الأوربيون على علوم الشرق الاسلامى يدرسونها فى جامعاته ولاسيما التى كانت تجاور أوربا مثل الأندلس (اسبانيا) وصقلية التى كانت مسلمة تذخر جامعاتها بالمعارف الكونية وتعج بالعلوم الانسانية . . .

ومن هنا عُرف هذا اللّون من الدراسات بالدراسات الاستشراقية ، كما عُرف الدارسون بالمستشرقين ، لإشتغالهم بعلوم الشرق عامة والعلوم الاسلامية العربية خاصة . . . (٢)

وبعد حين من الدهر ،وبعد أن ارتوى طلاب أوربا من العلوم الاسلامية ،رجعوا إلى بلدانهم يذيعونها بين الناس وينشرونها فى الكتب . . . عندئذٍ حنق القساوسة والرهبان .

---

(١) حضارة العرب د . جوستاف لوبون ،ترجمة عادل زعيتر ص ٥٦٦ . طبع عيسى البابى الحلبى (بدون تاريخ) .

(٢) عرّف العلماء الاستشراق بأنه حركة علميّة واسعة النطاق تقوم بالدراسة والبحث والتأليف فى الاسلام تاريخًا ولغة وحضارة وفكرا وثقافة . . الخ . قصد النّيل من الاسلام ،والدفاع عن غيره من الأديان والمذاهب ، والتمهيد للاستعمار ومساعدته وقد يكون قصده وقفات علميّة موضوعية حيادية . وإن كان هذا هو القليل منه .(عن مذكرة للدكتور أبو المجد السيد نوفل . ص ٦٤ .

من انتشار العلوم الاسلامية وخافوا أن يجرف قومهم سيل الاسلام الكاسح فيسحقهم جميعاً ...

ومن هنا بدأوا يستيقظون ويرسلون الطلاب إلى الجامعات الاسلامية ولكن بطريقة منظمة من قبلهم هم ، ويموّلونهم بالمال اللازم ويقولون لهم : إقرأوا وتعلّموا علوم القوم لكى تردوا عليهم الصاع صاعين ، ولكى تدسوا ما أمكنكم دسّه لتهدموا به هذا الصرح المتين وذاك البنيان الشامخ .

وعلى هذا الأساس بدأ عمل المستشرقين الذين آلوا على أنفسهم العودة إلى هذا الشرق الذى نالوا منه هذه الثقافة والعلوم ليردوه إلى ما كانوا عليه هم ، ومن حينها كانوا يطلقون ((الغرب وليد الشرق . ولا يزال مفتاح ماضى الحوادث فى الشرق فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه)) (١)

فمفتاحهم هذا مازال ضائعاً وهم لم يبرحوا عاكفين عليه بالبحث والتنقيب عنه ...

والمستشرقون ، صحيح أنهم كتبوا عن الحضارة الاسلامية ونشروا المخطوطات وأحيوا بعض العلوم التى ليست من السهولة أن تتوفر للعلماء المسلمين ، إلاّ بعد زمن ربّما يكون متأخراً ...

والحقيقة أنهم أنشأوا المطابع ودور النشر لذلك ، ولكن هل

---

(١) حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ص ٢٨ .

حقيقة كما يزعمون ، أنهم لم يكن رائدهم إلا إحياء علوم الاسلام فقط ؟ وما الفائدة التى تعود عليهم من إنفاقهم الأموال الطائلة وبذلهم الوقت الكثير فى إخراج هذه العلوم وإبرازها ؟

هل حقيقة رائدهم البحث العلمى المجرّد عن أى هوى أو عاطفة أو نزعة أو حتى نزقة من نزقات الشيطان ؟

ولكن الواقع يكذب كل ذلك ، فقد وجد الدس ، ووجد الكيد فى إنتاجهم الاسلامى ، ووجد الطعن الصريح فى الاسلام . . .

ولهذا فإننا إذا عجمنا عود المستشرقين ، وجدنا الأكثرية الساحقة منهم ، إن لم يكن كلهم ، قد درسوا فى جامعة لاهوتية قبل دراستهم فى الجامعات الاسلامية والعربية ، وذلك بالطبع لم يكن فى العصور التى لم تعرف أوربا فيها العلم ، وإنما كان هذا بعد عصر النهضة حين تقدمت أوربا .

وثمّة شىء آخر هو أن جلّة هؤلاء رهبان وقساوسة لاهوتيون . . .

وكذلك نجد أن دولهم عندما طمعت فى استعمار البلاد الاسلامية كانت ترسل هؤلاء المستشرقين وتمولهم ليدرسوا علوم الشرق الاسلامى وليكتبوا فيها ويبحثوا . ويعرفوا لها الكثير عن تلك البلاد .

إذاً ، الدافع الاستعمارى والاقتصادى والسياسى ، كانت كلها تتضافر وتتجمع لتكوّن لنا شخصية المستشرقين

وهؤلاء المستشرقون كان ، كذلك، الكثير منهم من المبشرين الداعين لأديانهم المبشرين بها ... ((ريمون لل)) رئيس اساقفة طليلقية ، أدل دليل على أهداف المستشرقين التبشيرية ، فقد كان رئيس الأساقفة هذا من روّاد المستشرقين المبشرين الأوائل ، فقد أنشأ مكتبًا للترجمة والنشر ودعا له العلماء من مسلمين ويهود ونصارى .

وكذلك فعل ملك قشتاله ((ميشيل سكوت)) حيث جمع بعض الرهبان للقيام بالبحث فى علوم الاسلام والعربية، فجمعوا عددًا من المخطوطات وترجموها إلى لغاتهم ... ثم دفع بها ميشيل إلى ملك صقلية الذى استنسخ منها نسخًا وأهداها إلى جامعة باريس.

وكذلك من أوائل الرهبان المستشرقين الراهب الفرنسى ((جربرت)) الذى انتخب بابا لكنيسة روما عام (٩٩٩م) بعد تعلمه فى معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده.

((وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان - من الجامعات الاسلامية - إلى بلادهم ، نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم ، ثمّ أسست المعاهد للدراسات العربية ،أمثال مدرسة ((بادوى)) العربية ، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرّس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية - وهى لغة العلم فى جميع بلاد أوربا يومئذ - واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون)) (١)

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ، مالهم وما عليهم د . مصطفى السباعى نشر المكتب الاسلامى ، بيروت ص ١٤ ، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .

محاول لهدم المجتمع الاسلامى :

كان هدف المستشرقين الأساسى ، هدم الكيان الاسلامى وتقليل تأثيره على المجتمعات الاسلامية حتى يصبح المسلمون لا دينيّون ((علمانيون)) ومن هنا يسهل على الاستعمار أن ينال منهم بغيته بنهب خيراتهم وامتلاك زمام أمرهم بعد أن يجردوهم من الدين الذى يحميهم ويشد من أزرهم .

ولكى يصلوا إلى تلك الغاية المنشودة ، فقد بدأوا بوسائل لذلك ، وهى التشكيك والطعن فى الاسلام . ومحاولة تجريده من كل قيمه . حيث شمل هذا الطعن ، القرآن الكريم والرسول، صلوات الله وسلامه عليه ، والتشكيك فى رسالته كما شمل الفقه الاسلامى واللغة العربية .

وسوف أقوم بعرض موجز لبعض هذه المطاعن فى بعض هذه الجوانب ، ناقلاً الأدلة على ذلك من أقوالهم ، بإيجاز حتى أضع النقاط على الحروف .

وسوف لا أتطرق للردّ عليهم ، إلا ماجاء عفوا الخاطر وأتى به السياق فقط ،لأننا نحن معشر المسلمين ،لا ينبغى أن نكون دائماً فى موقف الدفاع وهم يهاجموننا ونحن ندافع ، فهذا الأسلوب- أسلوب الدفاع- لم يكن مجدياً وليس هو خير وسيلة للذّبّ عن حياض هذا الدين ،وخير منه أن نطرح الاسلام للناس ونبسطه ونعرّف به فى شموله وسمته ،وأنه خير للبشرية فى حياتها أن تأخذ بتعاليمه وتتهلل من ورده (١)

---

(١) انظر ص٣٣٦ من هذه الرسالة .

* المبحث الأول :-

: التشكيك فى القرآن الكريم :-

ولما كان القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو حصنها الحصين الذى تلوذ به ،وهو حبلها المتين الذى تربط به نفسها ، لمّا كان القرآن بالنسبة للمسلمين كذلك ؛ فقد وجه أعداء الاسلام سهامهم السمومة إليه ، وأوقدوا حوله نيرانهم المحمومة وشنّوا عليه هجماتهم الشعواء الضارية ، كى يفتّوا فى عضد المسلمين ويخرجوهم من ربقة الاسلام فيكونوا لقمة سائغة لقنّاصة العلمانية فيزدروهم ، ولكن الله من وراء قصدهم ، وهو حافظ كتابه ،فإن نالوا من المسلمين بعض النيل ،فلن يفوزوا من الاسلام بشىء ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) (١)

فمن مطاعنهم فى القرآن الكريم ،أنه غير متناسق ومفكك ... يقول فى ذلك ((جوستاف لوبون)) (٢)

((القرآن هو كتاب المسلمين المقدس ودستورهم الدينى والمدنى والسياسى الناظم لسيرهم ، وهذا الكتاب المقدّس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيًا من الله على محمّد (٣) وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديرًا بالذكر أحيانًا ،خال من الترتيب فاقد السياق كثيرًا)) .

والحال أن هذا الكاتب يعتبره النقّاد المسلمون معتدلاً نوعًا ما ،ومع ذلك سأورد له الكثير من المطاعن فى

---

(١) الحجر آية ٩ .

(٢) فى كتابة حضارة العرب ص١١٧ .

(٣) صلى الله عليه وسلم .

الاسـلام .

ومثل هذا القول فى القرآن الكريم قال به الكثيرون مـن المستشرقين فهذا ((جولد سيهر)) اليهودى المجرى ،يقول :

((.. إذن القرآن هو الأساس الأول للدين الاسـلامى وهو كتابه المقدّس ودستوره الموحى به ، وهو فى مجموعه مزيـج من الطوابع المختلفة اختلافاً جوهرياً ..)) (١)

إن عدد آيات القرآن الكريم بلغت (٦٦٠٠) آية ، وعـدد حروفه بلغ (٣٢٣٦٧١) حرفاً (٢) ومع ذلك لم نجد اختلافـاً بين آية وأخرى ..

وهذا القرآن الذى يزعم المستشرقون أنه مختلف ، قدّمـوه لأحدث مخترعاتهم العلمية التى فتنوا بها فجاءت النتيجة تقـول بعدم اختلاف القرآن وأنه تنزيل من حكيم خـبير .

وقد قدمت الحروف التى فى فواتح الصور مثل حرف ((ق)) فوجد أن هذا الحرف أعلى متوسطات تواردہ فى سورة ((ق)) التى افتتحت به .

يقول أحد الباحثين :

((.. سنمضى فى التجربة ونضع سور القرآن فى [العقـل الآلكترونى] ونسأله أن يقدّم لنا إحصائية بمعدلات توارد حرف القاف فى جميع السور .. قال لنا [العقل الآلكترونى] : إن أعلى المتوسطات والمعـدلات موجودة فى سورة ((ق)) وأن هذه السورة قد تفوقت حسابياً على كل المصحف فى هذا الحرف ... وأن سورة الرعـد

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة . محمّد الغزالى ، ص ٣٩ مطبعـة حسّان نشر دار الكتب ،مصر،الطبعة الرابعة (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) .

(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن ،جلال الدين السيوطى جـ ١ ص ٨٩ مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة ، الطبعة الرابعـة (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م .

تبدأ بالحرف (أ، ل ، م ، ر) قدّم لنا [العقل الالكتروني] إحصاء بتوارد هذه الحروف فى داخل السور كالآتى :

أ ترد ٦٢٥ مرة

ل " ٤٧٩ "

م " ٢٦٠ "

ر " ١٣٧ "

وهذا فى ترتيب تنازلىّ ، أ ثم ل ثم م ثم ر بنفس الترتيب الذى كتبت به ، أ ل م ر ، تنازليًا ، ثم قام [العقل الالكتروني] بإحصاء معدلات توارد هذه الحروف فى المصحف كله ... وألقى إلينا بالقنبلة الثانية .. إن أعلى المعدلات والمتوسطات لهذه الحروف هى فى سورة الرعد .. وأن هذه السورة تفوقت حسابيًا فى هذه الحروف على جميع المصحف (١)

أفبعد هذا البيان الدامغ والبرهان الساطع .. يأتى أحد من البشر من ذوى العقول القاصرة والنظرة المحدودة ، ويزعم أن القرآن متضارب أو متعارض ، أو أنه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافًا بيّنًا ... ؟

لا شك أن الذى ينظر نظرة علمية محايدة لا أحقاد فيها مسبقة ولا يضع مجموعة من الأوهام أمامه ، فإنه سينصف فى حكمه ويقسط فى رأيه ولكن المستشرقين زلت

---

(١) حوار مع صديقى الملحد ـ مصطفى محمود ص ١٠٧
دار المتوسط للنشر والتوزيع بيروت (بدون تاريخ) .

قدمهم ونبا قلمهم فى ذلك ، وركبوا الشطط وتقمصوا الحمق فى إطلاق أحكامهم على القرآن هكذا ، وتنكبوا طريق منهجهم العلمى الذى كانوا يتبجّحون به . . .

وعلاوة على ذلك نجدهم يشكّكون فى بلاغة القرآن الكريم وفصاحته وحُقّ لهم أن يفعلوا ذلك لأنهم يفقدون حاسّة الذوق السليم الذى يعرفون به تلك الخاصية التى تفرد بها القرآن الكريم على الإطلاق .

وفقدان هذه الحاسة ، عندهم ، أوقعهم فى كثير من الخلط والخبط فى تفسيرهم للقرآن الكريم ، مما سيأتى ذكره قريباً . . .

يقول ((جوستاف لوبون)) :

((ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الانسان ومع مافى هذا الكلام من مبالغة شرقية ، نعترف بان فى القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبقه إليها كتاب دينى آخر)) (١)

ويزعم المستشرقون أن القرآن الكريم مأخوذ من الكتب السابقة ، لذلك فإنّ ((ماجاء فى القرآن متن نص

---

(١) حضارة العرب ، ص ١١٨ .

على خلق السموات والأرض فى ستة أيام وخلق آدم والجنة وهبوط آدم منها ويوم الحساب مقتبس من التوراة ... واذا رجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عدّ الاسلام صورة مبسّطة من النصرانية ..)) (١)

والقرآن هو تنزيل من لدن حكيم حميد ، والذى يقول الله فيه لرسوله صلوات الله وسلامه عليه :

((ماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بيّنات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون)) (٢)

ومن أباطيلهم التى يرمون بها إلى تنفير المسلمين عن دينهم وزعزعة الإيمان فى نفوسهم ليسهل عليهم تمكين العلمانية منهم ، من ذلك أن ينسبوا القرآن الكريم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ويأتون به فى سياق ينبىء بأنه من كلام النبى وليس منزلاً من عند الله تعالى . فتراهم تارة يقولون الوحى الذى أنزل على محمد ، وطوراً يقولون : قال محمد : وَوَصَفَ محمد : ثم يوردون الآيات القرآنية عقب القول الذى نسبوه للرسول . وهذه نماذج من ذلك الخلط والخبط :

يقول ((جوستاف لوبون : (٣)

((وإليك وصف محمد ليوم الحساب ...)) (٤)

ثم يورد الآيات التى تصف اليوم الآخر على أنها من

---

(١) حضارة العرب ص١٢٠ ومابعدها .
(٢) العنكبوت آيات ٤٨ - ٤٩ .
(٣) انظر المرجع السابق ص١٢١ .
(٤) للرد عليه انظر ص٢٥٥ ومابعدها .

كـــلام الرسول صلى الله عـــليه وسلم .

يقول : ((وفى النار ضروب من العذاب ، كمـــا يـــرى محمـــد ...)) ، ثم يورد الآيات القرآنـــية فى ذلك ، فهـــــو يزعم أن وصـف النـار والجنـة والصـراط واليوم الآخـر ..... كـله من كـلام الرســول .

وهذا كله جريًا وراء نفى أن يكون القرآن وحـــــــيًا من عنـــــد الله تعـــــــــالى .

المبحث الثانى :

الطعن فى شخصيّة الرسول،صلى الله عليه وسلم:

والتشكيك فى رسالته :.

لاشك أن قصد المستشرقين الأساسى هو توهين العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين ، وجعلها غلالة رقيقة لا تقوى على تيّار العلمانية ـ:

ولذلك فقد عمدوا إلى هذه الطاعن فى شخص الرسول . فزعموا ـ باطلاً ـ أنه رجل شهوانى ـ حاشاه ـ وأنه ما رأى امرأة أعجبته إلاّ وتزوجها ، وأن هذا ((الضعف)) جاءه متأخرًا . . .

يقول جوستاف لوبون : بعد أن تحدّث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخلاقه .

((وضعف محمد الوحيد هو حبة الطارىء للنساء وهو الذى اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره . . . ولم يبال محمد بسن المرأة التى يتزوجها ، فتزوج عائشة وهى بنت عشر سنين ،وتزوج ميمونة وهى فى الحادية والخمسين من سنّها . . . وأطلق محمد العنان لهذا الحب ، حتى أنه رأى اتفاقًا زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية ، فوقع فى قلبه منها شىء فسرّحها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون ، فأوحى إلى محمد بواسطة جبريل الذى كان يتصل به يوميًّا ،آيات تسوّغ ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت . .)) (١)

وهو هنا فى طعنه هذا لا يدرى أنه يناقض نفسه

---

(١) المرجع السابق ص١١٢ ومابعدها .

بنفسه لاعترافه بأنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يتزوج إلا بعد الخمسين ، وهى سن تعدت سن الشباب حيث الحاجة للنساء قل، ولكن زواجة صلوات الله وسلامه عليه كان لاعتبارات فوق مايتصوره أعداء الاسلام ،يضيق المجال عن ذكرها هنا ....

أما زواجه بزينب بنت جحش فقد كان لإبطال عادة عند العرب الجاهليين ، وهى أن لا يتزوجوا مطلقات أبنائهم بالتبنى ، حيث كانوا يجعلون الابن بالتبنى ابنًا لهم ... وكان زيد بن حارثة ابنًا لرسول الله قبل البعثة ... فشاء الله أن يبطل هذه العادة ... وأن يدعى الأبناء بالتبنى لآبائهم.

وجاء زواج زينب من عند الله تعالى حيث يقول القرآن :

((.. فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرجًا فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا وكان أمر الله مفعولاً)) (١)

قال ابن كثير فى تفسير الآية أعلاه:

((أى إنما أوحينا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قبل النبوّة قد تبنى زيد ابن حارثة رضى الله عنه ، فكان يقال : زيد بن محمد فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ((وما جعل أدعياءكم أبناءكم)) إلى قوله تعالى أدعوهم

---

(١) الأحزاب آية ٣٧.

لآبائهم هو أقسط عند الله) ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، رضى الله عنها ، لما طلقها زوجها زيد بن حارثة رضى الله عنه ، ولهذا قال تعالى فى آية التحريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ليحترز من الابن الدعىّ . فإنّ ذلك كان كثيراً فيهم . وقوله تعالى :

((وكان أمر الله مفعولاً ، أى كان هذا الأمر الذى وقع قد قدّره الله تعالى وحتّمه وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضى الله عنها ، فى علم الله ستصير من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم)) (١)

ويشكك فى زوجات النبى وبالأخص عائشة ، وكعادة المستشرقين فإنهم يأخذون مطاعنهم فى الاسلام ، فى الغالب من الكتب المشبوهة والمدسوسة على الاسلام ، أو كتب الفرق المنحرفة مثل القاديانية والبهائية ، وكتب المغالين المخالفين لأهل السنة كالشيعة الذين يكرهون الخلفاء الراشدين خلا علياً ، ويكرهون عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، على الأخص ، ككرههم للصحابى الجليل أبى هريرة وطعنهم فيه . كما يعمد المستشرقون للأخذ من كتب الأدب والقصص الأدبى التى لا تتحرى السند الصحيح فى نقلها وروايتها .

فيقول عن زوجات الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، لإسماعيل بن كثير ، جـ ٣ ص ٤٩٢ . دار إحياء التراث العربى بيروت (١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م) .

وعدم وفائهن له ، وأنهن صرن بالنسبة له مصدر قلق وبالأخص ـ في زعمهم ـ السيّدة عائشة ، فعندهم أنه ((لم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له ،ويظهر أنّ محمّداً لاقى من المكاره الزوجية مايندر وجوده عند الشرقيّين ويكثر وقوعه لدى الأوربيين وكانت عائشة موضوع قلق له على الخصوص ، وأصبحت ذات مرة موضع قالة سوء فشهد بعصمتها جبريل المحب للخير دائماً ، ودوّنت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن ، وحُظِرَ الشك)) .

ثم يغمزون في معجزات الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويزعمون أنّ المسلمين هم الذين قالوا بهذه الخوارق من عندهم ولكنها لم تحصل منه صلى الله عليه وسلم ، ((ولم يقل محمد أنّه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته ، وعزا المسلمون إليه خوارق مع إيمانه برسالته ،وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة مجارة للمنمنات الشائعة القائلة إنه لا نبوّة بغير خوارق ...)) (١)

ويزعمون أن البراق الذي ركبه النبي صلى الله عليه وسلم، دابة خيالية وأنه لم يكن حقيقة ... وينسبون إليه ما سبقهم به كفّار مكة ، فيزعمون أنّه كان مصاباً بالصرع وتأتيه أحياناً نوبات (هيستيرية) ، كما ينسبون إليه الهوس والجنون ، ولقد ((قيل إن محمّداً كان مصاباً بالصرع ... ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين (٢) من (هذه) الناحية كما

---

(١) لهذا وماتقدم انظر حضارة العرب ص ١١٢ ومايليها .

(٢) والرد على هؤلاء يسير، إذا علمنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتى بشريعة من عند الله ،أتاه بها الوحي ، هذه الشريعة تعجز علماء الفقه والقانون والدساتير في كل زمان وكل مكان أن يأتوا بمثلها ولا سيما علماء الحضارة الحديثة ، هذه الشريعة التي أوفت حاجات العصر ومتطلباته في سائر اتجاهاته على أفضل وأحسن مايكون ... ولا ريب، إنها تنزيل من لدن حكيم خبير... أهذه النظم يقول عاقل إنها تصدر عن مفتون أو مهووس : ؟ لعمري ما أحد يقول بذلك إلا الذين طمس معالم الحق عندهم العقد على الاسلام ففضوا الطرف عن الحق .

هو واضح ... ومتى يبحث فى عمل المفتونين فى العالم يعترف بأنّه عظيم ... ولو كان العقل ،لا الهوس ، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر ... ومحمد كان يجد فى هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق ، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شىء ،ومحمد كان يعتقد أنه مؤيّد من الله ،فيتقوّى ولا يرتد أمام أى مانع)) (١)

ومطاعن المستشرقين كثيرة لا طائل فى الإكثار منها . وإنما أردت بما أوردته منها أن أدلل بالسّند على هدمهم للاسلام وإن أخفوه تحت ستار البحث العلمى المجرد ... فتركت كثيرًا من مطاعنهم فى الاسلام عامة حيث أنهم لم يتركوا جانبًا من جوانب الاسلام إلاّ وطعنوا فيه .

فلم يتركو اللغة العربية التى زعموا أنها لغة لا تواكب العصر العلمى ولا تفى بأغراضه ، وقاموسها قليل الموارد ،فإنّ المكتشفات العصرية والاختراعات لا تناسبها لغة الصحراء والجمل .. ولذلك فهى لا تجارى اللغات المشتقة من اللاتينية ... وقالوا إنها لغة معقّدة بكثرة حروفها وأشكالها .. وغير ذلك مما يحقّرون به شأن هذه اللغة التى يعرفون أنها لغة الاسلام ووعاء القرآن وموحدة لسان المسلمين .

وكذلك طعن المستشرقون فى الفقة الاسلامى ، وقالوا

---

(١) حضارة العرب ،ص ١١٤ .

وان دين محمد تما على أيدى أتباعه من بعده وزاد زيـــادة لم يشهدها محمد فى حياته ولا أصحابه الأوائل . . . كما زعموا ـ زورًا ـ أنّ الفقه الاسلامى مأخوذ من القانون الرومانى . . . . . وتشـــكيكهم بالفقه الاسلامى مزجوه بالتشكيك فى السنّة والطعـــن فى رجال أسانيدها ورواتها وأنها جاءت من زيادات رجـــال أرادوا أن يكـــبّروا ويزيدوا فى دينهم ، وردّدوا مزاعم الفِـــرَق التى تنتمى للاسلام وتخالف عقائد أهل السنة وتفرق بـــــين الصحابة بل وتقدح فى بعضهم ولا تعدّلهم ، فأخذ المستشـــرقون هذه الأقوال وضربوا بها ظهور الإبـــل كدأبهـــم . . . . . .

* الفصـــــل الثـــانى *

.: إنتاج المســـتشـــــرقين :

ويشـتمل على مـا يلـى :-

١- إنتاج المستشرقين من الكتب يؤثّر فى الطلّاب المسلمين وفى تكـوين ثقافتهم .

٢- تلاميذ المســتشرقين يحملون راية الطعانيـــــــــة

* * * * * *

: الفصل الثانى :

: إنتاج المستشرقين

الانسان ، كما يقولون ، مدنّى بطبعه فهو يتأثر بما حوله وتنطبع عليه عوامل البيئة التى يعيش فيها ،ويتفاعل مع العوامل المختلفة لتلك البيئة ، فهو ابن بيئته .

ومع هذا العامل المؤثّر،عامل البيئة ،هناك العامل الثقافى الذى له الأثر الذهنى الفعّال ، ولاسيما إن كان عن طريق الدراسة فى السنين المبكّرة من عمر الانسان ، حيث تنطبع المعلومات فى ذهنه ولا تكاد تنفك عنه ،

ولهذا عندما أثرى المستشرقون المكتبة الاسلامية بما ألّفوه عن الاسلام وعن التراث الاسلامى والعربى من كتب ، وما أخرجوه من مخطوطات فى شتى أنواع العلوم ، أقبل عليه الطلاّب المسلمون يقرأون ويدرسون تلك الكتب ، فأعجبوا بمنهجها العلمى ، الذى هو فى الحقيقة منهج العلماء المسلمين ، كما أعجبوا بجودة طباعتها وصقل ورقها ... وعلى مرّ الزمن نما هذا الإعجاب فشمل كل ما يكتبه هؤلاء ،ولم ينج من هذا الإعجاب المُفْرِط إلاّ النذر القليل ، والقليل جداً ، من ذوى الفطنة والثقافة الاسلامية العالية .

وكعادة المستشرقين ،فإنهم يدسّون السمّ فى الدسم . فتراهم يمدحون الاسلام ، بل ويطنبون، أحياناً، فى هذا

المدح حتى لا يكاد القارئ يميّز الغثّ من الثمين ، ومن هنا فقد وقع كثير من الكتّاب المسلمين فى فخّ هؤلاء المستشرقين وأخذوا يدافعون عنهم بشدّة وحرارة ويلتمسون لهم الأعذار أحيانًا ، وذلك عندما يكون الطعن فى الاسلام واضحًا لكلّ ذى عينين ...

ولذلك أحببت أن أتطرق لأقوال بعض هؤلاء من تلاميذ المستشرقين ، وليس هذا على سبيل الحصر وإنّما على سبيل المثال فقط ، ذلك ليتنبّه المسلمون لمثل هذه الهنّات ، التى ربّما تكون - أحيانًا - عن عفوية وطيب خاطر ممّا كان له الأثر الكبير فى تمكين الأفكار العلمانية فى أوساط المسلمين ؛ لأن المسلم ينبغى عليه أن يكون دائمًا حذرًا يقظًا حتى لا يلدغ من جحر مرتين .

ولقد كان للمنهج الذى يزعم المستشرقون أنّه علمى أثر كبير فى الكتّاب المسلمين الذين اطّلعوا على كتابات المستشرقين ، فمن ذلك ما كتبه مؤلف كبير وذو دراسة واسعة عن المستشرقين ، وهو من المتشبّعين بأفكارهم إلى درجة الارتواء وألف عنهم وعن مصنّفاتهم سفرًا موسوعيًّا يعدّ من المصادر العربية الكبيرة عن الاستشراق والمستشرقين ، وهو صاحب كتاب (المستشرقون) الأستاذ نجيب العقيقى ، فتطرق لهذا المنهج العلمى ولغيره ولكثير من آرائهم فقال :(١)

---

(١) انظر كتابه ، المستشرقون ، جـ ٣ ، ص ١١٤٠ ، طبع دار المعارف بمصر (١٩٦٥م) .

((.. وكان للمستشرقين ولاساتذة الغرب الذين اخذنا عنهم المنهج العلمي (١) الذين (٢) تميزت به ثقافة العصر اثر في اساليب تعليمنا وتحقيق تراثنا ودراسته والتصنيف فيه ، وتقييمه بالنسبة للتراث العالمي على جرأة في التفكير والتقدير والجهر بالحق او ما يعتقد انه حق ....))

ويقول عن المنهج العلمي :

((ودعا اليه الدكتور محمد حسين هيكل بقوله :

((وليس ريب في ان الشرق اليوم بحاجة أشد الحاجة الى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الادب والفن ، فقد قطع ما بين حاضر الشرق الاسلامي وماضيه قرون من التعصب والجمود ، ومن الحق علينا للغرب ان نقول :

ان مايقوم به علماء اليوم ، من بحوث نفيسه في تاريخ الدراسات الاسلامية والدراسات الشرقية ، قد مهد لابناء الاسلام وابناء الشرق . ان يتزودوا من هذه البحوث في تلك الدراسات وان يكونوا اكبر رجاء في الاهتداء الى الحق ...))

ولاشك ان هذا القول فيه اعجاب بالمستشرقين والغرب اكثر مما ينبغي ان يكون ، فالدعوة الى النهل من ورد الغرب في التفكير والادب والفن من اردأ ما

---

(١) ان كان اخر المسلمين اليوم اخذ المنهج العلمي من الغربيين ، فان اصل هذا المنهج اخذه الغربيون عن علماء المسلمين ، فقد كان المنهج اليوناني الذي سلكه ارسطو هو المنهج الاستنباطي ، الذي يبدأ من الكلي الى الجزئي اما المنهج الاستقرائي الذي ينسبونه الى ((روجر بيكون فهو منهج اسلامي عربي اخذه بيكون عن علماء المسلمين ايام النهضة العلمية الاسلامية . وهم الذين قالوا بالتدرج من الجزئي الى الكلي ... وهو المنهج العلمي السليم الذي فتن به المسلمون اليوم ظانين انه غربي ، والحق خلافة مثله مثل كثير من العلوم التي سرقوها ...

(٢) لعل الصواب ان يكون (الذي) لان الموصول يرجع الى المنهج وهو مفرد .

تأخذه أمة عن أمة أخرى . . . فإنّ مع هذه الآداب والثقافة تفد كل الأفكار المنحرفة والعادات والأخلاق الذميمة التي لم تكن في تلك الأمة ، ولاسيما إن كانت مثل الأمة الاسلامية لها تاريخها ولها ثقافتها الخاصة التي لا توجد في المجتمعات الغربية ، كما لها عاداتها وتقاليدها الاسلامية وأفكارها النابعة من صميم دينها فمثل هذه الأمة لا ينبغي لها أن تأخذ عن غيرها من الأمم إلّا ما كان محايداً كالعلوم الطبيعية مثل الكيمياء والفيزياء والطب والهندسة ، وعلم المعمار وغيرها من الصناعات التي لا صلة لها كبيرة بتكوين الثقافة والفكر . . .

وللأسف هذا ما وقعت فيه الأمة الاسلامية بعد ضعفها بسبب هؤلاء المقلّدين من أبنائها الذين فتنهم الغرب. فأصابنا ما أصابنا ولحقنا ما لحقنا من مذاهب هدّامة مجلوبة وفلسفات علمانية مادية مستوردة .

فمثل هؤلاء العلماء يفترض فيهم أن يكونوا ناقدين فاحصين ، والناقد إذا أخذه الإعجاب ، فإنّ حاسّة النقد عنده سوف يختل ميزانها وبالتالي يكون منحازاً إلى جهة ، وهذا ما وقع فيه الكثيرون من الكتّاب الذين درسوا كتب المستشرقين .

وهذا الميل الذى ذكرته ، وهو الذى يصل إلى درجة الإعجاب يجعل صاحبه يفترض فى المستشرقين حسن النيّة ،وعلى هذا لو حصل منهم أى طعن فى الاسلام يحاول تأويله ملتمساً لهم الأعذار ، وهذا ما نجده بعينه فى قول نجيب العقيقى :

((أفإن طبّق المستشرقون منهجهم العلمى على تراثنا وقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم ، قدر استطاعتهم ، من آثار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء يكونوا قد أخطأوا فى نظر البعض منا لأن نتائج منهجهم لم تأتنا بما ألفناه !! . ؟ .

ولكن الناظر إلى إنتاج المستشرقين بعين فاحصة يجد هم لم يتخلوا أبداً عن عصبيّتهم حيال الاسلام ولم تخل نفوسهم وعقولهم من حقدهم على الاسلام كما يزعم الكاتب بدليل ما كتبوه فهو أبداً فيه طعن للاسلام سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وهذا ما أثبته أحدهم وهو ((جوستاف لوبون)) الذى نقلت طعنه فى الاسلام قبل قليل يقول عن تعصّب المستشرقين وأنهم ليسوا أحراراً فى مناهج بحثهم ، كما يدّعى الكتّاب المنتصرون لهم :

((والحقيقة إن حرية الرأى عندنا واستقلاله أمران ظاهريان أكثر منهما حقيقيان واقعيان .

إننا لسنا أحراراً في معالجتنا لبعض الموضوعات فآراؤنا الموروثة المتحيزة التي نعتنقها ونتدارسها ضد الاسلام وأنصاره ودعاته قد تكاثفت وتراكمت عبر كثير من القرون حتى أصبحت جزءاً من وجودنا العضوي)) (١)

ويستمر العقيقي ،في الدفاع عن المستشرقين بحماس متدفق وكأني أراه أمامي يتحدث بكلتا يديه ،يذب عنهم مالصق بهم فيقول :

((إنّا لنفرض جدلاً أن جمهرة المتصدّين لتراثنا من شرقيين ومستشرقين لا تخلو أنفسهم من هوى ولا تبرأ من اعتلال ولكن إلى أي هؤلاء المتصدين نطمئن أو نكون أكثر اطمئناناً وأقرب ، إلى تعرّف الحقيقة والظفر بها : إلى هذا الذي يجهل المنهج العلمي فلا يكاد يصل إلى صواب إلا عرضاً ومصادفة وندرة أم إلى ذلك الذي يحارب هواه أو حتى يسالمه ـ إلا نفراً تناولت أقلامهم ذلك التراث بالنيل منه عن عصبية أو عقيدة أو مطمع سياسيّ فسخّر العلم ليجعل من الحق باطلاً ـ فيأخذ نفسه بالمنهج العلمي فتراه يقطع الأمصار وينفق الثروات ويفني العمر بين المخطوطات والآثار والمصنّفات مطلعا منقّباً مستيقظاً مقارناً لم يتقدم بقضية إلاّ وبيده دليلها

---

(١) الاسلام والغرب والمستقبل ،أرنولد توينبي ، ترجمة نبيل صبحي ص ٧٥ دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م)

ولا ينهض بدعوى إلا وهو يسوق الحجج التى تحسم كل خلاف وتنفى كل ريب)) (١)

هذا العراك العنيف والقتال الضارى ، فى سبيل الدفاع عن المستشرقين ، لا يحتاج إلى تعليل ولا إلى تعليق . وهذا المنهج العلمى الاستشراقى أو قل الغربى الذى تشرّق ، فقد غدا كأنه تنزيل من حكيم خبير لا يخطئ ولا يصيبه الزلل .. مع أن أصحاب هذا المنهج نجدهم يخطئون أخطاء فى منتهى البشاعة ولو كان فى المجال متسع لسردت تلك الأخطاء وعلى سبيل المثال البسيط؛ يقول ((جوستاف لوبون)) (٢) عن جمع القرآن الكريم :

((.. فلما انقضت عدّة سنين على وفاته (٣) حمل خليفته الرابع على قبول نص نهائى للقرآن مقابلاً بين ما جمعه أصحاب الرسول))

ومن المعلوم بالضرورة أن الذى جمع القرآن للمرة الأخيرة فى هذا المصحف الذى بين أيدينا هو الخليفة الثالث عثمان ابن عفان ، رضى الله عنه ، وليس هو الرابع كما زعم؛ لأن الرابع هو على ، رضى الله عنه .

وفسّر المستشرق ((كازانوفا)) قوله تعالى ((النبى الأمى)) بالشعبى ، وترجم ((كازميرسكى)) قوله تعالى للملائكة :

---

(١) المستشرقون جـ ٣ ، ص ١١٤٦ .

(٢) انظر كتابه حضارة العرب ص ١١٧ .

(٣) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم .

((اسجدوا لآدم ... الآية)) فسّرهتا ((بأصدوا آدم)) (١)

وغير هذا كثير لا مجال لتعداده هنا .

وأخيرًا يقول نجيب العقيقى عن سبب تأليفه كتابه ((المستشرقون))

((أما وقد شغلوا (٢) بتراثنا كشفًا وجمعًا وتحقيقًا وترجمة وتصنيفًا ، منذ ألف سنة فى جميع البلدان ، وبشتى اللغات ، فلا أقلّ من أن نشكر لهم فضلهم على العربية بالعربية ونذيعه فى كتاب وإن لم يكن فى مثل دقة كتبهم وعمقها وشمولها وجدتها ، هو ((المستشرقون)) (٣)

وتلاميذ المستشرقين ، الذين صاروا أنصارا لهم ، كثيرون فى عالمنا الاسلامى ، منهم المغالى والمفرط فى حبه لهم ، ومنهم من هو دون ذلك ، ولعلى هنا قد ضربت المثل بالذين هم دون ذلك . من أمثال ، عميد الأدب العربى ، ورفاقه ، لم أذكرهم فمثل اولئك يفردون فى مصنّفات خاصة بهم لأن شأنهم أكبر فى ذلك وباعهم أطول .

---

(١) المستشرقون ، جـ٣ ، ص ١١٥٣ .

(٢) يعنى المستشرقين .

(٣) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١١٦٦ .

* الفصـــل الثـــالث *

بعض وسائل المستشرقين وأساليبهم :
ويشتمل على النقـــاط التاليـــــة :-

١- دور الطباعة والنشر والمؤتمـــــرات ...

٢- التذرع باتباع المنهج العلمى فى مهاجمة الاسلام.

٣- دس السم فى العسل للتمويه على المســـــلمين .

٤- الاستناد فى الهجوم على الاسلام على الأحاديث الموضوعة والضعيفة وكتب الفرق المنحرفـــــــة عـــن الاســـــلام.

******** * * * ******

****

*

الفصل الثالث

: بعض وسائل المستشرقين وأساليبهم : .

أستعان المستشرقون بوسائل جمّة للوصول إلى بغيتهم:
فمن تلك الوسائل ،دور الطباعة والنشر التى انتشرت فى الغرب والشرق تنشر الكتب والمجلات الدوريات فتجد رواجاً وإقبالاً عليها ، فتصدر هذه الكتب فى ثوب قشيب وجلد سميك وورق مصقول وطباعة نظيفة أنيقة تجذب الأنظار وتجلب القرّاء وبهذه الوسيلة أمكن لسوق الكتب والمجلات التى يروّجها المستشرقون أن تنفد طباعتها بسرعة من الأسواق مما حفز هممهم إلى المزيد من تخريج الكتب والمجلات والمخطوطات والتنافس فى ذلك.

وكذلك عمد المستشرقون إلى عقد المؤتمرات ودعوة كبار العلماء إليها ، من مسلمين وغيرهم .

كما رفعوا شعار حرية الفكر فى المناقشات للموضوعات التى تطرح لبساط البحث عن الاسلام والحضارة الاسلامية، زاعمين أن ذلك هو اتباع للمنهج العلمى ((الحديث)) الذى افتتن به بعض الكتّاب المسلمين ، ولا سيما أولئك الذين تلقوا دراساتهم المنهجية على أيدى المستشرقين أو الغربيين بعامة ...

فصار كل طعن فى الاسلام يحوّر على هذا المنهج العلمى والحياد الحر والفكر الصريح ، . . فأخضع المستشرقون كل النظام الاسلامى لهذا المنهج ، حتى القرآن الكريم الموحى من عند الله تعالى ، وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، المعصوم من قبل ربه ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحى يوحى ، وضع تحت هذا الميزان غير المتزن .

وكان هذا المنهج العلمى والبحث الحر هو أكثر ما استعان به المستشرقون لضرب الاسلام ، لأنّ كلّ ما يتعلق بالاسلام أخضعوه لهذا المعيار .

ومن وسائلهم التى درجوا عليها ، والتى هى بدورها أخذت المسلمين على حين غرّة ، أن درج المستشرقون على مهاجمة بعضهم بعضاً ، فيما كتبوه عن الاسلام ويشنّعوا به أيما تشنيع حتى يزيلوا الغبش عن العيون ويقال إنّ المستشرقين منصفون فها هم يهاجمون حتى بنى جلدتهم إذا هم حادوا عن هذا المنهج العلمى ، . . (١) وبهذه الوسيلة يذرون الرماد فى العيون مستغلين سذاجة بعض المسلمين وحسن نيتهم وسماحة طويتهم ، وأنهم يحسنون الظنّ بالناس دائماً .

وإن كان ينبغى على المسلم أن يكون كيّساً فطناً .

---

(١) كما فعل ((جوستاف لوبون)) فى بعض كتبه ومنها حضارة العرب تجد ذلك مبعثراً هنا وهناك ممزوجاً بمدح الاسلام حيناً . .

انظر ص ١٢٦ .

وانظر ، كذلك ، ص ١٩٠ - ١٩١ من هذه الرسالة .

ولا يكون غافلاً خاملاً ، فالحذر والفطنة والكياسة والحاسة المرهفة والذاكرة التي تنتبه بسرعة ... هي من صفات المسلم ، وهي ديدنة ، لأن الاسلام علّمهم ذلك وحثّهم عليه ، قال تعالى :

((يا أيّها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثباتاً أو انفروا جميعاً)) (١)

وقال تعالى :

((يا أيّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا (٢)

وقال تعالى :

((.. وليأخذوا حذرهم ... الآية .

وقال تعالى :

((وخذوا حذركم ... الآية (٣)

فمثل هذه الدسائس التي يغمزنا بها أعداؤنا يجب أن لا تغيب عنّا ولا نمر عليها مرور الكرام ، في غير انتباه ولا إدراك لأهدافها

ومن وسائل المستشرقين كذلك بذل الأموال الطائلة وإنفاق الوقت الطويل في إخراج هذه الكتب حتى يقال إنهم مخلصون لنا ولديننا ولتراثنا أو على الأقل إنهم محايدون .

وقصارى القول عن المستشرقين أنهم يبحثون عمّا يبررون به ما عليه دينهم ، ومايبطل ديننا ومحاولة أنّه مأخوذ من الأديان السابقة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم رجل عظيم مبدع مثل أيّ رجل مصلح عبقري .

---

(١) النساء آية ٧١ .

(٢) النساء آية ٩٤ .

(٣) النساء آية ١٠٢ .

ثم إنهم يرمون إلى توهين الرّوح الاسلامية لدى المسلمين والتشكيك في دينهم حتى يصبحوا أسهل لاصطيادهم وإدخال الأفكار الهدّامة إليهم عن طريق زعزعة إيمانهم كالعلمانية وغيرها .

وهذا مايرمون إليه في قول زعيمهم ((صموئيل زويمر)) بأنه لاينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف الدريجي في الإعتقاد بالفكرة الاسلامية ومايتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له سوف ـ يفضي بعد إنتشاره في كل الجهات ـ إلى إنحلال الروح الدينية من أساسها إلى نشأتها بشكل آخر . . .

((. . . على أنّ المناقشة في هذه المسألة لاطائل تحتها لأنّ الآراء تنبعث من وجهة التفكير ، فلنقتصر إذن على القول بأن سير العالم الاسلامي تدرج نحو إنحلال أفكاره الدينية وزوالها . وذلك أمر طبيعي ممكن التحقيق . أما فرض تدرّج المسلمين إلى اعتناق المسيحية ،فخارج عن حد الإمكان . . .)) (١)

وهذا ما رمى إليه المستشرقون أن تتحلّ الأفكار الاسلامية وتصير الحماسة الاسلامية ليّنة لدى المسلمين ولاسيما الشباب الذين يعجبون بمثل هذه الأفكار ، غالباً ،ومن هنا يسهل جرّهم إلى العلمانية المادية . أما إدخالهم النصرانية فهذا أمر ثانوي في خطتهم لأنه صعب المنال والمسلم يكون عادة قوي الشكيمة إذا ما أرغم على ترك دينه عنوة . . . . .

---

(١) الغارة على العالم الاسلامي ، أ ، ل ، شاتليه ، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ، ص ١٩ ـ ٢٠ الدار السعودية للنشر جدة الطبعة الثانية (١٣٨٧هـ)

ولكى يحقق المستشرقون أهدافهم لضرب الاسلام وزعزعة الروح الاسلامية فى نفوسهم ،ولكى يسيروا وسائلهم لهدم الاسلام، لكى يصلوا لذلك ،نراهم يلونون أساليبهم ويحوّرون فيها تعمية على القراء المسلمين فمن تلك الأساليب الماكرة ـ:

دس السم فى العسل حيث يضعون الكلام الرقيق المستطاب بصورة جذّابة تخلب اللب حتى إذا ماركن القارىء لذلك واطمأنّ قلبه ، دسّوا له فى وسطه سمّهم الذى قليل مع يتنبّه له .

يقول أحدهم : (١) .

((وأنا أضع على حائط مكتبى آية من القرآن . ولدىّ كذلك حديث نبوى . وأحب أن أتخيّر آيات أخرى من القرآن تحرك بى الإلهام الدينى . ونحن محتاجون أن نتفهّم الآيات القرآنية الجميلة ذات المعنى الدينى العام الذى يلائم كل إنسان . . .

وبعد هذا النص مباشرة يعمد إلى نفث سمومه فى روع المسلم حيث يرغّبه كذلك فى أن يأخذ بعض العقائد النصرانية التى تعينه ـ على حد زعمه ـ على تقوية إيمانه وتجديد عقيدته فيقول :

((وإنى ، كذلك ،أتطلع إلى الوقت الذى يأخذ فيه المسلمون من العالم الغربى الحديث ، الآثار الدينية التى تعين على تقوية إيمانهم بالله . فكل واحد منا يستمد القوة من الآخر، لا من حيث زيادة التسامح ـ فهذا أمر قد لا يكون له شأن ـ بل من حيث تقوية

---

(١) هو ((جون كيلنجسلى بيرج)) مدير دائرة النشر التابعة لمجلس مديرى الإرساليات الأجنبية ، استانبول ،تركيا . من بحث له بعنوان : الاسلام فى تركيا الحديثة .

العقيدة الدينية التى تستطيع أن تجعل من الأخوة الانسانية حقيقة أقوى وأثبت تحت ظل الله ، إله العالم الحديث والاسلام)) (١)

والمرء يتساءل : ماهى الآثار الدينية للعالم الغربى الحديث التى يستعين بها المسلم على تقوية إيمانه وعقيدته ؟ ولا نعلم عقيدة ولا إيماناً للعالم الغربى يفيده فى نفسه ويصل إليه الطمأنينة حتى يصدّرها للعالم الاسلامى ؛ وفاقد الشىء لا يعطيه ، لكنّه على كل حال دسّ المستشرقين وهو من أساليبهم للدسّ فى الاسلام.

ومن أساليبهم إلقاء التهم على الاسلام عن طريق الاستدلال بالاحاديث الموضوعة والضعيفة وإيراد الحديث من غير سنده فى الغالب ، وقد يورده بمعنى مغاير للمعنى الحقيقى ، فمثلاً يقول أحدهم لاصقاً الشيوعية بالاسلام ومدعياً أن فى تعاليم الاسلام دعوة للشيوعية بقوله :

((.. على أنه يمكن أن يقال بكل تأكيد أنه من اليسير أن توجد فى الاسلام ... قاعدة للشيوعية باعتبارها فلسفة مثالية . وقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم فى الحديث: ((الانسان أخو الانسان أحبّ أم كره)) (٢) ولا أعلم حديثاً بهذا اللفظ وهو بالطبع لم يعزه إلى أى كتاب ولم يذكر له سنداً ، وحتى إن صحّ هذا الحديث فليس فيه دعوة للشيوعية ولا فيه مبدأ شيوعيًا . أما الأخوة الانسانية فهى مبدأ إسلامى قبل أن تكون مبدأ شيوعيًا ... وغير ذلك كثير لا مجال لأكثر من هذا .

---

(١) الاسلام فى نظر الغرب ، مجموعة مقالات لعدد من المستشرقين ترجمة د . إسحاق موسى الحسينى ، ص ٨٩ دار بيروت للطباعة والنشر (١٩٥٣م) .

(٢) المرجع السابق ص ٣١ ، من بحث للمستشرق (بايرد دودج) الرئيس السابق للجامعة الأمريكية فى بيروت . تحت عنوان نظرة فى المظاهر الروحية والأخلاقية للاتجاهات الحديثة فى الاسلام.

: الفصل الرابع : .

: دور المبشرين فى علمنة المجتمع الاسلامى : .

منذ أن شقّ فجر الاسلام ظلام هذا الكون وبدد بنوره الوضاء دياجيره الحالكة ،وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ،منذ ذلك الوقت بدأ أعداؤه من اليهود أولاً ومن النصارى ثانياً ،بدأوا يعملون على محاربته وإخماد جذوته المتّقدة ((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ،والله متمّ نوره ولو كره الكافرون)) (١)

ولكن الله لهم بالمرصاد ((هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)) (٢) .

ولكنهم مع ذلك حاولوا ، ولا زالوا يحاولون النيل من هذا الدين الذى نفى كل ضلالات الشرك وعبادة غير الله الواحد الأحد.

وبعد أن فشلت الحروب الصليبية فى تدمير الاسلام وسحقه، أراد أعداء الاسلام أن ينحوا منحى آخر لعلّهم يصلون إلى مأربهم فنظّموا عملية التبشير النصرانى ، الذى كان أصله البشارة بدعوة المسيح ، عليه السلام ،ونشرها بين اليهود الذين انحرفوا عن جادة الطريق وبدلوا التوراة وعاثوا فى الأرض فساداً ، فجاءهم بهذه البشارة ، بشارة أن من أطاعه دخل الجنّة ،ولكن اليهود ـ كعادتهم ـ أبوا ذلك وحاربوا المسيح وادعوا صلبه ثم دخلوا المسيحية ليحرّفوها كذلك .

وكان (ريمون لول) الاسبانى ،رئيس أساقفة طليطلة ((هو أول من تولى التبشير (٣) بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها فتعلم لول اللغة العربية بكل مشقّة ، وجال فى بلاد الاسلام وناقش علماء المسلمين فى بلاد كثيرة)) (٤) .

---

(١) الصف آية ٨ .
(٢) " " ٩ .
(٣) وكان كذلك مستشرقاً درس اللغة العربية وترجم بعض الكتب العربية كما أشرت إليه فى الحديث عن المستشرقين آنفاً .
(٤) الغارة على العالم الاسلامى ،ص ٢٩ .

والتبشير (١) والاستشراق كلاهما صنوان لا يفترقان غير أنّ المستشرقين استتروا وراء البحث العلمي ،وإن كانت هذه الصفحة يمكن أن تطلق على بعضهم ،مع قلتهم ، وحتى هؤلاء يرتاب في أمرهم لكثرة ما طعنوا في الاسلام . ولذا فالناظر في أكثر المستشرقين . يجدهم إما قساوسة أو درسوا في مدارس لاهوتيّة تقوم الدراسة فيها على الكيد للاسلام ومناهضته . وهم الذين مهدوا لدولهم لاستعمار البلاد الاسلامية ، كما ذكر ذلك الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ في رحلته التي زار فيها الجامعات الأوربية والتقى بكثير من المستشرقين وناقشهم في كثير من المسائل عن الاسلام. قال عن تلك الرحلة :

((واجتمعت بمن كان موجوداً حينئذٍ من المستشرقين فيها . ومما ذكرته آنفاً وما دونته في مذكراتي عن المستشرقين الذين لقيتهم خلال تلك الرحلة اتضحت لي الحقائق التالية:

أولاً : إنّ المستشرقين ـ في جمهورهم ـ لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً وقد يشذ عن ذلك أفراد.

ثانياً : إنّ الاستشراق في الدول الغربية غير الاستعمارية ـ كالدول الاسكندنافية ـ (٢) أضعف منه في الدول الاستعمارية

ثالثاً : إنّ المستشرقين المعاصرين في الدول غير الاستعمارية يتخلون عن جولد تسيهر ز ، وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة.

رابعاً :إنّ الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية

---

(١) يطلق التبشير على الدعوة التي يقوم بها دعاة المسيحية على اختلاف مذاهبهم وألوانهم للتعريف بين الناس بالمسيحية. ومهاجمة غيرها من الأديان وخاصة الاسلام.عن مذكرة للدكتور أبو المجد السيد نوفل ،ص ٧٦ .

(٢) الدول الاسكندنافية : هي ،السويد والنرويج وفنلندة .

جنبًا إلى جنب يلقى منها كل تأييد .

خامسًا : إنّ الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ماتزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية من كونه أداة هدم للاسلام وتشويه لسمعة المسلمين)) (١)

بعض أهداف المبشرين ووسائلهم:

ولما كانت أهداف المبشرين هى نفس أهداف المستشرقين التى تتلخص فى الطعن فى القرآن الكريم والتشكيك فى رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ووصف اللغة بالجمود وعدم مواكبة العصر العلمى والقول بأن الفقه الاسلامى مأخوذ من القانون الرومانى ومحاولة هدم العقيدة الاسلامية عامة ....

وقد تحدثت عن تلك الأهداف فى الحديث عن المستشرقين فلا طائل من وراء إعادتها هنا ، غير أنّ المبشّرين كانت لهم وسائل استعانوا بها لتوهين الاسلام فى نفوس المسلمين حيث كانوا يؤمّلون أن تساعدهم فى تنصير المسلمين ، حسب اعتقادهم، فمن تلك الوسائل :

التطبيب : رأى المبشرين أن الطب من أهم الوسائل التى تساعدهم على التأثير فى المسلمين ؛فلذا حرصوا على تدريب الأطباء فى المدارس اللاهوتية لكى يكون على خبرة كبيرة فى جذب المسلمين إليهم ، ثمّ عملوا على إنشاء المستشفيات والمستوصفات الطبية بجوار الكنيسة فإذا جاء المريض والممرض له ، وكذلك زوّاره بدأ معهم العمل على تنصيرهم أو على الأقل توهين الاسلام فى نفوسهم ، وذلك بالطّعن

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ،دكتور مصطفى السباعى ،ص١٦ نشر المكتب الاسلامى بيروت ، الطبعة الثانية .

(١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)

فى الاسلام وإدارة الشبهات حوله وحول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت النصائح من المبشّرين الكبار على الطبيب الذاهب الى البلاد الاسلامية بانك ((يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز (١) بالإنجيل . إيّاك أن تضيع التطبيب فى المستوصفات والمستشفيات ، فإنّه أثمن تلك الفرص على الإطلاق . ولعلّ الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك : إنّ واجبك التطبيب فقط لا التبشّير فلا تسمع منه)) (٢)

وقد ركّز المبشّرون أكثر اهتمامهم على المدارس فأنشأوا العديد منها فى مختلف البلدان الاسلامية زاعمين أنهم يريدون رفع الجهل وتقليل نسبة الأمية ،وشملت المدارس كل المراحل التعليمية من الروضة والابتدائية إلى الجامعات .

والغريب أنّ نظام هذه المدارس لا يخضع لنظام التعليم فى تلك البلدان ، وإنما لها ناهجها الخاصة بها كما لها أنشطتها الخاصة كذلك . . . وهذه المدارس كثيرة جدًا يضيق المجال عن ذكرها وحصرها ، ولكن نذكر على سبيل المثال الكلّيات التى على المستوى الجامعى :

- كليّة البنات الأمريكية بالقاهرة .
- الجامعة الأمريكية بالقاهرة .
- الجامعة الأمريكية بلبنان .
- جامعة القديس بولس بلبنان .

---

(١) تكرز ، أى تبشّر ، أو تدعو بأسلوبنا الاسلامى . والتكريز هو التبشّير بالنصرانية ، كما جاء أن المسيح كان يكرز بالجليل الأعلى . . . أى يدعو ، ويكرز بالإنجيل يدعو به .

(٢) التبشير والاستعمار . د . عمر فروخ ود . مصطفى خالدى ص ٦٢ ، المكتبة العصرية بيروت الطبعة الخامسة (١٩٧٣م) .

ـــ الجامعة الكاثوليكية جاكارتا بأندونيسيا .

ـــ كلية روبرت ، الجامعية فى استنابول بتركيا .

وكل تلك المدارس والجامعات تنفث فى أبناء المسلمين سموماً حارقة أقلّ ما يقال فيها :- إن لم تدخلهم فى النصرانية فتزعزع عقيدتهم الاسلامية .

يقول المبشر تكلى (يجب أن نشجّع إنشاء المدارس ، وأن نشجّع على الأخص التعليم الغربى ، إنّ كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية . إن الكتب الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدّس أمراً صعباً))(١)

((ويبدو بوضوح أنّ المبشّرين لم يستطيعوا إفساد المسلمين بالقدر الذى تمنوه فقنعوا بأن ((يلوّنوا)) الطلاب المسلمين بالنصرانية تلويناً يبعدهم بعض البعد عن عقيدتهم الأولى ثم يدينهم بعض الدّنو من النصرانية)) (١)

وقد لوّن المبشرون أساليبهم ووسائلهم حيال إخراج المسلمين عن دينهم ، فتارة عمدوا إلى الجمعيات الخيرية وأعمال البر والإحسان ، وأخرى اندسّوا خلال الأحزاب الوطنيّة فأثاروا فيهم النعرات القومية وتأليب بعضهم على البعض الآخر حتى لا تجتمع للمسلمين كلمة سواء .

وطفقوا ينشئون الأندية الرياضية ويكونون

(١و١) التبشير والاستعمار ص ٨٨ .

الرحلات ليجدوا لهم مندوحة تسمح لهم بالدخول إلى قلـــوب الشباب ليبثوا فى أوساطهم أفكارهم المحمومة، بل وحتى الجمعيّات النسوية وجدوا طريقهم إليها بهذه الوسائل .

ثم إنّ كثيرين منهم كانوا أدوات لدولهم الاستعماريـــة يمهّدون لهم السبيل ويكوّنون لهم الأرضية التى يرتكزون عليهـــا ، ولذلك نرى تلك الدول تغدق عليهم الأموال وتحميهم بوسائلهـا ((الدبلوماسية))

قال اللورد بلفور ، وزير خارجية بريطانيا سابقًا الذى أعطى اليهود وعدًا بإنشاء وطن لهم فى فلسطين يقول :

((.. إنّ المبشرين هم ساعد لكل الحكومات فى أمـــور هامة ولولاها لتعذر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات ، وعلـــى هذا فنحن فى حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمـــل لما فيه مصلحة المبشّرين، فأجيب اللورد إلى اقتراحه وتألفـــت لجنة مختلطة ولجنة لمواصلة العمـــل)) (١)

وعمل المبشرون على تشويه اللغة العربية والحط مـــن قدرتها على مسايرة العصر العلمى الصناعى الذى كثرت فيـــه المخترعات ، وذكروا النحو العربى وما فيه من صعوبة وتعقيـــد حسب زعمهم - يصعب على الدارسين تحصيله . ولهذا فقـــد شجّعوا اللهجات العامية ، وقالوا : إنها لغة الأم فيجب تنميتهـا وتبنيها ، لأنهم يعلمون أن اللغة العربية هـــى التـــى

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص ١٢٨ .

تجمع المسلمين وتوحّدهم وتجعلهم يتخاطبون فيما بينهم بسهولة ويسر ، ولهذا الغرض ركّز المبشّرون على الإكثار من إنشاء المدارس الأجنبية وتدريس كل العلوم فيها باللغات الأوربية . وهذا ما اعترف به رئيس المبشّرين القسيس صموئيل زويمر ، حين قال :

((إنّ لنتيجة إرساليات التبشير فى البلاد الاسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، أو بالأحرى مزيتى تحليل وتركيب . والأمر الذى لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغييرات الخلقية فى البلاد العثمانية والقطر المصرى وجهات أخرى هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه (١)

يعنى زويمر بهذا أن تأثير المبشرين فى إفساد الأخلاق لدى المسلمين له فعالية أكبر مما تفعله الحضارة الغربية ، لأن أثر المبشّرين يكون مباشرًا وسريعًا ، ولاسيما بعد إنشاء المدارس التبشيرية ، وهم دائمًا يركّزون على إفساد الخلق أكثر من التنصير .

غاية التبشير إخراج المسلمين عن دينهم ، ولهذا لما قصرت بالمبشرين وسائلهم الأخرى لتنصير المسلمين وإدخالهم فى حظيرة المسيح - كما يقولون - فقد عمدوا إلى وسائل الهدم وإبعاد المسلمين من أن يكونوا مجرد متدينين بمعنى العمل على جعلهم علمانيين ، وهذا ما حث عليه زويمر المبشرين فى مؤتمر القدس ، الذى كان يرأسه هو

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ .

بنفسه (١٩٣٥م) حيث قال :

((إنّ التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته فى مهاجمة العالم الاسلامى فأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحرب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الاسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين (ففى هذا شرف لهم) إنّ المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيًّا مطلقًا ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى إليها إنما هى إخراج المسلم من الاسلام فقط ، ليكون ملحدًا أو مضطربًا فى دينه ، وعندها لا يكون مسلمًا ، لا تكون له عقيدة يدين بها ،عندها يكون المسلم ليس له من الاسلام إلاّ اسم أحمد ، والملحد هو أول من يحتقر الاسلام والمسلمين)) (١)

وقول زويمر هذا ونصيحته التى أسداها للمبشرين أصبحت الآن هى الخطة ذات الأثر الفعّال فى زحزحة المسلمين و زعزعة إيمانهم ، مما جعل طائفة منهم ممن وقعوا فريسة فى مخالب هذا السبع البشرى . فنادوا بعلمنة الدولة وعزل الدين عن الحياة أسوة بالكنيسة ، جهلاً منهم بمبادىء الاسلام ومناهجه فى الحياة والحكم والشئون السياسية والإدارية .

ومن هنا كان التبشير والاستشراق من العوامل

---

(١) الاسلام والثقافة العربية ، انور الجندى ص ٨٠ ، مطبعة الرسالة (بدون تاريخ) .

الحية ذات الأثر الفعّال فى تغلغل العلمانية فى المجتمعات الاسلامية .

وهما من العوامل الأساسية فى جلبها من الغرب إلى العالم الاسلامى ثمّ العمل على تثبيتها بعد ذلك بشتى الوسائل، ماذكرت منها وما لم أذكر ، وهم لا يزالون يواصلون عليهم هذا ولكن أملنا كبير فى بوادر الصحوة الاسلامية التى يُرجى منها الخير الكثير إذا ما وجدت الرعاية والعناية من قبل الحكومات الاسلامية، ولا سيما الذين يملكون المادة منهم، كدول البترول فيقع عليهم العبء الأكبر فى تزويد الدعاة بما يساعدهم على نشر الدعوة الاسلامية فى شتى أنحاء العالم الاسلامى . . .

ونرى تباشير هذا العمل الجليل لدى دار الإفتاء والندوة الاسلامية والدعوة والإرشاد بالسعودية وكذلك جمعية الإصلاح بالكويت ، وقد كان قبل ذلك الأثر الحميد لمبعوثى الأزهر وبالأخص البلاد الإفريقية . . .

وعلى كل حال فإن المرء يتفاءل خيرًا بهذه النهضة الاسلامية التى أسأل الله أن يهيىء لها سبل النجاح . . .

كما أنّه يلزم الجامعات الاسلامية أن تعد الدعاة إعدادًا جيّدًا يتناسب والدعوة ، والعمل على إنشاء مراكز لتدريبهم وإنشاء كليّات متخصصة فى الدعوة الاسلامية مع تزويدهم بالقدر الكافى من اللغات ((الحيّة)) كالانجليزية والفرنسية والألمانية والسواحلية، لشيوع هذه اللغات فى أكثر بلدان العالم . . .

الباب الرابـــع :

دور الابتعاث إلى الدول غير الاسلامية فى انتشار العلمانية فى المجتمعات الاســـلاميـــــــــــــة

توطئة : ظهرت الحاجة إلى إرسال أبناء المسلمين إلى الدول غير الاسلامية ليتلقوا العلم فى جامعاتها ومعاهدها ، عندما شعـــر المسلمون بالضّعف الذى ألمّ بهم ، والوهن الذى أصابهم فـــى العصور المتأخرة وذلك عندما بدأت عوامل القوّة والمنعـــــة فى الاسلام تؤتى عندهم بسبب قعود المسلمين عن الأخذ بأسبابها

ففى تلك العصور أصاب المسلمين من الركود والاضمحـــلال ما أصابهم وكثرت بينهم الخلافات والنزاعات التى استغلهـــا العدو أخيرًا ... ، وفى تلك الحقبة تخلى المسلمون عن الأسباب التى كان يتمسك بها أسلافهم عندما كانت الحضارة الاســـلامية فى أوج عظمتها وعنفوان شبابها ، وقتئذٍ كانت العلوم والمعـــارف الانسانية والكونية بكل أنواعها مزدهرة .

والمعاهد الاسلامية مكتظة بطلاب العلم،ونجد كتبًا تترجم وأخرى تؤلّف فى كل فن من الفنون ... حينها كان كتاب العـــلم لا يفارق سيف الجهاد وفرس الجهاد إلى جواره سجادة الصلاة حينذاك كان العالم الاسلامى قبلة الأنظار ومنارة الكون التى تبدّد من حولها ظلمات الجهالة ... ولكن المسلمين تراخوا عـــن ذلك كله حتى طال عليهم الأمـــــــــــــــــد ...

وفى الوقت الذى آل فيه أمر المسلمين إلى ما آل إليه من انحدار نحو التخلّف . . . كان أعداؤهم يتقدّمون من حيث تأخر المسلمون ،ولم ينهضوا بالعلم الذى أخذه عنهم الأوربيون فنهضوا به من حيث تركه أهله ، ومن ثمّ قلبوا للمسلمين ظهر المِجَن . . .

ومن هنا شعر المسلمون بأنهم فى حاجة إلى أن يتقدّموا مثل هؤلاء ،ظانّين أن ذلك لا يمكن أن يتأتى لهم إلّا بعد الهجرة إليه فى داره . . .

ومن هذا الشعور جاءت عملية الابتعاث التى جَنَت على المسلمين ما جَنَت .

وهذا الابتعاث كانت له سلبيّات وإيجابيّات وإن فاقت الأولى الأخيرة ، حيث انعكست آثار ذلك فيما بعد .

: آثار الابتعاث :

إنّ المبتعثين يهبطون فى بلاد غير بلادهم وأناس لم يألفوهم ولم يعرفوا عاداتهم ولا سلوكهم ومع ذلك فهم يأتون وفى أذهانهم أن هؤلاء هم القدوة التى ينبغى أن يأخذوا عنهم كل الأسباب التى أدت بهم إلى التقدم والرقى .

ومن هنا ينشأ الإعجاب ، فيتأثّر الدارس بكل ما يرى .

من عادات وتقاليد ونظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وسائر المعاملات ، ويحاول أن ينقلها إلى مجتمعه ، ومن هنا ينشأ مكمن الخطر ، ولاسيما أن جُلّ المبتعثين كانوا وقتئذٍ إلى فرنسا وهى وليدة ثورتها التى خرجت بها من حيّز الدين إلى العلمانية المادية التى قامت على أنقاض نظم الكنيسة ، فأخذ هؤلاء المبتعثون هذا النوع من الحضارة المادية بكل مافيها من نظم اجتماعية وسياسية وتعليمية واقتصادية وأتوا به إلى بلادهم . وهذا مالاحظته ((ولفرد كانتون حين قال : ((إنّ من أهم أسباب حركة الحرب والإباحة التى تسود اليوم فى العالم الاسلامى ومن أكبر عواقبها نفوذ القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوربا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ما ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاّب الذين درسوا فى جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الاسلامى ، وقد حازت قصب السبق فى هذا المضمار تلك المعاهد الثانية التى قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربى الحديث)) (١) .

---

(١) من التبعية إلى الأصالة فى مجال التعليم والقانون واللغة ، أنور الجندى ص ٩٥ نشر دار الاعتصام ، بالقاهرة (١٩٧٦م) .

: : الفصـــل الأول : :

: : دور الرواد الأوائل من المبتعثين فى العلمنـــة : :

ويستحسن هنا عرض نماذج من أولئك المبتعثين مـــن الأفواج الأولى لنرى مدى الأثر الذى أحدثوه فيما بعـد . .

وأذكر هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر بعـض المبتعثين الذين كان لهم الأثر البارز فى المجتمع الاســـلامى بعد عودتهم من بعثاتهم ؛ إما كان ذلك الأثر بما كتبوه مـــن كتب وبحوث ، أو لنشاطهم الاجتماعى ومراكزهم التى تبوّوهـا . . .

كان من هؤلاء ، رفاعة رافع الطهطاوى الذى ابتعـــث إلى فرنسا حيث مكث هناك زهاء خمس سنوات (١٨٢٦- ١٨٣١) ومن هؤلاء كذلك ، خير الدين التونسى (١٨٥٢-١٨٥٦) وهـــو كذلك من المبتعثين إلى فرنسا ومكث أربع سنوات .

وقد ألّف كلا الرجلين كتبًا عكس فيها كل ما رأى وقـــرأ هناك ، و ((نستطيع أن نجد فيما كتبه كل منهما آراء مشـــتركة هى صدى لتفكير القرن الثامن عشر فى أوربا (وهو قرن أوربـــا العلمانية) وفى فرنسا الثائرة بوجه خاص ، وهى آراء تظهـــر للمرة الأولى فى المجتمع الاسلامى ، ربما رددها عن حسن قصـد دون أن يسبروا أغوارها البعيدة أو يتعمقا فى حقائقهـــا ولكنّهما على كلّ حال قد وضعا البذور الأولى التى تعهدهمـــا من جاء بعدهم بالسقى والرعاية حتى نمت وضربت جذورها فـــى الأرض . . .

وربما عرضت بعض هذه الآراء عرضًا سريعًا عاجـــلًا قد يبدو ضئيل الخطر . ولكن أهمية ذلك ترجع إلى أنهمـــا قد جلبا هذه البذور الغربية فى التربة الاســـلامية (١)

---

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية ، د . محمد محمد حســـين ص ١٨ ومابعدها .

: الفصل الأول :

. : دور الرواد الأوائل من المبتعثين فى العلمنة : .

ويشتمل على النقاط التالية :

١- العمل على جلب الأفكار الجديدة التى تخالف الشرع الاسلامى .

٢- العمل على إنشاء تنظيمات ،سياسية على النمط الأوربى .

٣- الدعوة إلى أخذ القوانين الأوربية الفرنسية

٤- الدعوة إلى كشف المرأة عن الحجاب وخروجها للعمل حاسرة .

ومدح الرقص الأوربى .

****

ومع مثل هؤلاء المتمثين تدخل التعابير الغريبة على المجتمع الاسلامى والمصطلحات التى تنم عن معنى معين له دلالته الخاصة ،فمثلاً كلمات: ((الحرية)) و ((والثورية)) و ((الوطنية ...)) وغيرها من هذا القبيل ، من الكلمات ذات الدلالة الضيقة التى لم تكن متداولة بين المسلمين ـ آنذاك ـ الذين يعرفون أن كلّ بلاد الاسلام وطن للمسلم ولا يعرفون الحرية بمفهوم الثورة الفرنسية العلمانية ، حيث أنّ الفرد فيها يفعل ما يشاء ،لا دين يقيّده بالوجهة السليمة ولا ضوابط تهجره عن غيّه ، المسلم يعرف : ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

ومن الآراء التى نادى بها الطهطاوى :

أن الوطن للجميع ـ والكل متساوون فى الحقوق ... وجاء بالأخوّة الوطنية أو الأخوّة فى الوطن بالمفهوم القومى الأوربى الذى يقوم على الانحياز لرقعة محدودة من الأرض ... جاء بذلك بدلاً من الأخوّة الاسلامية.. وجاء بالرابطة الوطنيّة ،بذلك المفهوم المتقدم ،بدلاً من الرابطة الاسلامية ... فعنده أن جميع ما يجب على المسلم للمسلم ، يجب على أعضاء الوطن ، من حقوق بعضهم على بعض ، لما بينهم من الحقوق الوطنية ، فضلاً عن الحقوق الدينية ، فيجب أدبًا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه ...)) (١)

فهو يجعل الحقوق الوطنية شيئًا زائدًا على الحقوق الدينية ومنعزل عنها ، بيد أنّ الناس فى الاسلام متساوون فى كل حقوقهم كأسنان المشط ، وليس للوطن حقوق خارجة عن الحقوق الدينية.

والطهطاوى يبدى إعجابه الشديد بالقوانين الفرنسية التى استحدثتها الثورة الفرنسية،ومعلوم أنّ الثورة الفرنسية

(١) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، رفاعة بك رافع الطهطاوى ، ص ٦٦ ، مصر (١٢٨٦هـ) .

قامت على أساس علمانى مجرد عن أيّ مسحة دينية، فأيّ إشارة إلى أيّ قانون هناك فهو يعنى الإعجاب والإشادة بهذا النظام العلمانى ، بل ويقارن بينه ويشابه بين العدل فى الشريعة الاسلامية وبين الحرية التى جاء بها قانونهم العلمانى فيقول :

((ولقد كادت هذه القضيّة أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساويين . وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، . . وما يسمونه الحرية ويرغّبون فيه هو عين مايُطلق عليه عندنا العدل والإنصاف ؟ وذلك لأن معنى الحكم بالحريّة هو التساوى فى الأحكام والقوانين . . . فهذه البلاد حَرِيّة بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها * وفيها توالى الصفا والوفا . .))

وهذه الحريّة والمساواة زائدًا الإخاء هى شعارات الماسونية التى تخدع بها العالم والتى قامت عليها أيضًا الثورة الفرنسية (١) ومع أنّ الطهطاوى يعرف أنّ ((أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وإنما هى مأخوذة من قوانين أخرى غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكليّة للشرائع . . .

فهو مع هذا العلم يشيد بها ويمدح ما فيها من حرية ويقارنها بعدل الشريعة الاسلامية ، ومعلوم أنّ الشىء إذا أشيد به ومدح فهذا يعنى أنه شىء محبوب محمود .

ويشاركه فى الإعجاب بهذه الحرية والاشادة بها ،

---

(١) انظر ص ، ١٠٥ .

خير الدين التونسى ،ويجعل لها أقساماً ثلاثة هى :

((الحرية الشخصية ، وهى إطلاق تصرف الانسان فى ذاته وكسبه . . . ومساواته بأبناء جنسه لدى الحكم.

والحرية السياسية ، وهى حق الرعايا فى التدخل وابداء الرأى فى مصالح الدولة ، عن طريق المجالس النيابية.

وحرية الرأى ، التى يطلق عليها حرية الطبعة ، وهى متحققه على درجات متفاوته فى البلاد الأوربية . . .

فماذا يعنى ياترى كل هذا الثناء الذى يُصبّ على هذا النظام القائم على هدم الأديان ؟ وماذا يستفاد من هذه الحرية إذا كانت تقوم على هدم العقائد ؟ ثم ماذا يجنى منها العالم الاسلامى ؟ حتى تمدح له كل هذا المدح؟ ألا يعنى هذا ـ ولو بطريقة غير مباشرة ـ أنكم أيها المسلمون إن أردتم التقدم والرفاهية فى الحياة عليكم أن تأخذوا بهذه الأسباب التى أدت بهؤلاء القوم إلى سبيل هذه الحرية غير الدينية..

ثم يقوم حافزاً ودليلاً ،بل وثمرة من ثمار ما جناه الفرنسيون من هذه الحرية ويصفها بأنها ((دوحة)) فعنده ((من أهم ما اجتناه الأوربياويون من دوحة الحرية تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية . وتعاضد الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الحِرَف والصنائع . . وقد رأينا بالمشاهدة أن البلدان التى ارتفعت إلى درجات العمران هى التى تأسست فيها عروق الحرية)) (١)

---

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية صفحات ٢٦ ـ ٣٠ ومابعدها.

وكلمة الحرية هذه التى برزت إلى السطح فى ذلك الوقت كانت لها دلالة مصروفة ،وهى التحرر من قيود الدين والانعتاق التام منه وإطلاق جماح النفس كما تشاء فهى المدرسة أوالمذهب المعروف باسم ((الليبرالية)) ((LIBRALISM)) وكذلك من هذا القبيل مايسمونه : حرية الفكر أو الأحرار ((F R EE - THINKERS))

وبالجملة فإن كل هذه الشعارات التى من هذا النوع كانت سوقها رائجة فى تلك العصور وكلها - فى جملتها - ترمى إلى التحلّل من ربقة الأديان وإطلاق الشخص العنان لنفسه كما تهوى ... فترديدها والمناداة بها فى المجتمع الاسلامى على كل صورة غير محمود العواقب . كما أنّه ليس الفكر الاسلامى فى حاجة إلى مثل هذه الأفكار المستوردة ، فهى - على كل حال - ليست علمًا تجريبيًّا لا دخل له بالعقائد والأفكار والفلسفات . فلو كانت هذه المذاهب المجلوبة من قبيل العلوم التجريبية والصناعات لما كان هناك غبار على نقلها ، لأنّ العلم آلة صالحة جنس لها ولا لون ولا وطن بخلاف الأفكار والمذاهب والفلسفات والآداب والثقافات التى يتأثر بها الانسان والتى لكل بلد منها خصائصه التى ينفرد بها عن الآخرين ولا تناسب غيره ولا سيّما أمة مثل أمة الاسلام التى لها طابعها الاسلامى الخالص ونظامها الشامل .

((ولكن الخطير حقًا هو ماقرره الطهطاوى (١) حين ذهب إلى أنّ مدنيّة أوربا الحديثة التى تقوم على العقل

---

(١) انظر كتابه : المرشد الأمين للبنات والبنين ،ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

تحقق النتائج نفسها التى تهدى إليها مدنية الدين (لأنّ من زوال علم أصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة إليها ،وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم قلّ أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية ،التى عليها مدار المعاملات ،فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه ،يشبهه مايسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهو عبارة عن قواعد عقلية ، تحسينية وتقبيحية ، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . وما يتمسك به أهل الاسلام من محبة الدين والتوسع بحمايته ، مما يُفَضّلون به على سائر الأمم فى القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن)) (١)

فبهذه الموازنات وتلك المقارنات ـ الممزوجة بالمدح والثناء المخالط بالإعجاب ـ بين القوانين الوضعية الفرنسية والشريعة يعتبر الطهطاوى وخير الدين التونسى كل منهما قد مهّد الطريق إلى القوانين الوضعية التى ساقها العقل البشرى ، سواء كان ذلك عن قصد من الرجلين أم لم يكن ذلك مقصوداً :ولكنها كانت الشرارة الأولى للدعوة إلى العلمانية التى تقوم على فصل الدين عن السياسة ونبذ التشريع السماوى واستبداله بالتشريع العقلانى العلمانى .

والمتدبر للنص الآتى يرى كيف يمدح الطهطاوى ، القانون

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ص ٣٦ ـ ٣٧ .

الفرنسى الذى أشار إلى أنه من وضع العقل البشرى والذى وصفه بأنه ليس من الشرائع السماوية فى شىء ولكنه مع ذلك فهو عنده غاية فى العدل ،وكأنه يقول : بأن هذه القوانين العلمانية الوضعية ، هى التى تسعد البشرية ، وليست السعادة قاصرة على التشريع السماوى الإلهى فقط .. يقول فى ذلك (١)

((والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية (كذا) الآن ويتخذونه أساسًا لسياستهم ، هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى ((لويز الثامن عشر)) ولا زال متبعًا عندهم ومرضيًا لهم . وفيه أمور لا ينكرها ذوو العقول أنها من باب العدل ... وإن كان غالب مافيه ليس من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد (٢)

وإن سلمنا للطهطاوى بأن هذه القوانين فيها شىء من العدل ، ولكن طرحها بهذه الصورة وعلى مجتمع لم يعرف له قانونًا غير القانون الاسلامى السماوى . طرح هذه الفكرة فيه لفت نظر للناس بأن هناك قوانين غير التشريع السماوى يمكن أن يجلب للناس الخير متى ما أخذوا به .. وهذا ماحدث فى الأجيال التالية حيث نادت صراحة بمثل هذه الأفكار ...

ونفس هذه الفكرة يتفق معه فيها خير الدين التونسى ،حيث يدعو إلى قيام تنظيمات سياسية على النحو الغربى الفرنسى ،ليتسنى لنا التقدم الذى أحرزوه بعد الثورة الفرنسية التى جاءت بتلك المنظمات التى نادت بالحرية والعدل ،وأقامت قوانينها على أساسها.. فهو فى السطور التالية يدعو دعوة صريحة إلى تغيير النظم القائمة فى المجتمع الاسلامى والتى أساسها الشريعة الاسلامية ،فهو يتساءل (٢) بعد أن تعرض لأسباب تقدم الأمم الغربية الصناعى والعلم التقنى والحربى : ((هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار إليه بدون

---

(١) فى كتابه تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ص ١٤٠ ،نشر وزارة الثقافة المصرية (١٩٥٨م) .

(٢) انظر كتابه : أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ص ٩ الطبعة الأولى (١٢٨٤هـ)

تقدم المعارف وأسباب العمران المشاهد عند غيرنا ؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التى نشاهدها عند غيرنا من الناس ، على دعامتى العدل والحرية اللذين هما أصلان فى شريعتنا ، ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة فى جميع الممالك . . .

والتنظيمات السياسية التى يدعو لها عند غيرنا والتى ترغب فى إنشائها قطعا هى تنظيمات سياسية تأخذ بغير التشريع السماوى حيث أنها كانت وليدة الثورة الفرنسية العلمانية ، وهى تخالف أصل العدل الذى هو فى شريعتنا الذى أتى به للتمويه وذر الرماد فى العيون . . .

أما فى مجال المرأة والمسرح فقد أعجب الطهطاوى بنظام الفرنسيين فيهما إعجابا جعله يتمنى أن لو يحدث مثل ذلك فى البلاد الاسلامية ، وجعل المسرح مدرسة علم ونادى للثقافة والفكر ، ولا أعتقد أن المسرحيات التى تعرض على المسرح الفرنسى بعد الثورة الفرنسية ، تصلح أن يكون فيها شىء يلائم العالم الاسلامى من الناحية العلمية ، ويمكن أن يفيد منه من الناحية الثقافية الاسلامية . ولا يعنى هذا أننا ننبذ المسرح وغيره من أدوات ((التكنولوجية)) الحديثة ، ولكن أن تُمدح وهى عند الغربيين ويشاد بها فى وقت لم يعرف المسلمون تلك المستحدثات ، وهذا ما آل إليه أمرها الآن حيث انحرفت بالمجتمع الاسلامى إلى وجهة تخالف الاسلام .

وهكذا يجمل الحديث عن المسرح والملاهى بقوله .

((وبالجملة فالتياترو (١) عندهم كالمدرسة العامة ، يتعلم فيها العالم والجاهل (٢)

وقد حاول الشيخ الطهطاوى أن يدافع عن الاختلاط والسفور

---

(١) التياتروا : هو المسرح أو هو مكان عام للملاهى .

(٢) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، ص ١٦٦ .

وأن المرأة السافرة التى تختلط بالرجال وتراقصهم تكون مع ذلك كله عفيفة ، وأن عدم العفّة والشرف والنزاهة مردة إلى التربية ((وأنّ نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبّة بين الزوجين)) (١)

ومعنى هذا ـ عنده ـ أن المرأة إذا كانت عفيفة وهى تضمن ذلك فليس بلازم لها أن تتحجّب وأن تعتزل الرجال !! وهذه لعمرى الإباحية بعينها ، وكل هذه الأمور لا يقرها الاسلام ، فالحجاب واعتزال المرأة مجتمع الرجال .. هو أصل فى الشريعة الاسلامية وواجب على المرأة سواء كانت شريفة أو وضعية .

أما الرقص فيجعله فنّاً من الفنون ونوعاً من الرياضة، ولو كان بين رجل وامرأة ، وهو عند الغربيين لا يكون إلاّ كذلك ، ويعلل إباحة الرقص : بأنه عند الغربيين لا يثير الشهوة فيهم وكأنّهم رُكّبت لهم طبائع بشرية خاصة بهم تخالف طبائع البشر الآخرين وإلاّ ، فالغريزة الجنسية عند البشر لا تباين كثير فيها إلاّ ما شذ ، والشاذ لا حكم له ، ومن النادر أن تشذ أمة بكاملها . ولذى فـ((إنّ الرقص عندهم فن من الفنون ... فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض ، فليس كل قوى يعرف المصارعة .. وماكل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء . وظهر أنّ الرقص والمصارعة مرجعهما شىء واحد يعرف بالتأمل . ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكأنّه نوع من المياقة والشلبنة) (٢) .. بخلاف الرقص فى

---

(١) المرجع السابق ص١٦٦ .

(٢) المياقة والشلبنة ، كلمتان عاميتان تعنيان ، الأناقة والفتوة .

أرض مصر ، فإنّه من خصوصيات النساء لأنّه لتهييج الشهوات، أما فى باريس فإنّه نمط مخصوص لا يُشمّ منه رائحة العنبر أبدًا وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزم أخرى للرقصة الثانية ، وهكذا سواء كان يعرفها أم لا)) (١)

وهذا هو الرقص الأوربى الذى يزعم أنه لا يشم منه رائحة العنبر !! ولا أدرى ماذا بقى للعنبر فى عرف الشيخ الطهطاوى بعد كل هذا حيث صارت المرأة لعبة فى يد كل رجل يتركها هذا ويأخذها آخر . . .

وإذا نظرنا إلى أوربا الآن ، التى يزعم أنها ليست بداعرة، هل هذا حقًا؟ الحق أن لا ، فأوربا اليوم ،ولا سيما فرنسا أصبحت - نتيجة - لما ذكره الطهطاوى وجعله عِفّة وطهرًا ،غدت الأخلاق فيها شيئًا لا يؤبه له ،وأصبحت المرأة من سقط المتاع ، وتفككت الروابط الأسرية ،فالبنت لا تعرف أمها والولد لا يعطى نظرة احترام لأبيه ،والوالد إذا كبرت سنه لا يجد ابنًا يأويه ،وإنما مكانه ملاجئ العجزة ، هذه الأخلاق التى تمدح لنا ويُطبّل لها . .

ولنقفز الآن بالقارئ قفزة تقارب القرن من الزمان لنرى ملامحا انعكس من آثار ذلك الرقص الباريسى الذى وصفه الطهطاوى وصفًا مشوّقًا ، وأنّ أهله لهم ما لهم من العفاف والكرامة لنقرأ ماكتبه ، محمد توفيق دياب عن هذا الرقص ، وكان الأحرى بالطهطاوى أن يصفه بما وصفه

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٤ ومابعدها .

به دياب ، من أنّه ((يزعم فريق من الناس أنهم ملائكة مطهـرون ، ويخاصر أحدهم المرأة الناعمة الحسناء بيسراه ، وأصابع يمنـاه تضغط أنامل يسراها ، وصدره على نهدها ، وعيناه تناجيـان عينيها ، وشذى عطرها يسكره ، وبخار لهيبه يحرقها ، والسـاق تلتلف بالساق حيناً وتجاوزها حيناً آخر والقدّان يميسـان ذات اليمين ويموجان ذات الشمال ،كل ذلك ودقّات (الجازباند) هائجة تثير أكمن الغرائز وتفور بها كما يفور التنور ، والأضـواء تسطع تارة لتبهر الأبصار. وتضؤل تارة لتوحي إلى المتخاصرين أشجان الظلام ، وصـاحبنا لحم ودم وصاحبتنا لحم ودم يزعـم هو وتزعم هي أنهما يفعلان ما يفعلان طلبا للرياضة البدنيـة الطاهرة ، وتنشيطا للدورة الدموية الراكدة ، كما يمشي الجندّي على أنغام الموسيقى ، وكما يلاعب الرجل صاحبه كرة القدم)) (١)

ذلك هو نتاج الجيل الأول من المبتعثين ، وتلك هـي ثمار البذور التي بذروها ، أشياء جاءت طارئة على المجتمـع الاسلامي ، طرو الحميات الوافدة ، كما قال دياب ،ولولا تماسـك الاسلام وصلابـة عوده ، لتزعزع الإيمان في قلوب المسلمين وذهـبت ريحـه ولكنّ الله بـالغ أمـره .

وعود على الطهطاوي وخير الدين ، فيما دعيا إليه وأثبتاه في كتاباتهما عن المجتمع الاسلامي وكيفية النهوض به ،يـرى الطهطاوي أنّه لكي نلحـق بركب الحضارة الغربية لابد مـن

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جـ ٢ ص ١٩٧ .

مشاركة المرأة فى ميدان العمل وفك السياج المضروب حولها ، بل هو يرى أنها يمكن أن تمارس كلّ نشاطاتها حتى الأعمال التى يختص بها الرجل يمكن أن تزاولها إذا قدرت عليها ، ولذا ((يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجل على قدر قوتها وطاقتها)) (١)

ويعلّل عمل المرأة ويبرّره بأن ذلك يشغلها عن البطالة ويزيح عنها الخمول والكسل !! . وكأنه يرى أن عمل المرأة فى تنظيم بيتها وإعداده وتربية أطفالها ، ليس فيه من الكفاية ما يملأ لها فراغها حتى تملأوه بأعمال الرجال . . يقول معللاً عمل المرأة :

((وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإنّ فراغ ايديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل . فالعمل يصون المرأة عمّا لا يليق ، ويقربها من الفضيلة)) (٢)

والإعجاب ببهرج المدنية الغربية هو الذى يجعل المبتعث شديد التوقان إليها ويود أن لو تجد طريقها إلى مجتمعه ؟ ولهذا تراه يحاول تبرير كل مظاهرها بما يلائم الطبائع الاسلامية ويطوّع بعض النصوص التى تساعده على ذلك إن استطاع إليها سبيلاً .

والنموذج الأخير لهذه الحقبة المبكّرة من المبتعثين من البلاد الاسلامية إلى الغرب ، هو أحمد خان

---

(١) و (٢) تخليص الإبريز ص ١٦٩ وما يليها .

من الهند (١) وهو نموذج من المتعلمين كان يعارض إنشاء دراسات علمية تجريبية فى الجامعة التى أنشأها فى الهند ، لحبه الشديد للثقافة الغربية ،وقد قضى حقبة فى بلاد الانجليز ، كما يقول الأستاذ الندوى (٢) هو ((أول مسلم هندى سافر إلى الجزائر البريطانية فى هذا العهد المبكر، وقد عاد وهو من أشد الناس حماسة للدعوة للأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها . وقال من مقال نشره فى (مجلة عليكرة) (٣) :

((إنّ الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست فى حاجة إلى تعليم الصنائع ، وأن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى . . .

وقد عارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية والدراسات الأدبية (٤)

وهذا الذى يصرّ عليه أحمد خان من الأخذ بالآداب الانجليزية وترك العلوم الصناعية ، هو ما حاول أن يغرسه المستشرقون الذين درس على أيديهم الطلاّب المسلمون فى الجامعات الغربية ،وهو قولهم:إنّ بلادهم تحتاج أكثر ما تحتاج للعلوم الثقافية أكثر من حاجتها للعلوم الصناعية والعلوم التجريبية؛ لأنهم يعرفون مدى تأثير الثقافة فى المجتمعات ، ولهذا قصدوا . أمّا العلوم والصناعات فلا أثر لها ،كما ذكرت

---

(١) ولد أحمد خان سنة(١٢٣٢هـ - ١٨١٧م) وتوفى سنة(١٣١٥ - ١٨٩٨م) .

(٢) فى كتابه موقف العالم الاسلامى ص ٤١ .

(٣) بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٨٦٨م.

(٤) انظر الابتعاث ومخاطرة ، محمد الصباغ ،ص ٤٢ - ٤٣ المكتب الاسلامى بيروت ،دمشق الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

وهـــذا أخطر مافى الابتعاث ، وهو أن يدرس الطالـــــب العلوم النظـرية ويترك العلوم التجـريبية والصناعيـة التى يفيـد منها بـــلده ، فمع هذه العلوم ، النظرية ، تفد الأفكـــــار والمذاهب الهدامة مثل العلمانية وغيرها من العادات والتقاليد غير الاسلامية ، وهذا ما حدث بالفعل ، مما غيّر كثـــيراً من المفاهيم الاسـلامية لـــدى المســـــــلمين .

الفصل الثاني :

نماذج أخرى من المبتعثين :
ودورهم في العلمنة :

ويشتمل على النقاط التالية :

١- الدعوة إلى عزل الدين عن السياسة.

٢- الدعوى بأنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يكوّن دولة.

٣- الدعوة إلى السير في ركاب أوربا في كل شيء خيرها وشرها ، قبيحها وحسنها .....

٤- الاعجاب بالمستشرقين ومنهجهم في تفسير القرآن.

الفصل الثانى : .

: نماذج أخرى من المبتعثين ودورهم فى العلمنـــــــــــــــة :

وتجلت آثار الابتعاث وأثرها العلمانى فى الأجيال المتأخرة مثل الشيخ علـى عبد الرازق وطه حسين وغيرهم . فى دعوتهـــم الواضحة الصريحة للأخذ بالحضارة الغربية والسير فى ركابهـــا والدعوة البواح إلى إقامة الدولة ونظمها على أساس علمانـــى بمعزل عن الدين . بل حاول على عبد الرازق - فى كتابه الاسلام وأصول الحكم - أن يجعل من الاسلام دينًا يختص بالعبادة فقـط ولا شأن له بأمور الدولة وسياسة المجتمع ، وأن النبىّ صلى اللـه عليه وسلم ، إنّما أسّس مجتمع عبادة فقط ولم يؤسّـس دولـــة تعنى بشئون السياسة وإدارة الدولة، على حد زعمه .

كما انه ((أنكر أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظـائف الحكم ومراكز الدولة جميعًا من الدين فى شىء ووصفها بأنها : خطط دنيوية صِرفة ، لا شأن للدين بها . فهو - أى الديـن - لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها . وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة)) (١)

وهذا الذى دعا إليه على عبد الرازق من جعل أمور الدنيا بمعزل عن الدين هو الاتجاه العلمانى الغربى الذى عزل الدين عن السياسة بسبب الصراع الذى كان يدور بين الكنيسة ورجـال العلم والذى انتهى بقيام الثورة الفرنسة،وهو يذهب إلى أبعـد مـــــــــــــــن ذلـــــــــــــــك

---

(١) الاسلام وأصول الحكم ، على عبد الرازق ، ص ١٨٢ ، نشـر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الأولـى (١٩٧٢م) دراسة وثائق بقلم محمد على عمارة .

ومن أخبث طرقهم التي عمدوا إليها، أن يقطعوا الشجرة بأحد فروعها ؛ ذلك بتربية بعض أبناء المسلمين على هذا النهج ولا سيما، إن كان أولئك من الذين سبقت لهم دراسات في أحد المعاهد الاسلامية من أمثال علي عبدالرازق وطه حسين وأضرابهم من الذين ينتسبون إلى الاسلام .

وكما ذكرت ، فإنّ علي عبدالرازق يجنح دائماً للاسئلة التي توجه للقارىء وهي دائماً أسئلة ارتيابية حيث أنّه ((إذا ترجح عند بعض الناظرين اعتبار تلك الأمثلة ، واطمأنّ إلى الحكم بأنّه ،صلى الله عليه وسلم ، كان رسولاً وملكاً ، فسوف يعترضه حينئذ بحث آخر جدير بالتقدير ،فهل كان تأسيسه،صلى الله عليه وسلم،للمملكة الاسلامية ، وتصرفه في ذلك الجانب شيئاً خارجاً عن حدود رسالته،صلى الله عليه وسلم ، أم كان جزءاً مما بعثه الله له وأوصى به إليه ؟ (١)

وهو كثيراً ما يضرب على هذا الوتر الحسّاس ويركّز عليه تركيزاً شديداً ،وهو جانب الحكم والسياسة،ويحاول جاهداً أن يفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، أو جانب الدين وجانب شئون الدولة،محاولاً جعل الدولة علمانية لادينية فيما يختص بشئون الحياة الدنيا ، أمّا جانب العبادات وما يتعلق بها هي التي كان يأمر بها الرسول،صلى الله عليه وسلم،ويحث عليها .

ويقسم الولاية إلى : ولاية ملك ،وولاية روحية ، حيث يرجّح

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٤٩ .

الأخيرة ، ولهذا يحذّر القارئ أن يخلط بين الولايتين والحكمين ، حكم الرسول فى فضّ المنازعات بحسب زعامته الدينية وحكمه كحاكم : ((ونعود ثانية فنحذّرك من أن تخلط بين الحكمين ، وأن يلتبس عليك أمر الولايتين ، ولاية الرسول من حيث هو رسول ، وولاية الملوك والامراء .

ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها إيمان القلب . وخضوعه خضوعًا صادقًا تامًا يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية ماديّة ، تعتمد على اخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال . تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض . تلك للدين وهذه للدنيا . تلك لله ، وهذه للناس . تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية ويا بعد ما بين السياسة والدين)) (١)

ويستمر فى أسئلته المروّجة لباطله ، والتى يحاول فيها جاهدا هدم بنيان الدولة الاسلامية وتقويض أركانها ، لأنه إذا استطاع أن ينفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه أسس دولة كاملة النظام ، فإنّه يسهل عليه بعد ذلك أن يزعم أنّه لم تكن ثمّة دولة فى الاسلام ، وبطبيعة الحال ، هذا ما يريده أعداء الاسلام ، وهو جعل الاسلام نظام عبادة فقط كما فعلوا بكنيستهم ، فيردف قائلاً : ((هل كان لهصلى الله عليه وسلم ،صفة غير صفة الرسالة

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ .

بها يقال أنّه أسس فعلاً أو شرع فى تأسيس وحدة سياسية أم لا ؟ و ((هل كانت زعامة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قومه زعامة رسالة أم زعامة ملك ؟ وهل كانت مظاهر الولاية التى تراها أحيانًا فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، مظاهر دولة سياسية أم مظاهر رياسة دينية ؟ وهل كانت الوحدة التى قام على رأسها النبى عليه الصلاة والسلام وحدة حكومة ودولة ، أم وحدة دينية صِرفة لا سياسية ؟ وأخيرًا هل كان صلى الله عليه وسلم ، رسولاً فقط . أم كان ملكًا ورسولاً ؟ (١)

ويطمئن القارئ من ذلك الغيم من الشكوك والرّيب الذى أدخله فى روعه بأسئلته السابقة نافيًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون قد قام بتأسيس دولة بقوله :

((لعلك الآن اهتديت إلى ما كنت تسأل عنه قبلاً ، من خلوّ العصر النبوى من مظاهر الحكم وأغراض الدولة ، وعرفت كيف لم يكن هناك ترتيب حكومى ، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان الخ . ولعل ظلام تلك الحيرة التى صادفتك قد استحال نورًا . وصارت النار عليك بردًا وسلامًا)) (٢)

وأخيرا يخلص إلى ما يصبو إليه من أنّه ((لا شئ فى الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى ، فى علوم الاجتماع والسياسة كلّها ، وأن يهدموا ذلك

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٢) " " " " ١٦٧ .

النظام العتيق الذى ذلّوا له واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم ، ونظام حكومتهم ، على أحدث ما انتجت العقول البشرية، وأمتن ما دلت عليه تجارب الأمم على أنّه خير أصول الحكم)) (١) ويرموا بنظام الشريعة الاسلامية البالى العتيق إفما انتجته العقول البشرية ودلت عليه تجارب الأمم هو أصلح نظام فى الحكم للانسانية من أن تكون الحاكمية لله ، فالله - على حد زعمه - له العبادة فقط لا ولعقولنا البشرية تنظيم الحياة وشئون المجتمع . . !؟

وأنا هنا لم أتعرض إليه بالردّ المباشر، ولكن آثرت بدلاً من ذلك أن أكتب عن مفهوم الدين والدولة فى الاسلام ؛ وإن كانت خلاصة موجزة ولكنّه المنهج الذى سرت عليه ، وهو بدلاً من أن نكون فى موقف المدافعين عن الاسلام، نبسط الحديث عنه مباشرة ونبين محاسنه ونترك عملية الردود السلبية ؛

ونَفْىُ أعداء الاسلام المزج بين الوحدة الدينية والوحدة السياسية يخدم لهم أغراضهم التى يريدون بها حصر الاسلام فى العبادات والمعتقدات دون أوجه الحياة الأخرى ، ومن هنا يسهل عليهم أن يبعدوا حكم الاسلام ويحلوا محله قوانينهم الوضعية . ولهذا أول شىء يحاولون قذفه فى أذهان الطلاّب المبتعثين هو هدم قاعدة الحكم وإبعاده عن الدين - من أنّ الدين يجب أن لا يزجّ به فى الشئون السياسية ، وإنما ذلك

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ .

وقفاً على أحكام البشر وتدبير العقل الانسانى ،كما قال عـــلى عبد الرازق .

ذلك ما كان بشأن على عبد الرازق ، والذى ـ كما قلت ـ ركّز على شئون الحكم .

أما رصيفه ، طَه حسين فقد آل على نفسه أن يجعـــل من الحضارة الغربية ـ بكل ما فيها ، خيرها وشرها ، حلوهـــا ومرّها ـ سرابيل تقيه الاسلام ، وسرابيل تقيه العرب وما يتصـــل بهم من الثقافة الاسلامية ، فولّى وجهه شطر أوربا عامة وفرنســا خاصة ، حيث عمل بكل ما أوتى من قوّة على أن يمكّن للحضـارة الغربية فى نفوس المسلمين . فكان يكتب فى الصحف ويعمـــل فى الأحزاب ، كما استغل عمله فى كلية الآداب ، ثم فى جامعـة الاسكندرية فوزارة المعارف ، بل وجُلّ كتاباته ، الأدبية منهـــا والفكرية ، جنّدها للدعوة إلى الأخذ بالثقافة الغربية ، فكـــان يقول من غير استحياء فى وجوب الأخذ بالثقافة الأوربيـــة وكيف أنّ ((السبيل إلى ذلك ليست فى الكلام يرسل إرسـالاً ، ولا فى المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفّقة ، وإنما هى ـ يعنـــى الطريق ـ واضحة بيّنه مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء . وهـــى واحدة فذّة ليس لها تعدد وهى : أن نسير سيرة الأوربيـــن ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فـــى الحضـارة ،خـيرها ، وشرّها ،حلوها ومرّها ،وما يحب منهـــا

وما يكره ومايحمد منها وما يعاب، ومن زعم لمنا غير ذلك فهـــو خادع أو مخدوع ...)) (١)

وإعجابه بفرنسا أشد وأعتى ،يصل إلى درجة التقديـــس، والحب المفرط الذى يغطى على صاحبه الحاسة التى يميز بهـــا الحسن من القبيح ، والمحمود من المزموم ، ولهذا يقول : ((كـل شيء فى فرنسا يعجبنى ويرضينى : خير فرنسا وشرها ، حلو فرنسا ومرّها ، نعيم فرنسا وبؤسها كل ذلك يروقنى ويلذنى وتطمئـــن إليه نفسى اطمئناناً غريباً ، إنّى لأحسّ أن نَفْسِى تسبق القطـــار إلى باريس على سرعة القطار))

وهو يبدى إعجابه الشديد بالمستشرقين والغربيين عامـــة الذين أخذ كل ثقافته عنهم ـ إلاّ ما سبق له من دراسة فـــى الأزهر الذى سخر منه مؤخراً ـ حتى التفسير يزعم أنه ما تعلمه إلاّ على أيديهم ؛ وذلك عندما كان يدرس فى فرنسا أثنا الحـرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٩م) فقد تشبّع هناك بالـــروح الاستشراقية بكلّ ما فيها من حقد على الاسلام والمسلمين ،وهـو يفخر بل ، ويؤكّد أنّه لم يعرف التفسير على حقيقته إلاّ على يـــد المستشرق الحاقد على الاسلام ((كازانوفا)) فقد أشاد طـــه حسين بمنهجه فى التفسير وقال : ((إنّه هو المنهج الحـــق والصواب . يقول فيه :

((عرفته أستاذاً فى الكوليج دى فرانس ، ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجاباً لم أعرف له حـدّاً ، كان يفســـر

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ،طه حسين ، الفقرة التاسعـــة ص ٥٤ . طبع دار الكتاب اللبنانى بيروت ،الطبعة الأولى (١٩٧٣م) .

القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكنّي لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا في إصابة وتوفيق ، لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه ، فلم أكد أجلس إلى ((كازانوفا)) حتى تغيّر رأيي ، أو قل حتى ذهب رأيي كله ، وماهي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أنّ الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله ، فتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالمًا حازقًا ، ولا لأنّ منهجه في البحث كان متقنًا دقيقًا ، بل لهذا ولشيء آخر خير من هذا ، كان حرًا خصبًا رفيعًا لا يتعصب لرأي ولا يتأثر بهذه العواطف المنكرة التي تفسد على الناس علمهم وأدبهم وفنّهم وحياتهم العقلية والشعورية بوجه عام ، كان «كازانوفا» مسيحيًا شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حدّ التعصب ، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس في ((الكوليج دي فرانس ، نسي من المسيحية واليهودية والاسلام كل شيء ، إلاّ أن لها نصوصًا يجب أن تخضع للبحث اللغوي ، كما تخضع المادة الصمّاء يتناولونها في معاملهم بما يشاؤون من ألوان البحث والامتحان.. نعم لم يكن مسيحيًا ولا يهوديًا ولا متدينًا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه ويكشف عن معناه))[1]

---

(١) طه حسين، حياته وفكره في ميزان الاسلام، أنور الجندي ص ٣٦ ، ٣٧ نشر دار الاعتصام، الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) عن صحيفة السياسة اليومية (٢٧ مارس ١٩٢٦) مصر .

ذلكم هو طه حسين عميد الفكر الاستشراقى وحامى حمى الثقافة الأوربية المنحلة ، يصور ولهه الشديد بأساتذته وحبه لهم ، هذا الحب الذى خالط عليه شغاف قلبه ، وملأ عليه فكره ، فهو فى الوقت الذى يجعل من المستشرقين أنهم أصابوا المِحَزّ فى التوفيق فى تفسير القرآن والكشف عن أسراره وخباياه ، يزعم أن المسلمين جعلوا ذلك حِكرًا عليهم !!

وطه حسين قد جانبه الصواب واقترب منه الخطأ فى اتهامه علماء المسلمين بأنهم جعلوا تأويل القرآن وقفًا عليهم... فلم يرد عن أحد من المسلمين أنه حَجَرَ على أى عالِم أن يفسّر القرآن ، ولكنّها فتنة طه حسين بالمستشرقين كما قال : فتنت بهم . هذا الإعجاب الذى يصل إلى درجة الافتتان لا يمكن أن يرجى من صاحبه أن يزن المفتون به بالميزان العلمى الذى يدعيه هو عند المستشرقين ، وليس بعد هذا الافتتان حياد علمى ولا منهج علمى .

وكيف ينسى ((كازانوفا)) النصرانى المتعصب الشديد التعصب لنصرانيته عندما يدرس القرآن ؟ وهل العواطف والشعور الدينى تُنسخ بهذه السهولة عن صاحبها بمجرد أن يدخل ((حصن)) البحث العلمى ؟ وإذا كان طه حسين حادبًا وغيورًا على الاسلام ، كيف جاز له أن يجعل منه مجرد ((مادة صماء)) تُخضع لميزان كازانوفا ؟ وإذا كان طه حسين يؤمن بأنّ هذا القرآن منزّل من عند الله فكيف يجعله

يخضع لهذا الميزان البشرى ... والعقلية الانسانية المحدودة ؟ وهل من يجعل القرآن مجرد قطعة مادّيّة تُجرى عليها كل التجارب البشرية يكون له حظ من الإيمان ؟!

والآن لننظر إلى تفسير «كازانوفا» للقرآن الذى جعله طه حسين هو وحده الذى يكشف عن أسرار القرآن، وهو الذى جعله يصرف القرآن على وجهه الصحيح ، لنرى نظرة هذا الرجل للقرآن وكيف أنه جعله متناقضاً ، وأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، من بعده أدخلوا عليه إضافات كثيرة مستدلاً على ذلك بقوله تعالى : ((إنك ميّت وإنهم ميتون ...) الآية وكل دليله على هذه الإضافات زعمه أن محمداً ((لم يعين خليفة، لأنه لم يفكّر أنّه سيموت واعتقد أنّ انتهاء العالم قريب وأنّه سيكون فى حياته : يقول :

((إنى أوكد أنّ مذهب محمد الحقيقى إن لم يكن قد زُيّف فهو على الأقل سُترِرَ بأكثر العنايات وأن الأساليب البسيطة التى سأشرحها فيما بعد هى التى حملت أبابكر أولاً ثم عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما إلى النصّ المقدّس بالتغيير ، وهذا التغيير قد حدث بعبارة بلغت حداً جعل الحصول على القرآن الأصلى يشبه أن يكون مستحيلاً ..)) (١)

وآراء كازانوفا هذه هى آراء الفرق التى تنتمى للاسلام وهى على غير هداه ، كالبهائية والقاديانية والأثنى عشرية ....

أمثل هذا المستشرق الذى يجزم بأن أيدى أبى بكر وعثمان

---

(١) طه حسين، حياته وفكره فى ميزان الاسلام ، ص ٦١ .

امتدت إلى القرآن فغيّرت فيه وبدلت بشكل جعل الحصول على النص القرآنى مستحيلاً !! أمثل هذا يجوز لمسلم أن يأخذ عنه شيئًا يتعلق بتفسير القرآن أو حتى بالاسلام عامة ؟ فضلاً عن أن يمدحه ويثنى عليه الثناء المنقطع النظير، بل ويتتلمذ عليه ويقول إنه لم يعرف التفسير الحقيقى الصواب إلا منه؟ لعمرى إنّ هذا فى القياس بديع .

. : نتائج الابتعاث وآثارها : .

وبعد، تلك كانت نماذج تعد قطرة من بحر لُجّى قصدت بها أن أبيّن مدى الأثر الذى يحدثه الابتعاث إلى الدول غير الاسلامية والتى يدرس الطلاب فيها على أيدى رجال تخصصوا فى أساليب العداء للاسلام وتفننوا فى طرق الكيد له ، وآلوا على أنفسهم أن يستأصلوا شأفة الاسلام ويقطعوا دابر المسلمين .. ولكن الله من ورائهم محيط .

إن الطالب المسلم الذى يذهب إلى أوربا يجد أمامه كثيراً من الصعوبات التى تضيّق عليه الخناق بحيث تجعله يرضخ للضغوط الشديدة التى يحملها عليه أعداء الاسلام .

والطالب يذهب وهو غريب لا يعرف لغة القوم ولا يعرف عاداتهم ولم تكن له دراية كافية بكل أساليبهم فى الحياة وطبيعة معاملاتهم، مما يحمله على أن يتخذ له أخواناً يكونون عوناً له على ما يلاقيه من تلك الصعوبات، وهنا مربط الفرس، وغالبًا مايكون الصديق مختاراً وموجهًا

له من قبل جهات عليا تعنى بهذا الأمر ،وغالباً ما يختار لـــه العنصر النسائى أو ما يسمونه ، الزميلة أو الصديقـــــة ((GIRL .. FRIEND))

وإذا بدأ الإفساد الخلقى يسهل بعد ذلك عليهـــم طبعه كيفما شاؤا وتوجيهه نحو الوجهة التى يريدونها . وحـــتى إذا لم يستطيعوا أن يخرجوا الطالب من ربقة الاسلام نهائيـــاً فإنهم سيجعلونه ((متحرراً)) ينظر للاسلام كأى دين آخـــــر.

ويعود هؤلاء الشباب ،بعد أن يكونوا قد تشبعوا بالروح الغربية ، وهى فى غالبها روح لا دينية أو على الأقل متحللـــة من الدين ، فيتقلدون مناصب حساسة ومراكز مرموقة فى بلدانهـــم الاسلامية ، سواء كان ذلك فى مجال التعليم أو فى مجال القانون أو فى مجال الحكم والسياسة أو فى مجال الإعلام.. أو فى أى موقع كان من مواقع العمل .. فكيفما كان موقع هذا المبعوث فـــإنّ أثره يكون له مغزى فعال فى المجتمع .

ولما كانت النظم الغربية كلها قد فصلت بين الـــدين والسياسة منذ أمد طويل ولم يكن له أثر فى الشئون المذكـــورة أعلاه، فإنّ هذا الشباب المسلم الذى تثقف بتلك الثقافة ،ســـوف يحاول تطبيق ذلك النظام القائم على عزل الدين عن مجـــالات الحياة أو ما يسمى بالنظام العلمانى ،يحاول تطبيقه فى بـــلاده الاسلامية ..

والطالب غالباً ما يتأثر بأستاذه ،ويحاول تقليده ،بـــل ويعتز بآرائه لاسيما إن كان المبتعث ذا ثقافة إسلامية ضحلة ،ومعلوم أن هؤلاء المستشرقين يهدفون إلى إزالة الاسلام كما يقـــــول ((وليم جيفورد)) فى حنق شديد على الاسلام : ((متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العـــربى

يتدرج فى سبيل حضارتنا التى لم يمدها عنه إلا محمد (١) وكتابه)) (٢)

والابتعاث يعتبر من العوامل الأولى التى ساعدت على توصيل الفكر العلمانى إلى المجتمعات الاسلامية ونموه فيها ، وكان ذا أثر خطير للغاية ، وأشد مايكون هذا الخطر فى الابتعاث ذلك الذى يذهب ليتلقى العلوم الاسلامية والنظرية على أيدى المستشرقين ، كما رأينا من قبل ، فإنه لمن الحماقة أن يتعلم المسلم علومه الاسلامية من أناس شُحنت أنفسهم بالحقد على الاسلام . فلو كان الابتعاث يقتصر على العلوم التجريبية والصناعية فحسب لهان الخطب ولتضاءلت الخسارة نوعًا ما . . .

وحتى الطالب الذى يرون أنه سيبرز حقيقة اسلامية لا يرغبون فى إبرازها أو تكون داحضة لرأى لهم ، فإنهم لا يسمحون له بذلك ولا حتى أن ينال شهادة فى ذلك الموضوع بل يعملون على ترسيبه مهما كان الأمر .

يقول الدكتور مصطفى السباعى ، بعد الحديث على المستشرقين وتعصبهم ضد الاسلام : ((ولكنّى أكتفى بأن أذكر ما حدثنى به البروفسور ((أندرسن)) نفسه من أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراه فى التشريع الاسلامى من جامعة لندن ، لسبب واحد هو أنه قدّم أطروحته عن حقوق المرأة فى الاسلام . وقد

---

(١) صلى الله عليه وسلم .

(٢) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام محمد محمود الصواف ص ٢٩٢ . دار الثقافة للطباعة ، مكة المكرمة ، الطبعة الاولى (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م) .

برهن فيها على أن الاسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة ، فعجبت من ذلك وسألت هذا المستشرق : كيف أسقطه ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب ، وأنتم تدعون حرية الفكر فى جامعتكم؟ قال : لأنه كان يقول : الاسلام يمنح المرأة كذا ، والاسلام قرر كذا ، فهل هو ناطق رسمى باسم الاسلام ؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعى حتى يقول هذا الكلام ويتكلم باسم الاسلام؟ إنّ آراءه فى حقوق المرأة فى الاسلام لم ينص عليها فقهاء الاسلام الأقدمون فهذا الرجل رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الاسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة أو الشافعى)) (١)

وهكذا يفعل أعداء الاسلام بالطلاّب المبتعثين إن هم حاولوا أن ينصروا الاسلام فى قضية من القضايا، لن يُسمح لهم بذلك ، وإن هم نبغوا فى العلوم التجريبية لا يُمكّنون من ذلك ، وحتى لو استطاع طالب أن يفلت منهم بحيلة ما ويحصل على شهادة ممتازة فى علم من العلوم التجريبية فإنهم يغرونه بالبقاء فى بلدانهم ليستفيدوا هم من كفاءته عندهم ولكى يمنعوا هذا الطالب من أن ينتج شيئًا يفيد به بلده فى مجال التقدم العلمى ، ويزعمون له أنه إن ذهب إلى بلاده فلن يجد هناك مجالاً يعمل فيه؛ لأنّ شهادته ومجال تخصصه

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٥١٣.

لا يوجد إلّا فى بلدانهم المتقدمة ، وهذا مثال حاصل وواقعى حيث نجد كثيرًا من الطلّاب المسلمين الذين استطاعوا أن يُبرّزوا فى أحد المجالات العلمية واغروهم بالبقاء عندهم بعد نيلهم الشهادة .

وصفوه القول : إنّ الابتعاث كان له نصيب الأسد فى انتشار ونموّ العلمانية فى المجتمعات الاسلامية سواء كان ذلك بالطرق المباشرة أو بطرق غير مباشرة .

بيد أننا لا ننسى أن بعض المبتعثين وخاصة فى الأحقاب الأخيرة كانوا على وعى كبير بدينهم ، وحب شديد لإسلامهم وأمتهم ، ومعرفة واسعة بحيل وألاعيب الغربيّين ، مستشرقين ومبشرين ..

مما جعلهم يقضون مراحل ابتعاثهم فى تزوّد من العلوم المختلفة النافعة لدراساتهم المتنوعة . . . ليعودوا إلى وطنهم وأمتهم مدافعين عنها مهاجمين لأعدائها بعد أن رأوا بأعينهم ما رأوه وشاهدوا بأنفسهم ما شاهدوه ، فكانوا يكتبون ويؤلفون مدافعين عن الاسلام على هدى واقتناع بالأدلة والشواهد التى يستدلون بها من محيط القوم أنفسهم ومن تجاربهم هم فى هذا المحيط .

الباب الخامس :

: : مجالات إنتشار العلمانية : :

وفيه :

الفصل الأول : علمنة التعليم :-

ويشتمل على النقاط التالية :-

١- التعليم فى عهد الاستعمار .

٢- العمل على علمنة التعليم الابتدائى وانتشار المدارس الأجنبية .

٣- التعليم فى عهد الحكومات الوطنية يسير على نفس الوتيرة .

٤- محاولة عزل التعليم الاسلامى عن الحياة ومحاولة إلحاقة بالتعليم العلمانى فيما بعد بما أسموه ((بالتطوير))

تمهـــيد :

عُنى الاسلام منذ انبلاج فجرة الأول بالتعليم عنـــاية لم يُسبق إليها ، فكان مما نزل فى ذلك الحثّ على القراءة والتعلم. والقراءة والتعلم كل منهما بمعنى نفى الجهالة ، قال تعالى :

((إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق إقرأ وربـــك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم)) (١)

وأقسم الله ،تعالى، بأدوات الكتابة ، مثل النون التـــى من معانيها الدواة التى يوضع فيها المداد الذى يُكتـــب بـــه ، كما أقسم الله ،تعالى، بالقلم الذى تؤدى مهمة الخط وكتـــابة كل المعارف بواسطته . كما أقسم ،جل شأنه ، بالمسطور ،وهـــو الشئ المكتوب . . .

والله ،تعالى، عظيم لا يقسم إلّا بماله شأن ، ففى هـــذا القسم دلالة قاطعة على اهتمام الاسلام بالعلم والتعلم . . وهناك كثير من الآيات الدالة على هذا المعنى . . قال تعالى :

((نّ والقلم ومايسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون . .)) (٢)

كما جاءت الأحاديث النبوية الشريفة فائضة فى بيان العِـــلم والحث عليه وتمجيد العلماء وثواب الأجر للمتعلمين والمعلمـــين... مما سنفصّله فى الفصول القادمة حيث نفرد لذلك فصلاً خاصاً به.

---

(١) العلق آيـــات ١ ـــ ٥ .

(٢) القلم آيـــات ١ ـــ ٢ .

وقد وجّه المسلمون اهتمامهم للتعليم منذ فجر الدعوة الأول حتى أنّه فى نظام الحروب وفداء الأسرى دخل نظام التعليم لأبناء المسلمين مقابل فداء الأسير فقد ((كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصارى الكتابة)) (١)

ولذلك لما عَرف أعداء الاسلام عناية المسلمين وحبهم للعلم أتوهم من هذا الباب وألبسوا كثيرًا من المذاهب الهدامة ثوب العلم ، لذلك ترجموا كلمة ((SECULAR)) إلى ((علمانية)) بدلاً من ترجمتها إلى أصلها الحقيقى وهو ((غير دينى)) أو ضد الدين .

ومن هنا فقد وجه الاستعمار كل عنايته بالتعليم وبدأ يدسّ فيه سمومه وشجّع مدارس الإرساليات التبشيرية لنشر النصرانية أولاً بين أبناء المسلمين وإخراجهم عن دينهم ثانيًا بعد أن لم تنجح فكرة التنصير كل النجاح .

ولذلك سأحاول عرض خططهم لعلمنة التعليم، الذى هو عصب الحياة بالنسبة للمجتمع ، حيث كان المسلمون يعتنون به كل عناية فى جامعاتهم الأوائل فى قرطبة وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس . وفى القيروان وبغداد وصقلية والأزهر الشريف . . وغيرها من الجامعات الاسلامية التى كان التعليم فيها إسلاميًا خالصًا حتى ما يتعلق بالعلوم الطبيعية والكونية والانسانية تدرّس فى رحاب الاسلام لا يفصل بينهما وبين الفقه والتفسير والحديث كما فعل الاستعمار مؤخرًا حيث وضع الجامعات المدنية العلمانية والمدارس العلمانية إلى جوار الجامعات والمعاهد الاسلامية وسمى الأول «مدنيًا» لضرب الاسلام (٢)

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٢٨ ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الأولى (١٩٦٦م) .

(٢) انظر المبحث التالى ص ، ٢٥٠ .

الفصل الأول : * المبحث الأول *

عملنة التعليم:

. . : الخطوات التى اتخذت لعلمنة التعليم فى عهد الاستعمار : .

. . : العمل على إنشاء المدارس الأجنبية : .

كان التبشير والمبشرون الساعد الأيمن للاستعمار بمايدعونه من مسالمة وخدمة اجتماعية وعلمية ، فقد كانوا يعملون على تهدئة الخواطر وتخفيف وطأة الاستعمار ، ولذلك فقد وضعهم المستعمر نصب عينيه وحباهم بالرعاية وأحاطهم بالعناية المادية وحرسهم بما لديه من قوة .

ومن الجانب الآخر فقد رأوا أنه لاسبيل للعمل بين المسلمين أجدى وأنفع لخدمة مصالحهم وزعزعة إيمان المسلمين بدون التعليم ، ومن هنا فقد وجهوا كل عنايتهم نحوه وشرعوا ينشئون المدارس ويقيمون المعاهد لعلها تصل قلوب المسلمين بالمسيح ، أو على أقل تقدير أن تجعل عقيدتهم مهزوزة وأفكارهم ((مشوشة)) حتى لايقر للاسلام قرار فى نفوسهم ، وهذا ما عناه المبشر ((تكلى)) (١) بقوله : ((يجب أن نشجع إنشاء المدارس وأن نشجع على الأخص التعليم الغربى ،إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، إن الكتب الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمراً صعباً جداً)) (١)

ولا يكاد يوجد بلد إسلامى يخلو من المدارس الغربية ، التى تبث السموم فى العقيدة الاسلامية بقصد تشكيك التلاميذ فى دينهم ونبيهم ، وقد تطرقت إلى ذكر عدد منها فى الكلام على التبشير ولا طائل من وراء ذكر أعدادها هنا والبلدان التى

---

(١) فى كتابه ((ISLAM AND MISSIONS))
انظر التبشير والاستعمار ، ص ٨٨ .

توجد فيها فهى قد باتت معلومة معروفة لكثرتها على مختلف مراحل التعليم ابتداء من الابتدائية ،بل ورياض الأطفال إلى الجامعة.

علمنة التعليم الابتدائى :

وهذا هو القس (زوير) يستبشر ويعلن أن أعمال المبشرين ((والتعليم المدرسى والتربية الأخلاقية اللذين يعنى بهما المبشرون قد أسفرا عن نتائج جمة وأثمرا ثمرات نافعة فى الأطفال والمراهقين على السواء)) (١) فلابد من العمل وسط الصغار لأن الأثر المفسد للاسلام يبدأ مبكراً ،على حد زعمهم، فلابد إذا من الاهتمام بالاطفال.

ولهذا السبب فقد أكثروا من إنشاء المدارس الابتدائية لسهولة الدخول إلى قلوبهم وقلع الإيمان منها وإحلال الأفكار الضادة للدين كالعلمانية محلها. ولذلك نرى الاستعمار يكثر من إنشاء هذه المدارس العلمانية. وهذا المعنى أكده ((دكتور زويمر رئيس المبشرين فى البلاد العربية فى الثلاثينات ماهدت إليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعلن تصريحه الذى قال فيه :

((إن السياسة الاستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لاهى مسلمة ولاهى مسيحية ولايهودية ، ناشئة ((علمانية)) مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولاتصرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة (٢)

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص٩٧.

(٢) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الاسلام ، أنور الجندى ، ص٥٨. دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى (١٩٧٥م).

وكان الاستعمار يعمل مظلة لهذه المدارس تحت شعار التعليم المدنى الذى يساعد - فى زعمهم - على تنمية موارد البلاد الاسلامية وادارة شئونها بتخريج كوادر مدربة على النمط الغربى ، ولكى يساعد الإداريين المستعمرين فى الاتصال بالمواطنين وسهولة التخاطب معهم إذا هم درسوا اللغات الغربية ، وبالتالى تخريج أجيال مثقفة ثقافة غربية مما يساعدهم على الاستغراب ويحد من الحملات الموجهة ضدهم .

وهذا ما عناه ((جب)) من أن ((التعليم أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل للاستغراب . والحق أن العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب فى العالم الاسلامى إلا بمقدار دراسته للفكر الغربى والمبادىء والنظم الغربية . . . إن إدخال طرائق جديدة فى الفكر فى البلاد الاسلامية ، كان يتطلب نظاماً جديداً فى التربية من عهد الطفولة فى المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال إلى الدراسات العالية . . . . فقد انتشر فى منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس فى معظم البلاد الاسلامية ، ولا سيما تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية فقد كانت المدارس الانجليزية فى الامبراطورية

العثمانية أقل منها فى الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية . هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم ، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوربية التى جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربى فصاروا فى مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التى فعلت فيهم فعلها أيام الطفولة . . .

وفى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نُفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بأنماء التعليم العلمانى تحت إشراف الانجليز فى مصر والهند . (١)

وقد اهتم أعداء الاسلام بالتركيز على التعليم الغربى ، وكما هو معروف ، فإن الغرب لم يعد له حظ يذكر من الدين، فقد قطع الروابط ما بينه وبين الدين النصرانى منذ قيام الثورة الفرنسية العلمانية ، فلم تعد مناهج التعليم هناك تهتم بالتربية الدينية بل وحتى فى المدارس التبشيرية فإنها صارت مسخاً مشوهاً للتصور الدينى الذى خلط خلطا بالنظريات المشبوهة وزج زجاً فى الفلسفات المادية التى تحارب الأديان ؛ ولذلك فهم عندما يدعون المسلمين إلى التغريب فإنهم يعرفون أنه بعيد كل البعد عن الأديان وهو قادر - فى نظرهم كما زعم جب - على قطع جذور التدين من صدور الشباب . . . .

---

(١) المرجع السابق ص ، ٩٢ - ٩٣ .

ولذلك لا يضر أن تُنشىء حكومات الاستعمار المدارس العلمانية الغربية لأبناء المسلمين ما داموا ينفرون من المدارس التبشيرية من مجرد اسمها فالكل يؤدى المهمة المنشودة ، وهذا ما أكده المبشر ((باكر)) ووافقه عليه المبشر ((إكسفلد)) حين قال : ((إن الحكومات لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية مادام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية)) (١)

وهذه المدارس الغربية المنتشرة فى أرجاء العالم الاسلامى إلى يومنا هذا لا تلتزم الالتزام الكامل - كما قلت - بالمناهج التعليمية الوطنية ، اللهم إلا فى بعض الموضوعات ؛ولكنها مع ذلك تعتمد أساساً على كتب مشبوهة تصور للتلاميذ الاسلام بصورة منفّرة وتعرضه عرضاً ساخراً كله طعن وتشكيك ، ولا ريب أن القصد من وراء ذلك هو إخراج التلميذ المسلم عن حظيرة دينه ، وهو ما ترمى إليه العلمانية .

: كتب مشبوهة تدرس للتلاميذ :

ولأعرض نموذجاً مبسطاً لنوعية تلك الكتب التى تدرس فى تلك المدارس فى بلاد المسلمين ولأبنائهم .

واسم الكتاب ((تاريخ محاضرات إيزاك)) حررها ((أ . إليا)) للشرق الأدنى ، لطلبة الصف الخامس ،العصور الوسطى (٢)

وصاحب هذا الكتاب يجرى فى عرضه الطاعن فى الاسلام على أسلوب المستشرقين المعروف من أمثال ((جولد تسيهر)) اليهودى المجرى الذى شَنَّ حملة شعواء على الاسلام ، و سبانوزا وكازانوفا

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى ص ١٣٦ .

(٢) الكتاب طبعته مطابع الآداب الفرنسية ببيروت ((بدون تاريخ))
انظر كذلك التبشير والاستعمار ص ٧٤ .

الذى جعله عمدة المفسرين الأوحد والذى لم يسبقه أحد من المسلمين لفهم القرآن وحسن تفسيره على حد تعبيره ..

ومثل هذه الكتب المشبوهة خطورتها أنها تدرس لتلاميذ صغار مازالت أذهانهم غضة طرية تتقبل كل ما يلقى عليها بحسن نية ومن غير تأويل أو علامة استفهام تدور حول ماجاء فيها، مما يجعل هذه المعلومات المضللة تصبغ فى أدمغتهم ولا تنفك عنها .

وطريقة هذا الكتاب فى افتراءاته على الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، مشابهة لطريقة وأسلوب المستشرق جوستاف لوبون ، الذى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، من عداد أولئك الفلاسفة العباقرة المهووسين ، على حد تعبيره الفاسد .

يقول صاحب الكتاب معرفاً التلاميذ بالاسلام :

((واتفق لمحمد فى أثناء رحلاته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى . ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولاً)) (١)

ويقول:

((وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل)) (٢)

وهذه الترهات التى يأتى بها أعداء الاسلام للطعن فيه ولزعزعة عقيدة أبناء المسلمين هى مردودة عليهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ، مرسل من عند الله تعالى لهداية

---

(١) تاريخ محاضرات إيزاك ص٣١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص٣٦ .

البشرية الضالة الحيرانة بعد أن انقطعت عنها رسالات السماء أمداً طويلاً ولم يبق شيء صحيح خالص من الديانات السابقة إلا وقد امتدت إليه الأيدي بالتحريف والتبديل ، ولهذا لم يكن ثَمَّ ، شيء يذكر حتى يقال إن الرسول ،صلى الله عليه وسلم ، تعلمه من الديانات السابقة ، كما يزعم أعداء الاسلام ، وكما أنه لم يكن صلوات الله وسلامه عليه ، قارئاً وماينبغي له ذلك ، حيث نفى الله عنه ذلك :

((وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)) (١)

ولقد شهد له الله تعالى بالرسالة ،وكفى بالله شهيداً بيننا وبينهم ((تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين)) (٢

والكلام الذي كان يدون لم يكن من مواعظ الرسول ،صلى الله عليه وسلم ، العامة ،بل هو القرآن الكريم ، فقط ، أما السنة فكانت تحفظ في ظهر الغيب ولا تدون ، ولذلك لم تدون السنة تدويناً كاملاً - إلا بعد وفاة الرسول،صلى الله عليه وسلم ، خوفاً من ضياعها ، أما في حياته فهو القرآن وحده الذي يكتب .

ولقد عاش الرسول، صلى الله عليه وسلم ،بين قومه ،وهم أهل الفصاحة والبيان والبلاغة ، حياته كلها حتى جاءه الوحي ،وطيله هذه المدة لم يعهد عنه أنه تكلم . بمثل القرآن أو قريباً منه : ((قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون))(٣)

---

(١) العنكبوت آية ٤٨ .

(٢) البقرة آية ٢٥٢ .

(٣) يونس آية ١٦ .

والناظر إلى القرآن يجده يختلف عن السنة فى تراكيبه وألفاظه مما يدل على أن القرآن ليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ..

ومن ناحية أخرى ، نجد أن الآخذ يقلد المأخوذ منه ، ومن شأن الطالب أن يقلد أستاذه .. فكيف والمأخوذ منه مثلث العقيدة والآخذ موحد ؟ والمأخوذ منه ليس بذى شريعة تعالج كافة مشاكل الحياة ، والآخذ هو صاحب هذه الشريعة ، فهل يعقل هذا ؟

وأما الرحلات التى أشار إليها ، وأن الرسول عرف شيئاً من عقائد اليهود والنصارى عن طريقها ، فإنه لم يحصل له ، صلى الله عليه وسلم ، لقاء مباشر بينه وبين الرهبان الذين مرّ بهم فى رحلته . فقد كانت الأولى مع عمه أبى طالب وهو صغير لم يتجاوز الإثنتى عشرة سنة حتى أن قريشاً خلفته فى رحالها عندما دعاهم الراهب (بحيرى) إلى طعام صنعه لهم وكل ما جرى من محادثة بينه وبين الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أنه سأله عن أحواله ليرى هل تطابق الأوصاف التى عنده من ظهور نبى فى هذا العصر أم لا ؟ (١)

أما الرحلة الأخرى فقد كانت عند سفره بأموال خديجة للتجارة وكان معه خادمها " ميسرة " الذى تحدث هو مع الراهب ((نسطورا)) ولم يكن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال ابن هشام : ((فنزل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى ظل شجرة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٦ ، مطبعة شرقون (بدون تاريخ) وكذلك البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٨٣ ، وتحفة الأحوذى جـ ١ ، ص ٢٩٣ ، الطبعة الهندية كتاب المناقب .

قـريباً من صومعـة راهب من الرهبان ، فأطلع الراهب إلى ميسـرة فقال له : من هذا الرجل الذى تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من اهل الحرم، فقـال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبى)) (١)

وهذه القصص ، بما فيها قصة ورقة بن نوفل ، تثبت العكس مما زعمه المبطلون ، فهى تثبت نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام. مما يضحض أكاذيبهم ويسفههم المـل (٢)

وغير ذلك كثير من أمثال هذه الكتب التى تدرس فـى مثل هذه المدارس فى البلاد الاسلامية ، حيث عملت عملها فـى زعزعة عقائد الناشئة من أبناء المسلمين مما جعلهم يعجبـون كل العجب بمدنيـة الغرب الجوفـاء .

---

(١) ابن هشام جـ١ ، ص ١٧٢ وكذلك البداية والنهاية جـ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) المل - بفتح الميم وتضعيف اللام - الرماد الحار.

: : المبحث الثانى : :

: : التعليم فى عهد الحكومات الوطنية : :

لم يخرج المستعمر من البلاد الاسلامية التى كان يستعمرها إلا بعد أن وضع الأسس التى يطمئن عليها فى برامج التعليم فى شتى مراحله . ومن تلك الخطط التى وضعت للتعليم والاتجاه به نحو الوجهة التى تخدم مصالح المستعمر فى تلك البلاد :

الثنائية فى التعليم:

لم يكن المسلمون يعرفون الثنائية فى التعليم بمعنى أن تدرس فئة من المسلمين العلوم الدينية فقط ولا تعرف شيئًا عن بقية العلوم التى يفيد منها الانسان ، كالعلوم التجريبية والانسانية . . وتدرس فئة أخرى هذه العلوم بمعزل عن العلوم الشرعية ، ولا تعرف عنها شيئًا ، بل كان المسلمون يدرسون كل مايستطيعون دراسته . وقد عُرف منهم علماء موسوعيّون برعوا فى كل العلوم الشرعية وغيرها .

وفى مقابل هذا الفصل اتجهوا إلى إنماء وزيادة المدارس العلمانية وعزلها عن العلوم الاسلامية ، إلاّ النذر القليل والقليل جدًا . وقد وُجه هذا التعليم العلمانى ، وجهة غربية تمامًا كما قال جب (١) :

((والسبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب ((أو الفرنجة)) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادى الغربية ، وعلى التفكير الغربى . . .))

ويستطرد مؤكدًا ومركزًا على هذا التغريب الذى يضمن به تبعية العالم الاسلامى للغرب فى تفكيره وثقافته

---

(١) انظر كتابه ((WHITHER ISLAM. P 329 "1932))))

ووسائل حياته كلها ، هو تلقين الطلاب هذا المنهج الغـــربى ، والعلوم والآداب الغربية حتى يتشبع الطالب بروح الثقافة الغربية العلمانية ، ومن هنا يضمن المستعمر أنه قبض على زمام الأمـــر ، لأنّ هذا الجيل عندما يتخرج ويتسلم مقاليد الأمور سوف لا يعرف غير الوجهة الغربية ، ولذلك فإن ((الأساس الأول فى كل ذلـــك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربى وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربى .. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره .. وقد رأينا المراحل التى مربها طبع التعليم بالطابـــع الغربى فى العالم الاسلامى ، ومدى تأثيره على تفكير الزعمـــاء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين)) (١)

.. عزل التعليم المدنى عن الدينى : .

وقد بدأ التدرج بهذا النوع من التعليم ، الذى عُزل عن التعليم الاسلامى عزلاً تاماً واخترعوا له اسماً ساطعاً براقـــاً فى ظاهره الرحمة ومن قِبَلِهِ العذاب ، فقالوا عنه : إنه تعـــليم ((مدنى)) ومعروف أنّ هذه الكلمة ((مدنى)) هى إحـــدى الترجمات التى ترجموا إليها كلمة ((SECULAR)) فقد ترجمت هذه الكلمة الأجنبية مرة بـ ((مدنى)) ومرة بـ ((علمانى)) تعمية لها عن معناها الحقيقى وهو ((غير دينى))، إذن كلمة ((تعليم مدنى)) هى فى مقابل ، تعليم دينى ، وعكسها تمامـــاً التعليم ((اللادينى))

فلما وجدوا أن هذه الأخيرة منفّرة ولا يقبلها ذوق المســـلم

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، جـ٢ ص ٢١٦-٢١٧ .

غلفوها بهذا الغلاف وألبسوها قميص الثعبان الذى يخفى تحته السم الزعاف ، ولما لكلمة ، مدنية وتمدن من نغمة مستطابة وجرس مستعذب يستهوى الأنفس ...

وعلى هذا النحو سار التعليم المدنى أو العلمانى ، فكانت الحصص التى فيها شئ من الدروس الدينية قليلة جدا فى المرحلتين ، الابتدائية والمتوسطة شيئاً لا يسمن ولا يغنى من جوع فى مقابل العلوم الأخرى ، العلمانية .

ثم تجعل هذه الحصص الدينية فى آخر اليوم الدراسى حيث يكل الذهن وتقل الرغبة فى متابعة الدرس ، فيتلقاها الطالب بفتور وملل ، هذا إذا كان مستيقظاً وإلا فهو قد وضع رأسه على ((الدرج)) الذى أمامه وأسلم نفسه للنوم فلا يدرى ماذا يقال أو فاته الكثير ...

أما فى المرحلة الثانوية فلايكاد يوجد ذكر لهذه المواد الاسلامية ، وقد عمدوا إلى تقسيم الطلاب إلى فصول علمية وأخرى أدبية حيث تنعدم مادة الدين فى القسم العلمى وتنحصر إنحصاراً ضيقاً فى القسم الأدبى فيجعل لكل المواد الاسلامية كتيب واحد يعنون له باسم ((الدين)) فى حين أن المواد الأخرى نجد لكل مادة كتاباً منفصلاً وربما كتابين ، ولا يوجد ذكر لاسم الدين أو التربية الاسلامية فى الجامعات العلمانية التى يطلقون عليها ، مدنية ، وكأن الطالب لا يعنيه

شيء في الاسلام أو كأنه لم يكن مكلفًا بأمور الشريعة ،بل حتى التي يؤدي بها عباداته اليومية لا يكاد يعرف عنها إلا النـــذر الضئيل ، وحتى في البلاد التي تتمسك بالاسلام نوعًا ما نجدهـا تخصص مادة للثقافة الاسلامية تَدْرُس معلومات عامة عن الاسلام في بعض الكليات في حين أن الاتجاه السليم للطالب المســـلم أن لا ينفصل الاسلام والثقافة الاسلامية في مواد على حدى ،بل يدخل الاسلام في كل أنواع العلوم والمعارف ،في الطب وفي الهندسة وفي الرياضيات وفي الأحياء والفيزياء والكيمياء وفي الجغرافيـــة والتاريخ . وفي العلوم الانسانية من نفس واجتماع وفلسفة وغيرها . .

وتدرس كل هذه العلوم من خلال الاسلام حتى يعـــرف الطالب أن دينه يُعنى بكل شئون الحياة كما هو واقع الاســـلام الفعلي وكما فهمه المسلمون الأوائل . . . وبهذا يتخرج الطالـب المسلم بثقافة إسلامية متكاملة لا ينخدع أمام البهرج الغربـــي الزائف ويكتسحه سيل التيارات الجارف . . . ومن هنا يتحـــقق فيه المسلم الواعي بدينه العارف بمتطلبات مجتمعه المســـــلم.

** نماذج أخرى من الكتب المشبوهة **

وإمعانًا في الإفساد المبكر للتلاميذ ، فقد اعتنوا بإخراج كتب خاصة جعلوها كتبًا تعنى بتربية الطفل منذ صغره تربيـــة غير إسلامية كلها هـــدم لأخـــلاقيات الطفـــل المســـــلم.

يذكر الدكتور محمد محمد حسين (١) أن مؤسسة أمريكية تسمى : ((مؤسسة فراكلين)) . أصدرت - فيما أصدرت من مطبوعات سلسلة عنوانها : كيف تفهم الأطفال - دراسات سيكولوجية) وقد أشرف على هذه السلسلة وقدّم لكل كتاب من كتبها الدكتور عبد العزيز القوصى المستشار الفنى لوزارة التربية والتعليم بمصر .

والحديث فى هذه السلسلة موجه إلى الآباء والمدرسين حسب ما هو مبين على غلاف كل عدد من أعداد السلسلة إذ رُسم فى أعلى الجانب الأيسر كتاب مفتوح ، فى إحدى صفحتيه (عبارة) ((الطريق إلى حياة أفضل)) وفى الصفحة الأخرى ((عبارة)) علم النفس للآباء والمدرسين) (٢) .

ويقدّم الدكتور لهذه السلسلة ،وهو رجل التعليم الأول فى بلد مسلم ،بل من أكبر البلدان الاسلامية قاطبة - بقوله :

((هذا هو الكتاب الأول فى مجموعة من الكتب تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسية إلى حياة أحسن من تلك التى يعيشونها . فلا نقصد بالحياة الأحسن أن تكون من الناحية المادية ، وإنما هى حياة أحسن من حيث الأداء لرسالة الأبوة ورسالة التربية))

هذه شهادة رجل يقوم على رأس التعليم فى جوانبه ، يشهد بل ، ويقرّظ هذه الكتب بأنها تؤدى رسالة تقود إلى حياة أفضل ورسالة تربوية فضلى . ولنرى الآن هذه الرسالة

---

(١) انظر كتابه : حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٣٨ نشر المكتب الاسلامى الطبعة الرابعة (١٣٩٧-١٩٧٧م)

(٢) طبعت السلسلة فى سنة (١٩٥٥م) .

التربوية التى جاءت بها هذه الكتب وليحكم عليها بعد ذلك القارىء المسلم ،أهى فعلاً تؤدى إلى حياة تربوية مثلى بالنسبة للمسلم ، أم أنها تهدم فيه الأخلاق الفاضلة وتدمّر فيه النخوة الاسلامية ، وتقتل فيه الروح الانسانية ؟!

يعرض المؤلف فى هذا العدد الثانى عشر من هذه السلسلة والذى عنون له بـ ((الطفل والأمور الجنسية)) جعله فى شكل أسئلة يقدّمها للآباء ثم يجيب هو على الأسئلة بالإجابات التى يراها تخدم غرضه فى هدم الفضيلة فى نفوس المسلمين ، يقول فى السؤال رقم (٦) (١) :

((هل ترى فى التعبير السافر عن المحبة ما ينبىء عن ذوق ردىء أو ما يثير الحرج ؟)) .

والجواب السليم فى زعم الكاتب الأمريكى هو ((لا)) والتعبير السافر عن المحبة المقصود به نوع خاص عن علاقات الحب بين الجنسين ، ذلك الذى تحصل فيه الخلوة بالحبيبة وتحصل منه الملامسات والقبلات وغيرها من الأشياء التى شاعت عن الغربيين، وهم يرون أن لا حرج فيها ،ولكن ديننا يحرمها ، فإنه يحرم الخلوة بالأجنبية ،بل حتى النظر إليها ، حيث أمر بغض البصر لما يترتب عليه من مفاسد غير خافية .

((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن)) (٢)

---

(١) ص ٢٢ من السلسلة .

(٢) النور آيات ٣٠ - ٣١ .

مثل هذا الحب عندنا ـ معشر المسلمين ـ ليس فيه حرج فقط ،بل هو حرام قطعى لا يقبل مواربة ولا يحتمل تأويلاً

ومن ناحية ثانية يدعو الكتاب (١) الآباء إلى التعرى أمام أطفالهم ويحثهم على ذلك حتى يتعود الأبناء الشجاعة فى مثل هذه الأمور ولا يواجهونها بحرج ولا خوف ووجل ! ومع ذلك يزعم أن هذه هى التربية المثلى التى تقود إلى حياة أفضل !

يقول فى ذلك :

((إن الكثير من الآباء واليوم لا يكترثون للظهور مجردين من الثياب أمام أطفالهم الصغار. وهذا أمر لم يكن يحدث فى الماضى إلا نادرًا ، كذلك أصبحت أبواب الحمامات وغرف النوم تترك مفتوحة أحيانًا فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم أو يرتدونها ! فإذا كان فى وسع الآباء أن يفعلوا ذلك بصورة طبيعية ودون شعور بالحرج أو الاضطراب فإن ذلك يكون مرانًا طبيعيًا ، لأنه يعوّد الطفل على الشعور بأن الجنس ليس أمرًا مشينًا ، كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار !)) (٢)

تلك هى التربية فى معيار هؤلاء التى يريدون بها إفساد أخلاق أطفالنا حتى يشبوا على مثل هذه الأخلاق الذميمة التى ينفر منها الذوق السليم ويأباها العرف فى

---

(١) ص ٤٦.

(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ٤١.

المجتمع المسلم وتحرمها الشريعة الاسلامية ، وهم يقصدون بهذا لكى يسهل عليهم اصطياد الأطفال الذين تربوا على مثل هذه التربية ، وقرأوا مثل هذه الكتب ، بعد أن أبعدت عنهم المواد الاسلامية التى تهذب الأخلاق وتعود الطفل على الفضيلة ومكارم الأخلاق والعفة والحياء الذى هو شعبة من شعب الإيمان ، روى البخارى بسنده ((عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ((دعه فإن الحياء من الإيمان)) (١)

هذه الصور التى يريدون أن يتعودها الطفل حتى تكون عنده طبيعية مألوفة ، من تكشف الآباء أمام أبنائهم وتركهم غرف النوم مفتوحة ليطلع عليها الأطفال ، وكذلك ترك الحمامات مفتوحة ، يساعد ذلك على إشباع فضول الطفل فيما يتعلق بأجسام الكبار ، وما هو ياترى فضول الطفل ورغبته فى أن يرى جسم أبيه أو أمه عاريين ؟ وما الفائدة التربوية التى تعود على الطفل من وراء ذلك ؟ أهى أن يتعود العُرى والسفور منذ نعومة أظفاره ليكون ذلك أمراً طبيعيًا عنده حينما يشب عن الطوق ؟ فتعرى هو كذلك ؟ هذا هو الذى يقرره الكاتب ويريده الطفل المسلم أن يخرج من دينه بهذه الأساليب . . .

: من أدب الاسلام وتربيته للطفل :

وهذا فيه خروج على النظام الاسلامى بل هو هدم له ، الاسلام يقيد الدخول على الآباء بقيود كلها عفاف وطهر ونقاء

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١ ص ٧٤ باب الحياء من الإيمان .

وهى ترمى إلى تهذيب المجتمع وتقويمه على الأخلاق الفاضلة وهو يمنع الانسان أن يدخل بيتاً غير بيته حتى يستاذن من رب البيت ، وإذا كان صاحب الدار غير مستعد لاستقباله لعذر من الأعذار ، ولم يأذن له بالدخول ، فعلى الزائر أن يرجع راضياً مرضياً لا يجد فى نفسه حرجاً مما قضى صاحب المنزل ذاكراً قول الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم)) (١)

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة فى تفسير هذه الآيات يضيف المجال عن ذكرها ، فمن رغب فى التوسعة فليراجعها هناك (٢)

وهذا عام فى أدب الزيارة ، وقد خص أولئك الذين يتصلون بأرباب المنازل اتصالاً مباشراً ويقومون بخدمتهم والعمل على راحتهم ومساعدتهم ، خصهم بأوقات ثلاثة عينها لهم بأن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات التى جعلها القرآن عورات ، لأنها أوقات للراحة والاسترخاء والتخفف من الثياب الثقيلة التى لا تريح الجسم فى النوم وأوقات الراحة ، فحرص الاسلام على راحة الانسان

---

(١) النور آيات ٢٧ - ٢٨ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ ص ٢٧٨ .

مع ستر عورته ، وبالتالى فقد وفر له الراحة الظاهرية التى تتمثل فى البدن الخارجى حتى تأخذ الأعضاء قسطها من الراحة لتقوى على المبادة وتأدية الأعمال بنشاط بعد أن أخذت قسطها من الاستجمام . . .

وهيأ له الراحة النفسية فمنع عنه الأجانب ـ بل وحتى الحرام فى أوقاته الخاصة ـ أن يدخلوا عليه فى تلك الأوقات مما يسبب له الانزعاج وعدم الراحة ، وهذه الأوقات الثلاثة كما حددها القرآن هى :

من قبل صلاة الفجر وهو وقت يكون فيه الانسان ، فى الغالب ، مستغرقاً فى النوم ، والنائم كالميت لا يدرى ما يحدث له

والثانى ، بعد أن يضع الانسان ثيابه من الظهيرة وهو وقت يستجم فيه الانسان من كد العمل الصباحى بعد أن يتناول وجبة الغداء فيحتاج إلى قسط من الراحة ، كى يستعيد نشاطه لبقية اليوم . .

والوقت الثالث . . مابعد صلاة العشاء حيث يستعد الانسان للنوم . . يقول تعالى فى ذلك :

((يا أيّها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم)) (١)

---

(١) النور آية ٥٨ .

هذا ما كان بشأن المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم ، فهم يستأذنون فى هذه الأوقات الثلاثة ؛

أما إذا بلغ هؤلاء الأطفال الحلم فعليهم الإذن فى كل الأوقات ؛ لهذا فقد خصهم الله تعالى بقوله :

((وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم)) (١)

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية .

((يعنى إذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال)) (٢)

هذه تربية الاسلام للطفل وهؤلاء هو أدبه لكبار ، وهو ما يريد أن يخرجه منه العلمانيون الإباحيون .

وأكتفى بهذا كنموذج لهذه الكتب التى يخدعنا بها أعداؤنا ، هذه الكتب التى تنتشر وتدرس للتلاميذ ، وتؤلف لتثقيف أو على الأصح ((لتسخفيف)) الآباء والمدرسين الذين يقومون على أمر الصغار ، فالأب فى البيت يفعل هذا مع ابنه وابنته ، وكذلك يثبته له المدرس فى المدرسة ، ومن هذين المأمنين نُؤتى ، فقد عَرَفَه أعداء الاسلام وأصابو فيه المحز ....

---

(١) النور آية ٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير جـ ٣ ، ٣٠٣ .

ومن ضمن النكايات التى عملوها لجعل هذا التعليم علمانياً فى كل نواحيه حتى يؤدى لهم الدور الذى يرمون إليه هو:

الاختلاط:

وقد جعلوا هذا التعليم المختلط أولاً فى المراحل الابتدائية لكى يعتاده الطفل ويألفه ومن ثَمّ يدافع عنه فى المراحل المتقدمة.

وقد أُلفت لأجل الدعاية لهذا الاختلاط ـ فى هذه المراحل ـ كتب كلها شُبَه وضلالات لا يستسيقها الذوق الرفيع ويمقتها الدين.

ومن هذه الكتب «الكتاب الذى ذكرته آنفاً ((دراسات سيكولوجية)) فلقد جاء فيه، الحديث عن الاختلاط فى المدارس بين البنين والبنات وكيف أن هذا يجب أن يشجع من قِبَلِ المدرسة والآباء، وأنه يجب أن يتضمن جميع الأنشطة المدرسية الرياضية منها والثقافية والبرامج المنهجية والرحلات التى تقام خارج نطاق المدرسة (١) ((فبدلاً من فصل البنين عن البنات يجب علينا أن نعمل على إشراكهم معاً فى الأعمال الممتعة ومواقف اللعب، وأن نحاول مساعدتهم على تكوين مشاعر طبيعية مريحة نحو أفراد الجنس الآخر. وعلى الآباء

---

(١) انظر ص ٦٢ ـ ٦٣ من السلسلة ((دراسات سيكولوجية))

تشجيع أطفالهم على المساهمة فى نواحى النشاط المشتركة بين البنين والبنات مما تشرف عليه المدرسة والجمعيات الرياضية أو المراكز الاجتماعية . (١)

وهنا يبدأ يعلل هذا النشاط ويبرره ، وكأنه يحس فى نفسه أن الآباء يتوجسون خيفة منه ويضعون حوله علامات الاستفهام لاسيما وأن هؤلاء المختلطين الكثير منهم فى سن المراهقة والتحفز فيطمئن الآباء قائلاً :

((. . . فهذا النشاط المشترك ليس (مواعيد غرامية) بل هو فرص لإشتراك البنين مع البنات فى متع الرياضة وركوب الخيل والدراجات والسباحة وغير ذلك)) (٢)

ويحاول أن يقلب جميع النواحى التى يرى أنها موضع ريبة ويركز عليها محاولاً درأ شبح المخاوف التى يمكن أن تكون له حجر عثرة أمام الهدف الذى يرمى إليه من الوصول إلى بغيته من إفساد أخلاق التلاميذ ، فيركز على الجوانب الحساسة متطرقاً لها بقوله :

((. . . وإذا حدث "إستلطاف" بين بعض البنين والبنات فينبغى النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس ((غراماً)) أو ((عشقاً)) . والمعاكسات البريئة من نوع ((مراد وسهير صديقان حميمان)) قد تبعث فى صداقتهما دفئاً كانا يفتقران إليه !!)) (٣)

ونسأل ياترى ماهذا ((الاستلطاف)) الذى يحصل بين الفتى والفتاة ؟ وما (المعاكسات البريئة)) التى يرمى إليها . . ثم ما الدفء ؟ أليس هو إلتقاء الأجسام ! . . ثم ماذا بقى فى الشرف للبنت بعد كل هذا ؟ هذا مايراد لأبناء وبنات الأمة الاسلامية . الإباحية التامة والفساد التام . . وكل ما حرم الله وحظرته الشريعة صيانة للانسانية . .

وقد جعل هذا الاختلاط حتى فى المرحلة الثانوية فى بعض البلاد . وهذه المرحلة أكثر المراحل خطورة بالنسبة لسن الشباب

---

(١)و(٢)و(٣) حصوننا مهددة من داخلها . ص ٤٢ - ٤٣ وما بعدها .

مما يحصل معه مالا تحمد عقباه .

أما فى المرحلة الجامعية ، فقد أبيح هذا التعليم المختلط وإباحة تامة ،فى حرية مطلقة لا تعرف القيود إلا ..بحجة أن هؤلاء الطلاب أصبحوا ناضجين لا خوف عليهم ،وكأن النضج أصبح شريعة تبيح لهم ذلك .

ومن صور الاختلاط التى قصدوا إليها :

أن يجعلوا مدرّسات يقمن بالتدريس فى مدارس البنين . وغير خاف ما ينتج عن هذا من مفاسد وعدم احترام بين الطالب وأستاذه فكثيرًا مالا يتملك الطالب عواطفه وميوله الغريزية نحو مفاتن هذه المرأة ـ الأستاذة ـ التى تظهر أمامه كل يوم وهو يتأمّل فى نبرات صوتها وتقاسيم جسدها .

وإلى وقتنا هذا تكشف الصحف عن وقائع بين التلاميذ ومعلماتهم،وماخفى كان أعظم ، ولأسوق مثالاً على ذلك حكاية وقعت بين تلميذ ومعلمته . ساقت إحدى الصحف هذه الحكاية تحت عنوان :

((التلميذ والأستاذة ،حكاية إعجاب)) وقالت :

((قررت إدارة مدرسة ((كيمبرورت)) فى منطقة روثرهام البريطانية ، طرد التلميذ ،مايك باندى (١٤ عامًا) مدة ثلاثة أشهر ومنعه من دخول باحة المدرسة مهما كانت الأسباب والدوافع. . . وجاء هذا القرار بإجماع لجنة الأستاذة التى وصفت (مايك) ((بالتلميذ الوقح)) وكان مايك نفذ جريمته فى الأسبوع الماضى

عندما فشل فى كبت كل إعجابه بإحدى المعلمات ، فصاح بهـا قائلاً ،أثناء ساعة الدرس : ((أعطينى قبلة)) وفى المرة الثانيـة قفز مايك من مقعده ليتسلم القبـلة)) (١)

ومثل هذا فى المفسدة ، أن يقوم الرجال ـ ولاسيما الشـباب منهم ـ بالتدريس فى مدارس البنات ، وهذا النوع الأخير ينتشـر بكثرة فى البلاد الاسلامية بفضل دخول التعليم العلمانى الغربى .

وإذا قلت لهم بأن هذا الاختلاط يفسد أخلاق الطـلاب والطالبات ،باعتبار أن كلاً منهم تجرى عليه السنن الكونية فـى البشر ، وهى الميل الغريزى نحو الجنس الآخر . وفى مثـل هذا الاختلاط يصعب ضبط النفس . . .

قالوا لك : بأن هذا الاختلاط يؤدى إلى عكس ما تقـول ؛ ذلك لأنه يصبح اللقاء شيئًا عاديًا بين الجنسين !

والرد على دعواهم هذه لايتعدى كلمات قليلات ،وهو أن هذا التشبع الذى يحصل من جرّاء الاختلاط الذى ذكرتموه لايعـدو أمرين وهما :

أولاً : إما أن تكون مداومة الاختلاط قد سببت لهذا النـوع برودًا عاطفيًا للفريقين المختلطين ، وهذا أدى إلى الإصابـة بالبرود الجنسى !! . وبالتالى يستمتع الرجل الذى من هـذا النوع من أى امرأة ، حتى ولو كانت امرأته ، وفى هذا ضـرر جد خطير ؛لأنه يقلل الثروة البشرية ، وبالتالى يهلك الحرث والنسل

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد (٢٣٦) جمادى الأولـى (١٣٩٩هـ) لندن .

ثانيًا : أن يكون هذا المختلط قد أروى نهمه وأخذ كفايته من هؤلاء اللائى يختلط بهن وهذا مايخشى منه بعينه وهو المفسدة التى من أجلها جاء الحظر ...

وأما أن يسلم الاختلاط سلامة من غير هذين الطريقين، فلا عاقل يصدق ذلك ولا تساعده عليه طبيعة الانسان البشرية ولا تركيبه ((البيولوجى)) فإن الميل نحو الجنس الآخر فطرة فطر الله الحيوان عليها ، ولكنه تعالى جعلها لبنى آدم بطرق مهذبة راقية ترتفع به عن درجة الحيوان ، فإن انقلب ومارسها على صورة الحيوان فقد انحط إلى درجة أسفل منه ؛ لأن الحيوان لم ينزل من درجته التى خلقه الله عليها ، ولكن الانسان الذى يفعل ذلك قد نزل عن درجته فصار بهذا النزول أضل من الحيوان كما قال تعالى فى مثل هؤلاء الذين ينسلخون عن إنسانيتهم:

((أولئك كالأنعام بل هم أضل)) (١)

ولا أرانى فى كبير حاجة إلى توضيح المفاسد الناجمة عن الاختلاط ، فتوضيح الواضح غموض ، ولا يخفى على ذى بصر وبصيرة من أنه يجر إلى اختلاط الانساب وتفشى الأمراض الخبيثة المعدية والتى تنتقل عادة عن طريق التناسل والوراثة مثل ((الزهرى)) و ((السل)) وغيرها فينشل المجتمع وتقل الطاقة

---

(١) الأعراف آية ١٧٩ .

البشرية ويتعطل الإنتاج فيصير المجتمع خاملاً رخواً لا يقوى على مجابهة أعباء الحياة ناهيك عن مجابهة العدو .

فمجتمع فسدت أخلاقه وشاعت فيه الفاحشة واختلط فيه الرجال بالنساء حيث تنتهك الأعراض وتباح الحرمات وتتفكك الأسر ويختلط الحابل بالنابل ... مجتمع كهذا جدير بأن لا ينتصر على عدو يتربص به الدوائر .

وحرى بالمسلمين اليوم أن يعودوا إلى ماضيهم الزاهر، وأن توضع للتلاميذ مناهج التربية الاسلامية النقية التى تشتمل على سيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الأبرار حتى يعرف هذا الجيل كيف كان أسلافه قومًا لا يخافون فى الله لومة لائم .

ولكن الشيء المذرى حقًا أن نجد فى هذه الأيام من ينادون مرة ثانية بالنظر فى إعادة المناهج الدراسية التى حصل لها شيء من التحسن القليل فيما يتعلق بالتربية الاسلامية والتاريخ الاسلامى، وإن كان هذا لا يساوى التعليم العلمانى كمًا وكيفًا ،ولكنه مع ذلك نجد من ينادى بالرجوع إلى المناهج العلمانية الخالصة التى كانت أيام الاستعمار ، والتى تربى عليها أمثال هؤلاء ذلك لأنه ((تبين - لهم - أن تدريس التاريخ الاسلامى للنشء فى المدارس بحالته الموجودة والتى تم تطويرها فى الخمس عشرة سنة الماضية مازال يربط الدين بالسياسة فى لاشعور كثير من التلاميذ منذ الصغر ، مما يؤدى إلى

ظهور معتنقى الأفكار الاسلامية، (ولهذا يجب) إعادة النظر فى مناهج تدريس التاريخ الاسلامى والدين عامة فى المدارس والعمل على تغيير هذه المناهج لربط الدين بالأوضاع الاجتماعية والخلقية وليس مع السياسة ، مع إبراز مفاسد الخلافة وخاصة زمن العثمانيين ، وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة))[١]

ولقد انتبه أعداء الاسلام لصحوة الشباب المثقف فى المدارس والجامعات ، الذى أخذ على نفسه محاربة هذه التيارات المستوردة الأجنبية على الاسلام التى ينادى بها دعاة العلمانية مثل الاختلاط وعلمنة مناهج التعليم وعزل الدين عن حياة الناس، تنبه أعداء الاسلام لهذه الصحوة الاسلامية فصاروا يستصرخون عملاءهم من الذين تربوا على أيدى المستشرقين والمستعمرين ، لكى يخمدوا هذه الشعلة الاسلامية المتقدة مما أسموه بمكافحة التيارات الاسلامية ((المتطرفة)) وهو تعبير خبيث ماكر يرمون من ورائه إلى تشويه وجه النهضة الاسلامية وسط الشباب على قرار ما فعلوا بالنسبة لتشوية الجهاد الاسلامى ،بأنه حرب إبادة لغير المسلمين ، ولكنهم يكيدون كيدًا والله يكيد كيدًا ،وستكون أعمالهم، ضد الاسلام والمسلمين، حسرات عليهم ثم ينقلبون خاسئين .....

---

(١) صحيفة المدينة المنورة العدد (٤٥٧٠) الإربعاء (٢١) جمادى الاولى (١٣٩٩هـ) نقلاً عن صحيفة العرب التى تصدر فى لندن .

المبحث الثالث

عزل التعليم الديني عن حياة المجتمع

كان ذلك ملخصاً لما أسموه بالتعليم المدني أو العلماني، فكما عزل هو عن الدين ، فقد عزل التعليم الديني عن الحياة الاجتماعية حتى لا يتفاعل خريجوه مع المجتمع فيؤثرون فيه ببث الروح الاسلامية ، ولئن نجح هذا العزل نجاحاً موقتاً فإنه لم ينجح إلى النهاية مما جعلهم يفكرون في طريقة أخرى وهي، أن يجعلوه يقترب من التعليم المدني ما أمكن ذلك وهو ما أسموه "بالتطوير" الذي سأتحدث عنه قريباً . .

أما فكرة العزل فقد تمثلت في محاولة انهزام الروح المعنوية لدى الطلاب في المعاهد الاسلامية وكذلك الأستاذة .

فكان طالب المعهد الديني موضع سخرية أمام زملائه في الجانب المقابل حيث كان خريجو المعاهد الاسلامية قلّ أن يجدوا لهم عملاً في القطاعات الحكومية وأجهزة الدولة ، اللهم إلا أولئك الذين يُنصّبون للفُتيا وماشاكلها ، وحتى الذين يتم تشغيلهم في أجهزة الدولة الرسمية فإن أجورهم وعلاواتهم وترقياتهم تكون أقلّ بكثير من رصفائهم من خريجي المدارس العلمانية . .

وقد تسببت هذه الحرب النفسية بالفعل في تحطيم نفسية كثير من طلاب المعاهد الاسلامية ، الشيء الذي جعل ضعاف النفوس والإيمان منهم يظهر بالمظهر الذي يَبْعُد به عن الدين وبدنيه من رفاقه

العلمانيين ، حتى يقال إنه متحرر وتقدمى ! !

وثمّ شيء آخر كان أعداء الاسلام يرمون إليه من إبعاد ذوى الثقافة الاسلامية ألا وهو أن يمكنوا لأولئك العلمانيين من التمركز فى الأماكن الحساسة التى تتصل بحياة الناس اتصالاً مباشراً حتى يشعر الفرد بأنهم هم الذين يقومون بخدمته ويرعون مصالحه ، وهم وحدهم الأكفياء لإدارة الأعمال الحكومية وتسيير دفّة النظام ، بخلاف أولئك الإسلاميين الذين لا يوفون إلا الفُتيا فى مسائل الأحوال الشخصية وأمثالها .

وفى نفس الوقت نجد ذوى الثقافة الغربية العلمانية قد قبضوا على كل البرامج سواء فى الجهاز التنفيذى أو فى الجهاز التشريعى الذى يحرّر القوانين التى تسير النظام فى البلاد . .

وهم الذين بيدهم وضع المناهج التعليمية . . وهم الذين يعملون فى الجيش والشرطة . . وهم الذين بيدهم إدارات المؤسسات الكبرى والبنوك والشركات . . وهم القضاة والمحامون . . ومن هنا فقد انزوى الاسلاميون وتقوقعوا . .

ولذلك فقد سببت هذه الانشطارية فى التعليم ، بجعل جناحين له ، أحدهما حى متصل بحياة الناس ، والآخر شبه ميت ومنطو على نفسه ، سببت انتشار العلمانية وإزكاء روحها حيث أبعد الدين عن مسرح الحياة ، وإبعاد الدين عن الحياة وإحلال أى نظام آخر محله كيفما كان ذلك النظام ، فهو العلمانية ، لأنّ العلمانية تقوم على عزل الدين عن مسرح الحياة وجلب أنظمة تحل محله وهو ما حدث فى عالمنا

الاسلامى اليوم حيث مانزال نسمع مثل هذه النغمات النشاز ، وهى إبعاد الدين عن السياسة أو كما سموه مؤخراً "عدم تسييس الدين أو تديين السياسة" وهو قَالَب آخر لقول النصارى فى أناجيلهم "دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر".

ومع كل تلك الحملات التى شُنّت لتدمير المعاهد الاسلامية ووأد الثقافة الاسلامية ، وقتلها فى نفوس أصحابها ، مع ذلك كله نجد أعداء الاسلام يضيقون ذرعاً بوجود هذه المعاهد التى مازالت تُعنى بدراسة الدين عامة وتحفيظ القرآن الكريم خاصة ، فما دامت هذه المعاهد فإنّه لا يقر لهم قرار لأنها تبث الروح الاسلامية وسط الشباب ، ولا بد أنه سيأتى يوم ترتفع فيه راية الاسلام عالية خفّاقة ولهذا نجد (جب) يتمض أسى من وجود هذه المعاهد بالرغم من أن الوحدة الاسلامية والترابط الاسلامى والحماس للاسلام قد بدأ يضمحل ، على حد تعبيره ، بالرغم من ذلك فإنّ وجود هذه المعاهد يزعجه فيقول :-

(ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية[1] ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها فى المدارس ، ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً[2] . ومع أن الثقافة الدينية التقليدية

---

(١) يعنى بذلك إنتهاء دولة الخلافة الاسلامية التى كانت تربط المسلمين تحت ظل الخلافة حيث كانت تدين لها كل الأقاليم الاسلامية وإن تفاوت هذا الولاء ، ولكن يندر من يَشُقّ عصا الطاعة .

(٢) يقول ذلك لعلمه أنه لم يكن فى الاسلام فوارق ولا طبقات . . ولهذا برزت هذه الفوارق عندما انحسر حكم الاسلام عن الساحة .

قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود ، مع ذلك كله فإن المعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة ، ولا يزال حُفّاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين ، وربما كان تقديس شخصية محمد (١) وما يثير ذكره من حماس فى سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، من أهم ملامح النهضة الاسلامية الحديثة (٢).

ولما رأوا أن خطة عزل التعليم الدينى وإقصائه عن الحياة ربما لا يضمن استمرارها إلى أمد طويل ، ولا سيما أن الصحوة الاسلامية بدأت تأخذ طريقها إلى المجتمع المسلم بفضل اتصال أبنائهم فى المعاهد الاسلامية بهم ، ولو فى نطاق ضيّق محدود ، ولذلك فقد عمدوا إلى طريقة أخرى لعلها تؤتى ثمارها المرجوة منها، وهى ما أطلقوا عليه:

تطوير المعاهد الدينية :-

وكأنهم يوحون للمجتمع بأن الدين جامد و(رجعى) يجب تطويره! وغير خاف ما فى هذه التسمية من خبث ، والذى يؤسف له حقاً ، أن هذه الفكرة منتشرة بين المسلمين ، ولا سيما أولئك الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات والمدارس الغربية عن طريق البعثات ، حيث غُرِيَتْ

---

(١) صلى الله عليه وسلم .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ص ٢٢٠ عن :

((WHITHER ISLAM . P.350 . " GIBB))

أذهانهم من الثقافة الاسلامية وكُسيت بالثقافة الغربية التى هى فى حقيقتها (سخافة!) فالاسلام هو الذى حرر العقل البشرى من الخرافات ، وانقذه من الضلالات ، وهو دين العلم والعقل والرقى.. لا كما ينعتونه " بالرجعية والتخلف " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا .

ولمّا كان الازهر هو شِريان الحياة بالنسبة لكل المعاهد الاسلامية المنتشرة فى العالم الاسلامى ، لما كان كذلك ، فقد حاولوا أن يوجهوا ضرباتهم إليه ، فأخذوا يثيرون حوله تلك المفاهيم السقيمة التى يقولون إنها تطوير[1] . ذلك لأنهم على حد زعمهم وجدوا " التعليم الوطنى عندما قَدِم الانجليز إلى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزًا فى طريق أى إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون فى هذه الجامعة يحملون معهم قدرًا عظيمًا من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدرًا ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير ، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو - لكانت هذه الخطوة جليلة الخطر فليس من اليسير أن تتصور أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة !!!..

---

(١) انظر : مصر فى عهد كرومر ، للورد لويد ، المندوب السامى البريطانى لدى مصر ج ١ ، ص ١٥٨ (١٩٣٣)

وهنا يستدرك إذا لم يكن إصلاح الأزهر - على حد تعبيره - فإنه يجب أن يُلتفت إلى التعليم العلماني وإنمائه حتى ينافس الأزهر أو يقضي عليه فيستمر هستدركاً :

(. . ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير ميسر تحقيقه فحينئذٍ يصبح الأمل محصورًا في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح . . .)

ويستمر معللاً الوصول إلى النتيجة قائلاً :

(. . وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور وإما أن يموت ويختفي ، على أن الخطة الأولى التي تقوم على أساس إصلاح الأزهر من داخله - لها نتيجة عظيمة الفائدة والأهمية ، وإن تكن نتيجة غير مباشرة ، وهي أنها تؤدي بالتدرج إلى اختفاء التعصب الديني الذي أخر تقدم الأزهر زمنًا طويلاً. أما الخطة الثانية - وهي إصلاح التعليم الديني - فإن تأثيرها المباشر أقوى في إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه ، من إقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل[1])

الحملة على التعليم الاسلامي من قبل الوطنيين :

ولم تقف الحملة على التعليم الديني وإيجاب تطويره ، أو بعبارة أدق وجوب (سلخه) من صبغته الدينية وتعريته من لباسه الاسلامي

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

حتى يغدو وصيف التعليم العلمانى الذى نبذ الدين وراءه ظِهريًّا ، لم تقف هذه الحملة على غير المسلمين فقط ، بل حملها من بعدهم ، أو إلى جانبهم تلاميذهم . . .

فهذا هو الدكتور طه حسين تلميذ (كازانوفا) المخلص يتعرض للأزهر ووجوب إصلاحه ، أسوة بأستاذته ، كى يتخلص من عقلية القرون الوسطى ، كما يروق له أن يعبر دائمًا .

والقرون الوسطى تعنى فى التاريخ الأوربى العهود المظلمة عهود الجهل عندهم . . حيث كانوا يحاربون العِلم من كنائسهم ، وهى العهود الزاهرة فى الاسلام ، فهم عندما يعبّرون عن الاسلام بأنه دين العصور الوسطى ، أو عندما يصفون العقلية الاسلامية ، بأنها عقلية العصور الوسطى ، فإنما يرمون الاسلام بالتخلف والجهالة .

وهو ما حرص عليه طه حسين عند كلامه على الأزهر ، ذاكرًا طلابه بالتخلف وواصفًا لهم بأنهم يعيشون " بأثقال القرون الوسطى " وعنده أن الأزهر " بحكم طبيعته ، وبيئته ، ومحافظة القائمين عليه وخضوعهم بحكم هذه المحافظة لكثير من أثقال القرون الوسطى . وكثير من أوضاعها يصوغ التلاميذ والطلاب صياغة خاصة مخالفة للصيغة التى ينتهجها التعليم المدنى بحيث يعرض الأمر من الأمور ، أو الواقعة من الواقعات فإذا الأزهرى يتصور على نحو وإذا الشاب المدنى يتصور على نحو آخر " (١)

١ـ مستقبل الثقافة فى مصر د . طه حسين ، الفقرة ١٣ ص ٨٥

فهو يريد من الشاب الأزهرى أن يفكر بتفكير الشاب الذى يعبر عنه ، بالمدنى أو العلمانى ، وأن يتصور ما يتصوره هذا العلمانى وأن يصدر حكمه على الأشياء كما يصدره العلمانى !! فهو لا يريد من هذا الشاب أن يكون له تفكير خاص ، وأن تأتى أحكامه على مجريات الأحداث من خلال دراسته الاسلامية ، ولا تنبع هذه الأحكام من المنبع الاسلامى ولا يحكم على الأشياء من وجهة النظر الاسلامية ؛ لأن هذه فى نظره من أفكار القرون الوسطى المتخلفة ، وكأنه يريد أن يقول : إن الاسلام والتفكير الاسلامى ، غير صالح لهذا العصر.

وقد وَضَحَتْ فكرته المناهضة للاسلام أكثر فى كتابه ، فى الشعر الجاهلى ، وهو يستاء من الصفة الاستقلالية للأزهر ويصفه بأنه دولة داخل الدولة ، ويحث على حل هيئة كبار العلماء لكى لا " يكون الأزهر دولة داخل الدولة ، وسلطانًا خاصًا يستطيع أن يطاول السلطان العام بمناوئه . كما هى الحال الآن إذا بقيت هيئة كبار العلماء . وإذا أتيح للأزهر بالفعل ما أتاحت له قوانينه من تخريج المعلمين فى مدارس الدولة على أختلافها "(١)

فهو يود أن لا يكون خريجو الأزهر معلمين فى مدارس الدولة حتى لا يلقنوا الطلاب أفكارهم التى وصفها بأنها قديمة ولا تساير العصر . .

١ـ المصدر السابق الفقرة ١٣ ص ٩٥

ووصف الأزهر والتعليم الدينى ، بالقديم والعهد القديم والتفكير القديم . . عبارات تتكرر كثيراً فى كلامه على الأزهر ، وهى عبارات وأفكار مستقاة ومستوحاة من المستشرقين الذين دأبوا على وصف الاسلام بمثل هذه الأوصاف .

ونراه هنا يقسّم العهود إلى عهدين :

عهد قديم بال يتمثل فى الأزهر المحافظ

وعهد جديد يتمثل فى المدارس الحديثة، وطبيعة الحال فإن الناس ينفرون مما يقال عنه أنه قديم ، ويتطلعون إلى كل جديد .

فوصف الدين الاسلامى بهذا الوصف يجعل الناس يشمئزون منه ولا سيما ضعاف الإيمان . . كما يفعل بعض الشباب المسلم الذى سادت فيه الروح "الانهزامية" مما جعلهم يميلون إلى العلمانية .

ولذلك فإن الأزهر عند طه حسين " بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم أكثر مما تمثل العهد الحديث والتفكير الحديث " (١)

وهو يركز على " تطوير" الأزهر ، ووصف هذا التطوير ، الذى يريده بالدقة حيث يشمل كل النواحى ويغطى على كل الجوانب والأنشطة التى يقوم بها الأزهر بما فى ذلك المناهج الاسلامية وهى الخطر الداهم فى زعمه ، ذات الطابع الاسلامى تحقيقاً لرغبة أولئك الذين يقف الاسلام

١ـ المرجع السابق ، الفقرة ١٣ ص ٩٨

أمامهم حجر عثرة من الدخول إلى قلوب المسلمين وتخريبها . .

ولذلك " لابد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهرى الخالص ، ولم نشطهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة ، عرضناهم لأن ، يصاغوا صيغة قديمة ، ويكونّو تكوينًا قديمًا ، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التى لابد لهم من الاتصال بها ، والاشتراك فيها وعرّضناهم لطائفة غير قليلة من المصاعب التى تقوم فى سبيلهم ، حين يرشدون وحين ينهضون بأعباء الحياة العملية " (١)

ويعلل بتعليل آخر لمحو الصيغة الاسلامية من الأزهر وتقليل نفوذه ، حيث يرى أن التفكير الأزهرى القديم يكون حاجزًا بين التلاميذ وبين " القومية " الإقليمية الضيقة التى تقوم على الحدود التى وضعها المستعمر لكل دولة إسلامية ، والتى تخالف المفهوم الاسلامى الشامل الذى يجعل المسلمين جسدًا واحدًا ، كل مسلم يكون عضوًا من إعضائه أو كفروع شجرة يجمعها جزع واحد تشرب من ماء واحد . . وهو الاسلام تتغذى به وتؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها .

ولذلك فهناك " شىء آخر لابد من التفكير فيه ، والطلب له وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم قد يجعل من العسير على الجيل

١ـ المرجع السابق الفقرة ٣ ؛ ص ٩٨

الأزهرى الحاضر إضافة الوطنية والقومية بمعناهما الأوربى الحديث " (١)

والقومية التى يريدها ويسعى إليها ليست القومية التى عناها الاسلام والتى تعنى الأخوة الاسلامية ، وحتى هذه فالاسلام سماها أخوة ولم يسمها قومية ، قال تعالى :

" إنما المؤمنون أخوة " (٢) وليست هى المفهوم الاسلامى الشامل الذى يجعل البشرية كلها أعضاء متعاونين فى هذا الكون الفسيح يتعارفون فيما بينهم ليسهل التعاون والتعاضد " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائلاً لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير " (٣)

ذلك هو مفهوم الاسلام للرابطة الانسانية لا كما يضيقونها باسمهم هذا " القومية " فهو تعالى يذكر جنس الناس بتلك الرابطة الشاملة التى تربطهم جميعًا وتجعلهم أسرة واحدة ، وهو خلقهم من ذكر وأنثى ، وهذا العمرى أسمى ما وصل إليه دين فضلاً عن أن تصل إليه النظريات البشرية القاصرة والمفاهيم الضيقة التى لا تتعدى قد صاحبها . .

فما أكثر شيئًا يدعو للألفة والمحبة والتعاون والسلام العالمى من أن تشعر الانسانية كلها بأنها أسرة واحدة تنحدر من أب واحد وأم

١ـ المرجع السابق الفقرة ١٣ ص ٩٩

٢ـ الحجرات آية ١٠

٣ـ الحجرات آية ١٣

واحدة ، فلو ساد هذا المفهوم الاسلامى العالم اليوم لما وجدت بينه هذه الحروب الطاحنه والأسلحه الفتاكه التى يتسابقون على اختراعها كل على حدة ليملك سر ان القوة فى يده لكى يدمر به الآخرين !

ولكن هذه الشمولية لا يريدها طه حسين ، وإنما يريد "صورة جديدة للقومية والوطنية نشأت فى هذا العصر الحديث ؛ وقامت عليهما حياة الأمم وعلاقاتها ! !" (١)

والخلاصة التى وصل إليها هى أنه "لابد من أن تدخل هذه الصورة الجديدة فى الأزهر ، وهى إنما تدخل فيه من طريق التعليم الأولى والثانوى على النحو الذى رسمناه وبالطريقة التى رسمناها وبإشراف السلطان العام . .

وعلى كل حال فإنه "لا ينبغى أن يغتر الأزهر لأن الناس يسمعون له الآن ويفهمون عنه بعض الشىء ، فكثرة المصريين الآن ، لا تزال متأثرة بعقلية القرون الوسطى . ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غدا أو بعد غد عن هذا الطور وستصوغ الأجيال الناشئة والأجيال المقبلة صيغة حديثة أوربية" (٢)

هذا هو المقصود من تطوير الأزهر ، والمعاهد الاسلامية عامة ، أن تخرج هذه المعاهد من الصيغة الاسلامية التى يصفونها بعقلية

١ـ المرجع السابق الفقرة ١٣ ص ٩٩

٢ـ المرجع السابق الفقرة ١٣ ص ٩٩ والفقرة ٥٠ ص ٤٣٨ .

القرون الوسطى" وهو تعبير أطلقه المستشرقون على الفترة الزمنية التى ظهر فيها الاسلام والتى تقابل العصور المظلمة فى أوربا ، عصور الجهالة النكراء . .

ولذا نحن لا نقبل هذا النوع من التطوير ، وإن كانت ثمّة جوانب تحتاج إلى إصلاح ولكن الإصلاح لا يعنى المحو والإزالة للوجه الاسلامى .

تلك عوامل متفرقة تعرضت لها باعتبار أنها كانت وما زالت إلى حد ما ذات أثر فعّال فى صياغة الناشئة صياغة علمانية بعيدة عن الدين .

ولا يخفى أثر التلميذ فى مجتمعه فهو ذخره المدخر . وهو القابض على زمام المستقبل، فكيما يكون هو يكون المجتمع ، ولهذا السبب ركّز عليه المستعمر الحاقد على الاسلام ، وحاول أن يُعِدّه إعداداً خاصاً للتأثير على الحياة الاجتماعية ، ولذلك فقد كانت علمنة التعليم وصبغه بالصبغه غير الدينية ، ذات أثر كبير فى حياة المجتمعات الاسلامية مما نشاهده اليوم من بُعد عن الدين، ولا سيما فيما يتعلق بشئون الحكم والسياسة حيث عُدت الغالبية من المسلمين لا تفهم من الاسلام غير صور العبادات المتمثلة فى شعائر الصلوات ومناسك الحج وفريضة الصوم والزكوات والتحاكم إليه فى الأحوال الشخصية ، وحتى هذه الأخيرة بدأت تفقد فاعليتها فى بعض البلاد الاسلامية .

وما سوى تلك الصور فهو متروك لما أسموهم برجال السياسة العلمانيين ، غير أنه لنا أمل كبير فى هذه الطفرة الاسلامية الثابتة الخطى فى الجماعات الاسلامية المعاصرة ، التى تفهم الاسلام على أنه

كل لا يتجزء وترد الحاكمية لله وحده ، وتنادى بالاسلام (دستوراً) شاملاً للامة الاسلامية .

وقد انحكر هذا الفكر الاسلامى النَّيِّر على الطلاب فى المدارس والجامعات بالرغم من المناهج العلمانية التى تُدرس لهم . وهى التى أثارت الرعب والهلع فى قلوب أعداء الاسلام ، وهى التى عناها أحد المستشرقين بقوله :(١)

(إن الحركات الاسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تنفجر انفجاراً مفاجئاً ، قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها ما يدعوهم إلى الاستراب فى أمرها .

فالحركات الاسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة ولا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين من جديد)(٢) .

وهو أمر حقيقى لا رِيْبة فيه ، أن العالم الاسلامى اليوم لا يفقد إلا القيادة التى توحّد بينه وتجمع شتاته وتلم شعثه الذى تفرق شذر مذر ، يفقد الخلافة الاسلامية التى ترفع الراية وتقود السفينة التى فقدت رُبّانها فتاهت فى بحر لُجّى إلى بر السلامة

ولا تزال هذه الحركات الاسلامية التى تطالب بالتحاكم إلى شرع الله ، عز وجل ، تُلاحَق من قِبَل أعداء الاسلام فى الخارج

---

(١) هو (جب) فى كتابه وجهة الاسلام ص ٣٦٥

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٢٠ .

والداخل .

فهذه أمريكا ترصد تحركات هذه الجماعات وتخشى أن تقوم بعمل إسلامى وتوعية جماهيرية تعيد الاسلام إلى تالد مجده .

جاء فى بعض الصحف مايلـــى :-

(بعد أحداث إيران . . . طلب (زبغنيو بريجنسكى) مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى من مساعديه إعداد تقرير خـــاص عن الحركات الاسلامية فى العالم العربى والدول الاسلامية وأثرهـــا الدينى والسياسى فى التأثير على نظام الحكم والنخبة الحاكمة فى البلاد..

وكانت مصر على رأس هذه الدول التى تحاول الإدارة الأمريكيـة معرفة أثر الاسلام على النظام السياسى فيها . . .

وتتساءل الإدارة الأمريكية مركزة على مصر خوفاً من تكرار الحركـــــة الاسلامية الإيرانيـــة !

(هل ما حدث فى إيران من انتفاضة شعبية بقيادة أئمة الدين الاسلامى من الممكن أن تتكرر فى مصر ؟ وهل ما حدث فى إيران قد يدفع رجال الدين . . إلى التحول أيضاً إلى رجال دنيا والرمى بثقلهم فى حلبـة السياســة ؟(١)

---

(١) الإدارة الامريكية تتحدث عن الدين الاسلامى من مفهومها هى للأديان على أنها بعيدة عن السياسة وأن هناك رجالاً للدنيا ورجالاً للسياسة ، ولكن عندنا فى الاسلام لا رجال دنيا ورجـــال دين . . بل الكل تحت راية الاسلام يمشى بمقتضاه، وعندنا علماء وليس رجال دين حسب التعبير الكنيسى . . .

وتحاول حصر أمكنة النشاط الاسلامى وأوجه ذلك النشاط حتى يمكن توجيه ضربة قاضية له بطريقة أو بأخرى حيث (تعتبر الجامعات المركز الرئيسى لقيام الحركات الدينية بين شباب الجامعات ، حيث لوحظ مؤخرًا انتشار ظاهرة العودة لأصول الدين بين مجموعات كبيرة من الشباب والشابات وظهر ذلك على تصرفاتهم وملابسهم ومعاملاتهم الاجتماعية)[1] .

وتعرض التقرير لحصر الحركات الاسلامية فى العالم الاسلامى فى أفغانستان ضد الحكم الشيوعى وإيران وتحركات المسلمين فى روسيا والفلبين ... وغيرها .

وعلى العموم فإن فى هذه الآونة نجد عملية ملاحقة شديدة للتحركات الاسلامية من قِبَل أعدائه الذين جندوا لها إعلامهم حيث لا تكاد تجد صحيفة من صحف الغرب أو الشرق الشيوعى لا يكون فيها مقال عن الاسلام وأنه سوف يكتسح العالم عما قريب ويعود به إلى القرون الوسطى ... ولكن الله لهم بالمرصاد .

وعلى العموم فإن الناظر إلى قصد هؤلاء من تطويق الأزهر والمعاهد الاسلامية عامة يرى أن القصد هو قتل الروح الاسلامية والحماس الاسلامى كما ذكر جب ...

---

(١) ملخص عن صحيفة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن عدد الخميس والجمعة (٨ و ٩ /٢/ ١٩٧٩) .

الفصل الثاني

((أثر العلمانية في الإعلام))

يشمل مايلي :-

(١) لمحة عن الإعلام في الجاهلية والاسلام .

(٢) من خصائص الإعلام الاسلامي، الصدق في الخبر والموضوعية .

(٣) أقسام الإعلام الحديث .

(٤) الصحافة العلمانية تؤثر في المجتمع الاسلامي .

(٥) الإعلام العلماني عامة يطبع المجتمع الاسلامي بالطابع العلماني ..

(٦) نماذج لبعض الكتب التي كان لها الضلع الأكبر في علمنة المجتمع الاسلامي .

الفصل الثانى

(أثر العلمانية فى الإعلام)

المبحث الأول :

نبذة قصيرة عن الإعلام فى الجاهلية والاسلام

الإعلام من الوسائل التى استعملها الانسان قديمًا ولن تنوعت الطريقة التى استعملت بها هذه الوسائل للإتصال بين الناس .

فالانسان دائمًا يبحث عما يساعده ويعينه على العيش الرغيد على ظهر هذه البسيطة ويسهل له مجال التعاون بينه وبين بنى جنسه من البشر .

ولذلك فقد جاء التعريف العام للإعلام بهذا المعنى الشامل الذى يدور حول تعريف الناس بعضهم ببعض وتبصيرهم بما يجرى من حولهم .

و " الإعلام : مصدر أعلم ، وهو أعم من الإلهام .

وعند المحدثين هو أن يُعْلِمَ الشيخ الطالب أن هذا الكتاب روايته أو سماعه مقتصرًا عليه[1] "

وعمومًا يمكن القول بأن الإعلام هو : تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التى تساعدهم على تكوين رأى صائب

---

(١) محيط المحيط ، مادة (عِلم) جـ ٢ ص ١٤٦٢ ، بطرس البستانى .

فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعبّر هذا الرأى تعبيرًا موضوعيًا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم[1].

وقد عرف العرب فى جاهليتهم نمطًا من الإعلام - حسب زمانهم - سهل لهم سبل الاتصال والتعايش فيما بينهم وبين العالم من حولهم. ومن الأنماط التى كانت سائدة عندهم من وسائل الإعلام :

التجارة :

والتى كانت تعد وسيلة إعلامية للاتصال الداخلى فيما بينهم حيث تدور معاملاتهم التجارية وتبادل السلع المحلية .

أما الأخرى فقد كانت ذات طابع عالمى نوعًا ما حيث تمثلت فى رحلتيهم ، الشتوية والصيفية .

وكانت إحداهما تتجه جنوبًا وشرقًا حيث اليمن وحضرموت والبحرين وما حولها . . .

والأخرى كانت تتجه نحو الشمال . حيث الدولة الرومانية وقد جاء ذكر الرحلتين فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . .)[2] والآية .

---

(١) الإعلام والاتصال بالجماهير ، دكتور إبراهيم إمام ص ١١ نشر مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية (١٩٧٥م)

(٢) قريش آيات ١ - ٢

ومن تلك الوسائل ، الأسواق العربية الشهورة ، مثل سوق عكاظ وغيره .. والتى كانت تعقد فيها الندوات ويتبارى فيها الشعراء حيث يعرض كل شاعر بضاعته الشعرية وإنتاجه الفكرى الأدبى على الحكّام الذين جاءوا خصيصاً لهذا الأمر ، وبعد التحكيم توزع الجوائز للفائزين وتتناقل الرواة قصائدهم وتذاع وتنشر .

وفى الأسواق تعقد ندوات الصلح بين القبائل المتحاربة وتعقد الصفقات التجارية ، وكذلك تعقد الزيجات ويخطب الخطاب ، وتعلن الحروب . .

فإذاً الأسواق كانت وسائل إعلامية أكثر من كونها مراكز لعرض البضائع التجارية .

ومن وسائلهم الإعلامية التى كانت لها صدى بينهم :

الخُطب :

كانت الخطبة ـ على قلتها ـ ذات أثر إعلامى فى حياة العرب تحكى لهم الأمجاد وتنفث فيهم روح الحماس والحمية وتزكى أوار الحرب حيناً وتخمد جذوتها حيناً آخر . .

وكانت الخطبة الجاهلية تتميز بالقصر والإيجاز ليسهل حفظها وهضمها ونقلها إلى لغير لقلة الكتابة عندهم ، كما كانت تشتمل على شىء من الحِكمة . .

من خطب خطيبهم وحكيمهم قُس بن ساعدة الأيادى (١) فى سوق عكاظ قال :

١ـ قس بن ساعدة ، خطيب جاهلى يضرب به المثل فى البلاغة والحِكمة .

" أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت ، ليل داج (١) ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر (٢) وبحار تزخر (٣) وجبال مرساه ، وأرض مدحاه (٤) وأنهار مجراه إن في السماء لخبرًا ، وإن في الأرض لعبرًا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون : أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟! يُقْسِمُ قس بالله قسمًا لا إثم فيه أن لله دينًا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه إنكم لتأتون من الأمر منكرًا . . (٥)

ومن أكبر الوسائل الإعلامية عندهم :

الشعر :

فقد كانوا ينظمون فيه القصائد الطوال التي ربما استمر الواحد منهم في تهذيبها حولاً كاملاً حتى سميت بالحوليات لشدة العناية بها ، كما كان الجيد منها الذى يفوز في سوق عكاظ يكون له شأن خاص كما تكون لشاعره منزلة عند قومه ووسط القبائل الأخرى ؛ ومن ذلك ما روى عن المعلقات السبع أو العشر ، التي عُلقت على أستار الكعبة

١ـ ليل داج : مظلم

٢ـ تزهر : تضيء وتتلألأ

٣ـ تزخر : تمتلئ وترتفع

٤ـ مدحاة : مبسوطة أو مكورّة

٥ـ صبح الأعشى لأبى العباس أحمد القلقشندى جـ ١ ص ٢١٢ الطبعة الأميرية بالقاهرة (١٣٣١هـ - ١٩١٣م)

لتعظيمها وموقعها فى نفوس لنوم .

وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر تحتفل به وتكرمه لأنه سيرفع من شأنها ويعلى قدرها بوسيلته الإعلامية النافذة ، فإنه ربما تكون القبيلة منحطة ولا شأن لها يذكر وسط القبائل ، أو يكون بها عيب فإذا برز فيها شاعر يمدحها ويذكر محاسنها أو يحسّن قبيحها . . فإنّ شأنها سيعلو وتكون لها مكانة مرموقة بين رصيفاتها .

ومن ذلك لقب بنى أنف الناقة الذى جَرَّ على القبيلة كل عار وذيلة وأصبحت القبائل تعيّرهم به فلم يزالوا موضع قدم من الناس حتى جاء شاعرهم بوسيلته الإعلامية وقال أبياته الشهيرة: (١)

سيرى أُمَامَ فإن الأكثرين حصبى والأكرمين إذا ما ينسبون أبا (٢)

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وبهذه الأبيات علا شأن بنى أنف الناقة وانسلخ عنهم ما ألصق بهم .

وقصة المحلّق أخ البنات الثلاث اللاتى كسدت سوقهن فنفقت بعد ذلك بشعر الأعشى ، كما جاء فى الأغانى :

أنه كان لأبى المحلق شرف قمات وقد أتلف ماله ، وبقى المحلق وثلاث أخوات له ، ولم يترك لهم إلا ناقة واحدة وحُلتى برود حَمْرة (٣)

١ـ أنظر ديوان الحطيئة ص ١٦ ، ١٧ شرح أبى سعيد السُّكَّرى دار صادر بيروت (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م)

٢ـ الحصى : العدد ويطلق على الكثرة. أُمَامَ : مرخم أمامة .

٣ـ برود حَمْرة : ثياب مخططة ، ومُعلَّمة بالنقوش.

فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريد منزله باليمامة ، فنزل الماء الذى به المحلق ، فقراه أهل الماء فأحسنوا قراه .

فأقبلت عمة المحلق ، فقالت له : يا ابن أخى هذا الأعشى قد نزل بمائنا وقد قراه أهل الماء ، والعرب تزعم أنه لم يمدح قومًا إلاّ رفعهم ولم يهج قومًا إلاّ وضعهم ، فانظر ما أقوله لك واحتل فى زِقٍّ عند بعض التجار فارسل بهذه الناقة والزق وبردى أبيك فوالله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر فى جوفه ونظر إلى عطفيه فى البردين ليقولن فيك شعرًا يرفعك به . .

ولكن المحلق اعتذر لعمته ، بأنه لا يملك غير هذه الناقة وهو يرجو لبنها . . ولكن عمته لما علمت أن دعاية الأعشى الإعلامية الشعرية سوف تكسبه أكثر من الناقة ، إذا ما ذاع المدح وطار ذكره - لما علمت ذلك فما زالت به حتى أتى بعض التجار فكلمه أن يقرضه ثمن زق خمر بعد أن أتاه بمن يضمن ذلك عنه .

فأعطاه التاجر بعد أن استوثق منه ، " فوجّه بالناقة مع مولى أبيه فخرج " يتبع الأعشى ماء ماء كلما جاء ماء قيل له : إنه قد ارتحل حتى لحق به فى داره " فدخل فأدى الرسالة وقد أناخ الجزور بالباب ووضع الزق والبردين بين يديه . فقال له الأعشى : أقْرِه السلام وقل له : وصلتك رحم " سيأتيك ثناؤنا "

وبعد أن نحر الأعشى الجزور هو ورفاقة " واعتلج الكبد والسنام

والخمر فى جوفه ونظر إلى عطفيه فى البرد بين أنشأ يقول : (١)

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى يفاع تحـــرق (٢)

تشب لمقرور دين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق (٣)

يداك يد اصدق فكف مفيدة وأخرى إذا ما ضن بالزاد تنفـق (٤)

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقى تفهـق (٥)

طويل اليدين رهطه غير ثنية أشم كريم جاره لا يرهـــق (٦)

كذاك فافعل ماحييت إليهم وأقدم إذا ما أعين الناس تبرق (٧)

" قال فسار الشعر وشاع فى العرب ، فما أتت على المحلق سنة حـــتى زوج أخواته الثلاث كل واحدة على مائة ناقة فأيسروشرف "*

والشعر يعتبر دعاية إعلامية تروج بسببه سوق المعلن عنه وتجلب له ما يصبو إليه ، إذا ما انتشر هذا الشعر وضربت به أكباد الإبل وحدى به الركبان وتغنى به الرعاة . .

١ـ الأبيات عن ديوان الأعشى الكبير ص ٢٢٣ الطبعة النموذجية شرح وتعليق د . محمد حسين (بدون تاريخ للطبعة)

* القصة بتصرف عن الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جـ٩ ص ٣٢٣٥ . تحقيق إبراهيم الأبيارى طبع دار الشعب (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م)

٢ـ لاحت عيون : ظهرت وأراد بالعيون الناس حيث أطلق الجزء وأراد الكل واليفاع : المكان المرتفع .

٣ـ تشب : توقد القر : البرد والمقرور من أصابه البرد اصطلى النـــار : استدفأ بهاء الندى : الكرم .

٤ـ الصدق : الفضل والصلاح . مفيدة : معطية ضن بالشىء بخل به وحرص عليه

٥ـ الجفنة : القصعة التى يقدم فيها الطعام . الجابية : الحوض والسيح : النهر . فهق الإناء : امتلأ .

٦ـ الرهط : الجماعة . ثنية : جمع ثنى بفتح فكسر مَنْ دون السيِّد . أشم : مترفع عن الدنايا . لا يرهق : لا يتهم بشر . لا يحمله على مالا يطيق .

٧ـ برق ـ بالفتح : تحير حتى لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر .

ولا سيما إذا كان ذلك تشبيبًا بالنساء وذكر حسنهن ، فإنه لا تلبث تلك القصيد بذكرها أن تلتفت إليها الأنظار وتتعلق بها القلوب وتلهج بها الألسن ويصبح كل واحد يتمنى أن تكون له ، مادام أنها قد ذُكرت في هذا الشعر ؛ فلولا أنه كانت لها مكانة لما تغنى بذكرها الشاعر ، وهذا ماحصل بالنسبة للمرأة التي كسدت سوق بناتها (وعُرن) عليها ، فجاءت للأعشى وطلبت منه أن يشبب بواحدة منهن ، ففعل فزُوِّجت - كذلك فعل بالباقيات حتى نفقن كلهن .. (١)

تلك نماذج من آثار الشعر الإعلامية ، فهو لا يقل عن وسائل الدعاية الإعلامية التي تروِّج لشيء من الأشياء في عصرنا الحاضر ، سواء كان ذلك عن طريق الصحف أو المجلات أو الإذاعة والتلفزيون .

وعمومًا فقد كان للشعر دوره الإعلامي البارز الذي لا ينكر سواء أكان ذلك في الحرب أو في السلم أو في النواحي الاجتماعية الأخرى ، فإنه بما له من تأثير عاطفي ، حيث أنه يخاطب الوجدان أكثر مما يخاطب العقل ، أو قل يؤثر على العقل عن طريق الشعور العاطفي .

ولهذا فقد كان الشعر ذا أثر ملموس وواضح في سَيْر مكوِّنات الحياة ومجريات الأمور ، الشيء الذي جعله يُحفظ ويُنقل من كل عصر إلى عصر حتى في الوقت الذي كانت تقل فيه الكتابة أو تكاد تنعدم ، ومع عدم وجود الطبعة فقد حمله الإنسان في ذاكرته إلى يومنا هذا .

---

١ - أنظر الأغاني جـ ٩ ص ٣٢٣٨

ومن هنا يُفهم قوة الإعلام الكبيرة وآثاره الخطيرة فى الفرد والجماعة والأمة ، فهو مرآة الأنباء التى تسود المجتمع والأخبار التى تتفشى فيه وهو الأداة التى يقوم بها الرؤساء شعوبهم واللسان الذى يخاطبون به رعاياهم .

ولا يجهل أحد أثر الإعلام فى الجوانب الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية قديمًا وحديثًا كما سنوضحه فيما بعد .

بعض وسائل الإعلام فى الاسلام :

ذلك ما كان بشأن الوسيلة الإعلامية فى العصر الجاهلى، أما عن الإعلام فى الاسلام فقد كانت له ، وسائل أخرى علاوة على الوسائل السابقة والتى غدت ضئيلة بالنسبة لوسائل الإعلام الاسلامية وسوف أوجز القول عن بعض هذه الوسائل والخصائص والمميزات .

القرآن الكريم :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا ومرشدًا وهاديًا فى كل شئون الحياة ، تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو نور لكل عبد منيب إلى الله راغب فى خيرى الدنيا والآخرة .

ولذلك فقد اعتنى القرآن بتنظيم شئون الحياة كلها وما يكون عليه المآل بعدها ، وهو بهذا الشمول يعتبر إعلامًا وإنباء للناس وتبصرة فى كل ما يُبتغى ويُطلب سواء فى العاجلة أو فى الآجلة . .

فهو كما وصفه صلوات الله وسلامه عليه . بقوله الذى يدل على هـــذا الشمول والإحاطة :

" كتاب الله تبارك وتعالى . فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر مـــا بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّـــار قصمه الله ، ومن ابتغى الهُدى فى غيره أضله الله ، هوحبل اللـــه المتين ، ونوره المبين . والذكر الحليم ، وهو الصراط المستقـــيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا تشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يَخْلَق على كثرة الـــرد ، ولا تنقض عجائبه ، هو الذى لا تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنـــا قرآنا عجبًا يهدى إلى الرشد ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صـــدق ومن حكم به عدل . ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صـــراط مستقيم " (١)

إذًا ، إعلام القرآن من نوع فريد ؛ فهو يُعلم عن الماضى والحاضر والمستقبل . . وهذا مالا يوجد فى غيره ؛ ذلك لأنه من لدن حكيم خبير .

قال تعالى : " يا أيّها المدّثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر "(٢)

والإنذار هنا أعم من التخويف ، فهو إعلام وإخبار ، فهـــــو

١ـ رواه الترمذى عن على رضى الله عنه ، مرفوعًا أنظر كتابه الجامع الصحيح جـ٥ص١٧٢ باب١٤ ماجاء فى فضل القرآن تحقيق ابراهيم عطوه طبـــع مصطفى الحلبى الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) .

٢ـ المدثر آيات ١ - ٤

صلى الله عليه وسلم ، أمر أن ينبئ الناس ويعلمهم بما يصلح أمرهم وقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . .

ومن صور الإعلام الاسلامى ، أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوتى جوامع الكلم وحسن العبارة .

وتعتبر الغزوات والسرايا والكتب التى كان يبعث بها صلى الله عليه وسلم ، للملوك والرؤساء . . كلها تعتبر من وسائل الإعلام الاسلامى التى بُلّغت بها الدعوة إلى الخلق وانتشر عن طريقها الاسلام فى أرجاء المعمورة . .

ولهذا فقد كان لانتصار المسلمين فى بدر نصر إعلامى كبير أهابتهم بعده كل القبائل العربية وفتحت للناس فتحاً جديداً دخل به الناس فى دين الله أفواجاً بعد أن كانوا فرادى .

كما كان للشعراء الاسلاميين دورهم البارز فى الدعوة الاسلامية من أمثال حسان بن ثابت الأنصارى وكعب بن زهير . . وغيرهم من شعراء الدعوة الاسلامية . .

من خصائص الإعلام الاسلامى :

ومن خصائص الإعلام الاسلامى التى لم تتوفر فى الإعلام العصرى أنه :

أ- إعلام يُخبر عن الحقيقة ولا مجال فيه للإعلان والدعاية القائمة على المخادعة وتزييف الحقائق والتمويه على الناس ، ذلك لأنه منزل من عند الله بالحق المبين ليحق الحق ويبطل الباطل .

" وبالحق أنزلناه وبالحق نزل " (١)

والإعلام الاسلامى لا يجامل ولا يحابى ، بل يقول لصاحب الباطل أنت على خطأ ويبين له ذلك ويخبره بجهله وعدم علمه بذلك ، ويقول للحق قد أصبت : " الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا " (٢)

ب ـ إعلام صادق :

ذلك لأن الإعلام الاسلامى ، هو لسان الوحى وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، المعصوم وتدبيره وخطاه لنشر الدعوة الاسلامية وتبليغ الرسالة إلى كافة الخلق .

فالإعلام الاسلامى فى كل مجالاته ، من تعليم وتثقيف وتدبير لشئون المجتمع فى كل ذلك ، يسلك الصدق وينبى بالخبر الحق وينشر الحقيقة كما هى حقيقة ، وينقل الحادثة كما وردت ووقعت ولا يُحَرِّف ولا يُزيّن الباطل بالنمرق البرّاق الخادع ليسحر أعين الناس وبرهبهم ، " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (٣)

---

١ ـ الإسراء آية ١٠٥

٢ ـ الكهف آيات ١ ـ ٥

٣ ـ التوبة آية ١١٩

فهو لا يقبل الخبر على ما جاء عليه من أى جهة ، كما تفعل الآن وكالات الأنباء لا تتحرى الدقة فى أخبارها ونقلها .. الإعلام الاسلامى يتحرى دقة النبأ حتى لا يتأذى أحد بذلك ، إذا ما كان خطأ وكان من قبيل الشائعات الضارة .

" يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " (١)

وكذلك الذى يكذب بالصدق بعد أن يأتيه ، فهو من الظالمين ذلك لأنه بتكذيبه الصدق يتسبب فى إضرار نفسه ومجتمعه : " فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه " (٢)

ولمّا كان الكذب يورد صاحبه الموارد ويجر على الأمة الويلات والخسران ، فقد حذّر منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحث على الصدق الذى به يسود العدل والرخاء فى المجتمع الصادق إعلامه .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وأن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا " . (٣)

١- الحجرات آية ٦
٢- الزمر آية ٣٢
٣- فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٠ ص ٥٠٧ باب رقم (٦٩)

جـ - إعلام موضوعي :

الإعلام الاسلامي إعلام يتسم بالموضوعية ، فهو ليس إعلاماً شخصياً ضيق النظرة ينحاز بالقضية لصالحه الشخصي ولو كان الحق عليه ، بل يذكر قضية الخصم بجانب قضيته ، ويطرح القضيتين للعقل ليحكم عليهما ويضعهما في ميدان العدل والإنصاف فهو إذاً يتوخى العدل حيثما كان وأينما وجد وعلى أية صورة جاء له أو عليه :

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون " (١)

وهذا مالا نجده في الإعلام الحديث ، حيث أنه أعلام شخصي منحاز يمدح نفسه ومن يواليه ، ويذم مخالفه ولو كان على حق ولا يذكره بحسنة واحدة . الشيء الذي جعله إعلاماً مضللاً يلبس الباطل ثوب الحق ويستر الصواب ، الذي لا يكون في صالحه ، بغطاء الباطل الخطأ .

وموجز القول عن الإعلام الاسلامي هو أننا نجده يهتم بالراوي للخبر ويهتم كذلك بالرواية نفسها وبالخبر المروي . . وهذا قل أن تجده في الإعلام الحديث عادة ما يهمل المروي فهو يلقي الخبر كيفما اتفق

---

١ - المائدة آية ٨

ولذلك لا يهتم كثيراً بالوسيلة التى يؤدى بها الخبر وتوصله إلى هدفه .

ولذلك فقد حاز الإعلام الاسلامى صفة النزاهة والكمال ، فهو مثلاً لا يستعمل وسيلة ، الرقص المحرّمة للإعلان عن مبادئه كما أنه ينأى بنفسه عن اتخاذ الأساليب والوسائل التى تخدش الحياء وتنال من الفضيلة وتقوم على الخداع والتضليل . . .

المبحث الثانـــى

الإعـلام فى الوقـت الحاضـــر

تنوعت وسائل الإعلام فى العصر الحاضر وتعددت وسائلها وأساليبها ، فهى فى مجموعها تشمل النقاط التاليـــة :

أ ـ وسائل مقروءة ، وتشمل :

١ـ الصحـــف

٢ـ المجـــلات

٣ـ النشـــرات

٤ـ الكتـــب

٥ـ الرسائـــل

ب ـ وسائل مسموعـــة (الاذاعة ، الأشرطة المسجلـــة ، الندوات ، المحاضرات ، الشعر وكالات الأنباء . .

ج ـ وسائل مسموعـــه ومرئيـــة (التليفزيون ، المسرح ، السينما ، "الخيالة" وآلة الفيديو

د ـ وسائل مرئية فقط (النحت والرسم والزخارف الخطية

وأنا هنا بصدد الكلام عن آثار العلمانية فى الإعلام لا أود أن أعدد أو أتتبع كل آثارها ، مما لا يحتمله هذا البحث ، ولهذا سوف أتطرق لبعض تلك الآثار باختصار . .

الصحف والمجلات :

تعتبر وسائل الإعلام المقروءة ولا سيما الصحف والمجلات ، ذات أثر كبير فى قطاعين مهمين من المجتمع ، وهما الطبقة ذات الثقافة العالية ، وذات الثقافة المتوسطة ؛ لأن معظم القراء للصحف والمجلات من هذين النوعين . .

وموضع الخطر يأتى من أن المثقفين ، وهم الذين يتولون مقاليد الأمور ويقومون على شئون الطبقات التى لم تنل حظاً من التعليم وهم الأكثرية فى العالم الاسلامى .

فإذا كان هؤلاء صالحين ، فإن البقية الباقية تبعاً لهم وكذلك هم الذين يرسمون كل الخطط التربوية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية . . .

ولذلك فقد تأثرت هذه الفئة من المسلمين كثيراً بما تكتبه الصحافة العلمانية ، وبما تلقوه من ثقافة غربية غير دينية . فعكسوا كل تلك الأفكار على مجتمعهم وتأثر المجتمع بهم لأنه يرى فيهم الفئة المستنيرة وهم الذين يريدون تطوير البلاد ويلحقونها بركب الأمم التى يرون أنها متقدمة ، ولذلك نجد أن " أهم ما يلفت النظر فى عملية التطور

هذه الجهود الضخمة التى ظهرت فى كل بلدان الشرق الأوسط لم يكن وراء هذه الجهود الأوربيون ، بل جاءت كلها نتيجة لعمل الشرقيين المهنيين من أبناء الطبقة الوسطى ، وكان فى طليعتهم المحامون . . والصحفيّون ، فكل مراكز الدولة الحساسة هى الآن فى أيدى المتغربين الذين أدخلوا الأساليب الغربية إلى سائر مناحى الحياة الوطنية ، ولم يكن هذا ناشئاً عن درجة تهم السبقة لفوائد " التغريب " بل لأنهم وجدوا أن من الطبيعى القيام بحركة " تغريب" (١)

ووسائل الإعلام المقروءة بما لها من خاصية تميزت بها أكثر من غيرها ، حيث أنها تعطى القارىء سندوحة وبرهة للتفكير والتأمل وتدقيق النظر وإعمال الفكر فيما بين السطور مما يجعله يتأثر بالشىء المكتوب ويداخل أعماق نفسه ويمتزج بمشاعره ، ويَسْرَح معه بخياله أحياناً ويعمل فكرة أحياناً أخرى ، مما يحدث له أخذاً وردّاً وشداً وجذباً بينه وبين نفسه بالنسبة للأفكار المكتوبة . .

ولقد كان للإعلام المقروء على الأخص الصحف والمجلات والكتب أثر كبير فى ترويج الأفكار والمذاهب والنظريات الفاسدة كالعلمانية وغيرها ، ولنعرج قليلاً على الصحافة لنرى دورها فى ذلك .

١ـ الاسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينبى ، تعريب د . نبيل صبحى ص ٨ . .

أثر الصحافة العلمانية فى المجتمع الاسلامى

كانت الصحافة فى المجتمع الاسلامى عامة تقع تحت التأثير الاستعمارى الغربى ، وعلى الأخص فى أوائل القرن الحالى عندما كانت البلاد الاسلامية قد شهدت تجزئاً كبيراً بسبب هذا الاستعمار الذى جعلها دويلات بعد أن وأدت الخلافة الاسلامية ومحى اسمها من الوجود ورسمها من الأرض الاسلامية . .

فقد جنّد المستعمر ـ عدو الاسلام ومبعثر المسلمين ، الصحف لكى تنفث سموم العلمانية فى المجتمع الاسلامى .

وقد ظهرت صحف تزعمت فكرة إدخال العلمانية فى المجتمع الاسلامى وكان كتّابها ممن وقعوا فى فخّ الثقافة العلمانية الغربية .

وكانت الصحافة فى ذلك الوقت ذات مناهج وطباع متنوعة ومختلفة حسب طبيعة الوقت الذى كان يموج من جهة الأفكار والمذاهب الأدبية والبعض الآخر كان يتجه نحو الحروب الدائرة فى العالم والقوى المتصارعة هناك ، حيث كان ينشر بعضها بعض هذه الأفكار والمذاهب الوافدة والفلسفات الغربية كالعلمانية ، وتمثل هذا النوع الأخير صحيفة المقتطف (١) التى انتقلت إلى مصر سنة (١٨٨٢م) وكانت قد ظهرت قبل ذلك بثمانية أعوام فى بيروت ، وكذلك تمثل ذلك الاتجاه العلمانى صحيفة الهلال (٢)

---

١ ـ أسسها يعقوب صرّوف وفارس نمر وهما من خريجى الجامعة الامريكية فى بيروت . .

٢ ـ أسسها جرجى زيدان وهو كذلك من خريجى الجامعة الأمريكية .

التى أنشئت فى مصر سنة (١٨٩٢م) وأصحا ذه الصحف " هم الذين تزعموا الدعوة الى العلمانية والتحررية فى الفكر العربى والاسلا ى الحديث .

وأهمية هذه الصحف لا ترجع الى ما كانت تذيعه فحسب ولكن أهميتها الكبرى كانت ترجع الى أنها كانت مركزا لتنشئة الجيل التالى من الصحفيين على هذه المبادئ العلمانية وهو الجيل الذى رمى بدوره جيلا آخر ، جاءت من بعده أجيال على شاكلته ، فلم نبلغ منتصف القرن العشرين ، حتى كانت الصحافة كلها فى أيدى العلمانيين (١) باستثناء بعض الصحف والمجلات التابعة للمؤسسات الدينية مثل الأزهر والجماعات الاسلامية ، كمجلة الاخوان المسلمين ومجلة لواء الاسلام وأخيرا مجلة الازهر ومجلة الشبان المسلمين ومجلة الدعوة . .

ونفس هذه الاتجاهات العلمانية فى الصحافة فى العالم الاسلامى ، هى ماعناها المستشرق " جب" حين لاحظ " أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الاسلامى ، كما يقرر أن مديرى الصحف اليومية ينتمون فى معظمهم الى ما يسميهم المتقدمين ، ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعا تحت تأثير الأراء والأساليب الغربية " (٢)

١ـ أنظر الاسلام والحضارة الغربية ص ١١١

٢ـ بعض النقاط التى فى الأقواس مقتبسه عن الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج٢ ص ٢١٧ .

ثم يستطرد موضحا أهمية هذه الصحافة العلمانية التى رعـــوا وربوا محريرها على أيديهم ، ومؤكدا الدور الفعال الذى تلعبـــه لتمكين المستعمر فى البلاد الاسلامية ، وأنها تسير فى نفس الاتجـاه الذى رسم لها ، وتتبع نفس المنهج الغربى العلمانى حيث أنهـــا " تحتوى كذلك على مقالات تشرح الحركات الاقتصادية والسياسية فـــى أوربا ، وعلى مقالات مترجمة من الصحف الأوربية . .

ثم ان كتاب هذه الصحف بما ينشرونه من مقالات وأخبار " يقـــون الرأى العام - فى البلاد الاسلامية - على مايجرى فى الغرب مـــن أحداث وما يستحدث من آراء . (١) وبهذا فهم يطلعون المجتمـــع الاسلامى على كل مايدور هناك فى ذلك المجتمع من آراء فاســـدة ومذاهب هدامة وأخلاق منحلة وفضيلة مضطربة ودين جعل مـــن " الخرافات " البالية التى تعوق مسيرة التقدم العلمى . .

ينقلون كل ذلك دون أن ينبهوا على وجه الفساد ، ممـا أدى الى اساءة القارىء المسلم وبلبلة أفكاره .

ومن هذه الزاوية وفدت العلمانية الى المجتمع الاسلامى بمبادئها الهدامة وفلسفتها المادية الالحادية وتشبثت بالعلم ، والعلم منهـا براء فالعلمانية فلسفة مادية عقلانية ترجع كل شىء الى العقل وتخضعـه لميزانه سواء كان دينا أو الها . .

---

١ - أنظر الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ج ٢ ص ١١٧

فى حين أن العلم انما يؤمن بالتجربة العلمية المعملية ـ ويخضع لها الماديات المحسوسة ولا يتطرق الى ماوراء المادة الا من قريب ولا من بعيد، وبهذا يعلن حياده وبراءته من العلمانية .

وزبدة القول : أن العلمانية فلسفة مادية والعلم تجربة عملية تتم وتجرى على المادة داخل المعامل والمختبرات . .

ولذلك فهى تعارض الأديان وتعاديها تعارض المباينة كما تناقض العلم وتخالفه كل المخالفة . .

ولعل الشيخ محمد متولى الشعراوى أخذته الشابهة فى الاسم فظن أن العلمانية من العلم ، فلقد زعم أن العلمانية لا تناقض العلم ولا تناقض الدين ، بل هى العلم وهى توءيد الدين ، وأن الدين الاسلامى دين علمانى !!

وحتى أكون منصفاً أورد مقالته بحروفها ، قال الشيخ : " أولا أنا أريد أن أناقش كلمة " علمانية " كى أبين أيضاً أنهم مخطئون ومضللون فى هذه التسمية . .

ما معنى كلمة علمانية ؟

معناها أنها تسير فى أقضيتها وفى كل مجالاتها على وفق ما يجيء به العلم . . ونقول لهم :

أنتم تقولون : علمانية بمعنى ليست دينية ، من الذى قال ان الدين ليس علمانيا ؟ . . الدين علمانى فى مجال العلم الذى يوءدى قضية يقينية لا اختلاف عليها ، وهناك الدليل عليها . .

ويستمر الشيخ مؤكدا على أن العلمانية من صميم الأديان وخاصة الاسلام قائلا :

" في الأمور المادية ماجاء دين - وخاصة الاسلام - ليناهض العلمانية ، بل هي فيه بأوسع معاني الكلمة !!

ويقول معتقدا ، أن العلمانية هي العلم التجريبي :

" والعلمانية الصحيحة الخاضعة للعلم التجريبي لا تناقض الدين إذن الذين يقولون ، علمانية ، مقابل ، الدين ، نقول لهم : أنتم جهلة لا تعرفون حتى أن تعقدوا المقابلة !! .

العلمانية لا تقابل الدين . . العلمانية في مجالها هي مع الاسلام انما الاسلام ضد العلمانية في غير مجالها . .

ويختم فضيلة الشيخ الشعراوي ، مقالته التي حاول أن يوفق فيها بين متناقضات لا يمكن اجتماعها بحال من الاحوال ، واذا كانت الخطوط المتوازية يمكن أن تلتقي فهي يمكن أن تلتقي كذلك . ولكن هيهات !!

والمتناقضات التي يريد الشيخ التوفيق بينها هي :

الدين والعلمانية ، والعلمانية والعلم .

فكل واحد من الاثنين لا يلتقي مع العلمانية ، لا الدين يلتقي معها ولا هي من العلم في شيء . .

فهي تقوم على نفي الأول وعدم الاعتراف به في ميدان فلسفتها العقلانية المادية . .

والثانى لا يلتقى معها ، حيث هو تجربة مادية ، يُخضع الأشياء المحسوسة المادية للتجارب المعملية ثم بعد ذلك يحكم عليها ، لا أن يحكم عليها بالعقل فقط وهو حكم نظرى .

والعلمانية فلسفة مادية تخضع الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة للميزان العقلى والعلم يخضع الماديات فقط للتجربة المعملية ولا يبحث عن الغيبيات أو ما وراء الحس ، ولا يحاول أن يخضعه لتجاربه ، ولم يحكم عليه حكما عقليا كما حكمت الفلسفة العلمانية .

أما الدين والعلم فلا تناقض بينهما حيث هو وتجربته المادية خاضعان ومسيران بيد القدرة الالهية التى تسير كل هذا الكون وهذا الذى ينبغى المسير اليه ! .

ويختم الشيخ مقالته بقوله :

" وهم عندما يعقدون المقابلة بين العلمانية والدين يريدون أن يفهموا النشء الذى ، ليس لديهم خميرة أن الدين مناقض للعلمانية فنقول لهم : كذب ان الدين لا يناقض العلمانية !! . العلمانية بمعناها الحقيقى الذى يجب أن يفهم هى الدين "(١)

ولعل الذى جعل الشيخ يعتقد أن العلمانية لا تناقض الدين هو اعتقاده أنها من العلم التجريبى ، وهذا الاعتقاد لم يوافقه الصواب

١ـ عن مجلة الرسالة الاسلامية . التى تصدر فى بيروت ص ٧ سنة (١٣٩٦هـ ١٩٧٦م) وقد سقط الجزء الذى فيه رقم العدد من الغلاف . .

وقد بينت أوجه الخلاف بين العلم والعلمانية فى الفصل الثانى وهو العلمانية فى اللسان الغربى ، وكذلك بينت فيما تقدم مناقضة العلمانية للأديان فى كثير من أجزاء هذه الرسالة . .

ولما للصحافة من أثر فعال فى تغيير مفاهيم المجتمع وتوجيه ثقافته الوجهة التى تريدها ، لما كان للصحافة ذلك الأثر ، فقد ركز عليها أعداء الاسلام تركيزا كبيرا وراحوا يصنفون الصحافة فى العالم الاسلامى ويدرسون خط سيرها الفكرى الذى تمشى عليه هل هو خط سير اسلامى أم عكس ذلك ؟

وهذا ما عناه أحد المستشرقين (١) من أن الصحافة التركية هى بطبيعة الحال وطنية لا دينية ، وهى لا تجرؤ على أن تكون دينية ، لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة (٢) أما الصحافة المصرية فهى على العكس من اتجاه الأولى الثورى - تتطور ببطء وتعرض طائفة متنوعة من الآراء الجديدة ، وهى على كل حال لا دينية فى اتجاهها ، أما الصحافة فى البلاد العربية الأخرى فى غرب آسيا فهى أكثر تمسكا بالجامعة العربية . أما الصحافة فى الهند فلا يزال سلطان الدين عليها قويا" (٣)

١- أنظر "WHITHER ISLAM. P.334"

٢- هذا فى عهد الحكومة الكمالية العلمانية أى بعد الغاء الخلافة الاسلامية لأن الكتاب لم يظهر الا عام (١٩٣٢م)

٣- الاتجاهات الوطنية جـ٢ ص ٢١٨ .

والحقيقة التى لا تنكر أنه كان للاعلام المقروء ، ومنه الصحافة أثره الكبير فى طبع المجتمع الاسلامى بالطابع العلمانى ذلك بما كان يشنه هذا الاعلام من حملات اعلامية مركزة على الاسلام والتقليل من شأنه فى المجتمع وفى نفس الوقت عكس الثقافة الغربية العلمانية ، وأنها ثقافة العالم المتحضر ، عالم " التكنولوجيا " وبما أثاره هذا الاعلام من قضايا اجتماعية مختلفة ، مثل قضية المرأة ووجوب العمل على " تحريرها " من القيود التى قيدها بها الاسلام - فى زعمهم - مثل ضرب الحجاب عليها ومنعها من الاختلاط مع الرجال والخروج للعمل معهم . . وابراز الصور الخليعة العارية ، وعرض الأزياء التى تخالف قواعد الشرع الاسلامى على صفحات الصحف والمجلات ، وغير ذلك من الحملات التى يقصد بها اخراج المسلم من دينه أو على أقل تقدير بجعله لا يأبه كثيراً بالقيم والمثل الاسلامية . .

اذا انضاف الى هذا المناهج التعليمية فى المدارس التى اصبحت لا تزود الطالب بالثقافة الاسلامية الكافية التى يستطيع أن يميز بها الغث من الثمين . .

وهذا بدوره جعل الشارع الاسلامى يبدو فى منظره العام ومظهر المسلم ، وكأنه قطعة من البلاد الغربية اللهم الا القليل من البلاد الاسلامية التى تحاول الابقاء على المظهر الاسلامى الخارجى ولو شكلا فقط ، والا فالداء عام ، وان تفاوتت درجات ذلك . .

وهذا الواقع الذى أصبح فيه العالم الاسلامى هو الذى رسمه

ونفذه أعداء الاسلام واستمر فيه مقلد وهم من تلاميذ المستشرقين والمفتونين بالغرب ، وهو مالاحظة جب فى بهجة وسرور حين ذكر " أن الاسلام بوصفه عقيدة لم يفقد الا قليلا من قوته وسلطانه ، ولكن الاسلام بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته فهناك مؤثرات أخرى تعمل الى جانبه ، وهى فى كثير من الأحيان - تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحا ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك ، ان المجتمع الاسلامى فى قوة وعزم ، فالى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللفلاح اتجاه سياسى ولم يكن له أدب الا الادب الدينى ، ولم تكن له أعياد الا ما جاء به الدين ، ولم يكن ينظر الى العالم الخارجى الا بمنظار الدين كأن الدين هو كل شيء بالقياس اليه ، أما الآن فأخذ يمد بصره الى ما وراء عالمه المحدود ، وتعددت ألوان نشاطه الذى لم يعد مرتبطا بالدين ، فقد أصبحت له ميوله السياسية ، وهو يقرأ - أويقرأ له غيره مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين ، بل ان وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الاطلاق ، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الاسلامية لم تعد هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل ، ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيى فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها ولكنه يعرف على كل حال ، أنها ليس مأخوذه من القرآن ، وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لامداده فى حاجاته الروحية فضلا عن حاجاته الاجتماعية ، بينما أصبحت صالحه المدنية وحاجاته

الدنيوية هى أكثر ما يسترعى انتباهه ، وبذلك فقد الاسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت فى طقوس محدودة" (١)

ويمضى المستشرق فى تحليله للمجتمع الاسلامى ، وكيف أن الأفكار الغربية جعلته يبدو علمانيا فى كل شئون حياته ، وهو يزعم أن هذه المرحلة التى وصل اليها المسلمون لا يمكن الرجوع عنها بسهولة ويسر نسبة لتمكن وتغلغل الفكر الغربى العلمانى فيهم ، هذا الفكر الذى شمل كل نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفى أجهزة الاعلام وفى التعليم وفى القوانين التى يتحاكم اليها المسلم وحتى فى الشئون الأسرية والعائلية الخاصة أصبحت الحياة تبدو غربية ، بل ويحبذ المسلم ولا سيما الشباب ، أن يبدو بالمظهر الغربى ، وأن يظهر نفسه أنه مثقف بثقافة غربية علمانية .

ثم يمضى بعد ذلك الى بلاد الاسلامية بلدا بلد محللا خط سيرها نحو الغرب تحليلا دقيقا مما يظهر أن هؤلاء النفر من أعداء الاسلام متربصون للمسلمين راصدين كل خطواتهم حتى اذا ما رأوا بصيص أمل نحو الاسلام أو عزوا لزيادتهم أن اخمدوا هذه الجذوة التى اتقدت وهو ما يحصل من حين لآخر من ضرب للحركات الاسلامية اذا ما قويت شوكتها وشبت عن الطوق ، ويشمل هذا كل الأجهزة التى تساعد على

١ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، جـ٢ ص ٢١٩

نشر الاسلام ونجد ما فى ذلك الصحف والمجلات الاسلامية بالعمل على ايقافها اذا ماهى تبنت الدعوة الى عمل اسلامى موحد . وأجهزة المذياع الاسلامية ان لم توقف نهائيا ، فانهم يعمدون الى " التشويش " على ارسالها حتى لا يسمع صوت الاسلام فى البلدان النائية كما حدث أن شوشت أجهزة الاتحاد السوفيتى على بث الاذاعة والتلفزيون الايرانيين . .

أما الكتاب المسلمون الذين يدافعون عن الاسلام ويبرزون محاسنه وصلاحيته للبشرية وخيرها ، فان مآلهم اما الى السجون واما الى الموت . .

وبهذه الطرق تخلو الساحة للذين تربوا على أيديهم وترسموا خطاهم من العلمانيين ، ومن ثم يطلقون عليهم ألقاب الوطنيين والشرفاء والأحرار . . وما الى ذلك من الالقاب ذات البريق الناري الذى يريدون أن يحرق شررة المسلمين . .

ذلك كان نذرا يسيرا بالنسبة للصحافة العلمانية وأثرها على المجتمع الاسلامى ، والحق أن اكثر أجهزة الاعلام المقروءة أثرا فى زرع العلمانية فى المجتمع الاسلامى ، كانت الصحف والمجلات ، وذلك لكثرتها وسهولة شرائها وكتابتها المتوالية للمقالات التى تمجد الغرب العلمانى وتعكس أفكاره وتقلل من شأن الاسلام . .

الكتب

أما بالنسبة للكتب التى كانت هى الأخرى السبب فى رواج الفلسفة

العلمانية المادية الهدامة في العالم الاسلامي فنذكر منها في المقام الأول كتب رفاعة الطهطاوي ، وان كان الأثر في هذه الكتب والدعوة الى العلمنة لا يرى فيها واضحا جليا ، ذلك لأن رفاعة كان يغلف ذلك بغلاف سميك حتى لا ينفر منه المجتمع المسلم في ذلك الوقت الذي لم يكن يعرف شيئا ذا بال عن هذه المذاهب والفلسفات الهدامة .

وحتى لو افترضنا أن اعجابه بأوربا ودعوة الناس للأخذ بحضارتها واتباع خط سيرها السياسي بارتسام رسمها الاقتصادي واتجاه نحوها الثقافي ، لو كان كل ذلك عن حسن نية منه فانه كان الشرارة الاولى لأن هذه الدعوة قد عملت عملها فيما بعد وهيأت الجو للأجيال التالية .

وكانت كتب رفاعة الطهطاوي متنوعة بحيث شملت كل النواحي ، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وشئون المرأة ، والتعليم والتربية والقوانين . . . ومن هنا كان مكمن الخطر . .

ومن كتبه التي شملت عدة نواح قانونية واجتماعية كتابه " مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية "

وكتابه " تخليص الابريز في تلخيص باريز " الذي تعرض فيه للقوانين الفرنسية العلمانية وقارنها بالشريعة الاسلامية ووصف تلك القوانين بالعدل والانصاف . .

ومن كتبه المرشد المعين للبنات والبنين" الذي تكلم فيه على التعليم عامة وتعليم البنات خاصة وحث فيه على خروج المرأة للعمل ووجوب مشاركتها الرجل في كل شيء دون قيد ولا شرط في كل نواحي الحياة ومناشطها . .

وهناك كتب طه حسين الأدبية والفكرية ونذكر منها على سبيل المثال كتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى طعن فيه الاسلام ونبيه وكذلك كتابه " مستقبل الثقافة فى مصر " الذى تعرض فيه للتعليم عامة والتعليم الاسلامى خاصة . (١)

ومن الكتب التى دعت الى علمنة المجتمع الاسلامى علمنة كاملة مركزة على القوانين ، التى هى العصب الحى بالنسبة للمجتمع حيث أنها تمس كل جوانب الحياة وتحكم بها كل تحركات الناس فى سير معاملاتهم ، من هذا النوع من الكتب كتاب :

" الاسلام وأصول الحكم " لعلى عبد الرازق ، الذى ركز فيه على عزل السياسة عن الاسلام وابعاده عن أى فكرة تدعو لادارة الاسلام للدولة فزعم أن الدولة يجب أن تكون علمانية لأن الرسول لم يدع الى تكوين دولة على حد تعبيره ، وانما كان يدعو لاقامة شعائر الدين المتمثلة فى العبادات وتزكية النفس وكلمة التوحيد ، لا إله الا الله ، وقد فاته أن لا إله إلا الله تعنى تفويض الأمر كله لله وعدم اشراك أى بشر غيره معه ، وعلى رأس ذلك أن تكون الحاكمية لله وحده . وبشرعه المنزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن التحاكم الى غير شريعته من القوانين الوضعية هو تحاكم الى الطاغوت ، فمن دعا الى التحاكم الى غير ما أنزل الله من شرائع وأحكام ، فقد أشرك مع الله

١ـ أنظر الابتعاث ومقاطره ، محمد الصباغ ص ٣٢

طاغوتا آخر لأن الحكم لله وحده : " ان الحكم الا لله "(١)

وآخر نموذج أعرضه للاعلام المقروء هو كتاب " اليوم والغد " لسلامه موسى (٢) . فقد دعا سلامه فى هذا الكتاب الى جعل المجتمع الاسلامى مجتمعا غربيا صرفا فى كل شىء بلا استثناء ، ودعا الى الأخذ بالقوانين الغربية الأوربية ونبذ التحاكم الى الشريعة الاسلامية فهو " يريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية " برلمانية كما هى فى أوربا وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ؛ أتوقراطية دينية . . وأن يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة ويمنع الطلاق بحكم محكمة . . . وأن يقتلع من أدبنا كل آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة . . " (٣)

كما دعا الى الخروج من آسيا نهائيا والالتحاق بأوربا فى كل أوجه النشاط البشرى . . . بهذا يكون قد دعا الى العلمانية فى قمتها دعا لها ، حتى جغرافيا وليس فكريا فحسب ، والقصد بالخروج من آسيا حيث منشأ الدين الاسلامى . .

والخلاصة أن الاعلام المقروء كان له الاثر البالغ فى حياة المجتمعات الاسلامية وهو قادر على توجيهها نحو الوجهة التى يريدها ان خيرا وان شرا .

١- يوسف آية ٤٠

٢- طبع الكتاب سنة " ١٩٢٧م "

٣- الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر جـ٢ ص ٢٢٢

وما يستوجب العناية به وتوجيهه الوجهة السليمة الصحيحة . . .

وعلى الدعاة الى الله أن يجندوا أقلامهم لمحاربة الأفكار الوافدة الدخيلة على المجتمع الاسلامى حيث أن الاعلام الحديث اليوم يحارب الدعوة فى كل مكان . . .

البحث الثالث

بقية أجهزة الاعلام

ليس القصد هنا أن أبحث فى وسائل الاعلام كلها وسيلة وسيلة ولعدد سلبياتها وايجابياتها ، فان هذا لا يقدر عليه الا من أفرد له بحثًا خاصا به ، بل وتصلح كل وسيلة من وسائل الاعلام أن تكون رسالة لوحدها ، أما الغرض هنا انما هو العرض المجمل لبعض هذه الوسائل وكيف انها كانت ذات أثر فى درجة المجتمع الاسلامى نحو العلمانية

فمثلا النظر فى الاذاعة يجد أنها ذات أثر كبير فى نفوس المستمعين حيث أنك اليوم لا تكاد تجد بيتا يخلو من جهاز الراديو . .

وخطورة الاذاعة أنها تخاطب كل طبقات المجتمع ، ابتداء من العامى الى قمة المتعلم ، ولها أثر بالغ فى القدرة على جذب جمهور النساء والأطفال ، ولذلك نجد أعداء الاسلام ومنافقيهم من الساسة يركزون فى نهايتهم الاعلامية ونشر ضلالاتهم على جهاز المذياع فيوجهون البرامج بحسب مايروق لهم من ترويج الأفكار والمبادىء الهدامة . .

ونجد أن أكثر الذين يقع عليهم التأثير ويتقبلون هذه الأفكار هم جمهور النساء والأطفال والمراهقين لالتصاقهم بهذا الجهاز وكثرة مكوثهم فى البيت ولا سيما النساء وكذلك لقلة تعمقهم وتمحيصهم للاشياء ولما لديهم من عاطفة جياشة تندفع بأقل شرر.

ومن هنا كان خطر هذا الجهاز اذا لم يوجه التوجيه السليم، والجمهور حيال هذا الجهاز ينقسم الى ثلاثة أقسام تقريبا لكل نوع منهم رغباته الخاصة ومزاجه المباين للآخرين ، ولكل فئة من هذه الفئات توجه برامج خاصة له لتغطى له حاجاته وتشبع تطلعاته . .

فالرجال العقلاء من بعد سن الشباب المبكر الى الشيخوخة فهؤلاء لهم قسم خاص بهم ولهم هواياتهم الخاصة بهم حيث يميلون الى الهدوء والثبات والنفس الطويل فى الحجة والاقناع ، ولا يكون التأثير عليهم سريعا . .

والمراهقون والشباب نجدهم متحفزين وثابين ميالين الى الآراء المتطرفة الجديدة ، تثيرهم الصور البراقة وتجذبهم الألوان الزاهية والبرامج ذات البطولات والقصص الغرامية . .

وبهذا النوع كانت ضربات أعداء الاسلام فى افساد أخلاق المراهقين والشباب . .

ويشابههم فى ذلك النساء والأطفال الى حد ما ، وان كان التأثير العاطفى عند هؤلاء هو المسيطر والغالب على أمزجتهم - كما ذكرت - فاذا لم يوجه هذا الجهاز الحساس الوجهة الاسلامية النزيهة فان أثره المفسد سيكون جد خطير. .

ومن الأجهزة المسموعة الأشرطة المسجلة " الكاسيت " التى تتميز بحفظها للكلام زمنا طويلا حيث يكون حفظه متكررا اقناعيا ، ولو عن طريق الألفة ؛ لأن الانسان يألف الشيء اذا تكرر عليه عدة مرات حتى لا يكاد ينكره . .

ولذلك نجد العلمانيين يعتمدون على هذه الأشرطة لخطبائهم ولمقالاتهم التى تذاع فى المناسبات فيعيدون نشرها الفَيْنَةَ بعد الفَيْنة لتطرق آذان المستمع حتى يعتادها ، فهم اذا رأوا اثارة من قبل الجماهير للمرة الأولى تركوها أمدا من الزمن حتى تهدأ ثائرة الناس ثم يعيدونها لهم فجأة - وهكذا تتكرر المنكرات حتى تصير عادات

أما أجهزة الاعلام البصرية السمعية فنجد منها :

التليفزيون والسينما والمسرح وجهاز " الفيديو " (١)

وتتميز هذه الأجهزة أنها تعمل فيها كل الحواس ، سمعية وبصرية، وتركز على عرضها كل الجهاز العصبى فى المشاهد ، مما يشد انتباهه ويملك عليه حواسه ، ومن هنا يكون التأثير قويا بحيث لا يملك المشاهد

---

١ - الفيديو : جهاز ظهر حديثا وهو عبارة عن أفلام تصور وتطبع فى الدول غير الاسلامية وخاصة الغربية . وله جهاز يعمل مع جهاز التليفزيون، وأكثر أفلام هذا الجهاز خبيثة ولها خطورة كبيرة على الشباب والنساء خاصة ، حيث أنه خفيف وسهل التنقل بخلاف السينما . . . ومن هنا يمكن الخطر فيه . . مما يحتم على المسئولين مراقبته بحرص شديد .

معه تفكيره فى تلك اللحظات ، ولا تعطيه مجالا واسعا للتفكير والتأمل بل تخطف ذهنه خطفا وتقفز به من هنا الى هناك بمختلف وسائل الاغراء والجذب التى أجادها الحرفيون فى هذا المجال مما يجعله يستسلم لما يرى ، ومن ثم يدخل فى بؤرة لا شعوره فيرقد فى الحاسة الكامنة لا يتحرك الا عند مثير آخر مشابه ومماثل . .

وهذه الأجهزة بما يعرض فيها من أفلام خبيثة خليعة ماجنة وقصص غرامية مثيرة ذات أثر مفسد فانها بهذه الطرق تؤدى الى انحلال الاخلاق وهدم الفضيلة وشيوع الرذيلة فى أوساط المجتمعات الاسلامية .

واذا فسدت أخلاق المجتمع تحلل من دينه وصار لا يأبه له ولا يشعره انتهاكه ، لأن الدين يقوم بربط النفس الانسانية على كل فضيلة وخير فاذا دخلت هذه العوامل الفاسدة سهل على أعداء الاسلام العمل فى وسط هذا المجتمع بعد أن بعد عن تعاليم دينه تحت تأثير هذه المذاهب والفلسفات الوافدة . .

وجهاز "التلفزة" "والسينما" لهما أثر كبير فى نفوس الأطفال والنساء حيث لا يقوون على مفارقته والابتعاد عنه ، مما يجعلهم يتقبلون كل ما يعرضه عليهم ، وأقرب دليل على ذلك ما جاء فى أحدى الصحف تحت عنوان :

" لماذا يضعف التلميذ الأمريكى أمام شاشتى التليفزيون والسينما ؟

ما يلى :

" قال تقرير رسمى نشر في . لوس انجلس يوم أمس أن الأولاد فى الثانية عشرة من أعمارهم يظلون ضعفا خاصا تجاه التليفزيون وأن معظمهم

غير قادرين على التخلى عنه ولو لمدة يوم واحد . .

وكانت مجموعة من التلاميذ قد خضعت فى الأسبوع الماضى لامتحان عنوانه ، توقف عن مشاهدة التليفزيون لمدة شهر .

فجاءت النتائج مخيبة للآمال .

وجاء فى الاحصاء أن (٨٥) بالمائة من التلامذة فشلوا فى مقاومة اغراء التليفزيون ، وأن عددا كبيرا منهم غشوا أنفسهم فى الامتحان وأعترفوا بمشاهدة بعض البرامج بصورة سرية . وأن الباقى ردوا على أسئلة الامتحان بالقول عفوا لكننا لا نستطيع على هذا !

وقال أحد التلامذة أيضا : لقد حاولت كثيرا ، ودرت فى غرف المنزل أبحث عن شىء لأفعله ، ولكننى لم أجد شيئا فجلست بالرغم منى قرب الشاشة " .

وكانت بعض التقارير الأخرى قد أشارت الى ضعف الأولاد أيضا أمام السينما . لكن يبقى التليفزيون أكثر الأشياء المحببة الى قلوب الصغار والمراهقين . . .

وتستطرد الصحيفة قائلة عن السينما ومدى جذبها للأطفال :

" وفى دراسة بهذا المعنى نشرت فى الأسبوع الماضى تبين أن (٢٥) بالمائة من التلامذة الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة صرحوا بأنهم يذهبون مرة واحدة فى الأسبوع ، على الأقل من المدرسة الى قرب صالة السينما ، وأن (١٥) بالمائة يذهبون أكثر من (٣) مرات فى الأسبوع . وأن (٣) بالمائة أكدوا أنهم يحضرون

أكثر من خمسة أفلام في الأسبوع الواحد ، أما الباقي فأوضاعهم مرهونة بأجواء المدرسة والجو العائلي" (١)

حرصت على نقل هذا التقرير بكامله كي أبين أن هذه الأجهزة الاعلامية لها الدور الفعال والأثر البارز في جذب الجمهور اليها ولا سيما الصغار ومن يلونهم مباشرة في السن ، فهؤلاء اذا لم تعد لهم البرامج الصالحة وتعرض لهم المسرحيات الهادفة التي تهذب الأخلاق وتقوم السلوك وتحكي لهم سيرة السلف الصالح وجهادهم في سبيل أعلاء كلمة الحق وتريهم بطولاتهم الاسلامية النادرة - وتبرز لهم صفحات تاريخهم المشرف في عصوره الضيئة ، حتى يكون النشيء عارفا بسيرة سلفه وفنائهم في سبيل نشر الاسلام ،

وتعرض لهم العلوم البحته وما وصلت اليه " التكنولوجيا" الحديثة حتى يفيدوا منها في الناحية العلمية على أن تكون هذه العروض مقرونة بمكتشفات العلماء المسلمين وكيف أنهم كانوا هم الرواد الأوائل الذين حازوا قصب السبق الى هذا الميدان العلمي التطبيقي وأن الغرب قد أخذ هذا العلم عنهم ومن كتبهم . . .

ولن يكون اصلاح هذه الأجهزة الا اذا كانت تحت ظل دولة اسلامية تنفّذ احكام الشرع كاملة في كل شئون الحياة "فالبيت لا يبنى الا له عمد ولا عماد اذا لم ترسى أوتاد .

١- صحيفة الشرق الاوسط العدد (٢٢٦) الخميس أول جمادى الأولى (١٣٩٩هـ)

ومع ذلك تحرص على وضع الرجل المسلم فى جهاز المراقبة نفسى استيراد الأفلام والمخرج المسلم عند (الشاشة) وعند المسرح والمؤلف المسلم عند كتابة الرواية التى تُمثّل حتى تؤدى هذه الأجهزة دورها الاسلامى ويكون هناك جهاز اعلامى اسلامى على الوجه السليم . .

وما قيل فيما سبق من أجهزة الاعلام يقال فيما سواها مثل وكالات الأنباء التى تستقصى الأخبار وتحررها وتنقل عنها بقية الأجهزة .

النحت والرسم

وكذلك وسائل النحت والرسم التى تحكى البطولات والأمجاد السابقة للاسلام فى العصور الجاهلية والفرعونية والفينيقية . . وغيرها مما يمجد تلك الوثنيات ويذكّر المسلم بأن له مجدا سابقا على الاسلام يجب أن يلتفت اليه ، فتدخل فيه من غير شعور نخوة الجاهلية التى أبطلها الاسلام وجعلها جيفة منتنة تستكره وتستقذر .

وما قبحه الاسلام يجب على المسلم تقبيحه ، ناهيك عن مدحه ونحت التماثيل ورسم اللوحات تخليدا لذكراه ، كما حصل بالنسبة لتخليد ذكرى الفراعنه وغيرهم . . هذا الى جانب تحريم الشريعة الاسلامية للنحت اذا كان المصوّر آدميا أو حيوانا له روح ، أما اذا كان النحت والرسم يبرز جوانب فنون الحضارة الاسلامية فى المعمار والهندسة وفنون الخط العربى والزخرفة وغيرها من ضروب الفن الذى يعود بالمسلم الى مجده الاسلامى فمثل هذا يعتبر وسيلة اعلامية اسلامية ناجحة بخلاف ذلك الذى يحاول هدم الاسلام وتناسيه .

والخلاصة ، أن أجهزة الاعلام كلها ، ماذكرت منها وما لم أذكر ، كانت ومازالت ، لها القدح المعلّى فى خدمة المستعمر وأعداء الاسلام وترويج المذاهب الهدامة ومبادىء العلمانية فى أذهان كثير من المسلمين وترويجها فى البلاد الاسلامية ، مما نتج عنه ابعاد الاسلام بنظمه عن الساحة الاسلامية حتى كاد أن يصل طور الغربة بين المسلمين ، وان كان قد وصل اليها بالفعل فى بعض الجوانب كالقوانين وشئون الحكم والمعاملات الاقتصادية وغيرها من أوجه الحياة . .

ولن يعود هذا الوجه الاسلامى المفقود الا باصلاح عام شامل لكل هذه الأجهزة ، وما أحسب أن هذا الاصلاح الشامل يكون الا تحت راية الحكومة الاسلامية التى تطبق شرع الله بكامله وتوحد المسلمين تحت لوائها أمة واحدة تعبد ربا واحدا وتدين بشريعة واحدة وليس ذلك على الله بعزيز . . .

الفصل الثالث

((أثر العلمانيـــة فى القوانـــين))

ويشتمل على مايلى :

١- كانت علمنة التعليم والاعلام تشبيتا لعلمنة القوانين حيث تخـــرج جيل طبق هذه القوانين ..

٢- الاستعمار هو صاحب الدور الأساسى فى تغيير التشريـــــــع الاسلامـــى ...

٣- لجنة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية قامت بصياغـــــة القوانين العلمانية وتحريرها .

٤- كان للكتاب العلمانيين الأثر الكبير فى الغاء المحاكم الشرعية .

٥- نتج عن علمنة القوانين جهل المسلمين بأحكام الشريعة فى كـــل النواحى ..

الفصل الثالث

أثر العلمانية فى القوانين

كان العمل على علمنة التعليم والاعلام ذا أثر فى القوانين حيث خرجت المدارس العلمانية جيلا درس القوانين الوضعية الغربية وآمن بها بعد أن خلا ذهنه من معرفة التشريع الاسلامى وتنظيمه لشئون الحياة . .

ولهذا فقد عمل هذا الجيل على تثبيت القوانين الوضعية التى استبدل بها المستعمر التشريع الاسلامى الذى عايش المسلمين وقتا طويلا أمتد حوالى نيف وثلاثة عشر قرنا من الزمان لم يعرف فيها المسلمون القوانين الوضعية التى طَرَحت التشريع الاسلامى جانبا وأن بدأ الاقتباس فى أواخر العقد الوسيط من الخلافة التركية ، ولكنه كان مع ذلك كله شيئا ضئيلا لم تغب فيه الشريعة الاسلامية عن تنظيم حياة المجتمع . .

وكان الاستعمار قد لعب الدور الأساسى فى تغيير وجه التشريع الاسلامى الشرق بالقوانين الوضعية التى كانت تحكم بها بلدانهم بعد اطراح الدين جانبا على عهد الثورة الفرنسية رائدة العلمانية فى الغرب ، ولهذا أرادوا أن ينشروا هذا الداء العضال الى المجتمع الاسلامى حتى تفسد أخلاقه بفساد القوانين التى تدير شئون الحياة فيباح كل ما حظرته الشريعة الاسلامية من منكرات وتنتهك كل حرمة لها حتى يغدو المسلم لا يعرف شيئا عن حكم الشريعة بل وينكر ذلك بطول

الأمد ، وهو ما حدث بالفعل مما نراه اليوم من ابتعاد القوانين التي يحكم بها العالم الاسلامي عن روح الشريعة الاسلامية . .

والناظر الآن الى الدول الاسلامية لا يجد ها تتحاكم الى شرع الله فيما يعرض لها من مشاكل في جوانب الحياة سواء كان ذلك في المعاملات المالية أو الادارية أو في الشئون الاجتماعية الأخرى كالحدود وغيرها ، ولا يكاد الانسان يستثني دولة من ذلك ، اللهم الا المملكة العربية السعودية أو أخيرا ما كان من شأن باكستان التي بدأت بتطبيق الحدود الاسلامية . وإن كانت المعالم الرئيسية لذلك في باكستان لم تتضح حاليا . .

الاستعمار يعمل على محو التشريع الاسلامي . .

وكان الاستعمار الذي تقسم الدول الاسلامية من الهند الى المغرب صفحة العالم الاسلامي ، عمل في كل هذه البلاد على محو التشريع الاسلامي وسن قوانين بديلة عنه وفرضها على المجتمع الاسلامي وعلى سبيل المثال ، ما حصل بالنسبة لمصر فقد جاء الى هذا الميدان " نوبار باشا " وهو رجل أرمني الأصل نصراني الدين ، كانت عواطفه وميوله الى جانب بريطانيا . . وهو أول رئيس للنظارة بمصر ، فرضته القوى الأجنبية على اسماعيل باشا . . على أن أكبر ما قدمه نوبار لأعداء الاسلام هو تصرفه فيما يتعلق بالقضاء . . فقد أنشأ لجنة لوضع قوانين وضعية تستمد من القوانين الأجنبية ، منها قانون للمواد المدنية ، وقانون للمواد الجنائية ، وآخر للاجراءات الجنائية وقانون للمرافعات

المدنية والتجارية ، وقانون تجارى " برى وبحرى" .

وكان القانون المدنى أهم هذه القوانين لأنه أصل لباقى القوانين بحيث تطبق نصوصه اذا لم يوجد نص فى القوانين الأخرى . .

وقد قام بوضع القانون المدنى " العلمانى "مسيو " مانورى" وقد جعله نهارا سكرتيرا خاصا له وأمينا عاما لهذه اللجنة وصدرت هذه القوانين سنة (١٨٧٥م)"(١)

وقد كانت الحملات الاعلامية آنذاك قوية وشرسة على الأحكام الشرعية ونعتها بالتخلف وعدم مسايرة العصر حتى وصلت الدعوة فى النهاية الى القول بوجوب الغاء المحاكم الشرعية نهائيا واحلال محلها محاكم علمانية . .

ويبرز هذا الاتجاه فى لجنة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية والتى كان يشرف عليها أولا ، أحمد أمين ثم من بعد طه حسين . .

فقد طفقت هذه اللجنة تكتب المقالات وتحرر النشرات للدعوة الى الأخذ بالقوانين العلمانية ووجوب تعديل التشريع الاسلامى المأخوذ من الفقه الاسلامى حتى يتلاءم مع القوانين الغربية العلمانية

١- موسوعة النظم والحضارة الاسلامية د . أحمد شلبى جـ٧ ص ٣١١ ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الاولى (١٩٧٦م)

ومن ذلك المقال الذى كتبه أحد دعاة علمنة القوانين (١) فقد دعا فى مقاله هذا الى توحيد القانون المدنى فى سائر البلاد العربية مستثنى من ذلك الحجاز واليمن ، لأنهما تلتزمان الشريعة الاسلامية الى أن يحين الوقت الذى تتمكن فيه من المشاركة فى حركة التقنين المدنى العربى ... ويقول بعد ذلك :

" ان التقنين العربى تنازعه تياران ، أحدهما ممثل فى القانون المصرى ، وهو تيار غربى خالص أو يكاد ، والآخر يمثله العراق الحديث وهو يمزج بين الشريعة الاسلامية والقوانين الغربية . .

ويدخل فى القسم الأول الذى يصفه بأنه " ينتمى الى الثقافة المدنية الغربية " يدخل فيه ، مصر وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش ، بينما يدخل فى القسم الثانى العراق والاردن وفلسطين)(٢)

وما ذكره كاتب المقال من التباين بين القانونين العراقى والمصرى والقول بأن الأول له حظ من الشريعة الاسلامية ، هذا كان فيما مضى أما الآن فالكل فى الهواء سواء ، حيث لم يعد للتشريع الاسلامى من نصيب فى حياة المجتمع التشريعية ، ولم تعد الحاكمية ترجع فيما شجر

١- هو الدكتور عبد الرزاق احمد السنهورى وقد نشر المقال فى مجلة الأزهر تحت عنوان : القانون المدنى الغربى .
عدد شعبان ورمضان (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م)

٢- أنظر حصوننا مهددة من داخلها . د محمد محمد حسين ص ١٥٨

بين المسلمين الى الله ، بل الى القوانين الوضعية العلمانية .

وصاحب المقال يدعو فى بادىء الأمر الى المزج بين القانون الغربى العلمانى وبين الشريعة الاسلامية ، وذلك " بعد أن أصبح الفقه الاسلامى والقانون المدنى الغربى جنبا الى جنب فى صعيد واحد ، أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا ، هذا يؤثر فى ذاك وقد يتأثر به ومن ثم تقوم نهضة حقة لدراسة الفقه الاسلامى فى ضوء القانون المدنى الغربى " (١)

ومن هنا يخلص الكاتب الى هدفه المنشود الذى يرغب فيه الاستعمار ، وهو دمج التشريع الاسلامى فى القوانين العلمانية شهيدا لزحزحتها عن الحكم رويدا ، رويدا ، حتى حلت محلها اليوم هذه القوانين ، وبذلك تمت علمنة القوانين فى البلاد الاسلامية الى يومنا هذا . .

ولذا فان النتيجة الحتمية اذن لوضع القانون المدنى المصرى ولوضع القانون المدنى العراقى ، مشتقا منه ومن الفقه الاسلامى على السواء ، هى النهوض بدراسة الفقه الاسلامى فى ضوء القانون المدنى الغربى " (٢)

١ـ حصوننا مهددة من داخلها ص ١٦٣ .

٢ـ المرجع السابق ص ١٦٣ وما بعدها .

وقد غاب على الكاتب أن شريعة الله واحدة لا تقبل التجزئة كما أن دين الله كامل لا يحتاج الى ترقيع من نظم البشر القاصرة فان أى جسم غريب يدخل هذا الدين لا يصلح له ولا يتواءم معه .

" وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرًا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " (١)

الغاء المحاكم الشرعية :

وتستمر الحملة المحمومة لعلمنة القانون وتنحدر الدعوة الى الدرك الأسفل عندما تبدأ المطالبة بالغاء المحاكم الشرعية نهائيا ودمجها فى القضاء العلمانى، والغريب فى الأمر أن أكثرية المسلمين صامتون أمام هذا الزحف نحو علمنة القوانين بينما نجدهم يثورون أحيانا فى وجه الاستعمار الذى يحتل البلاد ويطالبون بخروجه منها فى حين قل من تجده يطالب بتحكيم شرع ويثأر لذلك ، اللهم الا الاقلية من المثقفين ثقافة اسلامية حيث لم ينقطع صوتهم بالمناداة بالرجوع الى حكم الله . .

ولكن يتساءل المرء لماذا سكت المسلمون ازاء هذا ؟ ولا أجد اجابة أقرب الى الصواب من القول بأن هذا الجيل من المسلمين قد

١ـ المائدة آيات ٤٨ ـ ٤٩ . .

تربوا تحت أحضان الاستعمار الغربى العلمانى وتشربوا ثقافته القائمة على عزل الدين عن الحياة وتلقوا ذلك فى مناهج التعليم العلمانى وعمقته فى نفوسهم وسائل الاعلام العلمانية ، أضف الى ذلك أفواج المبتعثين الى أوربا العلمانية الذين رجعوا وهم قد شغفهم "بهرج" أوربا الزائف وأخذ بلبابهم زخرفها الفتّان ، فطفقوا ينوّهون بذلك ويشيدون به فى اعجاب شديد . . كما عملوا على تطبيقه عند ما تولوا مقاليد الأمور فى بلدانهم الاسلامية . .

وفى وسط هذه المعمعة وفى مائها العكر يصطاد الخبثاء حتى نجد الجرأة تصل بغير المسلمين بأن ينادى بالغاء التشريع الاسلامى ويسميه جسما غريبا ، "ويسخر من وزارة الاوقاف ومن المحاكم الشرعية ومن الأزهر ، بل ومن الاسلام نفسه حين يقول :

" وها نحن أولاء نجد أنفسنا مترددين بين الشرق والغرب ، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية . ولكن فى وسط الحكومة أجساما شرقية (١) مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين ، ولكن كلية جامعة الازهر تقف الى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة . ولنا (أفندية) قد تفرنجوا ، لهم بيوت نظيفة ويقرأون كتبا سليمة ولكن الى جانبهم

---

١ ـ صاحب المقال هو سلامه موسى وهو نصرانى ويقصد بالاجسام الشرقية كل ما له صلة بالدين الاسلامى وهو تعبير غربى أطلقه المستشرقون . .

شيوخا لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التضوء على قوارع الطرق فى الأرياف ، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود كفارا كما يسميهم عمر بن الخطاب قبل (١٣٠٠ سنة)[1]

هذه الدعوة الصريحة لالغاء شرع الله وتسميته بالجسد الغريب الاجنبى فى بلاد المسلمين ، وهذا الطعن فى الاسلام على مرأى وسمع من أهله ورمى ثقافته بثقافة القرون المظلمة،كما درج على تسميتها المستشرقون، كل هذا يحدث فى بلاد الاسلام،والمسلمون لا يحركون ساكنا تجاه ذلك! كل ذلك يدل دلالة لا يدانيها شك ولا يخالجها ريب،ان الحملات الاعلامية والمناهج التعليمية قد فعلت فعلها فى توهين نفوس المسلمين حيال هذا الدين والذب عن حياضه ، الا ما ذكرت من الطائفة المنصورة التى ما برحت تذود عن هذا الدين وتنفى عنه غبش التيارات الضالة كما ينفى الكير خبث الحديد .. وهى لا تزال قائمة بحمد الله متمثلة فى الحركات الاسلامية المنبثة فى ارجاء العالم وفى الجامعات والمعاهد فى البلاد الاسلامية بالرغم من كثافة المناهج العلمانية التى تصب عليها .

وكان من نتيجة تلك الحملات من اعداء الاسلام وأذنابهم ، أن الغيت المحاكم الشرعية فى بعض البلاد الاسلامية نهائيا وبقى البعض الاخر فى بلدان اخرى قاصرا على الاحوال الشخصية التى تتشكل

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ج ٢ ص ٢٢٧

فى مشاكل النساء مع ازواجهن ..

يقول أحد الكتاب المسلمين عن الغاء المحاكم الشرعية فى تلك البلاد؛ (وجاء دور المحاكم الشرعية فألغيت بالقانون رقم (٤٦٢) لسنة (١٩٥٥) وأحيل اختصاصها للمحاكم الوطنية ، ويقال ان الغاءها كان هدية لروسيا فى فترة كان النظام المصرى يستجدى رضا (السوفيت) فضحى بالمحاكم الشرعية فى هذا السبيل[1].

ونتج عن علمنة القوانين أن صار المسلم يجهل حكم الله فى شئونه المالية والتجارية والاجتماعية والجنائية ، بل وكل شئون الحكم استبعدت عن الشريعة الاسلامية ،حيث اصبح المسلم ينكر عليك ان قلت له يجب ان نرجع الى حكم الله ويستبعد ذلك كل البعد حتى غدت مظاهر حياته كلها تبدو بعيدة عن هدى الاسلام الذى انحصر فى العبادات فقط .. مايخالف قواعد الاسلام وسننه فى هذا الكون ..

ولذلك نجد أن المسلمين فى كثير من حروبهم مع اعدائهم لا يحالفهم النصر لانهم تخلوا عن اسباب ذلك النصر ، حيث لم ينصروا الله فى انفسهم فتخلف عنهم نصر الله لهم ...

(يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)[2]

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر جـ ٢ ص ٣١٨ .

(٢) محمد الآية ٧ .

الباب السادس

الاسلام منهاج الحياة

((الفصل الأول))

حيوية الاسلام

ويشتمل على النقاط التالية

١- الجانب العقدى

٢- اليوم الآخر الجزاء والبعث .

٣- الجانب الانسانى .

٤- جوانب التشريع والعبادات .

تمهيد :

الاسلام هو دين الحياة الذى جاء للانسان لينظّم له شئون حياته ويبصّره بما يصلحه فى هذه الدار وفى دار الخلود ، إذ الناس يحيّون بالدنيا ولا يقيمون فيها إلا قدرًا محدودًا من الزمن فهى دار ممر ومعبر وليست دار مقر . .

ولهذا فقد اهتم الاسلام بإصلاح معاش الانسان فى الدنيا بالقدر الذى يؤدّه إلى الأخرى ، فحثّه على أن يحيى فى هذه الدنيا حياة طيبة مطمئنة .

ولهذا جاءت كل شرائعة ونظمه بما يصلح أمر هذا الانسان ويجعله ذا حيوية وتفاعل مع هذا الكون عاملاً متحركًا لخيرى الدنيا والآخرة .

ولنستعرض فى إيجاز بعض هذه الجوانب لنرى مدى حيويتها وتفاعلها مع هذا الوجود مما يدحض قرية العلمانيين الزاعمين بأن الاسلام لا يصلح إلاّ للتحرك فى عبادته فيما بينه وبين ربه ولا شأن له فى أموره الدنيوية الأخرى . .

فهذه الجوانب المتعلقة بالشئون الدنيوية والبحوث العلمية والمخترعات العصرية وتنظيم الشئون المالية والإدارية كلها متروكة للعقل البشرى بمعزل عن الدين ، ولهذا سوف أتطرق إلى بعض هذه النواحى فى الفصول الثلاثة فى هذا الباب ونعرض بعض النماذج التى تدحض مازعموا ونقيم الأدلة على خطأ من يزعمون أنّ الاسلام ليس دين حياة كما نبيّن موقف الاسلام من هذه العلمانية .

المبحث الأول

في الجانب العقدي

الجانب العقدي في الاسلام - بل وفي كل الشرائع السماوية هو الركن الأساسي والعمود الذي لولاه لما استقام لإنسان دين ، وهو جانب الإيمان بالله وتفرده بالوحدانية والربوبية والعبادة ويشمل الإيمان بالله ، الايمان بالملائكة واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالرسل والأنبياء كلهم ، وما جاءوا به من كتب سماوية " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (١)

" وعمل هذا الإيمان هو إقامة الحياة على أكمل وجه ويتطلب هذا إرادة حازمة وقدرة على العمل ، وصبرًا على الشدائد ورضى بما أمر الله تعالى به " (٢)

والإنسان الذي يؤمن بالله يكون مطمئن القلب هادئ النفس لا يكون قلقًا ولا متبرمًا بالحياة ، بل يكون راضيًا بما قدّره الله له ، شاكرًا على الخير صابرًا على البلاء ، لأنّ أمر المؤمن كله خير كما قال صلى الله عليه وسلم عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير وليس ذلك لأحد

١- البقرة آية ١٣٦ .

٢- الدعوة إلى الله د . أبو المجد السيد نوفل ص ٦٨ الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ)

إلاّ للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضـــرّاء صبر فكان خيرًا له" (١)

إنّ خضوع المؤمن لله تعالى يقوده إلى الراحة النفسيّة التى هى المقوّم الأول فى إيجاد الإنسان العامل النشط فى هذه الحياة الـذى يعطى ويبذل بنفس راضية مطمئنة لأنّ خضوع المؤمن لله" ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس ويكبت النفس ويُقِلّ من الجهود ويحدّ مـن مجال العمل . ويسد باب الأمل ، بل هو شعور يرفه عن القلب بمـا يفتحه أمامه من آفاق الإمكان ، هو شعور يضع عن النفس الأثقال ويحطّم ماحولها من الأغلال ، وتكاد لا تعثر فى لغته على كلمة " المحـال" فإذا اشتدت الأزمات . وضاقت الحلقات أمام المتدين تراءى له مـن خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها إلاّ أن يأذن خالقها" (٢)

أما غير المتدين أو صاحب الإيمان الواهن ، فهو دائمًا قلق وناقم على الحياة ، بل حياته نفسها تكون عليه جحيمًا ونارًا مضرمة ،لأنّـه لا يجد فى نفسه سكينة المؤمن ولا يعرف مصيره الذى يكون بعد حياتـه هذه التى يؤمن أنّها فانية وزائلة.

فالإيمان حياة فى القلب وحياة فى الشعور وحيوية فى النفس ونشاط فى العمل ، وصاحب الإيمان صادق لا يكذب ولا يغش لأنه يعرف أن فـى

١- صحيح مسلم بشرح النووى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى جـ٤ ص٢٢٩٥

٢- الدين د . محمد عبد الله دراز ص ٤٩ ، دار الكتب بيروت الطبعـة الثانيه (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)

ذينك بما يضر بالحياة كلها ويشيع الفساد فى الأرض ، لأن الصدق ، أمانة والكذب خيانة ، والخيانة مهلكة للأمة ، والمؤمن يذكر مدح الله للصادقين فى قوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (١)

والمؤمن شجاع فى الحق قولاً وعملاً ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم. والإيمان أقوى سلاح لنصرة الحق ودحض الباطل كما روى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

" إنا كنا إذا حمى البأس واشتد واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس بأسا " (٢)

وهذا الإيمان هو الذى دفع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التفانى فى الجهاد بالمال والنفس حتى فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً وهو الذى علمهم البذل والعطاء حتى كان أحدهم يتصدق بنصف ماله ، فبعثوا الحياة فى أرجاء المعمورة . . وهكذا يكون الإيمان بالله حيوية للأحياء ورحمة ومغفرة للأموات .

---

١ - التوبة آية ١١٩

٢ - مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١٥٣ ورواه مسلم عن البراء مع اختلاف فى بعض ألفاظه جـ ٣ ، ص ١٤٠١ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبع عيسى الحلبى .

المبحث الثانـي

جانب اليوم الآخر والجزاء والبعـث

التدين فطرة طبيعية في الإنسان وغريزة طبع متأصلة في قـرارة النفس الإنسانية لا تكاد تنفك عنها إلاّ بعوامل خارجية دخيلة على النـوع البشرى ، لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها : " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطر الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون " (١)

وكما قال صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء هـل تحس فيها من جدعاء " (٢)

ولذا نجد أنّ الغريزة الدينية ، مشتركة بين كل الأجنـاس البشرية ، حتى أشدّها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . فإنّ الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالميـة الخالدة للانسانية . . وأنّ هذه الغريزة الدينية ، لا تختفي ، بل لا تضعف ولا تذبل ، إلاّ في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليـل جدّاً من الأفراد (٣)

١ـ الروم آية ٣٠

٢ـ رواه مسلم في صحيحه بشرح النووى كل مولود يولد على الفطرة جـ ١٦ ص ٢٠٧ دار الفكر بيروت " بدون تاريخ "

٣ـ الدين ص ٨٢ نقلاً عن معجم " لا روس "

والناس حيال البعث والجزاء والموت صنفان :

مؤمن بكل ذلك وموقن به فى قرارة نفسه وكافر به جاحد له كليّة ، فالمؤمن يستمدّ نظرته من إيمانه بالله الذى جاء به الرسل الذين أرشدوه إلى أنّ هناك حياة بعد هذه الحياة وأنّ هناك حسابًا وعقابًا وجزاء على الخير والشر . فالموت عند المؤمن ليس هو النهاية التى لا شىء بعدها . . بل هناك حياة أخرى هى فى نظر المؤمن أحسن ما أطيب من التى يحياها الآن ، لأنّ هذه مهما بلغ فيها من الملذّات فهى عارضة ومآلها إلى الزوال ومصيرها إلى الفناء " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدّار الآخرة خير للذين يتّقون أفلا تعقلون" (١)

فهذه الحياة الدنيا فى نظر المؤمن مثل اسمها تمامًا بالنسبة للآخرة كما مثّلها القرآن، إنما هى لعب ولهو وحطام فان ونعيم راحل هى كالنبات الغض النضر الورق اليانع الثمر ـ هكذا يراها غير المؤمن فيغتر بها ويزخرفها فيزهو ويتفاخر كبرًا وبطرًا . .

ولكنه سرعان ما يذبل زهره وتذهب نضرته ويكون حطامًا فانيًا " إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًّا ثم يكون حطامًا وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" (٢) .

١ـ الأنعام آية ٣٢

٢ـ الحديد آية ٢٠

" ولقد علّم الاسلام المسلمين ألّا يخافوا الموت ولا يهابوه بل يقبلوا عليه ويطلبوه من أجل التمكين فى الدنيا ومن أجل حسن الجزاء فى الأخرى ، فالمسلم يؤمن بالحرص على الموت لتوهب له الحياة.

ومصدر الهلع والخوف هو الإحساس بأنّ الحياة مصادفة عمياء وأنّ الوجود بها ليس له هدف وأنّ نهايتها نهاية كل شىء ، ومن ثَمّ فإنّ ذلك كلّه يفرض الركض الشديد من أجل الاستمتاع بها واقتناص رغباتها والجرى وراء متعها" (١)

فإيمان المسلم بأنّ ثَمّ حسابًا وجزاء وأنّ هناك حياة أخرى فيها كلّ أنواع الهناء والرفاهية . وفيها شتى ألوان العذاب والنكال، فيها السؤال والحساب بين يدى من لا يعزب عنه مثال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء القائل :

" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" (٢)

علْمُ المؤمن بكل ذلك وإيمانه به يدفعه إلى العمل الصالح النافع فى هذه الحياة الدنيا يعيش فيها لينشر فى ربوعها العدل وليبذل لعمّارها الخير أخذًا وعطاء تفاعلاً إيجابيًا لا يعرف السلب.

الإيمان باليوم الآخر يحدّ من ظلم الظالم ويوقف تيّار التكبّر

١- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الاسلام أنور الجندى ص ٢١٤ دار العلوم للطباعة والنشر مصر الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)

٢- الأنبياء آية ٤٧ .

المتسلّط على رقاب الناس من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً" (١)

أمّا الكافر باليوم الآخر فنجده في دوّامة من القلق والهلع الذي يجعله مضطرب النفس لا يقرّ له قرار ولا يرتاح له بال فهو "كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إنّ هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين" (٢)

فهو يريد أن يلتهم كل ما في هذه الدنيا بأيّة وسيلة كانت لا ينظر إلى الطريقة التي يكتسبه بها فيعمل على كسب المال عن طريق الربا الفاحش وابتزاز أموال الناس، وينشر الكفر والإلحاد في الأرض وإسالة الدماء وزرع البغضاء في سبيل مصلحته وبهذا يكثر الفساد كالرشوة وغيرها من المفاسد، يتعم الفوضى المجتمع، مما يجعل حبل النظام فيه مضطرباً وميزان الاعتدال فيه مختلاً.

فالشيوعي الملحد والمادي العلماني .. وكل الذين ينظرون إلى الحياة بأنّها هي النهاية لا حياة بعدها ولا حساب ولا نشور عندهم... كل هؤلاء هم الذين يهلكون الحرث والنسل ويجرّون على بني الانسان كل أسباب التعاسة والشقاء.

ولهذا نجد هؤلاء المرتابين في شك دائم ووجل شديد وحيرة مهلكة يتساءلون عن "هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا

١- الأنبياء آية ٤٧

٢- الأنعام آية ٧١

ما للعالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ماهدفهما ؟ كيف بدأ ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هذه الدنيا ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شىء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟ "(١)

هذه الحيرة المدمرة وهذا الفكر الزائغ والاضطراب فى الحياة جاء نتيجة لعدم الإيمان باليوم الآخر والجزاء والعقاب والبعث .

ولا ريب أن هذا المفهوم المضطرب عن الحياة إنما يمثل القلق العميق الذى يملأ نفوس العاجزين عن إدراك أبعاد حكمة وجود الانسان فى هذه الحياة ومعنى رسالته التى يجب أن يؤديها حيال نفسه ومجتمعه الذى يتفاعل معه .

وليس بمستغرب أن نجد جرائم الانتحار وانفصام الشخصية والانهيار العصبى ، وجرائم القتل وهتك الأعراض وتدمير الأخلاق نجدها تكثر فى المجتمعات الملحدة والمادية التى لم يكن لها هدف بعد هذه الحياة والمجتمعات الوثنية التى تعبد آلهة متعددة .

هذا العالم قد وصل إلى درجة من الانحطاط الخلقى مالا يعلم قدره إلا من عاش فيه وخالط أهله فهم غدوا كالسوائم بل هم أضل "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "(٢)

١- الدين ص ٨٣

٢- الأعراف آية ١٧٩

ولا ريب أنّ الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوّة إيجابيّة ودافع بناء وحركة وحيويّة . وليس عامل جمود أو تخلّف .

والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء يحيي القلوب الميّته ويوقظ الضمير النائم وينبّه العقل الغافل اللاهي ويجعل الانسان يحاسب ضميره ويراقب ربه . . .

وبهذا تندفع كلّ العوائق التي تعطّل سير المجتمع نحو الفضيلة، وهو ما تنشده الحياة الهادئة . فليس مما تقرّه العقول النيّرة والألباب المبصرة ، أن تكون الحياة بغير غاية أو يكون الانسان في هذه الحياة هملاً بغير رسالة أو خُلِقَ اعتباطاً أو وُجِدَ مصادفه ، كما تقول فلسفات الفكر البشريّ المادي ، ومن الحق أنّ الحياة ليست عبثاً وليست النّفس ضياعاً ولكنها مسئولية . وهو حقيقة وتبعة ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء (١)

وصفوة القول : أنّ التديّن فطرة في الانسان ولكنّ الفلسفات الضالّة تحاول أن تطمس عليه معالم هذه الفطرة .

وأنّ المؤمن يستطيع أن يتفاعل مع هذه الحياة بما يفيده وينفع الآخرين ، وهو يؤدي المهمّة التي من أجلها خلقه الله وهي استخلافه في هذه الأرض وتعميرها بالخير .

ولهذا فهو يجعل من عقيدة اليوم الآخر والبعث والجزاء منطلقاً

١ـ أنظر الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة أنور الجندي ص ٢٦٤ دار الاعتصام (بدون تاريخ)

يرتاد به مجاهل هذا الكون ويفتح مغاليقه ويحطّم أغلاله ليحيى حياة طيّبة كما أرادها الله له .

" من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون " (١)

وإنّ الإيمان بحقيقة الجزاء والبعث لا يقضي على اليأس بالنسبة للانسان وتخوفه من المصير المظلم فحسب . وإنّما يمنحه قوّة نفسيّة خارقة بها يغزو الكون ويحقق المعجزات " (٢)

وإنّ من أخصّ ما يتميّز به الانسان المسلم تجاه الحياة . أنّه لا يطلب منها إلاّ مضمونها الحقيقي ، فهو لا ينسحب منها ولا يعتزلها خوفًا مما تسببه له من آلام وأحزان ؛ ولكنّه يصابر أحداثها ويؤدّي دوره بالمجاهدة والعمل الشريف ، ويمتلكها ويسخّرها فيما ينفعه وفي جلدته ، ولا يطلب الموت هربًا منها أو كراهيّة لها ، بل منهجه أن يقول دائمًا :

اللهم أحيني ماكانت الحياة خيرًا لي ، وأمتني ما كان الموت خيرًا لي ، فأمره كله لله تعالى . ولهذا فهو هادئ مطمئن " قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين " (٣)

هذه هي حيوية الاسلام في أجلّ معانيها ، في الجانب المقدي ، فمن ذا الذي يستطيع عزل الانسان عن الحياة؟

١ـ النحل آية ٩٧

٢ـ عن مفاهيم العلوم الاجتماعية ، بتصرف.

٣ـ الانعام آية ١٦٢

إنّ الإيمان بالله واليوم الآخر ، عقيدة دافعة إلى العمل الجاد الصالح في هذه الحياة . هذا حق بيد أنّ الأديان الأخرى ، وبعضها يؤمن باليوم الآخر ويؤمن بالله، هذه الأديان تعتبر ذات ، عقيدة كذلك ، فما الفرق بينها وبين الاسلام في العقيدة ؟ والجواب أن العقيدة الاسلامية هي العقيدة الصحيحة . وأنّ من بين عناصرها الإيمان بالكتب السماوية التي من بينها القرآن وهو دستور الاسلام والمنظّم للحياة في كافّة جوانبها على أفضل الوجوه .

وقد نرى الملحدين يقومون بأعمال بارعة في الحياة بينما المسلمون متأخرون في هذا المضمار وهم أصحاب عقيدة ؟ والجواب أنّ الأولين يقومون به في سبيل العدوان والشرّ والفساد وهو ما يؤدّي إلى هلاك الحياة والآخرون ضعف إيمانهم ولم يأخذوا بدينهم ورسوه وراءهم ظهريًّا . . "

المبحث الثالث

الجـــانب الانسانـــى

لم يحظ الانسان باحترام أو أهتمام أو تقدير لإنسانيّته بمثـــل ماحظى بها فى الاسلام ، فقد أشاد الاسلام بذكره ورفع مكانته مـــن صاف الأرضيّة والحيوانيّة إلى أن باهى به الملائكة .

" ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم مـــن الطيّبات وفضّلناهم على كثيرمن خلقنا تفضيلاً " (١)

الانسان فى الاسلام ليس كما هو فى الفلسفات المادية التى تقرر أنّه حيوان ، فحتى هذه اللفظه لم يرد الاسلام أن يلصقها به تقديـرًا واحترامًا لإنسانيّته ، وليس الانسان فى الاسلام ، آثمًا بحكم طبيعتـــه ولا وارثًا للخطيئة وليس هو مجبورًا بالتناسخ كما تقول الهند وكيـــــة والبوذية ، وليس فى الاسلام أنواع سفلى من الناس باعتبار جنسهـــــم وخلقهم كما تقسّمهم البرهميّة إلى منبوذين وسادة بهذا الاعتبار .

مهمة الانسان فى الحياة :

قرّر الاسلام أنّ مهمّة الانسان فى الأرض تعميرها وإصلاحهـــــا ... ولقد كرّم الاسلام الانسان بأن جعله خليفة له فى هذه الأرض ، وأعظِـــم

١- الإسراء آية ٧٠

بها من مكانة يبوّأها الاسلام الانسان، وأنعم به من سموّ رفع به الاسلام الانسان .

الله سبحانه ، لا يستخلف ويستأمن إلاّ من هو أهل لذلك من مخلوقاته . وذو المقام العالى والقدر الرفيع لا يستعمل إلاّ من كان ذا شرف وفضل حتى يتناسب والمهمة التى أنيطت به، وكفى هذا بالانسان شرفاً ومَحْمَدة له .

فالاستخلاف وعمارة الأرض وعبادة الله وتقويم الحياة وإنشاؤها وبذل العدل فيها .. كل هذه من مهام الخليفة .

" وإذ قال ربك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك قال إنّى أعلم مالا تعلمون " (١)

وقال تعالى: " وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم " (٢)

والله سبحانه ، جعل الانسان خليفة فى العمل الصالح الذى ينفع به الخلق كما قال تعالى :

" ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون" (٣)

١ـ البقرة آية ٣٠

٢ـ الانعام آية ١٦٥

٣ـ يونس آية ١٤

وفى أثناء تمداده تعالى براهين وأدلة وحدانيته وربوبيته وأنّه هو الذى يجيب المضطّر إذا دعاه ويكشف السوء . . وأنّه تعالى لا شريك له فى ذلك كلّه ، يذكر من ضمن تلك الأدلّة ، ممتنًّا على الانسان بأن جعله خليفة فى هذه الأرض مما يدل على عظمة هذه الخلافة وأنّها من أرفع الدرجات التى ينالها الانسان ويختص بها عن بقية المخلوقات .

" أمّن يجيب المضطّر إذا دعاة ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون " (١)

الاسلام يحترم رغبات الانسان وعقله :-

يحترم الاسلام كلّ رغبات الانسان ولا يدعو إلى كبتها وتكبيلها ولكن يعمل على ضبطها وتهذيبها بما يتناسب وإنسانيّته . .

وهذه الغرائز وتلك الرغبات التى جعلها الله فطرة فى الانسان لا بد أن يتحصل على ما يشبعها وهى قابلة للخير وللشرّ فمثلاً غريزة التديّن التى تجعل الانسان يميل إلى التقديس والتعظيم والخشوع والخضوع والتقرّب لشىء معيّن يظنّ فيه الخير والنفع له ، ويرجو منه كل نوال وعطاء ... ولكى تتهذّب هذه الغريزة ولا تعبد إلاّ من يستحق العبادة ، لذلك أرسل الله الرسل للتعريف بالإله الذى يستحق التقديس والذى ينبغى أن يخضع له الانسان ولهذا جاء التحذير مع

١ـ النحل آية ٦٢

بعثة كلّ رسول ينذر قومه هذا الانحراف العقدى والتوجّه بالعبادة والقدسيّة لله وحده واعتزال ماسواه . .

" ولقد بعثنا فى كلّ أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة" (١)

وهذب الاسلام فى الانسان غريزة حبّ البقاء التى تجعله يميل للتملّك والحرص على جمع المادة للبقاء والعيش والأمل والمطمع ، حيث يميل الانسان إلى الجشع وجمع الثروة .

فعالج الاسلام هذه الغريزة بحث الانسان على الإنفاق والتصدق ورغبة فى عمل الخير بمضاعفة الأجر وجزيل الثواب.

" مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم" (٢)

والانسان إذا علم أنّ ما ينفقه فى سبيل الله سيعود عليه بالضعف والربح الوفير ، وبأسلوب يجعل النفس تطمئن لذلك ، فإنّ عَلِمَ الانسان ذلك فإنّه يبذل هذا المال ، من هنا يعمل الاسلام على تبديد الثروة من أيدى الأغنياء حيث لا تكون متمركزة فى يد فئة قليلة من الناس وحتى لا يكون فى المجتمع ذو الفقر المدقع وصاحب الكنز المقنطر . . .

فالانسان عندما يسمع هذا النداء الربانىّ تفيض نفسه سماحة

١ـ النحل آية ٣٦

٢ـ البقرة آية ٢٦١

وعطاء " ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ والله بما تعملون بصير" (١)

وقد ظهر هذا التهذيب في جيل مدرسة النبوّة وفهموه من القرآن الكريم . .

عن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، من نخل وكان أحبُّ أمواله إليه ، بَيْرَحَاءَ وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب . قال أنس : فلمّا نزلت هذه الآية " لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون" (٢) جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنّ الله تعالى أنزل عليك " لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون" وإن أحبّ مالي إليّ بيرحاء وأنّها صدقة لله تعالى أرجو برّها وذُخْرَها عند الله تعالى ، فضعها يارسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بخ ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين " فقال أبو طلحة أفعل يارسول الله ، فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه " (٣)

١ـ البقرة آية ٢٦٥

٢ـ آل عمران آية ٩٢

٣ـ صحيح البخاري بشرحه فتح الباري جـ ١٠ ص ٧٤

وهذّب الاسلام غريزة حفظ النوع ، كالحنان والرحمة والعطف والجنس . . فنظّم لها العناية بالوالدين ورعاية الأولاد وحسن تربيتهم وتأديبهم كما نظّم علاقات الزوجين وأمر بحسن المعاشرة بالمعروف.

فوصى الإبن بوالديه والإحسان إليهما فى كلّ الأحوال مالم يأمراه بالشرك بالله " ووصينا الانسان بوالديه حسنًا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون" (١)

وقال تعالى فى حقّ النساء :

" فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضرارًا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . . " (٢)

والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة يضيق المجال عند ذكرها ، والاسلام احترم حرّيّة الانسان وإرادته حيث لم يجعله كالحيوانات المجماوات لا إرادة لها ولا عقل تزن به الأمور وتميّز به الصالح من الطّالح ؛ ولكن جعله حرًّا ذا اختيار وإرادة يكتسب بها فعل الخير ويتنكّب بها الشرّ ، وبيّن له ذلك كلّه ووضّحه عن طريق الرسالات السماوية وأراه طريق الخير وأمره بفعله وعرّفه الشرّ ونهاه عن فعله " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . (٣)

والله سبحانه وتعالى ميّز الانسان عن الحيوان بالعقل وعلى ضوء

١ـ العنكبوت آية ٨

٢ـ البقرة آية ٢٣١

٣ـ الكهف آية ٢٩

هذا كلّفه بمسئوليّات يحاسبه عليها إذا فرّط فيها وكرّمه بالخلافة في الأرض وتعميرها . فلو سلب الله إرادة الانسان لا معنى لهذه التكاليف وتلك المسئولية وتصبح ميزة العقل بلا جدوى .

والله هو القادر على كل شيء لا تعجزه قوة كائنة ما كانت فلو شاء أن يجعل الانسان ملكاً لجعله ولو شاء أن يسلبه هذه الإرادة لفعل ... ولكنّه تعالى لم يرد ذلك للانسان بل أراد له هذا القدر من الحرّية والإرادة ليخطيء ويعاقب على خطئه ويصيب فيكافأ على صوابه .

" ولو لم تذنبوا وتستغفروا لأتى الله بقوم يذنبون ويستغفرون "(١)

الاسلام يرفض منطق هؤلاء الجبريّين الذين يتذرعون بالقضاء والقدر بقولهم : لو شاء ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء فرفض هذا المنطق المعوج وردّ عليهم سبحانه بقوله :

" كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، أن تتبعون إلّا الظنّ وإنّ أنتم إلّا تخرصون " (٢)

فهذا كذب وافتراء منهم على الله تعالى ، حيث لم يكن لهم علم بذلك وهو قول مردود عليهم ، وهو خرص واه لا يليق ومنطق الانسان الذي منّ الله عليه بنعمة العقل المميّز المدرك وهو ناقض لمهمّة الرسل في تبصير الناس بما لهم وما عليهم . . فلو أراد الله هداية الناس بالفطرة والجِبِلّة لفعل لهم ذلك بدون إرسال الرسل ولما كانت فائدة

١- مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة

٢- الانعام آية ١٤٨ .

من بعثهم .

ومن هنا يفهم قوله تعالى " قل فلله الحجّة البالغة فلو شـــاء لهداكم أجمعين " (١)

والانسان يستطيع أن يسمو فوق الملائكة ويستطيع أن ينحطّ دون الحيوان " من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربّك بظـــلّام للعبيد " (٢)

هكذا جرى قضاء الله وقدره في الانسان له حرّية التصرّف فـــي الحدود التي خطها الله له وما بينته له الرسل من حلال وحرام ، ومـا زوّده الله به من قدرة على تمييز هذا وذاك وعلى هذا القدر يحاســب إن خيرًا وإن شرًّا ، والله تعالى " لا يسئل على عمّا يفعل وهـــم يسئلون " (٣)

" وبهذا التفسير للإرادة الانسانية يندفع الانسان إلى بناء الحياة بكل قوّة وعزيمة لا كسل ولا تواكل ، ولا تبعات على غيره بل سير في الأرض لطلب الرزق الذي لن يطرق عليه بابه . أبدًا إلّا بعد أن يسعى إليـــه ويناضل من أجله " (٤)

والاسلام يدعو إلى السعي في الأرض وطلب الرزق ويحثّ على العمل

١- الانعام آية ١٤٩

٢- فصلت آية ٤٦

٣- الانبياء آية ٢٣

٤- الدعوة إلى الله تعالى .د . أبو المجد السيد نوفل ص ٨٦

" وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " (١)

وقال تعالى آمرًا بالضرب فى أنحاء الأرض طلبًا للكسب الحلال:

" هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" (٢)

نظرة الاسلام للإنسان .

والاسلام فى تقريره لحرّية الانسان فى دائرة الحدود التى رسمها له ، يخالف النظرية الماديّة التى جعلته حيوانًا تجرى عليه التجارب الطبيعية كما تجريها على الجرذان وتخضعه للنواميس الطبيعية والعلم التجريبى، فأهدروا بهذا كرامة الانسان وذوّبوا إنسانيّته .

وهو يخالف النظرة التلموديّة اليهوديّة له حيث تجعله آثمًا بحكم الوراثة ، فتفقد فيه إثم الآباء فى الأبناء حتى الجيل العاشر . .

ولا كذلك النظرة النصرانيّة له حيث أنّه وارث للخطيئة عن آدم عليه السلام ، التى لحقت البشريّة ، فصار يئنّ من حملها الانسان حتى جاء يسوع المسيح ليزيل هذه الآثام فلم يجد وسيلة إلّا أن يصلب وتدقّ فى جسده المسامير - لتكفير تلك الخطيئة كما تدعى الكنيسة ، ولا فيه منبوذون بحكم جنسهم كما تجعله البرهمية ولا فيه تناسخ كما تزعم

١- التوبة آية ١٠٥

٢- الملك آية ١٥

الهوذية " (١)

ولكنّ الانسان فى الاسلام بحكم أنّه إنسان مكرّم ومحترم ومفضّل على سائر المخلوقات " ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً " (٢)

" وقد أعلن الاسلام أنّ الانسان ثابت الجوهر متغيّر الصورة ثابت الهدف متغيّر الوسائل . واعترف بحقوق الانسان وميوله وعواطفه وقد ناط الاسلام بكلّ إنسان تبعة أعماله واعتقاداته " (٣) .

وأقام الاسلام المجتمع الفاضل على الأخلاق الفاضلة واحترام الانسان لأخيه الانسان لمجرّد أنّه إنسان ومنع أن يسخر إنسان من إنسان لتفاوت فى الخلقة أو فى الغنى أو الفقر كما منع الغيبة والنميمة التى تؤدى إلى الإشاعات الضّارة بالمجتمع وحذر منها ووصفها بأقبح وصف حيث جعل من يمارس ذلك كمن يأكل لحم أخيه الانسان وهو جيفة ميّته نتنة وهو ما تنفر منه الطبائع البشريّة .

" يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرًا منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظّنّ إنّ بعض الظّنّ إثم

١ـ انظر ما تقدم من اشرة لذلك فى المبحث الثالث من هذا الفصل ص ٣٤٩

٢ـ الاسراء آية ٧٠

٣ـ الاسلامية نظام مجتمع ومنهاج حياة أنور الجندى ص ١٦-١٧ دار النصر للطباعة الاسلامية مصر الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)

ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إنّ الله توّاب رحيم ، يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ اللّه عليم خبير. (١)

ليت شعري إنّ هذا لعمري منتهى الرّقيّ الأخلاقي الذي لم يستطع أيّ نظام في الكون أن يرقى مرقاه غير النّظام الألهي الاسلامي إنّها الدّرة اليتيمة واللؤلؤة الفريدة في رسالات السماء للأرض.

" ومن هنا تجيء دعوة الاسلام إلى بناء الإرادة ذلك أنّ تربية الإرادة هي المبدأ الأساسي في التربية الأخلاقية ولا يستطيع الانسان تطبيق الالتزام الأخلاقي دون أن يملك قوة الإرادة التي تتمثل في أمرين :

الأوّل : الشجاعة في مواجهة الحياة وألوانها المختلفة من عسر ويسر.

والثاني : الثبات على المبادئ التي يؤمن بها الانسان والاستمرار في تطبيقها مهما كلّفه من العناء والمشقة ." (٢)

ولهذا ركّز الاسلام على تقوية هذه الإرادة فصنع بذلك رجالاً فتحوا العالم . فكان أحدهم إذا أقدم على أمر أمضاه كالسيف القاطع لا يعرف التلعثم ولا التردد كالحسام جرّد من غمده.

١- الحجرات آيات ١١ - ١٣

٢- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الاسلام ص ٣٥

والاسلام فى نظرته للانسان أقام التوازن بين الروح والجسد وبين القلب والعقل . فأعطى لكل واحد ما يستحقه من غير أن يطغى جانب على آخر لأنّ الانسان مزيج مركب من كل هذه العناصر فهو عقل ووجدان ، عواطف وشعور جسد مادى وروح غير مادية فلا افراط ولا تفريط .

الجانب العقلى :

كما أن الاسلام فى نظرته للانسان إعتبره ذا عقل مفكّر وبصيرة مدركة واعية ، وكثيرًا ما خاطب القرآن العقل فى الانسان وأشاد بذوى العقول الراجحة ورفع من شأنهم ، كما ذمّ أولئك الذين يهملون استعمال عقولهم ونعا عليهم باللائمة ، وشبههم فى ذلك بالبهائم بل هم أضلّ منها لأنّها لم تكن لها عقول مدركة مميّزة أهملت استعمالها ، ولكنّ هؤلاء ضيّعوا هذه النعمة التى منّ الله بها عليهم فغدت عاطلة خالية من الفائدة .

" ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجنّ والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " (١)

والذى يأمر بالبرّ وفعل الخير ولا يأتيه معطّل لعقله حيث أتى من قِبَلِ ماكان يأمر به وهذا يخالف فعل العقلاء .

١- الاعراف آية ١٧٩

" أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفـــلا تعقلون " (١)

وفي الجانب الآخر ، فقد جعل الله تعالى الأدلة على وجـــوده وآياته في الكون والإيمان به عن طريق البراهين العقلية ، بل معجـــزة نبيه الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت معجزة عقلية علمية هـــي القرآن الكريم ، ومن هنا اكتسبت صفة الخلود والاستمراريّه مع استمـــرار هذا العقل البشري وتطوره على مرّ العصور وتوالي الأجيال لا ينضـــب معينها ولا ينفد زادها ولا يضمحلّ عطاؤها للبشرية في كل دهـــر وعصر . . والأمر بالنظر في الكون والتفكر والتدبر في مخلوقاته لا يتأتـــى إلا لأصحاب الألباب وذوي الحجى .

" قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عـن قوم لا يؤمنون " (٢)

وقال عزّ من قائل " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناهـــا وزيّناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنـــا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيـد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج " (٣)

١- البقرة آية ٤٤

٢- يونس آية ١٠١

٣- ق آيات ٦ - ١١

وقد مدح الله ذوى الألباب وأشاد بذكرهم فى كثير من الآيات منها قوله تعالى :

" ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون " (١)

وقال تعالى " وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقونى يا أولى الألباب " (٢) .

وقال تعالى "إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولى الألباب " (٣)

ذلك هو الانسان فى الاسلام عزيز مكرّم مصون عرضه محفوظ حقه كامل وافر مجّلة انسانيته .

وما الانسان وما العقل الانسانى وما الإرادة الانسانية إلّا مقوّمات لكل عمل ناهض بالحياة صانع للمدنيّات الزاهية والحضارات السليمة وحُق لنا أن نقول:إن الاسلام حقًا هو دين الحياة .

وبعد فإنّ ما ذكرته قطرة من فيض لا ساحل له قصدت بها الإشارة والتنويه لحيوية هذا الدين وتفاعله مع الكون ملقيًا بذلك النظريّات العلمانية جلمودًا يخرس آذانها ويصمّ أفواهها .

١- البقرة آية ١٧٩

٢- البقرة آية ١٩٧

٣- آل عمران آية ١٩٠

المبحث الرابـــع

تنظـيم الحيـاة الأجتماعيـــة

جوانب التشريع والعبادات والاقتصاد . . الخ

شرع الاسلام للانسان كل ما من شأنه أن يجعله يحيى حياة طيّبة على هذه الأرض ، وقد راعى الشارع فى ذلك مصالح الناس على كافـــة مستوياتهم .

فأعطى الفرد حقّه وحريّته ضمن حرّية الجماعة ومن غير مســـــاس بمصالحهم ومصالحه ، ولم يجعل الفرد يتلاشى وتذوب شخصيّته فى تيّار المجموعة ، بل له كيانه المستقل وذاتيّته وحقوقه التى لا تهضم ، وبهذا فقد ألقم النظام الاسلامى الشيوعية حجرًا، حيث أنّها لا تجعل للفرد قيمة ولا شخصيّة تُعار شيئًا من الأهمية ، فهو مهدر الكرامة فى المجتمـــع الشيوعى ، بخلاف النظام الاسلامى الذى جعله مسئولاً مسئوليـــة مباشرة لما له وما عليه .

كما جعل الاسلام الجماعة وحدة متكاملة وبنيانًا يشدّ بعضه بعضًا، يتعاونون على ما ينفع الجميع " وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونـــوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب. (١)

فالاسلام قد بنى البشرية من الناحية الاجتماعية أقوى بنيان وربطها

١ـ المائدة آية ٢

بأحسن رابطة ، ولهذا وصف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ترابط المجتمع المؤمن بهذا الوصف الرصين الجامع المانع :

" المسلم للمسلم كالبنيان يشدّ بعضه بعضا ثمّ شبّك بين أصابعه " (١)

وتستمر المسيرة فى التركيز على البناء الاجتماعى المتين القائم على تعاضد أفراده وجماعته على كلّ صروف الحياة وألوان نشاطها الاجتماعى كما بينه ورسم خطط طرقه وسالكه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله " من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله به طريقًا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه" (٢)

ولقد أقام الاسلام المجتمع على ركائز متينة من التعاون على فعل الخير وما ينفع الناس جميعا ، كما أقامه على الموّاخاة التى تجعل من المجتمع رابطة واحدة بعث روح الاخاء الصحيح التى تقرر أن ايمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه" (٣)

١- انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٠ ص ٤٥ باب ٣٦ تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا .

٢- مسلم بشرح النووى جـ ٤ ، ص ٢٠٧٤

٣- أنظر الاسلامية أنور الجندى ص ١٥

كما قرّر هذا الإخاء عمليًّا عند ما كوّن صلى الله عليه وسلم المجتمع الاسلامى الأوّل فى المدينة المنورة . فالمسلم إذا شعر بأنّه أخ المسلم فإنّه يترتب على ذلك أشياء :

منها النّصرة فى الحقّ ، والتعاون فى العسر واليسر والمكره والنشط والمسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، فالمؤمنون جسمًا يدًا واحدة وكلهم عباد الله إخوانًا . . .

وهذه الأخوة هى التى يفتقدها العالم اليوم فلو كانت لما كان ثمّ حروب طاحنة وشر مستطير ، ولكان العالم كلّه بنيانًا يشد بعضه بعضًا.

ولم يترك الاسلام للجماعة الاستبداد بحق الفرد كما يفعل الشيوعيون ، ولم يجعل من الفرد إقطاعيًّا يستغل بحقوق الجماعة كما يفعل النظام الرأسمالى الجشع بل جعل لكل إنسان حدودًا لا يتعداها .

وهذا الأمر كان واضحًا فى الجانب الاقتصادى حيث مال الزكاة حقًّا واجبًا للفقراء كما هو مانع للثروة من التراكم فى أيدى فئة محدودة من الناس ربّما تستغل ضعف الآخرين إن هى تركت بلا قيد ولا شرط وأطلق لها الحبل على القارب " كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . . الآية " (١)

وكقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه لليمن :

" فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم " (٢)

١- الحشر آية ٧

٢- صحيح البخارى بشرحه فتح البارى جـ٣ ص ٢٦١

كما رغبّ الاسلام فى التصدق وفعل الخيرات وجعل الصدقات نماء وزيادة حتى ينشط الانسان لفعل الخير ومساعدة الفقير ولكى يخرج مايخرجه عن طيب نفس وطواعية ، وهذا بعكس نظام الضرائب الذى تفرضه الحكومات العلمانية حيث لا يشعر فيه الانسان بأنّ ماله الذى يؤخذ منه كضريبة يتصف بهذه الصفة ، وهذا من محاسن الاسلام التى جعلته صالحاً لكلّ زمان وكلّ مكان،كما هو ملائم لفطرة البشريّة ، الشيء الذى لم يتوصل إليه علماء النفس الاقتصاديّين .

وبالاضافة إلى ذلك هناك زكاة الفطر التى تخرج طهرة للصائم وهناك الكفارات على مختلف المخالفات الشرعيّة التى يفترضها الانسان تخرج من الأموال ، وكلها فى سدّ حاجات الفقراء ومع ذلك فإنّ نظام الإرث الاسلامى يعتبر بدوره أحد روافد النظام الاقتصادى الاسلامى...

أما فى جانب العبادات فحدّث ولا حرج :

فالصلاة قربة إلى الله تعالى تؤدى خمس مرات فى اليوم والليلة تعلّم الانسان النشاط والحيوية كما تعلمه النظام والانضباط فى أعماله كلّها ودقة العمل وإتقانه وتنظيمه ، وأداؤها فى جماعة فيه تعاون وترابط بين المجتمع وتلاحم بين صفوفه المتراصة مما يدل على وحدة هذه الامة وترابطها وتماضدها،وان فرقها المستعمر الآن .

والصوم جُنّة ووقاية من الأمراض وحصن من الآفات التى يسببها تراكم الطعام فى المعدة وتخمّره،مايؤدى إلى "التخمة" وعسر الهضم ؛ ولهذا أمر الاسلام بالأكل لحفظ النفس وتقويتها على العبادة والعمل والسعى لطلب الرزق،ولكنّه قيّد هذا الأكل بعدم الإسراف الضر بالصحة

مما يقعد الانسان عن العمل ويؤدى الى [illegible] في جسم الانسان، مما يؤدى إلى ثقله وشل حركته، ولهذا نهى الله تعالى من الإسراف الضار بالصحة فقال تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين " (١)

وهو كما قال صلى الله عليه وسلم "إنّه وقاء [illegible] جُنّة " (٢) والجُنّة كل ما يقى ويستر والوقاية عامة في الأمراض وغيرها ..

والحجّ مؤتمر سنوى عام جامع يلتقى فيه [illegible] ون أمورهم بينهم ويشهدوا منافع لهم ، وهذا هو الأصل فيه ، وإن قصّر المسلمون عن هذا فذلك من أنفسهم وهم يتحمّلون نتيجة تقصيرهم .

كما فيه تجرد لله تعالى وإقبال عليه بنفس [illegible] ة وطرح إزالة للفوارق والطبقات ، وفيه توحيد لزى المسلمين [illegible] وهم أيضاً ، وبهذا يشعرون بأنّهم جسم واحد يعبدون ربّاً [illegible] الذى يبعث فيهم الحيوية ويشعرهم بضرورة العودة إلى [illegible] الإسلامية الموحّدة والتحاكم إلى كتاب ربهم وسنة نبيّهم .

أمّا فى جانب الحكم والسياسة ، فقد جعل [illegible] الحاكمية لله وحده . وأمر بالتحاكم إلى كتابه وردّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله : " يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم

١- الأعراف آية ٣١

٢- صحيح البخارى بشرحه فتح البارى جـ ٤ ص [illegible] كتاب الصوم حديث رقم [illegible])

فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله والیوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً" (١)

وجعل التحاكم إلى غيرما أنزل الله نوعًا من الكفر والظلم والفسق

قال تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" (٢)

" " " : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" (٣)

" " " : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون" (٤)

كما جعل من لم يحكّم الله ورسوله فى عداد غير المؤمنين :

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا" (٥)

ونظم الاسلام العلاقات الدولية وعقد الصلح والمعاهدات والتعاون الاقتصادى والتجارى ونظام الحروب والأَسْرَى وكيفية معاملتهم ، وغير ذلك مما هو معروف فى نظام الدولة الاسلامية .

"ويتميّز التشريع الاسلامى بأنّه يحمل فى أصوله العامة عنصر الثّبات وصفة الديمومة التى لا تقبل التغيير أو التعديل ، كما يتسم فى نفس الوقت بالقدرة على الحركة والتعبير فى فروعه وجزئياته المتصلة بالمجتمعات والأزمنة . . .

١ـ النساء آية ٥٩

٢ـ المائدة آية ٤٤

٣ـ المائدة آية ٤٥

٤ـ المائدة آية ٤٧

٥ـ النساء آية ٦٥

ولقد كانت صفة الثبات فيه مرتبطة أساسًا بصفة المرونة والسعة بما يمكّن أهله من القدرة على الحركة داخل أطره الثابتة الأصيلة وبحيث يتسع لحاجات الجماعة مهما طالت الأزمان وتطورت الجماعة" (١)

وبهذا العرض الموجز لنظام الاسلام يتبين أنّ الاسلام دين ذو شريعة تتناول شتى جوانب الحياة بالتنظيم والعلاج والإصلاح الشامل لكل جوانبها وأطرافها متفاعلاً معها في حيوية ونشاط ، وسأبين بعض تلك الجوانب في الفصول القادمة ، إن شاء الله تعالى، حتى تكتمل الدائرة !

١ـ الا[illegible] الجندي ص ١٠٩

الفصـــل الثانـــى

الاسـلام والعلـــم

ويشتمل على مـــا يلـى :

أ ـ بعض ماجاء فى القرآن الكريم عن العلم ..

١ ـ الاسلام يدعو إلى البحث العلمى و التفكر والتدبر فى آيـــات الكون ..

٢ ـ عناية الاسلام بتعليم الانسان .

٣ ـ الاسلام يدعو إلى العلم اليقينى ويحارب الظنون والأوهام ..

ب ـ بعض ماجاء فى السنّة المطهرة عن العلم ..

١ ـ الرسول صلى الله عليه وسلم يحث على طلب العلم ..

٢ ـ معلّم البشرية يكرّم العلماء ..

٣ ـ العالِم العامل أفضل من العابد ..

جـ ـ العلوم التجريبية عند المسلمين ,,

١ ـ جابر سباحيات ,,

٢ ـ الحسن بن الهيثم ,,

٣ ـ ابن سيناء ,,

د ـ نتائج علمية توصل إليها المسلمون ,,

توطئة :

منذ أن انبلج فجر الاسلام الأول ليضيء دياجير هذا الكون الذى غرق فى ظلمات مدلهمّ ليلها ، كانت البشرية وقتها فى حيرة من أمرها من ظلم الحكّام واستعبادهم الناس وتنصيبهم أنفسهم آلهة تجلب الخير وتدفع الشر ، من طغيان الاكاسرة وتجبر القياصرة . .

فلمّا ضاقت الحال بالناس واستحكمت حلقاتها فرجت بالاسلام بعد أن ظنوها لا تفرج . . منذ ذلك الوقت جاء الاسلام بأوّل إعلان وأول نبأ ، أنّه دين يدعو إلى العلم ، فهى حكمة الله التى أرادت ، للرسالة الخاتمة أن تكون شاملة لكل البشرية صالحة لكل الأزمنة والعصور . . ورسالة كهذه لا بد أن تأتى بالعلم لأنّ حمل الجهل قصير والطريق طويل والعقبة كئود، فلا بدّ من التزود بالعلم . .

ولذا كان من أول ما نزل على النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، آية العلم " أقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم " (١)

ومن هنا بدأت المسيرة العلمية لتقود البشرية نحو النور ، نحو السعادة الأبدية على هُدى وبصيرة لا خبطاً ولا خلطاً :

" وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " (٢)

١ـ العلق آية ١ ـ ٥

٢ـ الانعام آية ١٥٣

والرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله بين قوم كانوا أميين ضالّين ليخرجهم بالعلم والهداية من ظلمات الجهالة الجهلاء التى كانوا يعيشون فيها إلى نور العلم الألهى الذى دعا إليه الاسلام وحث عليه الرسول ، بل جعله تعلّمه فريضة ، وكيف لا يكون طلب العلم كذلك ، وهو أساس معرفة الشرائع التى جاء بها الاسلام والتى ألزم الانسان أن يقوم بها ويؤدّيها كما طُلبت منه ، وهذا لا يتأتّى له إلا عن طريق العلم الصحيح .

فالاسلام جاء بعبادات ومعاملات وأحكام ونظم بين الناس تشمل كل نواحى الحياة مما يسبب للفرد المسلم والجماعة المسلمة وكل البشرية لو تمسكت به السعادة والرخاء والطمأنينه ، وهذه النظم والعبادات التى جاء بها الاسلام لا يمكن معرفتها وكيفية أدائها إلّا عن طريق العلم ؛ ولهذا فهو فريضة يلزم تعلمها لتعلق ذلك بها .

ومن هنا يتضح لنا الفرق بين الاسلام وغيره من النظم الأخرى حيث لم نجد فيها هذه الميزة التى انفرد بها الاسلام وهى جعل طلب العلم والتفقّه فيه فريضة واجبة الأداء .

إنّ النظام الغربى العلمانى الذى يدعو لجعل الدين عبادة خاصة بين العبد وربه لا دخل له فى شئون الحياة الأخرى ، نجد هذا النظام لا يضع العلم فى نفس المرتبة التى وضعه فيها الاسلام وهى أن ، العلم عصب للحياة والركيزة الأولى فى صلاحها وتقدمها ، فهم بالرغم من دعوتهم لهذا العلم ووجوب عزله عن الدين لا يرتقون إلى الدرجة التى وضعه فيها الاسلام وهذا ما يتضح فى المباحث التالية .

المبحث الأول

بعض ما جاء في القرآن الكريم عن العلم

الاسلام يدعو إلى البحث العلمي عن طريق التفكر والتدبر في آيات الكون .

دعا الاسلام إلى العلم والبحث العلمي وأمر المؤمنين بأن ينظروا في هذا الكون وما فيه من عوالم وسنن ، كما أمرهم بالسير في أرجائه والكشف عن مكنونه وأسراره العظام التي أودعها الله فيه ، جاء ذلك في حشد كبير جداً من آيات القرآن لا يكاد يحصيها العدّ والحصر أذكر منها مايلي :

قال تعالى : " وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً " (١)

وقال تعالى : " أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء " (٢)

" " " : أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه " (٣)

" " " : " وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين " (٤)

١- البقرة آية ٢٥٩ ٢- الأعراف آية ١٥٨

٣- الرعد آية ٤١ ٤- النحل آية ٦٦

قال تعالى : " أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى هى فى الصدور " (١)

" " : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير " (٢)

وتتابع الآيات الذاكرة هذا القانون القرآنى، وهو قانون السير والنظر وهو وسيلة كبرى من وسائل العلم وتكوين المعلومات فى الأذهان وتقوية الملاحظة الدقيقة وهى مرحلة هامة من مراحل المنهج العلمى وهذا ما نلاحظه فى الآيات التالية كما كان فى التى قبلها .

قال تعالى : " وقل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (٣)

وقال تعالى : " أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج بهيج " (٤)

" " : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين " (٥)

" " : " أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا

١ـ الحج آية ٤٦

٢ـ العنكبوت آية ٢٠

٣ـ يونس آية ١٠١

٤ـ الشعراء آية ٧

٥ـ الروم آية ٤٢

فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب
ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد
والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به
بلدة ميتّا كذلك الخروج " (١)

قال تعالى : " فلينظر الانسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبّاً ثم شققنا
الأرض شقّاً فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً
وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً متاعاً لكم ولأنعامكم " (٢)

" " " : " فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من
بين الصلب والترائب " (٣)

هذا الحشد الجم من الآيات كلّها تحثّ على السير في الأرض ، والتنقيب عن الآثار الكونية والترضي بالنظر المجرّد والفكر السالب فقط ، بل تدعو إلى البحث التجريبي العملي العلمي ، مما يردّ دعاوى المستشرقين وغيرهم من أعداء الاسلام من أنّ الاسلام دين عبادة شخصية لا صلة له بشئون الحياة الأخرى ، وأنّه مناقض للعلم الحديث ، فهو قول باطل وافتراء مختلف من أساسه تردّه نصوص القرآن الكريم ، وتردّه شهادة بعض علماء الغرب الذين أنصفوا البحث العلمي في بعض الأحيان . (٤)

١- ق آية ٦ - ١١
٢- عبس آية ٢٤- ٣٢
٣- الطارق آية ٥-٧
٤- سأورد بعضاً من أقوال هؤلاء العلماء قريباً إن شاء الله .

الاسلام اعتنى بتعليم الانسان :

جاءت كثير من آيات الذكر الحكيم تخبر بمدى اهتمام الاسلام بتعليم الانسان ، والعلم الذى يذكر هنا فى هذه الآيات وغيرها يشمل كل أنواع المعارف الانسانية ولا يقتصر على ناحية من النواحى ، ذلك لشمول الاسلام نفسه لشتى ألوان الحياة البشرية وصلاحه لكل العصور ما دامت السموات والأرض .

وهذه طائفة من الآيات التى اعتنت خصيصاً بذكر تعليم الانسان وأنه لا يعلم شيئاً قبل أن يعلّمه إياه الحق عز وجل ، حيث جعل تعالى من العلم الذى علّمه لآدم عليه السلام ، مفخرة وميزة له فاق بها الملائكة حيث علّمه مالم يعلموه : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم " (١)

وقال تعالى : " واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم" (٢)

" " : " فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم مالم تكونوا تعلمون" (٣)

" " : " خَلَقَ الانسان علّمه البيان " (٤)

١- البقرة آيات ٣١ - ٣٢

٢- البقرة آية ٢٨٢

٣- البقرة آية ٢٣٩

٤- الرحمن آيات ٣-٤

قال تعالى : " كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون" (١)

و قال تعالى : " لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين" (٢)

و " " : " علّم الانسان مالم يعلم " (٣)

الاسلام يدعو إلى العلم اليقيني ويحارب الظنون والأوهام :

الاسلام دين يقوم على الحجة والبرهان المنطقى العقلى الذى يسنده الدليل ويدعمه السند ويقوم على التجربة اليقينيه التى لا يدخل إليها الشك .

ولقد عاب على أولئك الذين يلهثون وراء الظنون يحسبون السراب ماء ويحسبونه حقاً ولكنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئاً .

ولقد وردت فى هذا المعنى كثير من آى الذكر الحكيم منها قوله تعالى : " إن يتبعون إلاّ الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى" (٤)

وقال تعالى : " إن يتبعون إلاّ الظنّ وإنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئاً" (٥)

١- البقرة آية ١٥١
٢- آل عمران آية ١٦٤
٣- العلق آية ٥
٤- النجم آية ٢٣
٥- النجم آية ٢٨

وقال تعالى : " أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زين لسوء عمله واتبعوا أهواءهم" (١)

" " " : " وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنّاً وما نحن بمستيقنين " (٢)

كما أنّ الاسلام يكافح التبعية العمياء والتحجّر الفكري الذي يجعل الانسان متبلّد الإحساس خامل الشعور ينعق وراء كل ما يسمع من غير تفكير ولا رويّة ولا تؤدة وتأنٍّ ، كما يفعل رجال الكنيسة والكهنوت لتابعيهم حيث يقولون لهم : آمنوا واتبعوا وقلدوا ولا تفكّروا فيما نقوله لكم .

الاسلام يحارب كل ذلك الجمود الفكري الذي يجعل صاحبه ، يتّبع من غير تدبّر ولو كان المتبوع ضالّاً " إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أنّ لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار" (٣)

وقال تعالى " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا

١- محمد آية ١٤

٢- الجاثية آية ٣٢

٣- البقرة آيات ١٦٦-١٦٧

عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (١)

من تكريم الله سبحانه إلى العلم أنه نسبه إلى نفسه :

ويكفى الاسلام اعتناءه بالعلم وتقديراً له هذه النسبة وهذا الوصف من علاّم الغيوب الذى لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل،فقد قال تعالى :

" وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا فى كتاب مبين " (٢)

وقال تعالى " قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم مافى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم " (٣)

وقال تعالى : "إنّ الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون " (٤)

" " " : " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم أستوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير" (٥)

١- البقرة آية ١٧٠
٢- الأنعام آيه ٥٩
٣- الحجرات آيه ١٦
٤- الحجرات آية ١٨
٥- الحديد آيات ٣ - ٤

الاسلام يدعو إلى الاستزادة من العلم ويرفع مكانة العلماء :

لم يقف الاسلام عند الدعوة إلى تعلّم العلم فقط ، بل دعا إلى الاستزادة منه وتطوره والبحث وراء كل مكتشف جديد يفيد الانسانية فى كل ما استحدث لها من أمر ؛ فكما فتح باب الاجتهاد والقياس والاستنباط فى الأحكام المستجدّة ؛ كذلك حثّ على الاستزادة فى كل علم يمكن أن ينتفع به الانسان ويفيده فى حياته ويسعده فى آخرته .

قال تعالى " وفوق كلّ ذى علم عليم " (١)

وقال تعالى : " وقل رب زدنى علماً " (٢)

" " " : " وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " (٣)

وهذا طلب صريح من الله تعالى بالاستزادة من العلم وهو كذلك إذا علم الانسان أنّه لم يعرف من العلم إلا القليل طلب الزيادة وسعى لها .

ومع طلب الزيادة فى العلم أشاد الله تعالى بالعلماء وكرمهم أيما تكريم .

وإذا ظهر أخيرا تكريم العلماء والمكتشفين بتقديم الجوائز تشجيعاً لهم على ما قدّموه من خدمات جليلة تستفيد منها البشرية

١- يوسف آية ١٦

٢- طه آية ١١٤

٣- الإسراء آية ٨٥

ولتنشيط الهمم في الاستزادة من العلم ، إذا حصل هذا في العصر الحاضر ، فإنّ الاسلام قد كرّم العلماء وبجّلهم منذ أربعة عشر قرنـــًا وأنّه حاز قصب السبق في هذا المجال ، نزل بذلك القرآن الكريـــم على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما تحدّث الرسول نفسه في أحاديث كثيرة جدًا عن هذا (١) .

مما يدفع افتراءات القائلين بأنّ ثمّة جفوة بين الاسلام والعلـــم، الزاعمين أنّ الأديان جاءت نتيجة للجهل في تلك العصور ، وأنّه لـــم يعد بعد ماجاء عصر التنوير العلمي ، حاجة للانسان بالديـــن . . . وهو قول يردّه تاريخ الاسلام وعلماء المسلمين ، وتردّه النهضة الاسلامية، عندما كان علماء الاسلام يبحثون وينقبون ويكتشفون كل جديـــد (٢)

في الوقت الذي كانت فيه أوربا قابعة في ظلمات العصـــور "الوسطى" يطبق عليها الجهل من كل مكان ، لم يصل إليها النـــور إلّا بعد ما اتصلت بالمسلمين ودرس طلّابها العلم العربي الاسلامي فـــي الجامعات الاسلامية في الأندلس وبغداد وغيرها . .

وهاك بعضًا من الآيات التي يذكر الله فيها العلماء مجدًا لهم، قال تعالى " والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومـــا يذّكّر إلّا أولوا الألباب " (٣)

١ـ سأورد بعضًا من تلك الأحاديث قريبًا إن شاء الله ،

٢ـ سأشير إلى بعض المكتشفات العلمية عند المسلمين عمّا قريب إن شاء اللـــه ،

٣ـ آل عمران آية ٧

وقال عز من قائل لافتاً العلماء معه ومع الملائكة فى الشهود على وجوده ، ووحدانيته ونفى ماسواها من الآلهة الحق ، وأنعم به من تكريم وأكرم به من تقدير للعلم والعلماء من علاّم الغيوب ،

" شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم " (١)

وما أحسب أنّه ورد فى أى دين أو ملّة من الملل أن كرّم العلماء والعلم مثل ما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنّه الاسلام دين العلم والعالمين . .

قال تعالى : " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون " (٢)

وقال تعالى : " ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد " (٣)

وقال تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور " (٤)

" " " : " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكر أولوا الألباب " (٥)

" " " : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات والله بما تعملون خبير " (٦) .

١ـ آل عمران آية ١٨

٢ـ العنكبوت آية ٤٣

٣ـ سبأ آية ٦

٤ـ فاطر آية ٢١

٥ـ الزمر آية ٩

٦ـ المجادلة آية ١١

وغير ماذكرت كثير فى القرآن الكريم عن العلم والعلماء ، وهكذا جاء الاسلام موجّهًا عنايته بكل شئون الحياة الدنيا لم يترك شيئًا فيه مصلحة للبشرية إلّا جاء به وحث عليه ، فما على المسلمين بعد ذلك إلّا العمل بما جاء به هذا الدين ، بل هذا واجب عليهم فإنّه " لن يكون المسلم مؤمنًا حقًا ولا مسلمًا حقًا إلّا إذا قام بواجب التعليم ثم بواجب التفكير والاجتهاد والعمل الحر والانتاج الفكرى والروحى والعلمى . . وبذلك يقضى على التقليد الأعمى والجهل ، وجميع آفاتهما الذميمة "(١) هذا التقليد الذى لا يقره الاسلام ، بل يدعوا إلى عكسه وهو التفكر والتدبر ، ويقوم فى حجيجه وبراهينه على الإقناع والاقتناع فى دحض حجج الخصم كما تقدم .

فإن ركن المسلمون إلى الخمول الذهنى وفتروا عن البحث العلمى الجاد . . . فذلك من عند أنفسهم وبسبب تنائيهم عن الاسلام والاهتداء بهديه واتباع سننه وتنكّب طريقه الموصّلة إلى كل خير وسعادة

١ـ الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .د . محمد خلف الله ص١٦٦
دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الثانية (١٤٦٢)

المبحث الثانـــى

بعض ماجاء فى السنة المطهرة عن العلـــم

بعد أن تعرضت إلى بعض الآيات التى تتناول العلم وما يتعلق به ، وتكريم الاسلام للعلماء والحث على نشر العلم وتعلمه ، بعـــد ذلك ، أعرّج على بعض الأحاديث النبوية الشريفة فى هذا الموضوع التى تبين لنا إلى أى مدى كان ومايزال ـ اهتمام الاسلام بالعلم .

وإذا قلت العلم ، فإنّ المقصود به ـ كما ذكرت أكثر من مـــرة ، العلم بمعناه العام الواسع كما يقصده الاسلام ويفهمه علماء المسلمين ، أى كل ما يحتاج إليه الانسان فى هذه الحياة وفى الآخرة مما يعينـــه فى دنياه على سبيل الراحة والإصلاح لهذا المجتمع ، وفى آخرتـــه بالفوز برضى خالقه . .

قال صلى الله عليه وسلم: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (١)

وقال صلى الله عليه وسلم / فإنّ تعلّموا العلم تعلّمه خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعلّمه لمن لا يعلمه صدقـــــــه

١ـ أخرجه ابن ماجه فى سننه ، جـ ١ ، ص ٨١ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم حديث رقم (٢٢٤) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبع دار التراث العربى (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) وذكر له الهيثمـــى روايات فى مجمع الزوائد بطرق تبلغ به رتبه الحسن ، أنظر مجمع الزوائد ص ١١٩ مكتبة القدس بمصر (٩٣٥٢) .

وهذا لأهله قربة "(١)

والآن أسوق هذا الحديث الطويل الذى يبين كيف كان سلفنا يسافر فى طلب العلم ويقطع لذلك المسافات الشاسعة ويلاقى من مشاقّ السفر ووعورة المسالك فى ذلك الزمان مالا يعرف صعوبته إلّا من درس تاريخ هذه الأمة الاسلامية وخبر حرصها على العلم..

"عن كثير بن قيس قال : كنت جالسًا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء ، جئتك من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حديث بلغنى أنك حدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ماجئت لتجارة ولا لحاجة ولا جئت إلّا لهذا قال : ما جئت إلّا لهذا قال : إنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من سلك طريقًا يطلب به علمًا سهّل الله له طريقًا من طرق الجنّة وأنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وأنّ العالِم يستغفر له كل من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء وأنّ فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وأنّ الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا

١ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، يوسف بن عبد البر تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان جـ١ ، ص ٦٥ طبعة العاصمة القاهرة نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة الطبعة الثانية (١٣٨٨هـ ١٩٦٨م) .

وقال ابن عبد البر عن هذا الحديث: حسن جدًا .

وأنّما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر" (١)

والمسلم بين حالات أربع لا خامس لها ، وهي في هذا الحديث عن أبي بكرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

" أغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا ، ولا تكن الخامسة فتهلك" قال عطاء : قال لي بشر زدتنا خامسة لم تكن عندنا "والخامسة أن تبغض العلم وأهله " (٢)

وقال صلوات الله وسلامه عليه في هذا المعنى :

" الناس رجلان ، عالِم ومتعلم هما في الأجر سواء ولا خير فيما بينهما من الناس " (٣)

معلم البشرية يكرم العلماء . .

لقد كرّم الاسلام العلماء ومجّدهم - كما مر - وأعلى من قدرهم ولهذا فقد جعل صلى الله عليه وسلم ، موت العالم مصيبة وكارثة كبيرة على الأمة حيث أنّه بذهاب العلماء يسود الجهل ويفشو في الناس فجاء عنه قوله :

" إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن يقبض

١- انظر سنن ابن ماجة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ج ١ ص ٨١ حديث رقم ٢٢٣ ، ورواه الترمذي أنظر تحفة الأحوذي ج ٣ ص ٣٨١ وكذلك انظر سنن أبي داود ج ٣ ص ٤٣٢

٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر ج ١ ص ١٣٢ باب فضل العالِم والمتعلم وقال رواه الطبراني في الثلاثة والبزار ورجاله موثوقون .

٣- نفس المرجع السابق في نفس الباب .

العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْقِ عالِمًا ، اتخذ الناس رؤساء جهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلوا" (١)

وقال صلوات الله وسلامة عليه عند ميراث العلماء :

" العلماء ورثة الأنبياء ، وأنّ الأنبياء لم يورّثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم " العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس " (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم ، فى فضل العالِم على فضل العابد :

" فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " (٤)

وقال صلى الله عليه وسلم : " فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع" (٥)

تلك كانت شذرات من السنة وهى قليل من كثير وقطرة من فيض

١- أخرجه البخارى فى صحيحه أنظر فتح البارى جـ ٢١ ص ١٩٤ باب كيف يقبض العلم .

٢- رواه ابن ماجه باب فضل العلماء والحث على طلب العلم جـ ١ ص ٨٣

٣- المرجع السابق جـ ١ ، ص ٨٣ حديث رقم (٢٢٨)

٤- سنن ابن ماجه باب فضل العلماء والحث على طلب العلم جـ ١ ص ٨١ حديث رقم (٢٢٣)

٥- مجمع الزوائد ص ١٢٠ باب فضل العلم وقال رواه الطبرانى فى الأوسط والبزّار وفيه عبد القدوس وثقه البخارى وابن حبّان وضعفه ابن معين .

فى هذا المجال تلقى الضوء على أنّ الاسلام دين العلم وأنّ المسلمين هم روّاد العلم الأوائل بل ومصدّروه للعالم .

المبحث الثالث

العلوم التجريبية عند المسلمين

الاسلام دين يقوم على العلم ، ويبنى أصوله وقواعده على العلم اليقينى ، كما عُرف ذلك عنه منذ أول آية نزلت فيه تحث على العلم والتعلم والقراءة .

وما إن انتشر الاسلام فى أرجاء المعمورة وتوسعت فتوحاته ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، حتى أخذ العلماء المسلمون فى البحث والتنقيب والكشف عن أسرار الكون ومكوناته ، كما طفقوا يترجمون كل نافع من العلم تقع عليه أيديهم فيستفيدون منه ويفيدون .

وما إن جاء القرن الثانى وإلى الرابع حتى غدا هناك علماء أفذاذ فى شتى أنواع العلوم والمعارف الانسانية قامت على أكتافهم نهضة إسلامية علمية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً .

هذا ولا ينقص من قدر العلماء المسلمين إن قلنا إنّهم استفادوا فى هذا الشأن من علماء اليونان والفرس والهند عندما انتشر الاسلام فى تلك البقاع فى عصر النهضة الاسلامية ، حين امتد بذراعيه الرحيمتين يفتح البلاد شرقًا وغربًا ليصل هذا النور الإلهى إلى كل البشرية كى ينير لها الدجنّة ويبدد عنها غياهب الظلمات التى كانت ترزح فيها

ربعاً من الزمان .

لقد أفاد المسلمون بفتوحاتهم تلك قبل أن يستفيدوا هم وهند شئ تعلّم المسلمون لغات تلك الأقوام وأخذوا يترجمون إلى اللغة العربية الأم ، لغة القرآن ، كل ما هو مفيد ونافع ولم يكن يتعارض مع دينهم ومبادئ عقيدتهم ، ذلك لما كانوا عليه من فهم وإدراك تام لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم تنقصهم الحاسّة المرهفة والثقافة الاسلامية العالية التي يميّزون بها الغثّ من الثمين ، كما صار الأمر في عصور غفوة المسلمين وثباتهم الذي أعقب تلك النهضة والذي كان سبباً في جلبنا لكل ما هو صالح وطالح خبط عشواء من غير تمييز ولا رويّة ، لكل ما يأتينا من الغرب وكأنه تنزيل من حكيم خبير .

وبذلك نقل العلماء المسلمون العلوم بمختلف أنواعها من علوم الطبيعة (الفيزياء) والكيمياء والأحياء والرياضيات بأنواعها والهندسة والفلك . . . وكذلك العلوم الانسانية كعلم النفس والفلسفة والاجتماع وغيرها . .

وكما ذكرت ـ لم يكن هذا النقل تقليداً أعمى بل كانوا ينقدون ويصلحون ويعدّلون ويحذفون ويضيفون كل ما يرونه صالحاً ولا ينافي أصول العقيدة الاسلامية من العلوم الثابته الصحة النافعة للانسانية . . . ويحذفون كل ما ليس بذي فائدة ، كما شهد لهم بذلك أصحاب الفكر النافذ والعقلية الراجحة الذين ينصفون العلم من علماء الغرب والفضل ما شهدت به الأعداء .

يقول فى ذلك أحد هم " إنّ علماء العرب لم يأخذوا بآراء السابقين ، حتى ولو كان نجم هؤلاء العلماء السابقين مضيئًا وعاليًا إلا بعد أن يتأكدوا ويتثبّتوا منها " (١)

والعلماء المسلمون كانت لهم صفات قل أن توجد فى غيرهم من العلماء ذلك أنهم كانوا يتحرون الصدق والأمانة العلمية والدقة التامة فيما ينقلونه عن غيرهم فى مختلف فروع العلم.

فينسبون كل فرع أو أصل أخذوا عنه لصاحبه بل يشيدون بفضله ويشكرون له جهده الذى بذله فى إبراز هذا الجانب مع ذكرهم ما أخطأ فيه ولم يجانبه فيه الصواب وربما التمسوا له العذر، مما يدل على أنه كان لهم ذوق رفيع وحاسة مرهفه وشعور شفاف ينم عن التربية الاسلامية الرفيعة التى لا تخدش شعور أحد من الناس ، وهذه ميزات قوة مناهج البحث العلمى .

لقد كان الرسول علية الصلاة والسلام لا يباشر أحدًا بخطئة بل يكنّى ويورّى عنه وكأنه لا يقصد أحدًا بعينه ، وإنما يوجه الخطأ بمثل عبارات : مابال أقوام يفعلون كذا وكذا . .

ذلك ما كان يفعله العلماء المسلمون من الأمانة العلمية " خلافًا لما جرى عليه من سبقوهم فيما أخذوه من علوم الحضارات الأولى وما جرى عليه أيضًا من لحقهم من علماء النهضة فى أوربا فيما أخذوه من علماء العرب ، أمثال " وليام هارفى " حيث نسب إلى نفسه اكتشاف

١ـ مكانة العلم والعلماء فى الاسلام ص ٢٥ وما بعدها .

الدورة الدموية مع أنّ مكتشفها الحقيقي هو العالم العزل المسلم ابن النفيس (١) .

ولا جدال الآن في أنّ هارفي اعتمد في ذلك على أبحاث ابن النفيس ، ونجد أيضا أبحاث ابن الهيثم (٢) في انعكاس وانكسار وسرعة الضوء تنسب إلى " نيوتن" وكانت" دون أن ينسب ببنت شفة عن ابن الهيثم ، كذلك سبق الخازن (٣) تورشيللي " في الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه

١- هو علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المصري الشافعي المعروف بابن النفيس (علاء الدين) طبيب شارك في الفقه والأصول والعربية والحديث والمنطقة والسيرة وغيرها توفي بمصر في ذي القعدة عام (٦٨٧هـ) وقد قارب الثمانين من كتبه : الشامل في الطب والرسالة الكاملية في السيرة النبوية أنظر معجم المؤلفين جـ ٧ ص ٥٨ . عمر رضا كحاله . مكتبة المثنى بيروت (١٣٧٦-١٩٥٧م).

٢- هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم أصله من البصره ثم انتقل إلى مصر . وقد كان بارعًا في علم الطبيعة" الفيزيا" كما كتب في الرياضيات والهندسة والطب وغيرها ، منها شرح أصول أقليدس في الهندسة والعدد تلخيصه .

وكتاب تحليل المسائل الهندسية وكتاب في المساحة على جهة الأصول وقد توفي بالقاهرة في حوالي (٤٣٠هـ)

٣- هو محمد بن الحسن الخراساني ابو جعفر من كبار الفلكيين في الاسلام مخدم بإرصاد ، أبا الفضل بن العميد وزير ركن الدولة البويهي ، وكان عالمًا بالرياضيات والهندسة من كتبه : زيج الصفائح ، وشرح كتاب " اقليدس" توفي نحو (٤٠٠هـ)

انظر الأعلام خير الدين الزركلي جـ٦ ص ٣٢٩ الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ ١٩٢٩م) .

كما سبق الخازن أيضا " نيوتن" فى أبحاثه عن الجاذبية كما تنسب الطريقة العلمية الحديثة إلى " بيكون" و" ديكارت" دون ابن سينا" وابن الهيثم والبيرونى" (١)

وأورد الآن على سبيل المثال لا الحصر بعض المكتشفات العلمية التى تنسب إلى بعض العلماء المسلمين .

جابر بن حيان والكيمياء :

كتب جابر بن حيان فى علوم كثيرة أذكر منها على سبيل المثال الكيمياء .

كان جابر أول من حضّر حمض النتريك وسماه الماء المحلّل ، كما اكتشف الزئبق والكبريت والزرنيخ ونترات الفضة ، وبعض مركبات الكبريت مع الحديد والذهب والألمونيا وحمض الأيدروكلوريك ، والقلويات والصودا الكاوية وكربونات الصوديوم . .

وهو أول من أقام دراسة الكيمياء على الأسس العلمية الحديثة حيث دعا إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج يقول فى ذلك :

" إنّ واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وأنّ المعرفة لا تحصل إلا بها . . " (٢)

١ـ مكانة العلم والعلماء فى الاسلام على أحمد شحاته ، ص ١٢٢ .

٢ـ المرجع السابق ص ١٢٢ وما بعدها .

وكان جابر بن حيان عالماً ذكياً لامعاً أجاد فى كل العلوم التى كتب فيها" (١)

الحسن بن الهيثم والطبيعة :

كتب ابن الهيثم عن علم الطبيعة (الفيزياء) وهو علم يهتم بدراسة خواص المادة الخارجية ، ولقد كان أول مؤسس فرع من فروع الفيزياء وهو علم الضوء " OPTICS " الذى يعرف بعلم البصريات فقد حاز فيه قصب السبق وكانت له اليد الطولى فى ذلك ، يقول عنه أحد علماء الفيزياء المسلمين :

" والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع الطبيعة الأخرى أنه علم ازدهر فى عصر التمدن الاسلامى ، فكان من أعظم مؤسسيه شأناً ورفعة الحسن بن الهيثم الذى كانت مباحثة المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر للميلاد "(٢)

وله أبحاث فى المدسات اللامة والمفرقة

١- هو جابر بن حيّان بن عبد الله الكوفى ، المعروف بالصوفى عالم شارك فى الطبيعة والكيمياء والفلسفة والفلك والأدب وغيرها قيل إنه ولد بخراسان أو طوس (١٢٠هـ) وله عدة كتب منها : كتاب الخواص الكبير فى خواص الأشياء ونهاية الأدب وكتاب الشعر .
توفى سنة (١٩٨هـ) - أنظر معجم المؤلفين حـ٣ ص ١٠٥ .

٢- المرجع السابق ، عن كتاب البصريات للاستاذ مصطفى نظيف وانظر كذلك الفكر الاسلامى احمد شلبى ص ١٣٨ .

كما كتب ابن الهيثم فى الهندسة ، وله عدة أبحاث فى المساحات والحجوم واستعمال القوانين الرياضية فى بعض المسائل الجبرية وحساب محيط الدائرة كما كتب فى علم الميكانيكا وغيره . .

ابن سينـــاء . (١)

كتب ابن سيناء فى العلوم بمختلف أنواعها ولا سيما الكيميـــاء فهو من الرواد الأوائل الذين اكتشفوا الزئبق والكبريت والزنيخ ونترات الفضة والذهب وكربونات الصوديوم مع غيره من علماء المسلمين أمثـــال ابن حيان وغيره (٢) واستعملها فى بعض الأغراض الطبية .

وقد أجرى تجارب كثيرة مثل عمليات التقطير والتبخير والإذابـــة والتبلر والتصعيد . .

١- هو أبو على الحسين بن عبد الله بن على بن سيناء وهو من بخـارى التى يحتلها الروس حالياً .

وقد حفظ القرآن منذ صغره ثم عكف على تعلم شتى العلوم حتى بَـــرَع فيها جميعاً تقريباً ، وله كتب كثيرة فى الطب والهندسة والكيمياء والفلسفه وغيرها . ومن كتبه القانون فى الطب والشفاء . .

. . وكانت ولادته ببخارى (٣٧٥هـ) وتوفى بهمدان جنوب إيـــران (٤٢٨) . أنظر عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص٤٣٧ وما بعدها مكتبة الحياة بيروت (١٩٦٥) .

٢- أنظر موسوعة النظم والحضارة الاسلامية (الفكر الاسلامى رقم٢) . د أحمد شلبى ص١٣٦ مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة (١٩٧٨م)

كما كتب فى الفيزيا" ولو كان ذلك بشيء قليل بالنسبة لبعض العلماء الآخرين" كالحسن بن الهيثم الذى برّع فى هذا العلم بمختلف فروعه .

وكتب ابن سينا" فى الهندسة والجبر والحساب والميكانيكا وعلم الطبيعة الجوية "METEOROLOGY" أو مايسمى حالياً بعلم الإرصاد الجوية ، الذى يرصد أحوال تغيرات الجو ، مثل تحركات الرياح واتجاهها ، وتكوين السحب وهل هى مشبّعة بالرطوبة أم لا ، كما يُعنى بمقاييس درجات الحرارة والرطوبة . .

وكان ابن سينا" يمتاز بالتعبير العلمى الدقيق كشأن رفاقه الذين كتبوا فى مجال العلوم .

وتكلم فى كتابه الشفاء ، عن السحب وأسباب تكوينها وكيفية ذلك وتحدث عن البرق والرعد والثلج والظل . . . وغيرها .

ومن العلماء المسلمين الذين تناولوا هذا العلم وكتبوا فيه مباحث قيّمة ونافعة كان لها وزنها فى مجال ترقية العلوم ، البيرونى (١) ، والخوارزمى (٢) .

١ـ هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى منسوب إلى بيرون وهى مدينة فى السّند إحدى مقاطعات الباكستان ، كان مشتغلاً بالعلوم الحِكمية ، والنجوم وله قدم طيبة فى الطب ، وكان معاصرًا لابن سينا" . وله عدة كتب منها : الجماهر فى الجواهر ، وكتاب الصيدله فى الطب ، وكان مقيماً بخوارزم توفى فى (٤٣٠)هـ انظر عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٤٥٩ .

٢ـ هو محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى الكاتب" أبو عبد الله" عالم شارك فى علوم كثيرة من آثاره مفاتيح العلوم" قيل توفى سنة (٣٨٧هـ) وقيل (٣٨٠هـ) . أنظر معجم المؤلفين جـ٩ ص ٢٩ .

وتناولوا فى بحوثهم الكسوف والخسوف وقوس قزح كما تحدث عن ذلك أيضاً القزوينى فى كتابه " عجائب المخلوقات " وتحدث وبحث ابن سينا عن الجيولوجيا وعلم المعادن . . . وذكره أبو الريحان البيرونى فى كتابه " الجماهر فى معرفة الجواهر " كما وصف هذا العلم أيضاً القزوينى . .

وبحث العلماء المسلمون فى علم الجبال " OROLOGY " وكيفية تكوينها وأتى ابن سينا عن تكوين الجبال بنظرية فى غاية الدقة ، كما جاء بذلك العلم الحديث يقول فى ذلك :

" وأما الارتفاع فقد يقع لذلك سبب بالذات وقد يقع له سبب بالعرض " .

أما السبب بالذات ، فكما يتفق عند كثير من الزلازل القوية أن يرفع الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الأرض ، ويُحدث رابية من الرواسى دفعة . .

وأما الذى بالعرض ، فأن يعرض لبعض من الأرض انحفار دون ، بعض بأن تكون رياح قوية أو سيلة حفّارة يتفق لها حركة على جزء من الارض دون جزء ، فيحفر ما يسيل عليه ويبقى مالا يسيل عليه رابياً ثم لا تزال السيول تغوص فى الحفر الأول إلى أن تغور غورا شديداً ويبقى ما انحرف عنه شاهقاً . . " (١)

١ـ عن مكانة العلم والعلماء ص ٥٠ وما بعدها

وهذا العلم ، علم تكوين الجبال ، تحدث عنه العالم المسلم القزويني" (١) حيث وصف ارتفاعها ونباتها وحيواناتها ومعادنها .

وتكلم ابن سيناء والقزويني عن علم الهزات الأرضية (الزلزال) "SCISMOGRAPHY" فتناولا ها بالبحث الدقيق والتحليل العلمي التجريبي الأصيل . فابن سيناء يقول "إنها حركة تعرض لجزء من الأرض بسبب ماتحته ، ولا محالة أنّ ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك مافوقه ، والجسم الذى يمكن أن يتحرك تحت الأرض يحرك الأرض .

وهو إما جسم بخارى أو دخانى قوى الاندفاع ، وإما جسم مائى ، وأما جسم هوائى ، وأما جسم نارى ، وأما جسم أرضى ، والجسم النارى لا يكون ناراً صِرفة ، بل فى حكم الدخان القوى ، وفى حكم الريح المشتعلة . . . وأن أكثر أسباب الزلزلة هى الرياح المختلفة . . " (٢)

أما الزلازل عند القزويني فـ "إن سببها الأدخنة والأبخرة

١- هو زكريا بن محمد بن محمود ، من سلالة مالك بن أنس الأنصارى مؤرخ وجغرافى ، من القضاة ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق حيث وَلِيَ القضاء أيام المعتصم العباسى .
من تصانيفه "آثار البلاد وأخبار العباد" "وعجائب المخلوقات" ولد فى "٥٠٥ هـ" وتوفى فى ٦٨٢ هـ أنظر الأعلام للزركلى جـ٣ص ٨٠
٢- المرجع السابق وأنظر الفكر الاسلامى (٢) ص ١٢٤

التى إذا أجتمعت تحت سطح الأرض الصلب لا يكون فيه منافذ وسـام فإذا قصدت البخارات الصعود ولا تجد المنافذ والمسامتهتز منها بقاع الأرض وتضطرب ، وربما ينشق ظاهر الأرض وتخرج من شقه تلك المـواد المحتبسة دفعة واحدة "(١)

مقارنة نتائج علمية :

أعرض فيما يلى بعض الجداول المقارنة بين العلماء المسلمين فيما توصلوا إليه من تجارب علمية ولا سيما فى خواص المادة " الفيزيـاء" وبين النتائج التى توصل إليها العلم الحديث فى هذا الشأن وكان ثمّ فرق ضئيل لا يذكر إنما يرجع ذلك إلى عدم وجود المختبرات الدقيقـة عند علماء المسلمين آنذاك :

المـادة	عند البيرونى	عند الخازن	الوزن فى العلم الحديث
الذهب	١٩ر٠٥	١٩ر٠٥	١٩ر٢٦
الزئبق	١٣ر٩٩	١٣ر٥٦	١٣ر٥٩
النحاس	٨ر٨٣	٨ر٦٦	٨ر٨٥
الحديد	٧ر٧٤	٧ر٧٤	٧ر٧٩
القصدير	٧ر١٥	٧ر٣٢	٧ر٢٩
الرصاص	١١ر٢٩	١١ر٣٣	١١ر٣٥

١ـ أنظر المرجع السابق ، ص ٧٦ .

هذه النتائج العلمية والبحوث الراقية تلقم العلمانية حجرًا في فيها وتسفها المهلّ لعلها تعي إن كانت لها أذن واعية.

بعض المصطلحات العلمية العربية التي نقلت إلى اللغات الأخرى

مما يدل على أن علماء المسلمين قد برعوا براعة فائقة في البحث العلمي الدقيق، الذي يبطل شبهات العلمانيين القائلين بأن هناك نفورًا أو جفوة بين الاسلام والعلم، الذي يبطل ذلك تلك الحقائق الساطعة والأنوار الكاشفة في المصطلحات العلمية التي وضعها العلماء المسلمون ونقلها الأوربيون حرفيا كما وضعها المسلمون إلى لغاتهم لم يزيدوا فيها شيئًا غير أن كتبوها بحروفهم اللاتينية وهذه نماذج منها:

اسم المادة العلمية بالعربية	ترجمتها الحرفية إلى الأحرف اللاتينية
الإنبيق	alemBic
التنكار	Tincar
التنور	Tanor
الآسد "الحديد"	AseD
الزئبق	SAIBAG
القلي "الصودا"	ALKALI
القصدير	KAZDIR
الزرنيخ	ZARNIK
الدانق	DANIK
الكحول	ALCHOL
الخميرة	KHAMIR

فلا غرو إن دعت الدقة المتناهية لدى علماء المسلمين علماء الغرب بالاشادة بهم ولا سيما الذين كانوا يبحثون وراء الحقائق العلمية ، فقد اعترفوا لهم بطول الباع في هذا المجال وأقروا بأنهم الرواد فيه الذين سبروا غوره وكشفوا عن مكنون سره الدفين .

ولقد عرف العلماء المسلمون الطب واستعملوه بشتى أنواعه ومختلف فروعه ـ من جراحة وباطنية وأسنان وغيرها كما اكتشفوا المخدر الذى يستعمل لتخدير الجسم عند العمليات الجراحية ، كما اكتشف الأطباء كثيرًا من النباتات التى فى بلادهم لم يكن يعرفها اليونان ـ وعرفوا " البنج " الذى سموه " المرقّد " وقالوا : إن هناك عمليات جراحية تحتاج لتنويم المريض حتى يفقد وعيه وحواسه .

واخترع بعضهم ماخالف به أطباء اليونان كمعالجتهم الفالج والاسترخاء بالأدوية الباردة بدل ماكان يستعمل عند اليونان من الأدوية الحارة ، وكانوا أول من نظم الصيدلة وتوسع فيها" (١)

تلكم كانت شذرات قليلة من فيض كثير أردت أن أشير به إلى اهتمام الاسلام واعتنائه بالعلم لدحض مفتريات العلمانيين الزاعمين أنّ الاسلام دين ينافى العلم ويناقضه ، وأن العقلية الاسلامية عقلية متحجرة لا قدرة لها على الكشف والبحث العلمى ، وإنما هم مجرد نقلة مقلدين لا ابتكار عندهم . .

١ـ ظهر الاسلام ، أحمد أمين جـ٢ص١٩٨ دار الكتاب العربى بيروت الطبعة الخامسة (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م)

المراد بحثها واضحة أمامهم ، وهذه قمة المنهج الاستقرائى حيث الانتقال من المجهول إلى المعلوم عن الطريقة سالفة الذكر. (١)

وأنّ الرواد الأوائل فى مناهج البحث العلمى من الأوربيين قد استفادوه عن العرب المسلمين ، فلقد "تلقى "روجر بيكون" ROGER BASON " عن العرب ثقافته العلمية وطرق البحث العلمى ولا يستطيع بيكون ولا سيمه الذى جاء بعده (٢) أن يدعيا أنهما ابتكرا الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هى من صنع العرب وحدهم ولم يسبقهم إليها باحث أو مفكر ، وكل ما عمله بيكون أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين فتلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها إلى أوروبا المسيحية.

وظل بيكون يعترف بهذا دون ملل ، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصريه الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة. أما النقاش حول هذا الموضوع ومحاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب فليست إلاّ حَلَقة من حلقات التضليل . . .

ومن الواضح أن بيكون لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعى المتأخرون ، إذ كانت هذه الطريقة واسعة الانتشار فى أوربا فى عهد

١- أنظر مناهج البحث العلمى د . عبد اللطيف محمد العبد ص ١٧ مكتبة النهضة المصرية (١٣٩٨هـ - ١٩٧٩م) .

٢- الذى جاء بعده هو " فرنسيس بيكون" ١٥٦١ - ١٦٢٦ " والأول كان فى (١٢١٤ - ١٢٩٢)

المبحث الرابع

كلمات حق في موضعها

بعد أن انتشر الاسلام في زمن الفتوحات الاسلامية ، منذ عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية ، وترجمت علوم البلاد المفتوحة إلى العربية ، عندئذ أخذ العلماء المسلمون ينقبون ويبحثون ويأخذون ويضيفون . . . فأثرت المكتبة الاسلامية ثراء عظيماً وفُتحت المدارس لتدريس شتى أنواع العلوم ، في بغداد وقرطبة وقرناطة وطليطلة، ثم بعد ذلك الأزهر وغير ذلك من المدارس الاسلامية التي أصبحت منارات علم استقى منها الأوربيون شتى العلوم.

من علوم الشريعة المختلفة بما في ذلك اللغة العربية والعلوم الانسانية والكونية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والفلك وكذلك استفادوا العلوم البحتة مثل الكيمياء والفيزياء والأحياء والطب، حتى غدا طلب العلم في هذه المدارس الاسلامية مفخرة من مفاخر الطلاب الغربيين .

كما أخذ الغربيون، فيما أخذوه عن المسلمين مناهج البحث العلمي الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجربة العلمية والتحليل والتركيب، فقاموا بتحليل المادة إلى أجزائها لمعرفة كل جزء على حدة ووظيفته ودوره الذي يؤديه في هذا الكل .

ثم يؤلفون بين هذه الأجزاء مرة ثانية حتى تصبح الفكرة عن المادة

يكون مما يدل على أنها كانت قد بدأت قبل بزمن»(١). تلك النهضة العلمية الاسلامية هى التى دفعت بعض علماء الغرب للاشادة بهؤلاء العلماء المسلمين . . . وهذه بعض المقتطفات من آرائهم حول ذلك .

يقول "برنال": «إنّ الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب فى الحفاظ على هذا التراث وتدوينه (٢) . ونقله والتأليف فيه ، وأنّ العلماء العرب قد برعوا فى ذلك وأنهم تفوقوا على الإغريق بأن جعلوا العلم سهلاً مستساغًا ، فأقبل الناس على النهل منه وكانت ميزة أنفرد بها العلم العربى" (٣)

ويقول "كارلسكى" «إن الخدمات التى أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين وأن البحوث قد دلت على عظم دَيْنِنَا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم عند ما كانت أوربا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى" (٤)

وفى وسط هذا العالم الذى أخذت رقعته فى الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التى وجدوها فى مكاتب العرب وجامعاتهم الفنية . .

وعن طريق اسبانيا (الاندلس) جاءت أول معرفة بمؤلفات

١ـ الفكر الاسلامى (٢) ص ١٤٩

٢ـ يعنى بالتراث هنا ، التراث العلمى مثل الكيمياء والفيزياء والطب وغيرها

٣ـ دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى مادة علم جـ ٦

٤ـ المرجع السابق .

أرسطو الكبيرة . ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزاً كل العجز عنه ، وهو العلم الرياضي ويظهر أن عظمة العرب كانت كامنة فى مقدرتهم على تمثل أفضل ما فى التراث الفكرى للشعوب التى احتكوا بها أكثر مما كانت فى أى إبداع أصيل .

فقد أخذوا من العالم اليونانى المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون جانباً ، وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوج عظمتهم تابعين طريق التطور البطىء والتكيف العملى . .

وهنوا فى القرن العاشر فى اسبانيا (الأندلس) حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علماً طُبِّق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وعلى الاجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العمليين اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة . وخلافاً للأغريق لم يحتقروا المختبرات العلمية والتجارب الصبورة ، أما فى الطب وعلم الأحياء ، بل فى جميع العلوم فقد استخدموا العلم فى خدمة الحياة الانسانية مباشرة ولم يحتفظوا به غاية فى حد ذاته . .

" وقد ارتبطت الفكرة الأساسية فى العلم التجريبى العامل على اكتشاف الأسس الرياضية لتركيب الطبيعة بنظرية البصريات التى عرفتها المدرسة العربية . . . كما وضعها كل من ابن الهيثم وابن

جبرول اليهودى ، ولقد وضع (ويتلو) " WITELS " فى بـــــاد و عام (١٢٧٠) كتاباً فى علم المرئيات اعتمد فيه على ابن الهيثم" (١)

ولقد تكلم عن فريد وجدى فى دائرة معارفه (٢) عن التحسينات التى أدخلها المسلمون على بعض العلوم ، وكذلك التى اكتشفوهـــــا ابتداء بما يدفع أكاذيب أعداء الاسلام والمسلمين من المستشرقـــــين والمبشرين وغيرهم من أن الاسلام يناقض العلم ويدعو للتخلف مما يثيره العلمانيون حول الأديان والمتدينين عامة لتأييد مذهبهم المـــــادى العلمانى الذى يدعو لعزل الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصاديـــة والثقافية والأدبية ، عن الدين وأن الأخير يجب أن يكون علاقـــــة خاصة بين الأفراد وخالقهم ، إن أقروا بوجوده، تنحصر هذه العلاقـة فى العبادات الخاصة بهم كأفراد ولا تتدخل فى بقية شئون الحياة.

وإن صح هذا (نوعاً ما) بالنسبة لبقية الأديان ، فإنه لا يصـــدق بحال من الأحوال على الاسلام، دين العلم والتقدم والرقى البشـــرى... فها هم العرب لم يتقدموا فى كل مجالات الحياة العلمية منها والثقافية والاجتماعية وغيرها من ضروب الحياة المتنوعة ، إلا بعد الاسلام الـذى دعاهم للعلم والتعلم بل وحثهم على طلبه أينما وجد وأخذ الحكمـــة

١ـ تكوين العقل الحديث ، جون هرمان راندال جـ١ ملخص من الصفحات ٣٣١ الى ٣٣٤.

٢ـ أنظر دائرة معارف القرن العشرين مادة علم جـ ٦ ص ٦٠٨ ومابعدها.

التى هى العلم حيثما وجدت " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفـــــة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهـــــــم يحذرون " (١)

ولهذا فقد انطلق المسلمون فى أرجاء المعمورة يبحثون فى كـــل مايصلح شأن هذه البسرية لأنه عند المسلمين خير عباد الله أنفعهم لعباده . انطلقوا يكتشفون كنوز الأرض وخباياها ، وغاصوا فـــــى قاع البحار فاستخرجوا لآلئها وأصدافها .. وبحثوا فى المكتبـــات فنعموا بخيرات علومها وأناروا بها دجنّة ظلمات الأرض شرقيّها وغربيّهـــا حتى صاروا من بعدُ أساطين الفكر وجهابذة العلم وسادة الدنيـــــا.. حتى جثت لهم أوربا على ركبتيها إجلالاً وتقديرًا لما قاموا به من خدمة للانسانية فى شتى مجالات الحياة...

ذلك كله كان بفضل الاسلام عليهم ثم بفضل حرصهم على التمسك به والعمل بهديه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيـــل من حكيم خبير ..

١- التوبة آية ١٢٢ .

الفصل الثالث

مفهوم الدين والدولة في الاسلام

بعد أن تحدثت في الفصلين السابقين عن صلاحية الاسلام لهذه الحياة وكيف أنه يتفاعل معها في حيوية لخير حياة.

وعرجت في الفصل الثاني على عناية الاسلام بالعلم ورجاله الذين حملوا مشعل الهداية ونور العلم إلى البشرية قاطبة.

وهنا في هذا الفصل أتعرض لمفهوم الدين والدولة في الاسلام؛ ذلك لأن تلك الثلاثة تنفيها العلمانية عن الاسلام وهي التي تدور حولها شبهات المستشرقين وسوف أعالج هذا الفصل على ضوء النقاط التالية:

١- شواهد على ترابط الدين والدولة في الاسلام من القرآن.

٢- شواهد أخرى من السنة النبوية.

٣- ثم بعض ماجاء عن الخلفاء الراشدين في ذلك.

٤- بعض آراء علماء هذه الأمة وغيرهم من المنصفين في ترابط الدين والدولة في الاسلام...

جاء الله سبحانه وتعالى بالاسلام دينًا خاتمًا وناسخًا لكل ما سبقه من رسالات الله للبشرية.

وجاء بالقرآن دستورًا ومنهجًا متكاملاً لجميع شئون الحياة كما قال تعالى " مافرطنا فى الكتاب من شئ" (١)

وبين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، قولاً وفعلاً حكمًا وسياسة وعبادة . . . وسار على نهجه الخلفاء الراشدون من بعده وفهموا أن الاسلام دين ودولة وسياسة وحكم . .

ولم يُعرف مفهوم فصل الدين عن الدولة ، بمعنى عزله عن حياة الناس بكل أنواعها ، لم يعرف ذلك فى الاسلام أصلاً إلاّ عندما غزا المسلمين الفكر الغربى العلمانى الذى خلق هذه التجربة عندما فصل الكنيسة عن حياة الناس السياسية وحصرها فى الطقوس التى تتمثل فى العبادات . .

وإنما كان الاسلام يُعرف بأنه دين شامل لكل ضروب الحياة وهو منهج الله للبشرية كافة وفى كل عصورها تتعاقب عليه أجيالها الجيل يتلو الجيل . . . ويستحيل عقلاً أن يكون منهج كهذا مقصرًا فى بعض الجوانب حتى يحتاج لترقيع من بشر أو حزف أو أضافة . . ولا يقول قائل كل الأديان السماوية هى منهج إلهى . . ولم يكن فيها هذا الشمول الذى تذكره . .

ولكن نقول لهم : هذا قياس مع الفارق . . ذلك لأن تلك الأديان، وهى من عند الله، ولكنها لم تأخذ الصفة التى اتصف بها الاسلام.

١- الأنعام آية ٣٨

فقد كانت تأتى لأقوام مخصوصين . . ولأجيال معينة محـــــدودة فى أزمنة محدودة . . وأمكنة محدودة . . ولهذا كان يتعاقب النبى تلو الآخر . . ولربما كان هناك عدة أنبياء فى زمن واحد . . ولم يُـــرد الله أن يختم رسالاته للبشرية فى ذلك الزمان . .

أما بالنسبة للاسلام فإنّه دين عام لكل البشرية ولكل الأزمنـــــة والأمكنة . . وهو الدين الخاتم إلى يوم القيامة .

لذلك لابد أن تكون فيه صفاة الشمولية والاستمرارية وصفة الثبـــات مع المرونة . . ولهذا جاءت أحكام الاسلام قواعد عامة وأصول ثابتـــــة مع إعطاء الفرصة للعقل البشرى بالاجتهاد على ضوء تلك النصـــــوص الثابتة والقواعد العامة . .

ولنعرج الآن على شواهد لما أقول وهى متعددة وأكتفى منهـــا هنـــا :

بالقرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال وأفعال الخلفاء الراشديـــن وأئمة السلف ومن واقع التاريخ الاسلامى .

المبحث الأول

خير شاهد : القرآن الكريم

إن الدعوة إلى عزل الدين عن الحياة ، أو مايسمونه "علمنة الدولة" فكرة غريبة دخيلة على الأمة الاسلامية ، وهي دعوة تخالف القرآن الكريم .

يقول الله تعالى، داعيًا نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يحكم بين الناس بحكم الله تعالى، الذي أنزل عليه هذا الكتاب :

" إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا " (١)

ويقول تعالى، " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق " (٢)

وقال عز من قائل : " وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيرًا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون " (٣)

١ـ النساء آية ١٠٥

٢ـ المائدة آية ٤٨

٣ـ المائدة آيات ٤٩ـ٥٠

ونحن معشر المسلمين مطالبون بالاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمره به ربه ، لأن خطاب الله له خطاب لأمته مالم يرد مخصص يقصره عليه . . وهنا طالبه الله بالتحاكم إليه . . وأن يحكم فى الناس كتاب الله ولا يتبع مايأتون به حسب أهوائهم لأن مايمليه الفكر البشرى والعقل الناقص لا يصلح أن يكون تشريعاً لإسعاد البشرية . . فمهما بلغ العقل البشرى من الرقى فإن معارفه متناهية وعلومه محدودة لهذا نحن مطالبون بالتحاكم لما شرع الله وماسن رسوله صلى الله عليه وسلم . .

ولهذا نجد القرآن أغلظ جداً على الذين يتولون أمر المسلمين ولا يحكمون فيهم كتاب الله . ويتركونه ويأخذون الحكم من القوانين العلمانية التى وضعها البشر فوصفهم بأشنع الأوصاف وأقبح النعوت فقال تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (١)

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " (٢)

"ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " (٣)

هذه الآيات القرآنية وغيرها الكثير من آى الذكر الحكيم تدل دلالة قاطعة لا تحتمل الشك ولا يدخل إليها الريب إلا من الذين ارتابت

١ـ المائدة آية ٤٤

٢ـ " " ٤٥ "

٣ـ " " ٤٧ "

قلوبهم ، أن الاسلام جاء منهجًا كاملاً لكل شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ جاء للحكم والمعاملات ، للتجارة والقانون ، جاء لتنظيم الدولة داخليًا وخارجيًا ، جاء للفرد وللجماعة ، جاء لتنظيم علاقة الفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بأفرادها ، وعلاقات الأمم بعضها ببعض ـ جاء للبشرية للحياة به حياة طيبة على ظهر هذه الأرض وتجد ثمار ذلك بعد الانتقال للدار الآخرة .

وهذه الآيات ترد دعاوى أولئك العلمانيين المغرورين من قِبَلِ الشيوعين الملاحدة ومن قِبَلِ الغربيّين الماديّين واليهودية التلمودية الماكرة والنصرانية الصليبية الحاقدة على الاسلام والمسلمين .. حيث أخذ هؤلاء الضلّلون يرددون مزاعم المستشرقين وغيرهم من تلك الأصناف المبغضة للاسلام ، من أن الاسلام دين لا شأن له بالحكم وسياسة شئون الحياة وأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أرسل كغيره من الرسل لتعليم الناس أمور دينهم وعباداتهم فحسب !!

أما أمورهم الدنيوية فهم وعقولهم .. وأن الرسل أرفع من أن يرسلوا ليشغلوا أنفسهم بأمور الدنيا !! لأنّ الدنيا من أولها لآخرها وجميع مافيها من أغراض وغايات أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ماركب فينا من عقول ، وَحَبَانَا من عواطف وشهوات وعلّمنا من أسماء ومسمّيات هي أهون عند الله من أن يبعث لها رسولاً وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها ويَنْصَبوا لها" (١)

١ـ الاسلام وأصول الحكم ص ١٦٦

وينفى هؤلاء العلمانيون أن تكون الوحدة الاسلامية التى أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم وحدة دولة وسياسة ودين معًا ، وإنما يعتبرها وحدة الإيمان والمذهب الدينى لا غير . .

ويرفضون أن تكون مظاهر العقوبات والجهاد فى سبيل الله وكل المعاملات الاسلامية من ، بيع وشراء ورَهْن . . وإيجارات . . وكل ماكان المسلمون يرجعون فيه إلى النبى فيحكم بينهم فيه كما أمره ربه ، أن يحكم فيهم بما أنزل الله إليه . .

كل ذلك لا يعتبره هؤلاء من قبيل الحكم زاعمين أنك "إذا تأملت وجدت أن كل ماشرعه الاسلام وأخذ به النبى المسلمين ، من أنظمة وقواعد وآداب ، لم يكن فى شىء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسى ولا من أنظمة الدولة المدنية . . كل ماجاء به الاسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع دينى خالص لله تعالى ولمصلحة البشرية الدينية لا غير ! ! (١)

وهذه المفتريات على الاسلام التى يرددها العَلْمانيون ، هى التى قالها المستشرقون وقصدوا إليها للحدّ من مَدّ الاسلام . . لا لنفى ما هو ثابت وواضح فى الاسلام وضوح الشمس فى رابعة النهار .

حيث أن سياسة شئون الدولة فى الاسلام باتت معلومة من هذا الدين بالضرورة حيث عَرَف المسلمون بأن السياسة الشرعية هى تدبير

١- المرجع السابق ص ١٧٠

الشئون العامة للدولة الاسلامية بما يكفل تحقيق الصالح ودفع الضرار مما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها الكلية . . . والمراد بالشئون العامة للدولة كل مايتطلبه حياتها من نظم ، سواء أكانت دستورية أم مالية أم تشريعية أم قضائية أم تنفيذية ، وسواء أكانت من شئونها الداخلية أم علاقتها الخارجية . فتدبير هذه الشئون والنظر في أسسها ووضع قواعدها بما يتفق وأصول الشرع هو السياسة الشرعية (١)

أعداء الاسلام يعرفون كل ذلك من خلال تاريخه ، ولكن قصدوا بمحاولاتهم تلك إبعاد هذا الفهم للشريعة الاسلامية عن أذهان الأجيال المتأخرة . . وبالتالي جرّهم إلى العَلْمانية ، بعد أن بذروا في أذهانهم بأن الاسلام دين يتعلق بأمور العبادة فحسب ولا يجب الزّج به في أتون السياسة ومترك الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي تشغل الانسان عن عبادة ربه في زعمهم ! !

ولكن الأمر أبعد مما يتصورون، فقد نفى الله سبحانه ، الإيمان عن الذين لا يتحاكمون إلى هذا القرآن الذي يطبّق أحكامه فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل من يتولى أمور المسلمين من بعده، كما حدث في عهود الدولة الاسلامية المختلفة .

بل أقسم الله على ذلك بنفسه، ونجد أنه يتعدى حتى مجرّد الخضوع لتنفيذ الحكم الظاهري إلى وجوب إخلاص النية وعدم الحرج الذي يخالج

١ـ السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية عبد الوهاب خلّاف ص ١٥ مطبعة التقدم القاهرة .
(١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)

النفس ، إذا قضى الرسول لأحدهم بما لا يوافق هواه ، وهو فى الحقيقة تسليم لحكم الشرع فى كل زمان وكل مكان وفى كل الحوادث والخصومات التى تقع بين الناس سواء أكانت فى معاملات تجارية أو مالية أو جنائية أو أحوال شخصية . . وهو أمر شامل لم يخصص شيئاً معيناً للتحاكم . . هذا الإطلاق لا يمكن أن يُفهم منه أنه فى جانب معين ومقتصر على العبادات فقط، كما يزعم العَلْمانيون الذين نفوا مظاهر حكم الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا إنّ تلك ولاية الرسل من قَبْلِه فقط فى العبادات !!

قال الله تعالى، فى ذلك :

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما " (١)

هذه الآية صريحة فى إيجاب التحاكم لله ورسوله ، بما شرع الله فى كل أمر من الأمور بما يصلح حال الانسان .

وبظهور تلك الأدلة من التنزيل الحكيم بقى، أن نقول للذين ينادون بَقَصْرِ الدين على العبادات وجَعْلِ أمور الدنيا خاضعة لما ينتجه العقل الانسانى من قوانين وضعية ، نقول لهم : إنّ قولكم هذا إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وهو جُرم كبير وخَطْب جليل يورد الانسان

١ـ النساء آية ٦٥

المهالك :

" أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عمّا تعملون "(١) .

وهو مسلك الداعين إلى فصل الدين عن الدولة وهو مآلهم وحظهم .

١ـ البقرة آية ٨٥

المبحث الثاني

شواهد من السنة النبوية

بعث الله رسوله ونبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة ، إنسهم وجنهم ، ليأخذ هم من الظلمات إلى النور . .

وصدع الرسول ، صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ودعا إليه . . . حتى كون الدولة التي أقامها على دعائم متينة من الدين .

فكان هو رئيس الدولة وقاضيها الأول ومشرّع أحكامها وهو الذي كان يسوس أمرها على ضوء كتاب ربه . . . كان يجهز الجيوش للجهاد والفتح . . ويكتب المعاهدات السلمية مع الدول المجاورة .

وكان الصحابة يرجعون إليه في كل أمر يهمهم في دينهم ودنياهم ولم يُعرف في عهده ولا عهد خلفائه الراشدين أن جعلوا أمور الدنيا بمعزل عن الدين . . ولا سياسة الدولة تُركت لأناس يحكمون فيها حسب هواهم . . ولو أن أحداً قال بهذا لعُدّ من المعتوهين المخبولين . . وقد جعل صلى الله عليه وسلم ، العدول عن الحكم بما أنزل الله أول نقض لعُرى الاسلام : " لتنتقضن عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضن عروة تشبث الناس بالتي تليها فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة "[1] .

---

١ ـ أنظر مسند الإمام أحمد جـ٤ص٢٣٢ المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م) وقد روى طرفاً منه . وانظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي جـ٥ص٢٦٣ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت . الطبعة الثانية (١٣٩٠هـ-١٩٧٢م) وقال : قال الحاكم صحيح .

إذا كان أصل الحكم فى الاسلام بمعزل عن الدين . كيف ينقض عرى الاسلام ؟ وإذا كان الحكم علمانياً ، فما علاقته بالاسلام حتى ينقض عراه ؟ فالحكم إذاً لا حدى عرى الاسلام . وإنما الذى ينقض عرى الشرع ماكان داخلاً فى ماهيته ومن لوازمه وهذا لعمرى ماتقول به العقول النيرة والفطر السليمة .

أما الذين عميت بصائرهم وطمست معالم الحق فى أذهانهم فأولئك على قلوبهم أقفالها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وحديث الخمس خصال الذى وصف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم حالة هذه الأمة إذا هى ظهرت فيها . . فقد صرح فيه بالحكم بما أنزل الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

" يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن :

لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا .

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلّا سلط الله عليهم ، عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض مافى أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم " (١)

فماذا بقى من شئون الحكم والسياسة بعد هذا ؟

حتى يقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبعث لسياسة الحياة وإنما بُعث كغيره من الأنبياء لتعليم الناس العبادة فحسب.

وماذا يقال عن كتابته للملوك . من أكاسرة وقياصرة وغيرهم . . . ودعوتهم للدخول فى الاسلام وهم حكام ؟

أليسلموا فقط ، ثم يَحْكُمون شعوبهم بعد ذلك بالطاغوت ؟ وقوانينهم الكفرية التى تبيح كل محرم وكل رزيلة ؟

وهل دخولهم فى الاسلام وهم على هذه الحالة يسمى إسلاماً ؟

وهل يستطيع أحد أن يزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم تخلى يومًا واحداً عن أمر من أمور الدولة وقال : إننى أرسلت لتعليمكم العبادات فقط ؟ وأما أمر الدنيا فليس لى فيه من نصيب ؟

وماذا كان يقول لمعاذ بن جبل عندما بعثه لليمن ، هل قال له : علمهم الصلوات والزكاة والحج والصوم . . فقط؟

١ـ أخرجه ابن ماجة فى سننه فى باب العقوبات جـ٢ ص ١٣٣٢ وقال فى الزوائد . هذا حديث صالح للعمل به .

فلننظر ولنستمع لهذا النقاش الذى دار بينه صلى الله عليه وسلم، وبين معاذ عندما بعثه إلى اليمن :

قال الرسول صلى الله عليه وسلم سائلاً معاذاً :

" بم تحكم ، يا معاذ ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : فبسنة رسوله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيى .

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله (١)

تلك شذرات اجتزاتها من السنة الشريفة لأبين بها أن هذا الدين لا يعرف دولة دنيوية علمانية ودينًا يختص به الفرد وربه ، وإنما هو الاسلام الذى لا يقوم إلا بأركانه كلها ، والتفريق بينها إنما هو إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه الآخر .

ومن الكتاب والسنة إلى مأثور الخلفاء الراشدين الذين قادوا

١ـ رواه أبو داود فى كتاب الأقضية باب اجتهاد الرأى جـ٤ ص ١٨ حديث رقم (٣٥٩٢)

والترمذى فى كتاب الأحكام باب ماجاء فى القاضى كيق يقضى جـ٣ص٦٠٧ حديث رقم (١٣٢٧)

مسيرة القافلة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . .

المبحث الثالث

من مأثور الخلفاء الراشدين

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، انشغل المسلمون حتى عن دفنه صلوات الله وسلامه عليه ، بمن يصلح أن يقوم بمهام الدولة من بعده وتصريف أعبائها ورعاية شئونها ، ولا أحد يستطيع أن يقول إنهم إنما فعلوا ذلك ليختاروا لهم إماماً للصلاة فقط . . ولو كان كذلك لما وصل بهم الأمر إلى أن يتركوا مواراة جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم أياماً . .

ولكن لمّا كان الشخص الذى يليه هو رئيس الدولة الذى يقوم على أمر المسلمين جميعهم فى أى جهة كانوا ، فقد عظم عليهم الأمر حتى وقع الاختيار على صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار . .

وعقيب مبايعته رضى الله عنه ، ألقى خطبته التى فصّل فيها منهجه فى الحكم والسياسة التى يتبعها وهى شبيهة بما يسمونه اليوم بالبيان السياسى لرئيس الدولة أو بيان الحكومة أو إعلان سياسة الدولة الجديدة تبعاً لتولى الحكم الجديد .

فقال أبو بكر رضى الله عنه ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

" . . أما بعد أيها الناس ، فإنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن

أحسنت فأعينونى . وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة الضعيف فيكم عندى قوى حتى أرد عليه حقه ، إن شاء الله تعالى، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، إن شاء الله تعالى، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء .

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله "(١)

ذلك هو الربط بين طاعة الله فى النفس وبين طاعة الله فى سياسة الرعية والقيام على مصالحهم وتدبير شئونهم جميعها ، هو الذى فهمه الخلفاء من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والناظر فى هذا البيان للخليفة الأول يرى فيه تحديداً واضحاً للعمل الحكومى الفذ الذى ينبغى أن تسلكه كافة الحكومات الاسلامية فهو الساهر على العدالة الحارس للأمن المطبق للأحكام الإلهية بين الناس ، وهذا هو الدستور الاسلامى فى الجملة .

وهذا هو الخليفة الثانى ، عمر رضى الله عنه ، يربط بين البيعة لأبى بكر على طاعة الله ورسوله وبين تدبير شئون المسلمين .

عن أنس رضى الله عنه قال :

لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان من الغد ، جلس أبو بكر على

١ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٢٤٨ مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثانية (١٩٧٧م) .

المنبر ، فقام عمر يتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

" أيها الناس قد كنت قلت بالأمس مقالة (١) ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب الله عز وجل ، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني قد كنت أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا : وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اعتصمتم به هداكم كما هداه له ، وأن الله قد جمع أمركم على خير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني أثنين إذ هما في الغار ، وأولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوا ، فبايع الناس بيعة عامة بعد بيعة السقيفة (٢)

" وفيما ذكرناه من كلام عمر ، رضوان الله عليه ، نرى حرصه على الحكم بكتاب الله والرجوع إليه في أمر سياسي بحت هو البيعة للخليفة والطاعة للحاكم المسلم في إدارة شئون الأمة المسلمة وتدبير أمورها في الداخل والخارج . فهل من مُدّكر" (٣)

ومما أثر عن عثمان رضي الله عنه :

إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ، حيث بين أن التوجيه

١- المقالة التي أشار إليها هي قوله عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من قال إن محمداً قد مات أخذت رأسه بسيفي هذا" أو كما قال .

٢- المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٤٨

٣- المنهزمون يوسف العظم ص ٩١ دار القلم بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٧)

بغير سنفذ له ولا يجدى ولا ينفع وأن التشريع بغير حاكم يطبقه يظل فى سطور الكتب أو صدور الرجال ، . (١)

ويقول على رضى الله عنه ، فيما كان بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان ، رضى الله عنهما ، من أمر التحكيم عند ما اعترض عليه بعض الخوارج فى أنه لا ينبغى أن يحكم الرجال فى كتاب الله ، قال على وقتئذٍ مبينًا أنّ الحكم ينبغى أن يكون بكتاب الله وسنة رسوله فى كل أمر من أمور المسلمين دينيًا كان أو دنيويًا :

" وإنا لم نحكّم الرجال وإنما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ، ولمّا دعانا القوم إلى أن يحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولى على كتاب الله تعالى ، وقد قال سبحانه : " فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول (٢) فنرده إلى الله أن نحكم بكتابه ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته " (٣)

تلك بعض أقوال الخلفاء الراشدين التى تجمع بين أمر الدين وأمر الدنيا وتجعلهما شيئا واحدا . .

وقد طبقوا هذه الأقوال عمليًا ، فأبو بكر يعلن الحرب على المرتدين ومانعى الزكاة والمتنبئين . . ويعلن الجهاد ويجمع الجيوش ويعين القواد

١ـ نفس المرجع السابق ص ٩١ وما بعدها .

٢ـ النساء آية ٥٩

٣ـ أنظر البداية والنهاية لابن كثير ، جـ٧ ، ص ٢٨٠ وما بعدها . .

لمجابهة القوتين الفارسية والرومانية المعتديتين ، ثم يقوم بجمع الدستور الاسلامى المتفرقة مواده فى قطع مختلفة ، ثم يقوم بنفسه بتعيين من يخلفه فى هذا الحكم لعلمه بكفاءته وجدارته لقيادة الدولة .

وعمر كذلك يقوم بمثل ما قام به أبو بكر فهو يداوم على حركة الجهاد والفتح الاسلامى ، ويقوم بتنظيم الدولة على أقوى النظم وأفضلها ويحقق بذلك أفضل حكم شهدته البشرية فى تاريخها الطويل بعد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر عدالة وأمنًا ورخاء . . . وهكذا كان دأب الخليفتين عثمان وعلى . . وهى أعمال كلها من صميم الحكم والسياسة وتنظيم الدولة . .

إذاً ، من أين جاء هؤلاء العلمانيون بهذه التفرقة بين الدين الاسلامى والحكم ؟ اللّهم إلا ما استقوه من الغرب النصرانى الذى نبذ تعاليم الكنيسة وعزلها عن حياة المجتمع . . أو أنهم لم يطلعوا على هذا التراث الاسلامى الخالد ، فقصروا نظرتهم على النظام الغربى الذى طبقوه على النظام الاسلامى وحكموا به عليه من غير فهم للاسلام وهذه نظرة خاطئة فى غاية الخطأ والخطورة . . وهى التى أصابت المسلمين اليوم ولا سيما الذين درسوا دراسات غربية علمانية ولم يكن لهم حظ إلا القليل عن الاسلام . .

والذى يستقرىء التاريخ الاسلامى لا يجد فيه أنّ إنسانًا اعترض على أحد الخلفاء الراشدين أو من جاء بعدهم فى عصور الدولة الاسلامية المختلفة ، بأن الحكم ينبغى أن يكون بمعزل عن الدين

وأن الناس يجب أن يسوسوا أمور الدنيا بتشريع يسنونه من عند أنفسهم وأن الدين إنما هو عبادة شخص الفرد بينه وبين ربه لا علاقة لها بشئون الدنيا !!

الذى يبحث فى التاريخ الاسلامى لا يجد مثل هذا القول ولا تخامر هذه الأفكار أحداً من المسلمين ، بل الذى حُفظ من التاريخ أن يقوم الناس فى وجه الحاكم الذى لا يبتغى فى حكم الناس وجه الله ، وكان الحاكم يُبايَع على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله كما قال أبو بكر وعلى السمع والطاعة ما أطاع الله فى الحكم وفى أخذ الناس بأحكام الشريعة الاسلامية .

هذا الذى عُرِف من تاريخ الاسلام ، أما ماجاء به العلمانيون اليوم من فصل الدين عن الدولة ، إنما هو فكر دخيل على الاسلام وجسم غريب عنه يجب تنحيته ، والذى يقول بهذا هو عضو فاسد فى أعضاء المجتمع الاسلامى يجب بتره واستئصاله . .

المبحث الرابع

ما جاء عن بعض السلف والخلف حول مفهوم الدين والدولة

منذ أن أطل فجر الإسلام على الكون وأشرقت شمسه بنورها الوهّاج وانحسر ظل الظلم والكفر غيم الطغيان وساد عدل الله الأرض بتحكيم شرعه في الناس دنيا ودينًا . .

منذ ذلك الوقت لم يعرف المسلمون لهم حكمًا غير هذا المفهوم الشامل لما جاءهم به نبيهم ﷺ.

وهذه أقوالهم نتبصر بها ذلك الأمر لعلنا نصيب المحز فنقطع ونضع العصابة على الجرح فينقطع . .

قال الماوردي (١) في الإمامة العظمى معرّفًا بها وذاكرًا شرطها " أما بعد ، فإن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيمًا خَلَفَ به النبوة ، وحاط به الملة ، وفوض إليه السياسة ؛ ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأي متبوع ، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة حتى استشهدت بها الأمور العامة ، وصدرت عنها الولايات الخاصة إلى أن قال معرفًا بالإمامة :

" الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها

١- هو ابو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي الماوردي المتوفى (٤٥٠هـ) .

لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع ولئن شذ عنهم الأصم . .

ثم بعد أن ذكر شروط الإمام من العلم والعدالة وسلامة الحواس . . طفق يعدد مايلزمه من واجبات تجاه هذا المنصب الذى تقلده ومايجب عليه القيام به حيال أمته ، وأن " الذى يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء :

أحدها : حفظ الدين على أصوله المستقره وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بمايلزمه من الحقوق والحدود . ليكون الدين محروسًا من خلل والأمة ممنوعة من زلل .

الثانى : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النَّصَفَة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث : حماية البيضة ، والذب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

الرابع : إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى . . . وتحفظ حقوق عباده .

الخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة . .

السادس: جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة . .

السابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصًا واجتهادًا من غير خوف ولا عسف .

الثامن : تقدير العطايا ومايستحقه فى بيت المال من غير سرف ولا تقتير

التاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضإليهم من الأعمال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال للأمناء محفوظة .

العاشر: أن يباشر مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة . . .

ثم قال :

" وإذا قام الإمام بماذكرنا من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم ، ووجب له حقان : الطاعة والنصرة ، مالم يتغير حاله "(١)

وهذا الذى ذكره الماوردى من وجوب تنصيب الإمام ووجوب قيامه بحق الله وتحكيم شرعه فى الأمة ، هو الذى عليه علماء المسلمين كافة إلا لقليل الشاذ . .

كتب عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه لما ولى الخلافة ، إلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

" . . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله وبهم ، وينقاد إلى

١ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردى ص ١٥ وما بعدها دار الكتب بيروت (١٣٩٨هـ)

الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله ، عز وجل، كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فافقر أهله وفرق ماله . . إلى أن قال :

"لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين . ."(١)

وعمر بن عبد العزيز هو حاكم المسلمين ومدبر شئونهم الخاصة والعامة الداخلية والخارجية ولا يستطيع أحد أن يقول : كان يرعى أمور الدين فحسب ، ويتنكب أمور الدنيا . . وهذا أحد علماء الرعية يكتب له عما ينبغي أن يأخذ به الناس في الحكم ، ويذكره بأن يحكم في الناس كتاب الله وسنة نبيه ولا يركن لحكم القوانين الجائرة التي شرعها الجاهلون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . .

وبعد ، لنرى ماذا قال العلامة ابن خلدون عن الدولة والإمامة بعد أن ذكر الملك وحقيقته وجور الحكام الذين يطبقون في رعاياهم قوانين سنوها من عند أنفسهم قال :

" . . فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء "(٢) وأكابر الدولة وبصرائها ، كانت سياسة عقلية . وإذا كانت مفروضة من الله

١ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي جـ ١ ص ٣٤ طبعة لجنة النشر القاهرة الطبعة الثالثة (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م)

٢ـ يعني بها القوانين العقلية التي سنها العقل البشري وهي التي تسمى عندنا اليوم بالقوانين الوضعية التي ابتلي بها المسلمون في هذه الأعصار . .

بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط - كما هو حال العلمانيين الملاحدة - فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء ، والله يقول : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) . (١)

فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) (٢) فجاءت الشرائع تحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عباده ومعاملة . حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع . . فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم .

وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء .

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة . . وهى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا كلها ترجع عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا بها (٣)

١- المؤمنون آية ١١٥ .

٢- الشورى آية ٥٣ .

٣- مقدمة ابن خلدون ص١٦٤-١٦٥ طبع كتاب التحرير (١٣٨٦هـ-١٩٦٦م)

تلك الكلمة التى يجعل منها المسلمون اليوم ، ويعتبرونها أجنبية دخيلة على الاسلام ، كلمة " سياسة" هذه الكلمة ، نجد هنا تتردد كثيرًا فى كتابات الكتاب المسلمين الأوائل ولا سيما إذا تكلموا عن الحكم والخلافة ، فلا تكاد تنفك عن هذين الأصلين ، فهى فى الحقيقة تعبير اسلامى أصيل ويعطى نفس مدلوله المستعمل فيه قديمًا وحديثًا ، .

ولكن المسلمين اليوم نسبة للتأثير العلمانى الواقع منه قبل الغربيين الذين عزلوا الدين عن الحياة وقصروه على طقوس الكنيسة نسبة لذلك ، نجد أن المسلم المعتدل المتمسك بدينه يشمئز وينكمش عند ما يسمع كلمة " سياسة" ويستعيذ بالله من أن تلصق بالدين ، لما أدخله فى ذهنه العلمانيون من زعمهم أن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، .

وهذا الفهم القاصر للدين الاسلامى . مرده لقلة الثقافة الاسلامية وعدم الاطلاع على كتب السلف . . وحتى المثقفين من المسلمين لم تفدهم ثقافتهم شيئًا ، لأنها ثقافة أجنبية لا صلة لها بالتراث الاسلامى ، وتقع اللائمة فى هذا على وسائل التربية والتعليم التى لم يكن فيها إلا النذر الذى هو كالعدم من الثقافة الاسلامية ، فهم جهلوا الاسلام ، ومن جهل شيئًا عاداه كما يقولون :

ذكر ابن كثير عند قوله تعالى : " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يقونون" (١) قال :

١ـ المائدة آية ٥٠

" ينكر تعالى على من خرج على حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذه عن ملكهم " جنكيز خان " الذى وضع لهم " الياسق " وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد أقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية وغيرها . وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير "(١)

وهذه الأحكام التى أشار إليها ابن كثير هى بعينها التى الطبقة اليوم فى أنحاء البلاد الاسلامية ، إلا من رحم ربى ، وقليل ماهم فكم من " ياسق " يحكم به وكم من " جنكيز خان " يتجبر فى حكمه بغير ما أنزل الله ، وَشَرْع الله أحكم الحاكمين ، معطل فهو " لا " يحملون أوزارهم وأوزار شعوبهم الاسلامية المعطلة فيها أحكام الله .

والشعوب الاسلامية بجملتها آثمة إن لم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقول للحاكم الظالم المعطل لأحكام الله ، ارتدع وارعو . . فلا

١ـ تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير جـ٢ص ٦٧ .

منكر أكبر من تعطيل أحكام شريعة الله والحيلولة بينها وبين الوصول إلى خلق الله ، يقول أحد علماء المسلمين:

" فصل الدين عن الدولة ارتداد عن الاسلام من الحكومة أولاً ومن الأمة ثانياً ، إن لم يكن ارتداد الداخلين في حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفراداً فباعتبارهم جماعة ، وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد ، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضاً بقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة "(١)

وإن كان إطلاق الشيخ الفكر هكذا فيه نظر .. لأن من ترك الحكم بما أنزل الله . وهو مقر معترف بأنه الأصلح والأولى ولكن تركه لأمور وعِلَلٍ خارجية يتعلل بها مع التزامه بوجهه .. مثل هذا يصعب على الانسان تكفيره وإخراجه عن الملة ، ولكن يقال بمعصيانه وفسقه ومع ذلك يجب مناهضته وأمره بالإياب إلى حكم الله .. والله أعلم.

وأختم حديثه علماء الاسلام عن فصل الدين عن الدولة بهذا الحديث الذى أصاب المحز وقطع الأوداج ، والذى كان للعلمانيين ضربة مهند أوضحت العظم .

قال شيخ الأزهر السابق ، محمد الخضر حسين :

(.. أما أن تفعل البلاد الاسلامية ما فعلته الدول الغربية من تجريد السياسة عن الدين ، فهو رأى لا يصدر إلا ممن يكن في صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة ، وهذا ما يبيته فئة يريدون أن ينقصوا

---

(١) المنهزمون ص ١٠٢ - عن التكفير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة ، للشيخ مصطفى صبرى شيخ علماء تركيا سابقاً .

حقيقة الاسلام من أطرافها ، حتى تكون بمقدار غيرها من الديانات الروحية التى فصلها أهلها عن السياسة ، ثم يصبغون هذا المقدار بأى صبغة أرادوا فيذهب الاسلام : فلا القرآن نزل ، ولا محمد صلى الله عليه وسلم ، بعث ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من موارده وانتزاع الأحكام من أصولها . . ويسخر الشيخ الجليل فى إبطال هذا المفهوم الخاطئ ، وهدم أركانه ، وإن كان قد قام أخطبوطيًا لا ركن يسنده ، إلى أن قال (فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم الدين ، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين)) (١) .

ذلك ملخص لبعض آراء علماء المسلمين من السلف إلى الخلف فى فصل الدين عن الحياة الانسانية . . حيث اتضح منه جليًا ، أن الاسلام فى تاريخه الطويل لا يعرف ما يسمى بالدين الذى يخص الأفراد فى عباداتهم ، والدولة العلمانية التى تعنى بشئون الحياة الدنيا وتأخذ تشريعها من أقوال البشر . . ذلك ما لا يوجد له أثر فى دين الاسلام .

مما يدل على أن فكرة العلمانية أو علمنة الدولة ، إنما هى فكرة مستوردة لم يعرفها الاسلام .

أما الاسلام فهو دين الحياة وقوامها الذى ترتكز عليه وهو ماؤها النمير العذب ذو المنبع الفياض والمعين الثر الذى لا ينضب . . الذى

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ نقلاً عن مجلة نور الاسلام القاهرية .

لولا ، لماتت وغدت جثة هامدة لا حراك فيها .. (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج [1])

وهذا رأى بعض المنصفين من العلماء غير المسلمين فى ترابط الدين والدولة فى الاسلام . تكلم العلماء المنصفون من غربيين وشرقيين ، عن الاسلام وأنه دين شامل لكل نواحى الحياة ، وتحدثوا عن المميزات - والخصائص التى انفرد بها عن بقية الأديان السماوية باعتباره دين الحياة وباعتباره الدين الخاتم ..

ونحن المسلمين ، إذ ننقل أقوالهم وآراءهم حول الاسلام ، لا لنعضد بها ديننا ونقويه بها ، حاشا لله وكلا ، فالاسلام ليس فى حاجة لرأى يتممه أو فكر يغذيه ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولكن إيرادنا لأقوالهم ، إنما هو للنصفة لهم هم قبلنا وإظهارا للحق وإعلاء له ، فالحق أحق أن يقال :-

يقول (أميل درمنجم) :-

(الاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية وليس عقيدة روحية ، لا صلة لها بالمادة ، ولا بالحياة ، وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم وروح ودين ودولة ، وحياة وغيب ، والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصة مقيدا لنظريات الاجتماع الحديث بل لأنه يدفع الانسان دوما إلى الأمام ..) .

---

(١) الحج آية ٥

وعن الدين الاسلامى والعلم وأن الأول هو دين العلم الذى جاء به ... يقول (هورتن) :-

(نجد فى الاسلام اتحاد الدين والعلم وهو الدين الوحيد الذى يوجد بينهما ، ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العلم ، ونرى وجهة الفيلسوف ، ووجهة الفقيه سائرتين معًا باتحاد ، ومتجاورتين كتفًا إلى كتف ...) .

ويتحدث (بول دى ركلا) عن الناحية الأخلاقية فى الاسلام كما يتحدث عن التشريع الاسلامى وكيف أنه استطاع حَلّ المشاكل الاجتماعية المعضلة التى مازالت تشغل فكر المشرع الغربى؛ذلك لأن (الاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان السماوية الذى أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور ، ويكفيه فخرًا أنه قدس الأنسال وعظمها لرغب الرجل بالزواج ، ويعرض عن الزنا المحرم شرعًا وتشريعًا ،أن الاسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التى لم تزل الآن تشغل مشرعى الغرب بتعقيداتها ...

وأما (جورج روبير) فقد كان حديثه عن الاسلام شاملاً وصريحًا يظهر أن الرجل قد أدرك فعلاً عظمة هذا الدين :-

فقد تحدث عن الناحية السياسية والناحية الدينية وكيف أنهما فى نظر الاسلام يركبان على سرج واحد وأنهما ولدا توأمين،ثم يتحدث عن عدالة التشريع الاسلامى واتزانه ...

كل ذلك يعرضه الكاتب فى أسلوب جميل أخاذ اجتزئ منه ما يلى :-

(. . إن الاسلام ليس دينًا فحسب ، إنه آخر الأديان التى ظهـرت فى التاريخ ، وأنه أيضًا بوصفه خاصة مجتمع روحى اجتماعى ونظام سياسى وأسلوب للعيـــش . . .

ولقد أعطى الاسلام للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ، فلا تزهـــق الروح على حساب البدن ، ولا يزهق البدن على حساب الروح فالازدواج كامل بين الروحية والمادية فى شخصية المسلم . . .(١)

---

(١) أقوال العلماء غير المسلمين مقتطفة من سقوط العلمانية لأنـور الجندى ص ١٩٥ ـ دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولـــى (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م)

الباب السابع

السبيل الى الاصلاح

الفصل الأول : التربية الاسلامية

ويشمل النقاط التالية

(١) الخلف القويم .

(٢) توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

(٣) الاسلام يربي الجسم والروح معاً

(٤) توجيه الخدم والأطفال

توطئـــه :

لقد اتضح جلياً من الجولات التى قمنا بها فى الفصول المتقدمة أنه كان للعلمانية أثر واضح وبالغ الأهمية فى المجتمع الاسلامى .

وقد كان هذا الأثر العظيم الشأن قد شمل كل نواحى الحيـــاة سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة فى بعضها أو بطريقة غير مباشرة فى بعض النواحى الأخرى ... فهو قد كان يرى بوضوح فى النواحى التعليمية والإعلامية ونواحى الحكم والقوانين والاقتصاد ..

كما كان الأثر لا يُحَس بطريقة واضحة فى النواحى الاجتماعية الأخرى مثل العادات والتقاليد والسلوك العام للجماعات الاسلامية وأفرادها .

فإنه من المعلوم أن للاسلام حضارته الخاصة به وله سيزاته التى انفرد بها فى كل النواحى الاجتماعية .

فالفرد المسلم والبيت المسلم الذى يضم الأسرة المسلمة .. لـــه طابعه الذى لا يوجد عند الغربيين أو الشرقيين الشيوعيين ، بل حتى فى تأثيث المنزل وطريقة بنائه التى يراعى فيها الناحية الشرعية فى ذلك كله نلمس الفروق جلية بين الاسلام وبين غيره من الحضارات ..

وعلى العموم فإن النظم الاسلامية أو تنظيم الاسلام للحياة الاجتماعية تختلف ، أو قل تتميز تميزاً يجعلها لها سماتها الخاصة بها ... .

ولكن ، إذا جئنا نلمس اليوم هذه السمات الاسلامية البارزة فـــى المجتمع المسلم ، أى بعد دخول هذه التيارات الغربية العلمانيـــة إليه وتغلغلها فيه ، نجد أنه " كثيراً ما لوحظ أن التغيير الحضارى إن

صح هذا التعبير - أى اتخاذ مميزات الحضارة الغربية لابد أن يصحبه إطراح المميزات التقليدية لحضارة الشرق الأوسط [١] أو اختفاؤها ، ونحن فى بعض الأحوال ندرك بالطبع أن هذا يجب أن يكون كذلك ، فإذا أراد شخص تأثيث منزله على الطراز الغربى لم يستطع هذا إلا أن يتخلى الأثاث القديم ليحل محله الجديد ، ولكن يرد هنا هذا السؤال :- ما الذى يلزمه أن يتحول هذا التحول الكامل إلى الأثاث الغربى ؟ .. لماذا لا يكتفى بأن يدخل قطعاً معدودة من الأثاث الغربى ، وخاصة تلك التى لا خلاف فى فائدتها ، مستبقياً من الأثاث التقليدى للشرق الأوسط ، ما لا خلاف فى جماله من القطع ، وبهذا يجمع فى منزله بين المميزات الحسنة والمرغوبة لهذا الوجه من وجوه الحضارتين ؟

إن هذا المثال البسيط يعطينا فكرة عن مسائل التغيير الحضارى فى ميادين متنوعة مثل العمارة والملبس ، والطعام والطبخ وحياة الأسرة والتنظيم الاجتماعى ، والآداب ، والأخلاق والذوق الجمالى ، والنظرة العالمية [٢].

ولذلك نجد أن الحضارة الغربية أو قل (الخسارة) الغربية بصورتها العلمانية قد تغلغلت فى المجتمع الاسلامى عن طريق مسالك

---

(١) يعنى بحضارة الشرق الأوسط الحضارة الاسلامية لظهور الاسلام فى هذه المنطقة التى أسموها مؤخراً بهذا الاسم .

(٢) الثقافة الاسلامية د . محمد خلف الله ص ١٩٧ ، من بحث للأستاذ رفائيل باتاى بعنوان :
CULTURAL CHANGE IN THE MUSLIM TOWN .

عديدة استطاعت أن تجد لها منافذ وثغورًا تدخل من خلالها حتى باضت وأفرخت فى مجتمعنا الاسلامى مما نراه عليه اليوم . . .

وسوف أحاول أن أعالج ذلك فى نقاط بارزة مختصرًا لها ومقتصرًا على بعضها فى إيجاز لا يخل بالمقصود ، ولا إطناب يورث الملل ويصيب الهمم بالكلل .

((المبحث الأول))

بعض سمات التربية الخلقية النبوية

التربية الاسلامية كلمة جامعة مانعة شاملة ، فهى لا تقتصر على جانب أو جوانب من الانسان ، بل تلاحظ فيه كل العناصر المكونة له التى يؤثر بعضها على بعض ، فتعنى بالأخلاق والجسم بما يقويه ويبعث فيه الحيوية ، والروح بكل ما يهذبها وينشط العقل . . .

فالانسان كل لا يتجزء ، فهو يتأثر بما حوله ويؤثر فيما حوله كذلك " فالفهم الاسلامى للتربية أنها الإعداد الروحى والنفسى للفرد بحيث يكون مؤهلاً لتلقى التعليم والثقافة على نحو موجه ، فيأخذ ما هو أساسى وبناء وما هو بسبيل أن يمده بالقدرة على أداء رسالته فى الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامعة بين هدفى الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعى إلى آفاق التقدم ، دون أن يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسئولية الفردية ، بل لحسابها ودعما لها "[1]

---

(١) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الاسلام ـ أنور الجندى ص ١٥٣ دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى (١٩٧٥) .

والناظر إلى تربية الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه في المدرسة النبوية ، يرى أنها التربية المستمدة من القرآن الكريم الذي كان يتمثله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو قد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

ولقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على العقيدة الاسلامية السمحاء العقيدة الصافية التي نفت كل ضلالات الشرك والوثنيات وسمت بالانسان إلى أعلى الدرجات بنزهته عن كل معبود سوى الله الواحد الأحد الإله المعبود بالحق وحررته من الخرافات والوهم . . .

ولا غرو أن نجد هذه التربية السامية في الجيل الأول للاسلام فقد ربى هذا الجيل الرسول الذي أدبه ربه وربّاه تربية تؤهله لحمل آخر رسالات الله إلى البشرية ، حيث قال تعالى مؤكداً تربيته له صلى الله عليه وسلم على الخلق السوي :

(ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم)[1] .

وهذه الآية وحدها تكفي في التدليل على كريم خلقه وحميد خلاله فهو كما وصفه القرآن على خلق . . . ولو وقف الوصف على ذلك لكفى ولكنه زاد خلق عظيم ، وهذا أبلغ وصف يوصف به بشر ، تناهيك إذا كان الواصف هو رب العالمين . .

عن حكيم بن أفلح قال : قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى قالت : فإن خلق النبي صلى الله عليه وسلم كان القرآن[2] .

---

(١) ن آيات ١ - ٤

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٦ ص ٢٦ الطبعة المصرية ومكتبتها بدون تاريخ .

والآيات والأحاديث والوقائع الدالة على كريم خلقه ، صلى الله عليه وسلم، وتربيته أصحابه كثيرة . . . فلقد كانوا، رضوان الله عليهم، يتأسون بكل ما يلاحظونه منه في تصرفه معهم ومعاملته لهم . وفي كل حركاته وتحركاته ؛ في أقواله وأفعاله في حله وترحاله . . . مما صاغهم صياغة جميل فريد لم ينجب الدهر مثله .

ولقد كان الكافر يسلم بسبب معاملة الرسول، صلى الله عليه وسلم، له ، حيث كان يحرص على التربية بالعمل أكثر من القول، لأن وقع العمل في النفوس أبلغ من القول .

وأذكر على سبيل المثال قصته، صلى الله عليه وسلم، مع زيد بن سُعنة فهي تبين خلقه وحلمه وتعامله مع الناس بما ربى عليه أصحابه حتى كانوا قادة الأمم وسادة الدنيا . .

أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال :

" إن الله عز وجل " ، لما أراد هدى زيد بن سعنة ، قال : زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد، صلى الله عليه وسلم، حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا . . "

ويسوق زيد الحديث الطويل يروى فيه قصته مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حينما أقرضه قرضًا إلى أجل معلوم ، ثم جاءه قبل تمام الأجل الضروب بينهما يتقاضاه فقال زيد في ذلك :

" فلما كان قبل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، رضي الله عنهم ، في نفر من أصحابه

فلما صلى الجنازة دنا إلى الجدار ليجلس إليه ، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ ، قلت له : يا محمد ألا تقضيني حقي ؟ فوالله ما علمتم يا بني عبد المطلب إلا مطلاً ، ولقد كان بمخالطتكم علم ، ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وتصنع به ما أرى ؟ فو الذي نفسي بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى في سكون وتؤدة ، فقال : " يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن اتباعه ، إذهب يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما روعته " .

قال زيد : فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر ، فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما روعتك ، قال : أو تعرفني يا عمر ؟ قال لا ، قلت أنا زيد بن سعنة ، قال : الحبر ؟ قلت الحبر ، قال ما دعاك أن فعلت برسول الله ما فعلت ؟ وقلت له ما قلت ؟

قلت يا عمر : لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفت من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه ، يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً . وقد أخبرتهما ، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربًا وبالاسلام دينًا وبمحمد نبيًا ، وأشهدك أن شطر مالي ، فإني أكثرهما مالاً ، صدقة على أمة

محمد صلى الله عليه وسلم قال عمر : أو على بعضهم فأنك لا تسعهم قلت أو على بعضهم " (١)

تلك هى الأخلاق التى ربت ذلك الجبل الفريد فى نوعه : فهذا الحديث قد جمع أركان التربية الصحيحة السليمة ، حيث أن المربى لا ينزعج من شدة الجهل عليه ولا تزيده حماقة الحمقاء إلا حلماً وتؤدة فهى صلى الله عليه وسلم ، مع علمه أن الأجل المضروب لهذا الدين لم يحن بعد ، وأن المتقاضى لم يعرف الأسلوب الأمثل فى المقاضاه . مع ذلك كله لم يثر صلى الله عليه وسلم ، ولم يعنف عليه ، بل عند ما أراد أحد أصحابه أن يرد الصاع صاعين أوقفه عند حده ولم يسمح له بالانتقام بل زيد على حقه ، الشىء الذى جعله يندهش من هذا الصنيع ويسأل فيم هذه الزيادة ؟

ويظن بأنها مكان الروعة التى أدخلت عليه من قبل عمر هذا مع أن يد عمر لم تمتد إليه . وإنما كان ذلك مجرد كلام . . فى حين أن يده هو قد امتدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا الأسلوب التربوى الفريد الذى يراعى النواحى النفسية ، والعاطفيه والسلوكية . . ويراعى البيئة الاجتماعية التى تؤثر فى سلوك والأفراد . . هذا الأسلوب التربوى الذى يلاحظ كل العناصر المكونة لحياة الانسان ، من حب للنفس وحب للمال . . وحب التعالى على

١ـ أنظر مجمع الزوائد للهيثمى جـ٨ ص ٢٤٠ وقال رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

الغير . . كل تلك المعانى تراعى فى منهج التربية الاسلامية النبوية مما جعل ذلك الذى كان فظاً غليظاً حليماً رقيقاً بغير سلوكه فى لحظات وينقلب من حال إلى حال ، وينطق بالشهادة ويشهد برسالة الرسول، صلى الله عليه وسلم ، بل ويشهد له بكل علامات النبوة وامارتها . .

وهو أسلوبه عليه الصلاة والسلام فى التربية مع مثل هؤلاء . . فقد فعل مثل ذلك مع ذى الخويصرة اليمانى الذى بال فى ناحية المسجد حيث لم يعنف عليه ولم يدع أصحابه ينتهرونه . . مما جعله يترحم على نفسه وعلى محمد . وغير ذلك كثير جم ، لو ذهبت أتتبعه لضاقت به مجلدات وأسفاره .

وهذه التربية الاسلامية النبوية تمثلها الصحابة من بعده وحملوا لواءها إلى الأجيال التى تليهم . . ففتحوا الشارق والمغارب حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يحثهم على تربية الأخلاق وتنميتها لأنه إذا حسن الخلق تبعه كل جانب من جوانب الفضيلة والخير فكان يحبب لهم ذلك بمثل قوله :

" ألا أخبركم بأقربكم منى منازلاً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون " (١)

١ـ مجمع الزوائد للهيثمى ، حـ ٨ ، ص ٢٠ باب ما جاء فى حسن الخلق وقد جاء بعدة الفاظ .

والتربية الاسلامية تقوم على الخلق المعتدل . . لأنه اذا اعتدل خلق الانسان ، كان معتدلاً في كل جوانب حياته . . فالأخلاق تأتي نتيجة لتكوين الشخص النفساني والوجداني والسلوكي فيشبعه تفاعل جميع الأعضاء والأمزجة وتجاوبها معه . . ولذلك فقد أمر الله تعالى المسلم أن يكون معتدلاً وسطاً في كل أموره في العطاء وفي المنع " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً " (١)

ولم يكن هذا التوسط والاعتدال قاصراً على النواحي الاقتصادية فحسب ، بل هو دين الاسلام وهو منهاجه في الحياة وهو السبيل الذي اختطه الله تعالى لهم كمنهج حياة ، فلهذا وصفت هذه الأمة بالوسيطة ، وهذه تقتضي الاعتدال في كل الأمور . .

وتكلم الأخلاق التي ربى الرسول صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه ، نريد أن يرجع إليها المسلمون ويأخذوا بها أنفسهم حتى يجتمع شملهم ويلتئم جرحهم ، وعندما تخلى المسلمون عن هذه التربية ولم يأخذوا بها أبناءهم ولم يربوهم عليها ويعلموهم إياها . . لما لم يفعلوا ذلك فسدت الأخلاق وانحلت عرى الفضيلة وتنكبنا المنهج الاسلامي في التربية . . مما جعلنا لقمة سائغة للأفكار الوافدة والفلسفات الضالة من علمانية وغيرها . .

١ـ الإسراء آية ٢٩

المبحث الثانـــى

التربيـــة الجسميـــة والروحيـــة

والمنهج الاسلامى التربوى الذى ينبغى العودة إليه لـــيرأب صدعنا ويسد خللنا ، ونتخلص به من الأفكار العلمانية الضاله الـــتى استولت على مقاليد الأمور فى حياتنا اليومية . . ذلك المنهج يجمـــع بين الروح والجسد ويعنى بتربيتهما جميعًا باعتبارهما وحدة متكاملـــة كعروق الشجرة التى تتفرع عن الجزع الواحد يضرب كل فى ناحية ليتعاونا على إنماء الفروع والأوراق والسوق وتغذيتها حتى تينع وتثمر ، فكذلـك الروح والجسد لا يهضم الاسلام حق أحد هما على الآخر ، كما تفعـــل الأديان والمذاهب المنحرفة كالبوذية التى تفصل بين الجسد والـــروح وتجعل الانسان يعتنى بالأخيرة ويهمل الأول فيمزقه ويرهقه ويعذبـــه فى سبيل لقاء الروح .

وليس الاسلام ماديًا يعتنى بالجسد المادى ويهمل الروح ، كمـا تفعل المذاهب المادية التى تجعل المادة كل شىء .

ولكن الانسان عند الاسلام مزيج مركب من كليهما . . ولهذا يقوم ميزان التربية فيه متوازن الكفتين لا ترجح إحداهما بالأخرى فكان منهاج التربية الاسلامية كاملاً شاملاً معتدلاً متزنًا ، لا فجوات تتخلله ولا ثغرات يُنفذ منها إليه . . لا يميل بالانسان إلى جهة على حساب الأخـــرى : " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحســن

كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)(١)

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقومون الليل ويجاهدون النهار في سبيل نشر الدعوة ويصد الذين يضعون الحواجز في طريقها . . فلم يعرف عنهم الانزواء والترهب وترك أعمال الدنيا والسعي في طلب الرزق ، بل كان عمر رضي الله عنه يضرب من يجده خاملاً متكاسلاً ويوبخه بأن لا يحيت على المسلمين دينهم . . وكما فعل عليه الصلاة والسلام ، مع الذين سمعوا بعبادته وقيامه الليل . فأكبوا على أنفسهم الانقطاع للعبادة كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، أنه قال :

" جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " (٢)

١ـ القصص آية ٧٧

٢ـ صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، باب الترغيب في النكاح جـ ٩ ، ص ٤ . وهذا لفظ البخاري والحديث متفق عليه .

ذلك هو التوازن التربوى الاسلامى الذى تقوم فيه التربيـــــة الاسلامية على تنمية الانسان فى جميع الجوانب حيث أنها ترعى النفـس وتهذب الخلق وتنمى القدرات والملكات الكامنة فى لاشعور الفرد وترعـاه جسميًا وروحيًا وعقليًا ، كما قلت حتى يشب وهو يدلو من الكمال البشـرى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتربية الجسم لم يهملها الاسلام ، وإنما حث عليها ومدحهـــا حينما تستخدم فى سبيل الله ضد أعداء الاسلام ، وحينما تستعمل فى مساعدة الضعفاء ومعاونتهم ، كما فعل موسى عليه السلام عند ما سقـى للمرأتين اللتين وجدهما تذودان . . فى قوله تعالى :

" ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد مـــن دونهم أمرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلـت إلىّ من خير فقير . . الآية إلى قوله تعالى " قالت يا أبت أستأجره وأن خير من استأجرت القوى الأمين " (١)

إذاً ، القوة التى يربى الاسلام الناس عليها هى قوة من نوع خـاص تكرس كل جهدها وتبذل كل طاقاتها وقدراتها فى أعمال الخير وتجانب الشرور وتنبذ المهلكات . . قوة تحرسها الأمانة وتزينها التؤدة والوقـار فلا تربى لأفعال الشر وهضم حقوق الناس . .

١ـ القصص آيات ٢٣ ـ ٢٤ وآية ٢٦

هذه التربية هى التى نود أن يعود إليها المسلمون اليوم ، فينشئوا النشىء عليها . . فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يصارع ويسابق على الخيل ، يفعل كل ذلك تربية وتعليماً للمسلمين كى لا يخلدوا ويركنوا للدعة والكسل . . فأمة الاسلام أمة ناهضة لا تعرف الركود والجمود الذى حصل لنا فى هذه الأعصار المتأخرة حتى غزتنا الأمم التى كنا نغزوها ، غزتنا عسكريًا عندما تخلينا عن القوة التى هى الرمى ، بمعنى إعداد العدة للعدو وبما يصده عن ديار المسلمين - بل بما يهاجم به من وقف عقبة كأداء فى طريق إبلاغ الدعوة للبشرية كلها . . فبدلاً من أن نصنع السلاح الذى هو الآن ميزان القوة ، صرنا نستورده من دول الكفر التى تسعى لتدمير الاسلام فلا تعطينا منه إلا ما تلفظه هى مما جعل إسرائيل تحتل بلاد المسلمين وأولى القبلتين ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجعل من القدس عاصمة لدولتها .

كل ذلك نتج عن تخلينا عن الأخذ بأسباب القوة التى أمرنا بها فى قوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم الآية " (١) .

وهنا يقول صلى الله عليه وسلم " ألا أن القوة الرمى . . " (٢)

١- الأنفال آية ٦٠

٢- صحيح مسلم بشرح النووى باب فضل الرمى والحث عليه فى كتاب الإمارة .

والرمى الذى هو القوة لا يكون فى عصرنا هذا بالحجارة ولا بالسهام والنبال . . وإنما يكون بالقنابل والصواريخ عابرات القارات والمدافع المضادة للطائرات . . وهكذا أطلق الله القوة ولم يحددها بقوة معينة وفسرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالرمى وهو بدوره لم يحدد الرمى ، فهو يكون بكل آلة تُخترع وتستحدث وتكون فيها القوة الرادعة التى تصد العدو . . وهذا من مرونة الاسلام وصلاحيته لكل الأزمنة والأمكنة مع ثبات أصوله . .

وقال تعالى : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحب الخائنين " (١)

ونحن المسلمين ، لم نخف من اليهود خيانة فحسب ، أى مجرد الخوف من خيانتهم بظهور علاماتها وإماراتها . . بل قد خانونا بالفعل عندما احتلوا بيت المقدس وأخذوا أراضينا بالقوة التى تخلينا عنها ، ولكن للأسف ، مع ذلك لم ننبذ إليهم على سواء وإنما ذهبنا نوادهم ونعاهدهم ونعطيهم " بالخطوة الواحدة خطوتين " وهم يحتلون أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال . . ولذلك لما تخلينا عن أسباب النصر ولم نرهب عليها أنفسنا وأبناءنا آل حالنا إلى ما آل إليه مما لا نحسد عليه .

وكذلك عندما تخلينا عن الثقافة الاسلامية التى كادت أن تخلو

١- الأنفال آية ٥٨ .

منها مناهجنا التعليمية ، وإن خلت فعلاً فى بعض المراحل .. عند ذلك أصابنا الخمول الذهنى والجمود الفكرى وغزانا الأعداء ثقافيًا وأحتلوا عقولنا فكريًا فوشربنا ثقافتهم ومناهجهم وضربنا بثقافتنا ومناهجنا عرض الحائط فصرنا لهم ذيلاً فى الفكر وفى الثقافة وفى القوة والاقتصاد فأصبحنا نستورد كل شىء منهم . .

فالقوة الجسدية والعقلية والروحية لم يهملهما الاسلام عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال :

" سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل التى قد ضُمِّرت فأرسلها من الحفياء ، وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك ؟ قال : ستة أميال أو سبعة وسابق بين الخيل التى لم تضمر ، فأرسلها من ثنية الوداع وكان أمدها مسجد بنى زريق ، قلت فكم بين ذلك ؟ قال ميل أو نحوه وكان ابن عمر ممن سابق " (١)

وهذا الفهم العام هو الذى فهمه الصحابة فحثوا المسلمين عليه وعلى التمسك به حتى لا تنحل عرى القوة الاسلامية فتكون أمة رخوة خاملة فقد " أخرج أبو ذر الهروى فى الجامع والبيهقى عن أبى عثمان الهندى قال : أتانا كتاب عمر بن الخطاب ونحن بآذربيجان مع عتبة بن فرقد وفيه: " أما بعد فأتزروا وارتدوا وانتعلوا وارموا بالخفاف وألقوا السراويلات وعليكم بلباس أبيكم اسماعيل وأياكم والتنعم وزى العجم وعليكم بالشمس

١ـ صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى جـ ٦ ص ٧١ باب السبق بين الخيل .

فإنها حمام العرب وتعددوا واخشوشنوا واخلولقوا وأقطعوا الركب وارموا الأغراض وانزوا ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير إلا هكذا ، وأشار باصبعه الوسطى" (١)

وهكذا تبرز التربية الاسلامية شاملة في كل النواحي تلازم الانسان منذ مهد الطفولة إلى أن يلحد . .

المبحث الثالث

تربية الطفل

اعتنى الاسلام بتربية الانسان ـ كما ذكرت منذ أن يولد بل قبل ذلك وهو جنين في بطن أمه فعهده بالرعاية والعناية ، وتتبعه هذه العناية حتى الموت . . فجاء أدب الاسلام وتربيته للأطفال وكيفية معاملتهم وكيف يعاملون هم أهليهم عند الرشد وقبله . . فحثهم على التأدب مع الآباء والأمهات وعدم إزعاجهم والدخول عليهم في أوقات راحتهم .

وقد شملت هذه التربية حتى الخدم لكثرة تردادهم ودخولهم على ذويهم . . قال تعالى : مبيناً ذلك :

١ـ انظر كنز العمال ، جـ٨ ص ٥٨ وحياة الصحابة ، للكاندهلوى جـ٢ ٨٠٠ دار النصر للطباعة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م)

" يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحكم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعد هن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم" (١)

وهنا يتضح الفرق فى السلوك التربوى بين التربية الاسلامية والتربية غير الاسلامية ، حيث لا تهتم الأخيرة بما يتصل بالأخلاق وبناء الشخصية على الفضيلة والتمسك بما جاءت به الأديان السماوية من تقويم للخلق وحث على مكارم الأخلاق . . ولذا نجد الفرد عندهم مجزأ لا وحدة تربطه . .

فالاقتصادى يتكلم فيما يتصل بالاقتصاد وحده ، ولا يلتفت إلى سواه والرياضى كذلك وصاحب الفلسفة المادية يركز كل جهده عليها ولا يعير الجوانب الأخرى أية نظرة . . وهكذا يتجزأ الانسان عندهم إلى عدة شخصيات وكأنه فقد الوحدة العضوية التى تتكون من الجسد الكامل بروحه ونفسه وأخلاقه . . فدارسوا كل هذه الجوانب فى التربية لا يراعون الجوانب الأخرى ولا يأخذونها فى اعتبارهم كما قلت . .

ونتيجة لتلك التربية القاصرة نجد الانسان الغربى أو الشيوعى

١ـ النور آيات ٥٨ ـ ٥٩

لا يعتبر الأخلاق شيئًا يذكر ولا تجد أحدًا يستنكر منكرًا أو يبالي باطلاعه فالرذائل والفواحش تمارس على قارعة الطريق وفي المركبات العامة من غير أن تثير اشمئزاز أحد من الناس أو حتى تلفت انتباهه - وكأن لم يحدث شيء مستغرب .. ولهذا فقد انطمس معيار الفضيلة عندهم.

وهذا مايريدونه لنا ، نحن المسلمين عندما أدخلوا إلينا مناهجهم التعليمية العلمانية وأخذنا نربي عليها أبناءنا ..

أما الاسلام ، فإنه يعتبر الانسان بفطرته الأولى سليم الخُلُق قويم الطبع ، وأنما تؤثر البيئة والنشأة التربوية في سلوكه عندما يختلط بالمجتمع في البيت الذي يعيش فيه أولاً حيث الأسرة ذات المحيط الضيق التي تعتبر حجر الأساس بالنسبة لبناء الشخصية التربوية للفرد .

ثم محيط الشارع والمدرسة ... كل هذه مؤثرات تعمل على تغيير الشخصية وتحويرها عن فطرتها الأولى ..

ولهذا أشار الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

" كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنتَج البهيمة بهيمة هل تحسون فيها من جدعاء" (١)

وفي تربية الطفل يعتني الاسلام بكل الجوانب فيه حيث يربيه على الشجاعة والشهامة والنجابة وحسن الخلق حتى يشب وهو إنسان سوي كما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه " كتب إلى الشام أن علموا أولادكم

١- رواه مسلم ، باب كل مولود يولد على الفطرة جـ ١٦ ص ٢٠٧ دار الفكر بيروت .

السباحه والرمى والفروسية "(١)

وهذا يشير إلى تدريب الطفل على وسائل الدفاع والحماية من صغره حتى يكون مسلمًا قويًا كيسًا فطنًا، مما يلزمنا اليوم أن ندرب شبابنا المسلم على الوسائل التى تدفع عن المسلمين كيد الأعداء - ويذب بها المسلم عن وطنه الاسلامى ويحمى بها حمى دينه .

وأنا هنا لا أريد أن أسترسل فى التربية الاسلامية التى تشمل جميع النواحى كما ذكرنا ، فالاسلام قد اعتنى بتربية الانسان من حيث أنه إنسان . . فكانت للطفل تربيته التى تناسبه وللمرأة تربيتها التى تتلاءم وطبيعتها كما للرجل السوى تربيته التى تتناسب وماجبل عليه وللشباب كذلك . .

فالاسلام أعطى لكل ذى حق حقه من غير إفراط ولا تفريط "إنا كل شىء خلقناه بقدر " (٢)

وهو فى تربيته للانسان، كما ذكرت، اعتبره وحدة متكاملة، جسدًا وروحًا، عقلاً وفكرًا، فهو نفخة من روح الله وقبضة من تراب استفزجتا امتزاجًا لا ينفك ولا يميز . . ولذا ينبغى أن يراعى فى تربيته كل هذا المزيج ، فلا يمال به إلى ناحية القبضة الترابية المادية فيهلك أو ينحرف ويصير مادة فقط . .

كما لا يمال به إلى ناحية إلى النفخة الأخرى فيصير روحًا

١- أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى جـ ٤ ص ٣٢٧ المكتبة التجارية القاهرة الطبعة الأولى (١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م)

٢- القمر آية ٤٩

يهلك ، فالشأن الأخير خاص بالملائكة الذين لهم أعمال لا يحيدون عنها فهم يسبحون الليل لا يفترون .

ولكن الانسان شاءت قدرة الله وحكمته أن يكون على هذا التكوين الفريد فى مخلوقات الله . . مخالفًا للمادة الصماء وللبهيمة العجماء مخالفًا للملائكة المستقرين على ما هم عليه .

فهذا التركيب البشرى فى الانسان هو الذى راعته التربية الاسلامية فأخرجت أجيالاً ناضجة تامة تدنو من الكمال .

وأنا فى هذه الجوانب الضئيلة التى أبرزتها فى التربية الاسلامية لم أدع الإيفاء ولم أقصده أصلاً ، فإن هذا لحمل تنوء به الأسفار الضخام ، وإن يسر الله لى أن أكتب فى التربية الاسلامية وأثرها فى تكوين الدعاة عندئذ سوف أحاول الإيفاء ما أمكننى . .

وكذلك لم أتطرق هنا ، لضروب التربية العملية عند سلفنا الصالح من علماء الأمة الاسلامية الذين تكلموا فى هذا المجال . فقد تكلم عنه كثير منهم ، كابن سيناء فى بعض كتبه كالقانون فى الطب والغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ، وابن أبى أصيبعة فى كتابه : عيون الأنباء وطبقات الأطباء ، وابن مسكوية فى كتابه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، كما تحدث عنها ابن خلدون فى مقدمته ....

وغيرهم من علماء الأمة الاسلامية ، لم أتحدث عن آرائهم فى التربية مكتفيًا بتلك الشذرات من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحتى هذه إنما كانت مجرد تلميحات وقطرات أخذتها ، كما

كما يأخذ الخيط من البحر المحيط ، آملاً ،كما ذكرت،أن تتاح لى فرصة أوسع . .

وإنما أردت بإيجاز تلك النقاط أن تكون علاجاً لما نحن فيه اليوم عسى الله أن يأخذ بأيدى المسلمين فيلتفتوا إلى ما فى كتاب ربهم وسنة نبيهم وسيرة سلفهم من تربية قويمة لا يحتاجون معها إلى أفكار مستوردة من الشرق أو من الغرب .

الفصل الثانـــى

الوحـــدة الاسلاميـــة

يشتمل على العناصر التالية :

١- الاعتصام بحبل الله تحت راية العقيدة الاسلامية .

٢- الفرق بين الوحدة الاسلامية والحكومات الاتحادية فى العالم غير الاسلامى ، ولا سيما فى الولايات المتحدة .

٣- التقسيم فى الولايات غير الاسلامية يقوم على أساس القوميات والتحيز العنصرى .

٤- عناصر الروابط الاسلامية :

أ- العقيدة .

ب- التاريخ المشترك

جـ- اللغة العربية

د- مصادر التشريع الموحدة

هـ- الثقافة الاسلامية .

جاء الاسلام ووجد العالم متبعثرة أشلاؤه زء حيث كان يستبد به القياصرة والأكاسرة . . . ومن ضمن هذا العالم المتشتت كانت العرب تمزقها الحروب وتفككها العصبيات وتستبد بها العنصريات وتأكلها حمية الجاهلية . .

وعندما جاء الاسلام دعا الناس إلى أن يكونوا أمة واحدة فقال تعالى :

" إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " (١) ،

وقال تعالى " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون " (٢)

ودعا سبحانه الأمة الاسلامية إلى الاتحاد فيما بينها وأن ترتبط نفسها برباط الاسلام المتين تحت لواء لا إله إلا الله ، شعار التوحيد الخالص الذى لا يتوفر فى أمة سواها وهذا أكبر دليل على وحدة هذه الأمة وجمع كلمتها ، . فهى تعبد ربًا واحدًا لا تشرك معه أربابًا متفرقين وإن كانت هذه هى دعوة كل الرسل .

ولكن الأمم السابقة لم تستفد من هذا النداء الذى وجهه الرسل لهم بأن يعبدوا الله وحده لا يشركوا معه غيره " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " (٣)

١ـ الأنبياء آية ٩٢

٢ـ المؤمنون آية ٥٢

٣ـ النحل آية ٣٦

ولهذا فقد دعا الله هذه الأمة أن تعتصم بحبله المتين ورباطه الوثيق فقال تعالى ناهيًا عن الفرقة والشتات :

" واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .." (١)

والوحدة تعني اتحاد أمتين أو أكثر في الرياسة والسياسة والجيش والاقتصاد ، بموجبها تتكون أمة واحدة .. وهناك وحدات جزئية كالوحدة الاقتصادية والوحدة السياسية .. وهي حالة ما اتحد من الناس أو الاشياء " (٢)

والوحدة الاسلامية التي ننشدها لإصلاح شأن المسلمين ولَمِّ شعثهم تخالف ما يطلق عليه في الغرب النظام " الفيدرالي" أو الحكم الاقليمي الذي تعمل به الولايات المتحدة .

حيث لم يكن للحكومة المركزية الا الخطوط العريضة .. ولكن كل إقليم أو ولاية يكون لها دستورها الخاص بها - كما لها الحق في أن تسن من القوانين وتشرع من الشرائع ما يناسب إقليمها والحالة التي عليها مواطنوها ، إن خيرًا أو شرًا ، كما لها أن تبيح ما تشاء وتحرم ما تشاء في نطاق إقليمها .. ولها برلمانها الخاص وهو الجهة التشريعية الوحيدة ..

١- الأنفال آية ٤٦

٢- انظر المعجم الوسيط جـ٢ ص ١٠٢٨ والرائد ص ١٥٤٦

أما فى الاسلام فالنظام غير ذلك تماماً ، فلا يمكن لأى إقليم أو حاكم ولاية فى النظام الاسلامى أن يشرع من القوانين ما يشاء أو كما يشاء موطنوه ، بل النظام فى كل البلاد الاسلامية موحد لا يختلف فى جوهرة ، من اقليم لآخر ولا من ولاية لأخرى .

ذلك لأن الاسلام كل لا يتجزء ، ووحدة متكاملة لا يسمح بالتفريق مصادر التشريع فيه موحدة ، حيث أن قطب رحاها الذى تدور حوله مصدران أساسيان : القرآن الكريم والسنه المطهرة . ثم ما تفرع من المسائل تؤخذ من المصدران الآخران : الاجماع والقياس . . وكذلك لعلماء الأمة الاسلامية أن يجتهدوا فى استنباط الأحكام من تلك الأصول . . ولهذا فإن عطاء الشريعة الاسلامية لا ينقطع ولهذا هى للبشرية على مختلف عصورها لا ينضب معينه .

وعليه فإنه لا يطلق على النظام الاسلامى أنه نظام اتحادى أو اتحاد " UNITY " وانما يقال وحدة إسلامية . ولذا فإن الغربيين عند ما عرفوا هذا الفرق ترجموا كلمة الوحدة الاسلامية إلى " PAN ISLAMISM " حيث أن كلمة " PAN " تعنى : شامل عام ، كل . . وهى ترجمة سليمة لأن النظام الاسلامى نظام شمولى متكامل له منهجه المتكامل وطابعه البارز السمات . .

أما هذا التقسيم إلى دويلات الذى نراه فى العالم الاسلامى اليوم ، إنما هو نتاج غربى أجنبى على الاسلام ، وهو ماعمد إليه أعداء الاسلام عند ما رأوا فيه قوة لا تقهر حين كان المسلمون تحت لواء الاسلام

فى دولته الواحدة .

وهذا ما اعترف به الغربيون أنفسهم حيث نلاحظه فى تساؤلات أحدهم عن نتائج هذه الأفكار والأنظمة التى جلبوها للعالم الاسلامى فيقول :

" وعلينا أن نسأل أنفسنا ما هى النتائج المرتقبة لدخول هذه الأفكار السياسية الغربية الضيقة الأفق ، إلى العالم الاسلامى ذى التاريخ العريق فى التقليد القائل : "إنما المسلمون إخوة "(١) رغماً عن اختلاف الجنس واللغة والبيئة " (٢)

ويستمر فى التنويه والاشارة بهذه الوحدة الاسلامية فى قطعة يشتم منها رائحة الحسد ، بأنها أصلح للمجتمع البشرى من الروابط التى أقامها العالم الغربى من أحلاف واتحادات رغم أنه قد " طويت المسافات بتقدم التقنية الغربية ، وفى الوقت الذى تنافس فيه طرق الحياة الغربية مع طريقة الحياة الروسية لكسب ولاء البشرية كلها الآن .. يظهر أن التقليد الاسلامى فى أخوة الانسان للانسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربى الذى أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السيادة على أساس الاختلاف القومى .. " (٣)

١ـ لعله يريد بذلك الآية من سورة الحجرات وهى قوله تعالى :
" إنما المؤمنون إخوة ـ الآية ١٠ ، ولكنه أخطأ الرمية فجعلها تقليداً .
٢ـ و ٣ـ الاسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينبى ص ٢٨ .

ويرد ف القول مؤكداً أن القوميات الغربية قد مزقت العالم الغربي إلى عدة دويلات مما يهدد بانهياره ، بخلاف الوحدة الاسلامية التي إذا ماصمم عليها المسلمون ، فإنها قادرة على إيقاف هذا الداء العضال ، داء القوميات الضيقة ، الذى جعلهم طرائق قدداً ، ففي الوقت الحاضر الذى يجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية نرى أن تجزئته إلى أكثر من أربعين دولة قومية مستقله ذات سيادة يهدد بانهيار البيت كله على من فيه ، بسبب انقسامه على نفسه(١)

" ومن المأمول أن يستطيع العالم الاسلامى ، على كل حال إيقاف أنتشار هذا الداء السياسى الغربى - القومية - وذلك عن طريق الشعور القوى بالوحدة " (٢)

وهذه الوحدة الاسلامية التى تخلى عنها المسلمون اليوم بسبب دخول التيارات الغربية من علمانية وقوميات وعنصريات ، هذه الوحدة هى الأساس المتين الذى جمع الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين عليها وبها توحدت كلمتهم وعليها قامت دولتهم . . فالمسلمون كلهم أمة واحدة وإن نأت بهم الأوطان وتفرقت بهم البقاع . . أمة واحدة لأنهم نهوا عن التفرق والاختلاف الذى يسبب لهم الفشل فقال تعالى :

" وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين " (٣)

---

١ و ٢ - الاسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينبى ص ٢٨

٣- الأنفال آية ٤٦ .

وقال،صلى الله عليه وسلم" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى "(١)

وقال مؤكداً هذه الوحدة بين المؤمنين وكيف أنها لهم شد وعضد:

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبك بين أصابعه " (٢)

وهذه الوحدة الاسلامية التى هى إحدى السبل الكفيل -إن شاء الله-بإصلاح شأن المسلمين والعودة بهم إلى ماضيهم الزاهر واجتماع شملهم تحت راية القرآن الكريم . . . هذه الوحدة لها مقومات وعناصر يلتقى عندها جميع المسلمين ومن هذه العناصر والمقومات .

مقومات الوحدة الاسلامية

أ- العقيدة الاسلامية (٣) ذات المنبع الصافى التى حررت العقل البشرى من الخرافات ونقته من الترهات والأباطيل فلا سجود لصنم ولا ركوع لوثن عند المسلمين ".

١- صحيح البخارى بشرحه فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٣٨ باب ٢٧ رحمة الناس والبهائم وله ألفاظ أخرى .
٢- صحيح البخارى بشرحه فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٥٠ باب ٣٦ تعاون المؤمنين بعضهم بعضا .
٣- العقيدة جمع عقائد مايتدين به الانسان ويعتقده فى الدين والأخلاق والسياسة وغيرها - أنظر الرائد لجبران مسعود ص ١٠٤٠ .
وسمى الإيمان بالله عقيدة لأن الانسان يعقد قلبه عليه ويصمم .

وقامت العقيدة الاسلامية على الحجة والإقناع بالدليل والبرهان لا التسليم المطلق بغير دليل ولا التقليد الموروث الأعمى " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " (١)

وإذا كانت العقيدة الاسلامية تقوم بتنوير العقل البشرى وتوسيع مداركة وتنمية ذوقه الفكرى ، فإن " الشريعة " الاسلامية (٢)

ب - هى القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى وتتم على أساسها المعاملات بين الناس وتبنى عليها الحضارة ، ولذلك فإن الأمة فى الاسلام لن يكتمل بنيانها مالم تتجسد فى دولة تتيح للمسلمين أن ، يعيشوا حسب فرائض دينهم ، وتسهر على تطبيق الشريعة وتحمى جماعة المسلمين " (٣)

جـ والمسلمون يلتقون ويجتمعون على لغة واحدة تعتبر هى الأم ، بالنسبة لبقية اللغات واللهجات فلا تكاد تجد مسلما يقرأ القرآن بغير العربية ، إلا أن يكون ترجمة لمعانيه ، وهو ميسر لذلك بفضل الله ؛" ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (٤)

ولذلك يحرص المسلمون ما أمكنهم على تعلم اللغة العربية وأن قلّ ذلك فى بعض فترات الضعف التى أصابت المسلمين من جراء الاستعمار

١- البقرة آية ١١١

٢- الشريعة تجمع على شرائع وهى ما شرعه الله وسنه للناس من قوانين وأحكام ، أنظر الرائد ص ٨٧٧ .

٣- الاسلامية ، أنور الجندى ص ١٣

٤- القمر آية ٢٢ .

ثم الغزو الثقافى من الغرب والشرق الشيوعى ...

حيث نأمل العودة إلى ذلك المعين الروى من خلال بوادر اليقظة الاسلامية الحاضرة والتى بدأ وميض برقها يلمع فى الأفق البعيد وإن كان يحشى الهوينا، ولكن الأمل قريب إن شاء الله تعالى ...

ولقد حملت اللغة العربية يومًا ما - وما زالت قادرة على ذلك متى ما نهض أبناؤها من غفوتهم - مشعل الحضارة والثقافة والعلوم ومختلف الفنون ، حتى أضاءت به وجنة الغرب المدلهم الظلام ...

ولقد " تمتعت هذه الثقافة بعصرها الذهبى من منتصف القرن الثامن للميلاد إلى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت اللغة العربية إداة التعبير عنها ، يوم كانت الشعوب العربية اللسان - وبينهم السورى والعراقى والمصرى والتركى والفارسى وغيرهم - فى خدمة مشعال الحضارة فى العالم قاطبة . وجاء عدد المؤلفات فى هذه اللغة فى تلك الحقبة ، المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والفلكية والرياضية والجغرافية واللغوية ، أكثر من عددها بأى لغة أخرى أسيوية أو أوربية .

والغريب فى أمر العربية التى كانت فى أواسط القرن الثامن (الميلادى) لغة الشعر ... انها فى خلال قرن واحد تطورت وتقدمت الى ان اصبحت اداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون . وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة فى تاريخ نشو اللغات"[1]

---

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة د - محمد خلف الله ص ٥٥ من بحث قدمه ، فليب حتى فى مؤتمر برنستون .

وهذا الذى وصلت اليه العربية كان بفضل النهضة الحضارية الكبرى التى جاء بها الاسلام حيث نقل العربية من محيطها الضيق الى أفقه الرحب .

د ـ وهذه العناصر الثابتة التى تجمع المسلمين يدخل فيها التاريخ الاسلامى الذى بدأ من البعثة النبوية ونهض بعد الهجرة الشريفة وانتشر فى عصور الدولة المختلفة .

وهو تاريخ تحفل به الامة الاسلامية وتتشرف بالانتماء اليه .

فما على المسلمين اليوم ـ ان أرادوا النجاح ـ الا الرجوع اليه ونفض الغبار عن قسمات محياه الذى كدره الاستعمار واعداء المسلمين .

ولعل العامل الآخير من عوامل الاصلاح الذى ينبغى على المسلمين الاهتمام به وأخذ انفسهم به هو :ـ

هـ ـ الثقافة[1] الاسلامية وهى وليدة الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى لقد جاء الاسلام بمفاهيم جديدة للحياة والكون والآخرة ونظام المجتمع ، ولذلك فان (الذين اعتنقوا الاسلام وآمنوا به ، رأوا ان حياتهم متوقفه على فهمه ، وحمله للناس جميعًا ، كما رأوا أن الاسلام وحده ، أساس وحدتهم وسبب نهضتهم وعزهم ومجدهم ، لذلك أقبلوا عليه يدرسونه ويفهمونه[2] حتى تكونت لديهم ثقافة اسلامية عاليه المستوى رحبة المحتوى

---

(١) الثقافة ، الحذق والمهارة والاحاطة بالعلوم والفنون والآداب وشئون الحياة .. انظر الرائد ص ٤٨٥

(٢) انظر المرجع السابق .

انتجت اساطين الفكر وعالقة العلم وموسوعات الفنون ...

فالثقافة الاسلامية إذا هي فهم النظم التي جاء بها الاسلام .

منها ما يجب فهمه وجبا عينيا وهي ما يتعلق بالعقائد والعبادات ، ومنها ما يحسن بالمسلم فهمه ومعرفته والوقوف عليه كالمعارف الاخرى من الفكر الاسلامي حتى يكون مسلما واعيا متفقها في دينه كي تتكون لديه الحصانة الاسلامية التي يرد بها كيد اعداء الاسلام ؛ فما وقع المسلمون فريسة للغزو الفكري من الشرق والغرب ، الا بسبب ضحالة الثقافة الاسلامية عندهم وفقرهم من هذا السلاح الذي يردون به الزحف الأحمر ..

ولخص بعض رؤوس النقاط التي اعتقد أنها السبيل الى الاصلاح فيما يلي :-

- العمل على انشاء الوحدة الاسلامية بالرجوع الى الاسلام كدولة ومنهج حياة متكامل ..
- المحافظة على الثقافة الاسلامية بكل انواعها وفروعها وعلومها ..
- تنمية الاعتزاز بها في نفوس الناشئة حتى تزول عنهم الروح الانهزامية التي بثها فيهم المستعمر تجاه التمسك بدينهم ..
- العمل على اصلاح مناهج التعليم لتقوم بتربية الاجيال تربية اسلامية حية ، بوضع المناهج التربوية الاسلامية التي تبرز الجانب الحضاري المشرق للاسلام .. ويدخل في هذا الجانب صياغة كتابة التاريخ الاسلامي بأيدي اسلامية نظيفة ذات دراية واخلاص .
- العمل على اصلاح وسائل الاعلام وتوجيهها للاعتناء بالثقافة

الاسلامية .

ـــ العمل على نشر الثقافة الاسلامية الأصيلة . .

وبعد فتلك وقفات قصيرة موجزة ، قصدت بها وضع خطوط عريضة لاصلاح شأن هذه الأمة حتى تكون قادرة على انتشال نفسها من حمأة هذه الأفكار الدخيلة والمذاهب الهدامة التى استجلبت لها من خارجها .

فالرجوع الى الاسلام والأخذ بكل جوانبه هو وحده السبيل الى العلاج . . وحسبنا الله ونعم الوكيل . .

الخاتمة

نتائج عامة

اتضح لنا مما تقدم من خلال الجولات التى قمنا بها خلال البحث ، أن العلمانية مذهب مادى يضم مجموعة من المبادىء والأفكار التى تدعو الى عزل الدين عن الحياة ..

وهذا ما تدل عليه نفس الكلمة فى اصطلاح أهلها وهى ، " SECULARISM " ومعناها لادينية أودنيوية" . (١)

كما أن هذه الكلمة قد ترجمت الى العربية بغير معناها الحقيقى حيث ترجمت الى علمانية بكسر العين ، نسبة الى العلم على غير القياس .. وذلك تمويها وتعمية لمعناها الحقيقى الذى يناقض الدين ولا صلة له بالعلم .. والصحيح أن تترجم الى " العَلْم " بفتح العين وسكون اللام وهو بمعنى العالم ، بفتح اللام ، أو الدهر فيقال فى النسبة " عَلْمانية " بفتح العين .. (٢)

والعلمانية تعتبر من المذاهب الهدامة التى لها فلسفة خاصة فى الحياة وقد تولدت نتيجة رد فعل للكنيسة وبالأخص الكاثوليكية لممارستها الخاطئة ضد مخالفيها بأسلوبها القمعى ضدهم - وحجرها

١- أنظر ص ٣ وما بعدها

٢- أنظر ص ١٠ وما بعدها

على العقول المفكرة . . وتدخلها السافر فى العلم الحديث ومحاربتها للمكتشفات العلمية وحرقها العلماء . .

وتبلورت على اثر قيام الثورة الفرنسية حيث عزل الدين عن الحياة وانزوى سلطان الكنيسة فانحصر فى الطقوس الدينية .

ومن هنا فقد فصلت أوروبا بين الدين والدولة فسن الناس قوانينهم وأنشأوا مدارسهم وأقاموا مؤسساتهم وكل شئون حياتهم ، على أساس علمانى بعيد عن الدين . .

والى ذلك الوقت حوالى القرن التاسع عشر لم يعرف العالم الاسلامى مايسمى بالعلمانية أو عزل الدين عن الحياة . ، الى أن تسرب ذلك المذهب عن طرق عديدة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر على رأسها نصارى العرب بحكم اتصالهم بالعلم غير الاسلامى وبالذات العالم الغربى حيث فرنسا التى أصبحت مهد العلمانية . .

وتبلور ذلك على أثر عودة الطلاب الذين كانوا قد ابتعثوا الى أوربا ولا سيما فرنسا حيث كانت الأفواج الأولى قد بعثت اليها حوالى (١٨٢٦) (١) . . فعادوا وهم مشبعين بالروح الأوربية العلمانية . .

وكان أول أثر للعلمانية فى العالم الاسلامى قد ظهر فى دولة الخلافة الاسلامية حيث انتهت بفعلهاء ومن حينها تبعثر العالم الاسلامى شذر مذر بعد وأد الخلافه على يد العلمانيين . .

١ـ أنظر ص ٢١٠ ، الابتعاث

وحقا لقد كان سقوط الخلافة الاسلامية ضربة موجعه نالت من العالم الاسلامى مالم ينله فى تاريخه الطويل . . فما نحن فيه اليوم من تفرق وشتات واختلاف فى كل شىء . . هو من فعل العلمانية وأثر خطير من آثارها السيئة . . .

كما أن العلمانية قد أثرت كثيرًا فى التعليم فى شتى مراحله حيث نشأ جيل لا يعرف من أمور دينه الا ما يعرفه الشاب الغربى عن النصرانية ، هذا فى الأغلب والأعلم ، وان وجد الانسان المسلم المثقف ثقافة اسلامية ولكنه قليل . .

كما أن العلمانية التعليمية قد انتجت لنا جيلا قبض على زمام الأمر . . ففقدت أجهزة الاعلام بدورها علمانية الا القليل النادر ، ثم جاءت القوانين العلمانية التى ساقها المستعمر ومن بعده الأجيال التى تربت تحت ظله ورعايته . . حيث نُحّى التشريع الاسلامى وحل محله التشريع العلمانى الوضعى . . حتى بلغ الأمر أن ألغيت المحاكم الشرعية فى بعض البلاد الاسلامية . .

كل ذلك أثّر فى المسلم العادى الذى يتكون منه المجتمع برمته . .

واذا كان ذلك هو أثر العلمانية . . فكيف السبيل الى الاصلاح ؟

ان الاسلام هو دين الحياة . . وهو معينها الذى لا ينضب فهو بحيويته ، صالح لكل زمان وكل مكان . . فالرجوع اليه والأخذ بتعاليمه القويمة ونظمه المستقيمة منهاجا للحياة تكامل . . للحكم

للتشريع - للسياسة - للاقتصاد - للتجارة . . للفرد . . للجماعة للأمة . . للدنيا وللآخرة . . للتعليم . . للاعلام . . فإن الرجوع للاسلام هكذا . . هو السبيل للإصلاح وهو مركب النجاة وهو الذى يقيم الدولة الاسلامية الواحدة التى يستظل المسلمون تحت ظلها من الوارف الظليل . .

وإن حاولت العلمانية بما جاءت به من نظم وقوانين ومناهج تربوية وأجهزة إعلام ، ستر عقول المسلمين عن سماحة هذا الدين وصلاحه للحياة . . وقد فعلت العلمانية هذا ، وإذن فعلى الدعاة إلى الله أن يقوموا بجلاء ذلك للناس وتعريفهم بالاسلام على حقيقته ، مستغلين كل ما لديهم من قوة باذلين كل ماركب فيهم من طاقات لإبراز حقائق الاسلام وجلاء الغبش الذى غطى بصائر المسلمين . .

على الداعين إلى الله على هدى وبصيرة استغلال المنابر وأجهزة الإعلام وحقول التعليم . . وأماكن تجمعات الناس ، وفى مواطن العمل وهكذا فإن الدعوة إلى الله ليس لها مكان معين تحتكر فيه ، فليست هى مقصورة على المساجد فقط . . بل الذين يرتادون المساجد من الناس يعتبرون أخف ضررًا من أولئك الفارين منها المبتعدين عنها .

وإن كان الدعاة ينهون عن الفساد الخلقى . . وينفّرون من الزنا ويشنّعون من شرب الخمر . . ويصدون الناس من أن يقعوا فى الإلحاد الشيوعى . . والانحلال والمجون الغربى . . وإن كانوا يحذرون من عاقبة عقبة التحزب القومى ضد الاسلام ويزمون العنصريات الجاهلية

إن كان الدعاة يفعلون كل ذلك . . فعليهم فى المقام الأول أن يحاربوا هذه الملعونة " العلمانية " ذلك لأنها هى أم الكبائر كلها وهى مصيدة كل تلك الخصائب . . وجالبة كل الرذائل . . وهى التى تعمل فى المقام الأول على إخراج الانسان عن دينه . . وأن يكون متحللاً من ربقة التدين . . وإذا خلع الانسان ربقة الدين من عنقه فإنه ينطلق يخبط الأخضر باليابس لا يلوى على شىء . . لأن الدين هو الذى يكبح جماحه ، وهو الذى يقيم له الحدود الضوابط ، وهو الذى يضع له الموازين القسط فلا يحيف على مجتمعه ولا على نفسه بجنى . . .

وإذا صدق المثل القائل : كل الصيد فى جوف الفراء ، فإن العلمانية تبتلع فى جوفها شتى الرذائل والكوارث والبلايا التى تنهش فى جسم الأمة الاسلامية . . ومن هنا وجب حرب هذه العلمانية ، وأن تكون الهدف الأول لرماة الاسلام . . وكان حقا علينا نصر المؤمنين" (١)

١- الروم آية ٤٧ .

((ثبت المـــراجـــع))

(أ) القرآن الكريم والتفسير والحديث

١- القرآن الكريم

٢- الاتقان فى علوم القرآن — جلال الدين السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ) مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة الطبعة الرابعة (١٣٩٨هـ ١٩٧٨م).

٣- تفسير القرآن العظيم — عماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن كثير (٧٧٤) دار احيـــاء التراث العربى ،بيروت (١٣٨٨هـ ١٩٦٩م).

٤- سنن أبى داود — أبو داود سليمان بن الأشعـــث السجستانى الأزدى (٢٠٢-٢٧٥) نشر وتوزيع محمد على السيد حمص (سوريا) الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ ١٩٦٩م).

٥- سنن ابن ماجـــه — محمد بن يزيد القرشى ابن ماجـه (٢٠٧-٢٧٥) دار احياء التراث العربى (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)

٦- سنن الترمذى (الجامع الصحيح)	محمد بن عيسى الترمذى (٢٠٩-٢٧٩) مطبعة مصطفى الحلبى الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ-١٩٧٥)
٧- صحيح البخارى	أبوعبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (١٩٤-٢٥٦هـ) الطبعة السلفية بالقاهرة (١٣٨٠هـ)
٨- صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٠٦-٢٦١) مطبعة عيسى الحلبى الطبعة الأولى (١٣٧٤هـ-١٩٥٥م) .
٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير	محمد المدعو بعبد الرؤف المناوى دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية (١٣٢١هـ-١٩٧٢)
١٠- كنز العمال فى سنن الاقوال والافعال	علاء الدين على بن المتقى بن حسام الدين (٩٧٥) المطبعة العربية بحلب الطبعة الاولى (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)
١١- المسند	الامام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤-٢٤١) المكتب الاسلامى بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) .

١٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد — نور الدين علي بن أبي بكر ، الهيثمي (٨٠٧) نشر مكتبة القدس بالقاهرة (١٣٥٢هـ) .

(ب) الأديان

١٣- اظهار الحق — رحمة الله بن خليل الرحمن الهند ، مطبعة الرسالة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

١٤- حوار مع صديق الملحد — مصطفى محمود ، دار المتوسط بيروت (بدون تاريخ) .

١٥- حياة المسيح في التاريخ — عباس محمود العقاد .

١٦- وكشوف العصر الحديث — دار الهلال بالقاهرة (بدون تاريخ) .

١٦- الديارات — أبو عبد الله محمد بن اسحاق الشابشتي (٣٩٩) مطبعة المعارف بغداد الطبعة الثانية (١٣٨٦هـ ١٩٦٦م) .

١٧- دلائل النبوة ومعجزات الرسول — د . عبد الحليم محمود دار المتوسط بيروت ، (بدون تاريخ) .

١٨-	الفصل فى الملل والأهواء والنحل	أبو محمد على بن احمد بن حزم الأندلس (٤٥٦) دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م) .
١٩-	قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام	د . توفيق الطويل دار العربى بالقاهرة (١٩٦٦- ١٩٤٧م) .
٢٠-	الكتاب المقدس	المكتبة الأمريكية بيروت (١٩٢٩م)
٢١-	محاضرات فى النصرانية	محمد أبو زهرة دار الفكر العربى بالقاهرة الطبعة الخامسة (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) .
٢٢-	المسيحية نشأتها وتطورها	شارل جنيبر ترجمة د . عبد الحليم محمود المكتبة العصرية بيروت (بدون تاريخ) .
٢٣-	المسيحية	د . أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة (١٩٧٨م)
٢٤-	اليهودية	د . أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة الخامسة (١٩٧٨م) .

(جـ) السير والتاريخ والتراجم

٢٥- حياة الصحابة — محمد يوسف الكاندهلوى دار النصر للطباعة بالقاهرة (١٣٨٩-١٩٦٩)

٢٦- سيرة بن هشام — أبو محمد عبد الملك بن هشام (٢١٣) مطبعة شرقون (بدون تاريخ).

٢٧- البداية والنهاية — أبو الفداء اسماعيل بن كثير (٧٠١-٧٤٧) مكتبة المعارف بيروت الطبعة الاولى (١٩٦٦م).

٢٨- تاريخ الشعوب الاسلامية — كارل بروكل مان ترجمة منير البعلبكى (١٩٥٥م).

٢٩- حاضر العالم الاسلامى — لوثورب ستودارد الأمريكى ترجمة عجاج نويهض دار الفكر بيروت الطبعة الرابعة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م).

٣٠- حضارة العرب — جوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر طبع عيسى الحلبى (بدون تاريخ).

٣١- لمحات من تاريخ العالم — جواهر لال نهرو ترجمة نخبة من الأساتذة المكتب التجارى بيروت الطبعة الثانية (١٩٥٧م).

٣٢- مقدمة ابن خلدون	عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨) كتاب التحرير القاهرة (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م) .
٣٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .	أبو الحسن على الحسنى الندوى دار الكتاب بيروت الطبعة السابعة (١٩٦٧م) .
٣٤- موسوعة تاريخ العالم	وليام لانجر ترجمة د . محمد مصطفى زياد مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٨)
٣٥- موسوعة التاريخ الاسلامى	د . أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الاولى (١٩٧٧) .
٣٦- موسوعة النظم والحضارة الاسلامية	د . أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى (١٩٧٧م)
٣٧- الأعلام قاموس تراجم	خير الدين الزركلى الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) .
٣٨- معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية	عمر رضا كحالة نشر مكتبة المثنى بيروت ودار احياء التراث العربى بيروت (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م) .

(د) اللغة والمعاجم والأدب

٣٩- تصريف الأسماء — على طنطاوى مؤسسة الرسالة (بدون تاريخ) .

٤٠- الكتاب — عمرو بن عثمان بن قنبز سيبويه (١٨٠) طبع بولاق (١٣١٧هـ) .

٤١- معجم مقاييس اللغة — لأبى الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) طبع عيسى الحلبى الطبعة الأولى القاهرة (١٣٦٩هـ) .

٤٢- مجلة مجمع اللغة العربية — مجمع اللغة دمشق (بدون تاريخ)

٤٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقى دار الفكر بيروت (بدون تاريخ) .

٤٤- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى — ألفه لفيف من المستشرقين مكتبة (بريل) فى ليدن (١٩٣٦هـ) .

٤٥- الرائد — جبران مسعود دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية (١٩٦٧م) .

٤٦- القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (٨١٧) مؤسسة الحلبى وشركاه بالقاهرة (بدون تاريخ) .

٤٧- المنجد فى اللغة والأدب والعلوم	لويس معلوف اليسوعى المطبعة الكاثوليكية الطبعة التاسعة عشرة (بدون تاريخ) .
٤٨- المعجم الوسيط	لفيف من الأساتذة دار احياء التراث العربى بيروت (بدون تاريخ) .
٤٩- محيط المحيط	العلم بطرس البستانى (بدون تاريخ) ..
٥٠- الأغانى	أبو الفرج على بن الحسين بن محمد ابن احمد بن الهيثم الأصبهانى (٢٨٤-٣٥٦هـ) طبع دار الشعب بمصر (١٣٨٥هـ - ١٩٦٩م)
٥١- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر	د . محمد محمد حسين دار النهضة بيروت الطبعة الثالثة (١٣٩٢هـ ١٩٧٢م) .
٥٢- ديوان الأعشى الكبير	ميمون بن قيس الأعشى الطبعة النموذجية بمصر (بدون تاريخ) .
٥٣- صبح الأعشى	لأبى العباس احمد القلقشندى المطبعة الأميرية بالقاهرة (بدون تاريخ) .

٤٥- العقد الفريد	أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٧هـ) مطبعة لجنة النشر بالقاهرة الطبعة الثالثة (١٣٨٤-١٩٦٥م) .
٥٥- الشوقيات	أحمد شوقي دار الكتاب العربي بيروت (بدون تاريخ) .

(هـ) الفلسفة والعلوم العقلية الأخرى

٥٦- تكوين العقل الحديث	جون هرمان لاندال ترجمة د. جورج طعمة دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية (١٩٦٦م) .
٥٧- طرق الفكر أ- الاستقراء	محمد أبو حمدان دار الكتاب اللبناني بيروت (١٩٧٨م) .
٥٨- " " ب- الاستنباط	" " " " " " "
٥٩- الفلاسفة والفكر الاسلامي	" " " " " " "
٦٠- قصة النزاع بين الدين والفلسفة	د. توفيق الطويل
٦١- قصة الفلسفة	ول ديورانت ترجمة فتح الله محمد الشمشم نشر مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثانية (١٩٧٥م) .

٦٢- كبرى اليقينيات الكونيـــة — د . محمد سعيد رمضان البوطـــى
دار الفكر دمشق الطبعة السادســة
(١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .

٦٣- نقض أوهام المادية الجدلية — د . محمد سعيد رمضان البوطـــى
دار الفكر دمشق الطبعة الاولـــى
(١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) .

(و) المعـــارف العامـــة

٦٤- الأحكام السلطانيـــة والولايات الدينية . — أبو الحسن على بن محمد الماوردى (٤٥٠هـ) دار الكتب بيـــروت (١٣٩٨هـ) .

٦٥- أقوم المسالك فى معرفـة أحوال الممالك . — رافع بك رفاعة الطهطاوى مصـــر (١٢٨٦ هـ) .

٦٦- الاسلام وأصول الحكم — على عبد الرازق نشر المؤسســة العربية بيروت الطبعة الاولـــى (١٩٧٢م) .

٦٧- الاسلام فى نظر الغرب — تأليف عدد من المستشرقين ترجمة اسحاق موسى دار بيروت للطباعـة والنشر (١٩٥٣م) ..

٦٨- الاسلام وثقافة الانسان — سميح عاطف الزين دار الكتـــاب اللبنانى بيروت الطبعة الثانيـــة (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م) .

٦٩- الاسلام والثقافة العربية	أنور الجندى مطبعة الرسالة (بدون تاريخ) .
٧٠- الاسلام والغرب والمستقبل	أرنولد توينبى ترجمة د . نبيل صبحى دار العربية للطباعة والنشر الطبعة الأولى (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩)
٧١- الاسلام والحضارة الغربية	د . محمد محمد حسين دار الارشاد بيروت الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م) .
٧٢- الاسلام نظام مجتمع منهج حياة	أنور الجندى دار النصر للطباعة الاسلامية بالقاهرة الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .
٧٣- الاسلام والمستشرقون	د . عبد الجليل شلبى مطبوعات الشعب بالقاهرة (بدون تاريخ) .
٧٤- الابتعاث ومخاطره	محمد الصباغ نشر المكتب الاسلامى بدمشق الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ ١٩٧١م) .
٧٥- الاعلام والاتصال بالجماهير	د . ابراهيم امام نشر مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الثانية (١٩٧٥م)
٧٦- الايديولجيات والفلسفات المعاصره	أنور الجندى دار الاعتصام بالقاهرة (بدون تاريخ) ..

٧٧- الاستشراق والمستشرقون	د . مصطفى السباعى نشر المكتب الاسلامى بيروت ودمشق الطبعة الثانية (١٣٩٩- ١٩٧٩) .
٧٨- بروتوكولات صهيون	ترجمة احمد عبد الغفور عطار
٧٩- تخليص الابريز فى تلخيص باريز	رافع بك رفاعة الطهطاوى نشر وزارة الثقافة المصرية (١٩٥٨م) .
٨٠- التبشير والاستعمار فى البلاد العربية	د . فروخ ود . مصطفى الخالدى المكتبة العصرية بيروت الطبعة الخامسة (١٩٧٣م) .
٨١- التربية وبناء الأجيال فى ضوء الاسلام . .	أنور الجندى دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى (١٩٧٥م) .
٨٢- الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة	د . محمد خلف الله دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الثانية (١٩٦٢م) . .
٨٣- جامع بيان العلم وفضله وماينبغى فى روايته وحمله	يوسف بن عبد البر (٤٦٣هـ) طبعة العاصمة بالقاهرة الطبعة الثانية (١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م) .
٨٤- حصوننا مهددة من داخلها	د . محمد محمد حسين نشر المكتب الاسلامى بيروت الطبعة الرابعة (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م) . .

٨٥- حول الدين والدولة — نجيب الكيلاني دار النفائس للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانيـــة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

٨٦- الدعوة الى الله — د. أبو المجد السيد نوفل الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ).

٨٧- الديـن — د. محمد عبد الله دراز دار الكتب بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

٨٨- دائرة معارف القـرن العشريـن — محمد فريد وجدى طبع دائرة معارف القرن العشرين الطبعة الثانيـة (١٩٢٢م).

٨٩ - الرجل الصنم — تأليف ضابط تركى سابق ترجمة عبد الله عبد الرحمن مؤسسة الرسالـة الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ-١٩٧٧)

٩٠- السنة ومكانتها فـي التشريـع — د. مصطفى السباعى المكتب الاسلامى بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

٩١- السياسة الشرعية — عبد الوهاب خلاف مطبعة التقـدم القاهرة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

٩٢- سطوط العلمانية — أنور الجندى دار الكتاب اللبنانـى بيروت الطبعة الاولى (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

٩٣- طه حسين حياته وشعره في ميزان الاسلام	أنور الجندى نشر دار الاعتصام بالقاهرة الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) .
٩٤- ظلام من الغرب	محمد الغزالى دار الكتاب العربى بمصر الطبعة الاولى (١٣٧٥هـ - ١٩٥٧م) .
٩٥- ظهر الاسلام	أحمد أمين دار الكتاب العربى بيروت الطبعة الخامسة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م) .
٩٦- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء	موفق الدين أبو العباس أحمد أبيبن القاسم بن أبى اصيبعة (٦٠٠ - ٦٦٨هـ) مكتبة الحياة بيروت (١٩٦٥)
٩٧- العلاقات الاجتماعية فى الشرق العربى . .	د . ستيوارت ضود ترجمة فريد جبرائيل نشر دار الكتاب بيروت (بدون تاريخ)
٩٨- العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب . .	محمد جميل بيهم (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧) (بدون ذكر للطبعة والتاريخ) .
٩٩- الغارة على العالم الاسلامى	أ.ل شاتليه ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى الدار السعودية للنشر جدة الطبعة الثانية (١٣٨٧هـ)
١٠٠- الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل . .	د . محمد البهى المكتبة العصرية بيروت (١٩٦٧م)

١٠١ـ قادة الغرب يقولون : دمروا الاسلام أبيدوا أهله	جلال العالم الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) .
١٠٢ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ..	محمد محمود الصواف دار الثقافة للطباعة والنشر مكة المكرمة الطبعة الأولى (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م) ..
١٠٣ـ المنهزمون	يوسف العظم دار القلم بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ)
١٠٤ـ الماسونية فى المراة	د . محمد على الزعبى الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) .
١٠٥ـ المستشرقون	نجيب العقيقى دار المعارف بمصر (١٩٦٥) .
١٠٦ـ مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية	رافع بك رفاعة الطهطاوى مصر (١٢٨٦هـ) .
١٠٧ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين ..	مصطفى صبرى شيخ علماء تركيا سابقا المكتبة الاسلامية بيروت (١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م) ..
١٠٨ـ مناهج البحث العلمى	د . عبد اللطيف محمد العبد مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة (١٣٩٨هـ ١٩٧٦م) .
١٠٩ـ مكانة العلم والعلماء فى الاسلام	على أحمد شحاته دار احياء الكتب العربية بالقاهرة (بدون تاريخ) ..

١١٠- مفاهيم العلوم الاجتماعية — أنور الجندى دار العلوم للطباعة والنشر بالقاهرة الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

١١١- مستقبل الثقافة فى مصر — د. طه حسين دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى (١٩٧٣م).

١١٢- مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية فى الاسلام.. — يوسف كمال محمد المختار الاسلامى للطباعة والنشر القاهرة الطبعة الاولى (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)..

١١٣- من التبعية الى الأصالة — أنور الجندى نشر دار الاعتصام بالقاهرة (١٩٧٧م).

١١٤- نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى — د. مصطفى حلمى دار الانصار بالقاهرة (بدون تاريخ)..

(س) الصحف والمجلات

١١٥- صحيفة السياسة الأسبوعية : القاهرة (١٩٢٦م)

١١٦- صحيفة الجمهورية التركية : انقرة (١٩٥٢م)

١١٧- صحيفة الشرق الأوسط : لندن (١٣٩٩هـ)

١١٨- صحيفة المدينة المنورة : المدينة المنورة (١٣٩٩هـ)

١١٩- مجلة الرسالة الاسلامية : بيروت (١٣٢٩هـ)

١٢٠- مجلة المجتمع : الكويت (١٣٩٩هـ)

فهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ ـ ق
فصل تمهيدى	١
أولا : العلمانية فى اللسان الغربى	٢
ثانيا : العلمانية فى اللسان العربى	١٠
الباب الاول	
ظهور العلمانية	
(١٤ ـــ ٧٢)	
الفصل الاول : الكنيسة ومصادرها وعقائدها وشعائرها . .	١٥
النصرانية من وجهة نظر الاسلام	١٦
النصارى بعد عيسى	١٨
مصدر كلمة الكنيسة	١٩
المبحث الأول : مصادر الكنيسة	
أ ـ التوراة : ضياعها وتحريفها	٢٢
ب ـ الأناجيل : تحريفها	٢٦
المبحث الثانى : عقيدة الالوهية والتثليث	٣٠
الشعائر : (١) التعميد	٣٤
(٢) العشاء الربانى والاستحالة . .	٣٥
الفصل الثانى : اعمال الكنيسة	٣٧

الموضـــــــــــوع	الصفحة
توطئـــــــة	٣٨
المبحث الأول : صكوك الغفران حافز للجريمة . . .	٣٩
الاعـــتراف والخلـــوة	٤٢
المبحث الثاني : قرارات الحرمـــان	٤٣
المبحث الثالث : عصمة البابا وسلطته ومحاكم التفتيش .	٤٧
فضائح محاكم التفتيـــش	٤٩
المبحث الرابع : الرهبان وكيف يعيشون في ادبرتهم . .	٥٤
دير دمالـــــس	٥٦
دير الشمالعصب	٥٧
دير العذارى ودير مرمـــار	٥٨
الطقوس الكنيسية على الطريقة الحديثة	٦٠
من جنايات الكنيســـة	٦٢
المبحث الخامس : عصر التنوير او عصر النهضة	٦٦
الكنيسة تعاقب رجال الاصلاح والعلماء	٦٨
الفصل الثالث : نتائج اعمال الكنيسة وتعسفها . . .	٧٣
أعمال الكنيسة تؤدي الى سخط الناس عليها	٧٩
مراحل العلمانيـــــة	٨٠
مرحلة العلمانية المهادنة او المعتدلة	٨١

الموضـــوع	الصفحة
المرحلة المتطرفة من العلمانيـــة	٨٣
الفلسفتان : الهيجيلية والماركسية	٨٤
خلاصـة اطوار العلمانيـــة	٩١
الباب الثانـــى	
دخول العلمانية الى المجتمـع الاسلامـى	
٩٤ — ١٦٥	
الفصل الاول : الطرق التى تسربت بها العلمانية ..	٩٤
توطئـــة	٩٥
المبحث الاول : نصارى العرب من أول المروجين للعلمانية فى البلاد الاسلاميـة	٩٨
المبحث الثانى : الاطماع الاستعماريـــة	
تحصيل على علمنة الدولة الاسلامية ..	١٠٠
تقسيم البلاد الاسلامية عن طريق استعمارها	١٠٢
النعرات القومية تغت فى عضد الدولة الاسلامية	١٠٤
الفصل الثانى : العلمانية تدخل دولة الخلافة	١١١
توطئة أ ـ ظهور أتاتورك على الساحة	١١٢
ب ـ أتاتورك يبدأ بتنفيذ مخططه	
الاستعمارى لعلمنة الدولة الاسلامية ...	١١٤
المبحث الاول : الغاء السلطنـــة	١١٥

الموضـــــــوع	الصفحة
المبحث الثانى : الغاء الخلافة الاسلامية	١٢٢
المبحث الثالث : موقف المسلمين من الغاء الخلافة ..	١٢٨
شوقى يندب الخلافة الاسلاميـــة	١٣١
الفصل الثالث : خطوات ايجابية يتخذها اتاتورك لتغيير المجتمع التركى المسلم ...	١٣٤
المبحث الأول : ابعاد الاحكام الشرعية واستبدالها بالقوانين الوضعيـــة ...	١٣٥
المبحث الثانى : العمل على محو اللغة العربية وما يتصـــل بهـــا	١٤١
محو الاحرف العربية واستبدالها باللاتينية	١٤٥
المبحث الثالث : افاعيل اتاتورك فى مجالات الشعائر والعبادات والمجتمع	
أولا : جانب الشعائر والعبادات	١٥١
ثانيا : فى مجال المرأة والمجتمع	١٥٣
ثالثا : تحريم اللباس الاسلامى والامر بالزى الاوربى	١٥٧
رابعا : تغيير الالقاب والكنى الاسلامية ...	١٥٩
كمال اتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه فى رئاســـة الجمهورية التركيـــة	١٦١
الباب الثالـــــث	
الاستشراق والتبشـــــير	
١٦٦ ـــــ ٢٠٩	
الفصل الاول : الاستشراق يؤدى دوره فى الملحمة ..	١٦٧
محاول لهدم المجتمع الاسلامـــى	١٧٢

الموضـــــــوع	الصفحة
المبحث الاول التشكيك في القرآن الكريم	١٧٣
المبحث الثاني : الطعن في شخصية الرســـــول والتشكيك في رسالته	١٧٩
الفصل الثاني : انتاج المستشرقين	١٨٥
الفصل الثالث : بعض وسائل المستشرقين واساليبهم	١٩٤
الفصل الرابع : دور المبشرين في علمنة المجتمع الاسلامي	٢٠١
بعض اهداف المبشرين ووسائلهـــم	٢٠٣
غاية التبشير اخراج المسلم عن دينـــه	٢٠٧
الباب الـــــرابع دور الابتعاث الى الدول غير الاسلامية فـــي انتشار العلمانية في المجتمعات الاسلاميـــة ٢١٠ — ٢٤٢	
توطئـــــة	٢١٠
آثار الابتعـــــاث	٢١١
الفصل الاول : دور الرواد الأوائل من المبتعثين في العلمنـــة	٢١٣
الفصل الثاني : نماذج اخرى من المبتعثـــــين ودورهم في العلمنـــة	٢٢٧
نتائج الابتعاث وآثارهـــــا	٢٣٨
الباب الخامـــــس مجالات انتشـــار العلمانيـــة ٢٤٣ — ٣٣٩	
تمهيـــــد	٢٤٤

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الاول : طفنة التعلـــيم	٢٤٦
المبحث الاول : الخطوات التى اتخذت لعلمنـــة التعليم فى عهد الاستعمار	٢٤٦
العمل على انشاء المدارس الاجنبية .	٢٤٦
علمنة التعليم الابتدائـــى	٢٤٧
كتب مشبوهة تدرس للتلاميـــذ	٢٥٠
المبحث الثانى : التعليم فى عهد الحكومات الوطنية .	٢٥٥
الثنائيـــة فى التعلـــيم	٢٥٥
عزل التعليم المدنى عن الديـــن	٢٥٦
نماذج اخرى من الكتب المشبوهـــة	٢٥٨
من ادب الاسلام وتربيته للطفـــل	٢٦٢
الاختـــلاط	٢٦٦
المبحث الثالث : عزل التعليم الدينى عن حيـــاة المجتمـــع	٢٧٣
تطهير المعاهـــد الدينيـــة	٢٧٦
الفصل الثانى : أثر العلمانية فى الاعـــلام	٢٨٩
المبحث الاول : نبذة قصيرة عن الاعلام فى الجاهلية والاســـلام	٢٩٠
من وسائل الاعلام فى الجاهلية : التجارة	٢٩١
" " " " " الخطب	٢٩٢
" " " " " الشعر	٢٩٣
بعض وسائل الاعلام فى الاسلام : القرآن الكريم ..	٢٩٨
من خصائص الاعلام الاســـلامى	٣٠٠

الموضـــوع	الصفحة
أ ـ اعلام يخبر بالحقيقة ولا مجال فيه للدعاية .	٣٠١
ب ـ اعلام صـــادق	٣٠١
جـ ـ اعلام موضوعـــى	٣٠٣
المبحث الثانى : الاعلام فى الوقت الحاضر	٣٠٥
الصحف والمجـــلات	٣٠٦
أثر الصحافة العلمانية فى المجتمع الاسلامى	٣٠٨
أثر الكتب التى تدعوا للعلمانية فى المجتمع الاسلامى .	٣١٨
المبحث الثالث : بقية اجهزة الاعلام	٣٢٢
أثر المذياع على المجتمـــع	٣٢٢
التلفزيون والسينما والمسرح (جهاز الفيديو	٣٢٤
النحت والرســـم	٣٢٨
الفصل الثالث : اثر العلمانية فى القوانين	٣٣٠
الاستعمار يعمل على محو التشريع الاسلامى	٣٣٢
الغاء المحاكم الشرعيـــة	٣٣٦
الباب السـادس	
الاســـلام منهـاج الحيـــاة	
٣٤٠ ـ ٤٤٢	
الفصل الاول : حيوية الاســـلام	٣٤٠
تمهيـــد	٣٤١
المبحث الاول : فى الجانب العقدى	٣٤٢
المبحث الثانى : جانب اليوم الاخر والجزاء	
والبعـــث	٣٤٥

الموضـــــوع	الصفحة
المبحث الثالث : الجانب الانسانى	٣٥٣
مهمة الانسان فى الحيـــــاة	٣٥٣
الاسلام يحترم رغبات الانسان وعقله	٣٥٥
نظرة الاسلام للانســـان	٣٦١
الجانب العقلـــــى	٣٦٤
المبحث الرابع : تنظيم الحياة الاجتماعية	٣٦٥
جوانب التشريع والعبادات والاقتصاد	٣٦٨
الفصل الثانى : الاسلام والعلـــم	٣٧٤
توطئـــــة	٣٧٥
المبحث الاول : بعض ما جاء فى القرآن الكريم	٣٧٧
الاسلام اعتنى بتعليم الانسان	٣٨٠
من تكريم الله سبحانه للعلم انه نسبه الى نفسه ...	٣٨٣
الاسلام يدعو الى الاستزادة من العلم ويرفع مكانة العلمـــاء	٣٨٤
المبحث الثانى : بعض ما جاء فى السنة المطهـــرة عن العلـــم	٣٨٨
معلم البشرية يكرم العلمـــاء	٣٩٠
المبحث الثالث : العلوم التجريبية عن المسلمين ...	٣٩٢
جابر بن حيان والكيميـــاء	٣٩٦
الحسن بن الهيثم والطبيعة	٣٩٧
ابن ســـــينا	٣٩٨
مقارنة نتائج علميـــــة	٤٠٢
بعض المصطلحات العلمية العربية التى نقلت الـــى اللغات الاخرى	٤٠٤

الموضـــــــوع	الصفحـة
المبحث الرابع كلمات حق في موضعها	٤٠٥
الفصل الثالث : مفهوم الدين والدولة في الاسلام .	٤٠٨
المبحث الاول : خير شاهد القرآن الكريم	٤١٤
المبحث الثاني : شواهد من السنة النبوية	٤٢١
المبحث الثالث : من مأثور الخلفاء الراشدين ...	٤٢٥
المبحث الرابع : ما جاء عن بعض السلف	٤٢٥
والخلف حول الدين والدولة ...	٤٣١
الباب الســـــابع	
الســـــبيل الى الاصـــــلاح	
٤٤٣ — ٤٧٦	
الفصل الاول : التربية الاسلامية	٤٤٣
توطئـــــة	٤٤٤
المبحث الاول : بعض سمات التربية الخلقية النبوية	٤٤٦
المبحث الثاني : التربية الجسمية والروحية	٤٥٣
المبحث الثالث : تربية الطفـــل	٤٥٩
الفصل الثاني : الوحدة الاســـلامية	٤٦٥
مقومات الوحدة الاسلاميـــــة	٤٧١
الخاتمة نتائج عامـــــــة	٤٧٧
مراجع البحـــث	٤٨٢
فهرست الموضوعـــــات	